① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي
رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الخامس

فيه تفسير سورة الكهف إلى آخر تفسير سورة النمل

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وأصلى وأسلم على محمد وآله وصحبه . أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه ، لكونه تنزيلا من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبيانا لكل شيء وتفصيلا لكل ما يحتاجونه فى دينهم ودنياهم وأخراهم ، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه ، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة ، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر ، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبديها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة فى غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذى لا مزيد عليه . وقد تكرر علىّ السؤال من كثير من الأصحاب فى نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة ، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدا لأنه مبسوط ، وأيضا فى هذه الأوقات قلَّت رغبات الناس فى الكتب المطولة ، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير ، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل ، فما لا يحصل جميعه لا يترك

جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصا لوجهه ، نافعا لنا ولاخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته ، وتوفيقه ، إنه جواد كريم رءوف رحيم .

وأتبعته بكليات وأصول من كليات التفسير لاستدراك ما لعله يفوت القارىء في غير هذا الجزء ، فإن الأصول والكليات تبنى عليها الفروع والجزئيات ، ويحصل بها من النفع والفائدة - على اختصارها - ما لا يحصل في الكلام الطويل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

المؤلف

تفسير

سورة الكهف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ

الحمد هو الثناء عليه بصفاته ، التي هي كلها صفات كمال ، وبنعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية .

وأجل نعمه على الإطلاق ، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم .

فحمد نفسه ، وفي ضمنه ، إرشاد العباد ليحمدوه على إرسال الرسول إليهم ، وإنزال الكتاب عليهم .

ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين ، على أنه الكامل من جميع الوجوه .

وهما نفي العوج عنه ، وإثبات أنه مقيم مستقيم .

فنفي العوج ، يقتضي أنه ليس في أخباره كذب ، ولا في أوامره ونواهيه ، ظلم ولا عبث .

يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ

وإثبات الاستقامة ، يقتضى أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبارات وهى الأخبار ، التى تملأ القلوب معرفة وإيمانا وعقلا ، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة .

وأن أوامره ونواهيه ، تزكى النفوس وتطهرها وتنميها وتكملها ، لاشتمالها على كمال العدل والقسط ، والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له .

وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر ، أن يحمد الله نفسه على إنزاله ، وأن يتمدح إلى عباده به .

وقوله [لينذر بأسا شديدا من لدنه] أى : لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذى عنده ، أى : قدره وقضاءه ، على من خالف أمره ، وهذا يشمل عقاب الدنيا ، وعقاب الآخرة .

وهذا أيضا ، من نعمه أن خوف عباده ، وأنذرهم ، مايضرهم ويهلكهم. كما قال تعالى — لما ذكر فى هذا القرآن وصف النار ، قال : « ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون » .

فمن رحمته بعباده ، أن قيض العقوبات الغليظة على من خالف أمره ، وبينها لهم ، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها .

[ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا] أى : وأنزل الله على عبده الكتاب ، ليبشر المؤمنين به ، وبرسله ، وكتبه ، الذين كمل إيمانهم .

فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ

فأوجب لهم عمل الصالحات ، وهى : الأعمال الصالحة ، من واجب ، ومستحب ، التى جمعت الإخلاص والمتابعة .

[أن لهم أجرا حسنا] وهو : الثواب الذى رتبه الله على الإيمان والعمل الصالح .

وأعظمه وأجله ، الفوز برضا الله ودخول الجنة ، التى فيها ، ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وفى وصفه بالحسن ، دلالة على أنه لا مكدر فيه ، ولا منغص ، بوجه من الوجوه .

إذ لو وجد فيه شيء من ذلك ، لم يكن حسنه تاما .

ومع ذلك فهذا الأجر الحسن [ماكثين فيه أبدا] لا يزول عنهم ، ولا يزولون عنه ، بل نعيمهم فى كل وقت متزايد .

وفى ذكر التبشير ، ما يقتضى ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به .

وهو : أن هذا القرآن ، قد اشتمل على كل عمل صالح ، موصل لما تستبشر به النفوس ، وتفرح به الأرواح .

[وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً] من اليهود والنصارى ، والمشركين ، الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة ، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين ، لا علم منهم ، ولا علم من آبائهم الذين قلدوهم واتبعوهم ، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

[كبرت كلمة تخرج من أفواههم] أى : عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها .

وأى شناعة أعظم من وصفه ، بالاتخاذ للولد ، الذى يقتضى نقصه ، ومشاركة غيره له فى خصائص الربوبية ، والإلهية ، والكذب عليه ؟ !!

[فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا] .

ولهذا قال هنا : [إن يقولون إلا كذبا] أى : كذبا محضا ما فيه من الصدق شيء .

وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدريج ، والانتقال من شىء إلى أبطل منه .

فأخبر أولا : أنه [ما لهم به من علم ولا لآبائهم] والقول على الله بلا علم ، لا شك فى منعه وبطلانه .

ثم أخبر ثانيا ، أنه قول قبيح شنيع فقال : [كبرت كلمة تخرج من أفواههم] .

ثم ذكر ثالثا مرتبته من القبح ، وهو : الكذب المنافى للصدق .

ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم ، حريصا على هداية الخلق ، ساعيا فى ذلك أعظم السعى ، فكان صلى الله عليه وسلم ، يفرح ويسر بهداية المتدين ، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين ، شفقة منه صلى الله عليه وسلم ،

. . . .

عليهم ورحمة بهم ، أرشده الله[1] أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء ، الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ، كما قال فى الأخرى .

« ولعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » .

وقال « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

وهنا قال [فلعلك باخع نفسك] أى : مهلكها ، غما وأسفا عليهم ، وذلك أن أجرك ، قد وجب على الله .

وهؤلاء لو علم الله فيهم خيرا ، لهداهم .

ولكنه علم أنهم لا يصلحون إلا للنار ، فلذلك خذلهم ، فلم يهتدوا .

فإشغالك نفسك غما وأسفا عليهم ، ليس فيه فائدة لك . وفى هذه الآية ونحوها عبرة .

فإن المأمور بدعاء الخلق إلى الله ، عليه التبليغ ، والسعى بكل سبب يوصل إلى الهداية ، وسد طرق الضلال والغواية بغاية ما يمكنه ، مع التوكل على الله فى ذلك ، فإن اهتدوا فَبِهَا ونِعِمَّتْ ، وإلا فلا يحزن ولا يأسف .

فإن ذلك مُضْعِفٌ للنفس ، هادم للقوى ، ليس فيه فائدة ، بل يمضى على فعله ، الذى كُلِّفَ به وتوجه إليه .

وما عدا ذلك ، فهو خارج عن قدرته .

---

(١) قوله « أرشده الله » جواب « لما » فى قوله المتقدم «ولما كان الخ»

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول الله له : « إنك لا تهدى من أحببت » وموسى عليه السلام يقول : « رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى » الآية ، فمن عداهم ، من باب أولى وأحرى ، قال تعالى : « فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر » .

* يخبر تعالى ، أنه جعل جميع ما على وجه الأرض ، من مآكل لذيذة ، ومشارب ، وملابس طيبة ، وأشجار ، وأنهار ، وزروع ، وثمار ، ومناظر بهيجة ، ورياض أنيقة ، وأصوات شجية ، وصور مليحة ، وذهب وفضة ، وخيل وإبل ونحوها ، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار ، فتنة واختبارا .

[لنبلوهم أيهم أحسن عملا] أى : أخلصه وأصوبه ، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات ، فانية مضمحلة ، وزائلة منقضية .

وستعود الأرض ، صعيدا جرزا[1] قد ذهبت لذاتها ، وانقطعت أنهارها ، واندرست آثارها ، وزال نعيمها .

وهذه حقيقة الدنيا ، قد جلاها الله لنا كأنها رَأْىُ عين ، وحذرنا من الاغترار بها .

---

(١) جرز : أى الأرض التى لا نبات بها . قال فى المصباح : « وأرض جرز ، بضم الجيم والراء . قد انقطع الماء عنها ، فهى يابسة لا نبات فيها » اهـ.

وفى المختار من الصحاح: أرض جُرُزٌ وجُرْزٌ « كعُسُر وعُسْر : لا نبات بها وجَرْزٌ وجَرَزٌ كنَهْر ونَهَر . كله بمعنى » اهـ .

. . . .

ورغبنا فى دار يدوم نعيمها ، ويسعد مقيمها ، كل ذلك رحمة بنا .

فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها ، من نظر إلى ظاهر الدنيا ، درن باطنها .

فصحبوا الدنيا ، صحبة البهائم ، وتمتعوا بها تَمَتُّعُ السوائم،لا ينظرون فى حق ربهم ، ولا يهتمون لمعرفته .

بل همهم تناول الشهوات ، من أىِّ وجه حصلت ، وعلى أىِّ حالة اتفقت .

فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت ، قلق لخراب ذاته ، وفوات لذاته ، لا لما قدمت يداه ، من التفريط والسيئات .

وأما من نظر إلى باطن الدنيا ، وعلم المقصود منها ومنه ، فإنه يتناول منها ، ما يستعين به على ما خلق له ، وانتهز الفرصة فى عمره الشريف .

فجعل الدنيا منزل عبور ، لا محل حبور ، وشُقَّة سفر ، لا منزل إقامة .

فبذل جهده فى معرفة ربه ، وتنفيذ أوامره ، وإحسان العمل .

فهذا بأحسن المنازل عند الله ، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم ، وسرور وتكريم .

فنظر إلى باطن الدنيا ، حين نظر المغتر إلى ظاهرها ، وعمل لآخرته ، حين عمل البطال لدنياه .

فشتان ما بين الفريقين ، وما أبعد الفرق بين الطائفتين ! !

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ

* وهذا الاستفهام بمعنى النفى ، والنهى .

أى : لا تظن أن قصة أصحاب الكهف ، وما جرى لهم ، غريبة على آيات الله ، وبديعة فى حكمته ، وأنه لا نظير لها ، ولا مجانس لها .

بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ، ما هو كثير ، من جنس آياته فى أصحاب الكهف ، وأعظم منها .

فلم يزل الله يُرِى عباده من الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم ، ما يتبين به الحق من الباطل والهدى من الضلال .

وليس المراد بهذا النفى[1] أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب ، بل هى من آيات الله العجيبة .

وإنما المراد ، أن جنسها كثير جدا ، فالوقوف معها وحدها ، فى مقام العجب والاستغراب ، نقص فى العلم والعقل .

بل وظيفة المؤمن ، التفكر بجميع آيات الله ، التى دعا الله العباد إلى التفكير فيها ، فإنها مفتاح الإيمان ، وطريق العلم والإيقان .

وإضافتهم إلى الكهف ، الذى هو الغار فى الجبل والرقيم ، أى : الكتاب الذى قد رقمت فيه أسماؤهم وقصتهم ، لملازمتهم له دهرا طويلا .

---

(١) فى الأصل المطبوع « بهذا النفى عن أن تكون » والصواب حذف كلمة « عن » لذلك حذفناها ، لأن القواعد العربية تأباها .

ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

ثم ذكر قصتهم مجملة ، وفصلها بعد ذلك فقال : [إذ أوى الفتية] أى : الشباب .

[إلى الكهف] يريدون بذلك ، التحصن والتحرز ، من فتنة قومهم لهم .

[فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة] أى تثبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقنا للخير [وهيىء لنا من أمرنا رشدا] أى : يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشد ، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا .

فجمعوا بين السعى والفرار من الفتنة ، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه ، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم ، وعدم اتكالهم على أنفسهم ، وعلى الخلق .

فلذلك استجاب الله دعاءهم ، وقيض لهم ، ما لم يكن فى حسابهم قال : [فضربنا على آذانهم فى الكهف] أى أنمناهم [سنين عددا] وهى : ثلثمائة سنة ، وتسع سنين ، وفى النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف ، وحفظ لهم من قومهم .

[ثم بعثناهم] أى : من نومهم [لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا] أى : لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم ، كما قال تعالى :

[وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم] الآية ، وفى العلم بمقدار لبثهم ،

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ

ضبط للحساب ، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى ، وحكمته ، ورحمته .

فلو استمروا على نومهم ، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك ، من قصتهم .

* هذا شروع فى تفصيل قصتهم ، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق ، الذى ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه .

[إنهم فتية آمنوا بربهم] وهذا من جموع القلة ، يدل ذلك على أنهم دون العشرة .

[آمنوا] بالله وحده لا شريك له من دون قومهم .

فشكر الله لهم إيمانهم ، فزادهم هدى .

أى : بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان ، زادهم الله من الهدى ، الذى هو العلم النافع ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى » .

[وربطنا على قلوبهم] أى صبرّناهم وثبتناهم ، وجعلنا قلوبهم مطمئنة فى تلك الحالة المزعجة ، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره ، أن وفقهم للإيمان والهدى ، والصبر والثبات ، والطمأنينة .

[إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السموات والأرض] أى : الذى خلقنا ورزقنا ، ودبرنا وربانا ، هو خالق السموات والأرض ، المنفرد بخلق هذه

إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

المخلوقات العظيمة ، لا تلك الأوثان والأصنام ، التى لا تخلق ولا ترزق ، ولا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فاستدلوا بتوحيد الربوبية ، على توحيد الإلهية ، ولهذا قالوا :

[لن ندعو من دونه إلها] أى : من سائر المخلوقات [لقد قلنا إذاً] أى : إن دعونا معه آلهة ، بعد ما علمنا أنه الرب ، الإله الذى لا تجوز ، ولا تنبغى العبادة ، إلا له [شططا] أى : ميلا عظيما عن الحق ، وطريقا بعيدة عن الصواب .

فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، والتزام ذلك ، وبيان أنه الحق ، وما سواه باطل .

وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم ، وزيادة الهدى من الله لهم .

* لما ذكروا ما منّ الله به عليهم من الإيمان والهدى والتقوى ، التفتوا إلى ما كان عليه قومهم ، من اتخاذ الآلهة من دون الله ، فمقتوهم ، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم ، بل هم فى غاية الجهل والضلال فقالوا :

[لو لا يأتون عليهم بسلطان بين] أى : بحجة وبرهان ، على ما هم عليه من الباطل ، ولا يستطيعون سبيلا إلى ذلك ، وإنما ذلك ، افتراء منهم على الله ، وكذب عليه .

وهذا أعظم الظلم ، ولهذا قال : [فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا]

﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

---

* أى : قال بعضهم لبعض ، إذ حصل لكم اعتزال قومكم فى أجسامكم وأديانكم ، فلم يبق إلا النجاء من شرهم ، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك لأنه لاسبيل لهم إلى قتالهم، ولا إلى بقائهم بين أظهرهم ، وهم على غير دينهم .

[فأووا إلى الكهف] أى انضموا إليه واختفوا فيه [ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيء لكم من أمركم مرفقا] .

وفيما تقدم ، أخبر أنهم دعوه بقولهم « ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » ، فجمعوا بين التبرِّى من حولهم وقوتهم ، والالتجاء إلى الله ، فى صلاح أمرهم ، ودعائه بذلك ، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك .

لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته ، وهيأ لهم من أمرهم مرفقا .

لحفظ أديانهم وأبدانهم ، وجعلهم من آياته على خلقه ، ونشر لهم من الثناء الحسن ، ما هو من رحمته بهم ، ويسر لهم كل سبب ، حتى المحل الذي ناموا فيه ، كان على غاية ما يمكن من الصيانة ، ولهذا قال : [وترى الشمس] إلى قوله [منهم رعبا] .

﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ

---

* أى : حفظهم الله من الشمس ، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس ، تميل عنه يمينا ، وعند غروبها ، تميل عنه شمالا ، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها .

[وهم فى فجوة منه] أى : من الكهف أى : مكان متسع ، وذلك ليطرقهم الهواء ، والنسيم ، ويزول عنهم الوخم ، والتأذى بالمكان الضيق ، خصوصا مع طول المكث .

وذلك من آيات الله ، الدالة على قدرته ورحمته ، وإجابة دعائهم وهدايتهم ، حتى فى هذه الأمور ، ولهذا قال :

[من يهد الله فهو المهتد] أى : لا سبيل إلى نيل الهداية ، إلا من الله ، فهو الهادى المرشد لمصالح الدارين .

[ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا] أى: لا تجد من يتولاه ويدبره ، على ما فيه صلاحه ، ولا يرشده إلى الخير والفلاح ، لأن الله قد حكم عليه بالضلال ، ولا راد لحكمه .

[وتحسبهم أيقاظا وهم رقود] أى : تحسبهم أيها الناظر إليهم كأنهم أيقاظ ، والحال أنهم نيام .

وَتُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قال المفسرون : وذلك لأن أعينهم منفتحة ، لئلا تفسد .

فالناظر إليهم ، يحسبهم أيقاظا ، وهم رقود .

[ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال] وهذا أيضا من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها ، أكل الأجسام المتصلة بها .

فكان من قدر الله ، أن قلَّبهم على جنوبهم ، يمينا وشمالا ، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم .

والله تعالى ، قادر على حفظهم من الأرض ، من غير تقليب .

ولكنه تعالى ، حكيم ، أراد أن تجرى سنته فى الكون ، ويربط الأسباب بمسبباتها .

[وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد] أى : الكلب الذى كان مع أصحاب الكهف ، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته ، فكان باسطا ذراعيه بالوصيد ، أى : الباب ، أو فنائه ، هذا حفظهم من الأرض .

وأما حفظهم من الآدميين ، فأخبر أنه حماهم بالرعب ، الذى نشره الله عليهم .

فلو اطلع عليهم أحد ، لامتلأ قلبه رعبا ، وولى منهم فرارا .

وهذا الذى أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة ، وهم لم يعثر عليهم

۞ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ

أحد ، مع قربهم من المدينة جدًّا .

والدليل على قربهم ، أنهم لما استيقظوا ، أرسلوا أحدهم ، يشترى لهم طعاما من المدينة ، وبقوا فى انتظاره ، فدل ذلك على شدة قربهم منها .

* يقول تعالى : وكذلك بعثناهم من نومهم الطويل ، ليتساءلوا بينهم ، أى : ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة ، من مدة لبثهم .

[وقال قائل منهم : كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم] وهذا مبنى على ظن القائل .

وكأنهم وقع عندهم اشتباه . فى طول مدتهم ، فلهذا [قالوا ربكم أعلم بما لبثتم] .

فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شىء ، جملة وتفصيلا .

ولعل الله تعالى — بعد ذلك — أطلعهم على مدة لبثهم ، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم ، وأخبر أنهم تساءلوا ، وتكلموا بمبلغ ما عندهم ، وصار آخر أمرهم ، الاشتباه .

فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقينا ، علمنا ذلك من حكمته فى بعثهم ، وأنه لا يفعل ذلك عبثا .

ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة فى الأمور المطلوب علمها ، وسعى

أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ

لذلك ما أمكنه ، فإن الله يوضح له ذلك ، وبما ذكر فيما بعده من قوله .

[وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها] .

فلولا أنه حصل العلم بحالهم ، لم يكونوا دليلا على ما ذكر .

ثم إنهم لما تساءلوا بينهم ، وجرى منهم ما أخبر الله به ، أرسلوا أحدهم بورقهم ، أي : بالدراهم ، التي كانت معهم ، ليشترى لهم طعاما يأكلونه ، من المدينة ، التي خرجوا منها ، وأمروه أن يتخير من الطعام أزكاه ، أي : أطيبه وألذه ، وأن يتلطف فى ذهابه وشرائه وإيابه ، وأن يختفى فى ذلك ، ويخفى حال إخوانه ، ولا يشعرن بهم أحداً .

وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم ، وظهورهم عليهم ، أنهم بين أمرين .

إما الرجم بالحجارة ، فيقتلونهم أشنع قتلة ، لحنقهم عليهم وعلى دينهم .

وإما أن يفتنوهم عن دينهم ، ويردوهم فى ملتهم .

وفى هذه الحال ، لايفلحون أبدا ، بل يخسرون فى دينهم ودنياهم وأخراهم .

وقد دلت هاتان الآيتان ، على عدة فوائد .

منها : الحث على العلم ، وعلى المباحثة فيه ، لكون الله بعثهم لأجل ذلك .

أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

ومنها : الأدب فيمن اشتبه عليه العلم ، أن يرده إلى عالمه ، وأن يقف عند حده .

ومنها : صحة الوكالة فى البيع والشراء ، وصحة الشركة فى ذلك .

ومنها : جواز أكل الطيبات ، والمطاعم اللذيذة ، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهى عنه لقوله [فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه] .

وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك .

ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين ، القائلين بأن هؤلاء ، أولاد ملوك لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة ، التى جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها .

ومنها : الحث على التحرز ، والاستخفاء ، والبعد عن مواقع الفتن فى الدين ، واستعمال الكتمان فى ذلك على الإنسان وعلى إخوانه فى الدين .

ومنها : شدة رغبة هؤلاء الفتية فى الدين ، وفرارهم من كل فتنة ، فى دينهم ، وتركهم أوطانهم فى الله .

ومنها : ذكر ما اشتمل عليه الشر ، من المضار والمفاسد ، الداعية لبغضه ، وتركه .

وأن هذه الطريقة ، هى طريقة المؤمنين المتقدمين ، والمتأخرين لقولهم : [ولن تفلحوا إذا أبداً] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف .

وذلك — والله أعلم — بعدما استيقظوا ، وبعثوا أحدهم ، يشترى لهم طعاما ، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء .

فأراد الله أمراً ، فيه صلاح للناس ، وزيادة أجر لهم ، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله ، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لاشك فيه ولا مرية ولا بُعْد ، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم .

فمن مثبت للوعد والجزاء ، ومن ناف لذلك .

فجعل قصتهم ، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين ، وحجة على الجاحدين ، وصار لهم أجر هذه القضية .

وشهر الله أمرهم ، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم .

[قالوا ابنوا عليهم بنيانا] الله أعلم بحالهم ومآلهم .

وقال من غلب على أمرهم — وهم الذين لهم الأمر :

[لنتخذن عليهم مسجدا] أى : نعبد الله تعالى فيه ، ونتذكر به أحوالهم ، وما جرى لهم .

وهذه الحالة محظورة ، نهى عنها النبى صلى الله عليه وسلم ، وذم فاعلها

۞ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ

ولا يدل ذكرها هنا ، على عدم ذمها ، فإن السياق فى شأن أهل الكهف والثناء عليهم ، وأن هؤلاء وصل بهم الحال إلى أن قالوا : ابنوا عليهم مسجدا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم ، وحذرهم من الاطلاع عليهم ، فوصلت الحال إلى ما ترى .

وفى هذه القصة ، دليل على أن من فرَّ بدينه من الفتن ، سلمه الله منها .

وأن من حرص على العافية ، عافاه الله .

ومن أوى إلى الله ، آواه الله ، وجعله هداية لغيره .

ومن تحمل الذل فى سبيله وابتغاء مرضاته ، كان آخر أمره وعاقبته ، العز العظيم ، من حيث لا يحتسب « وما عند الله خير للأبرار » » .

* يخبر تعالى ، عن اختلاف أهل الكتاب ، فى عدة أصحاب الكهف ، اختلافا ، صادرا عن رجمهم بالغيب ، وتقوُّلهم بما لا يعلمون ، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال :

منهم : من يقول : ثلاثة ، رابعهم كلبهم ، ومنهم من يقول : خمسة ، سادسهم كلبهم .

وهذان القولان ، ذكر الله بعدهما ، أن هذا رجم منهم بالغيب ، فدل على بطلانهما .

ومنهم من يقول : سبعة ، وثامنهم كلبهم .

وهذا — والله أعلم — هو الصواب ، لأن الله أبطل الأولين ، ولم يبطله ، فدل على صحته .

قُلْ رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

وهذا من الاختلاف ، الذى لا فائدة تحته ، ولا يحصل بمعرفة عددهم ، مصلحة للناس ، دينية ، ولا دنيوية ، ولهذا قال تعالى :

[قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل] وهم الذين، أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم .

[فلا تمار] تجادل وتحاج فيهم [إلا مراء ظاهرا] أى : مبنيا على العلم واليقين ، ويكون أيضاً فيه فائدة .

وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب ، أو التى لافائدة فيها .

إما أن يكون الخصم معاندا ، أو تكون المسئلة لا أهمية فيها ، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها ، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك ، فإن فى كثرة المناقشات فيها ، والبحوث المتسلسلة ، تضييعا للزمان ، وتأثيرا فى مودة القلوب بغير فائدة .

[ولا تستفت فيهم] أى : فى شأن أهل الكهف [منهم] أى : من أهل الكتاب [أحداً] وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم على الرجم بالغيب والظن ، الذى لا يغنى من الحق شيئا .

ففيها دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى ، إما لقصوره فى الأمر المستفتى فيه ، أو لكونه لا يبالى بما تكلم به ، وليس عنده ورع يحجزه .

وإذا نهى عن استفتاء هذا الجنس ، فنهيه هو عن الفتوى ، من باب أولى وأحرى .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى

وفى الآية أيضاً ، دليل على أن الشخص ، قد يكون منهيا عن استفتائه فى شىء ، دون آخر .

فيستفتى فيما هو أهل له .

بخلاف غيره ، لأن الله لم ينه عن استفتائهم مطلقا ، إنما نهى عن استفتائهم فى قصة أصحاب الكهف ، وما أشبهها .

* هذا النهى كغيره ، وإن كان لسبب خاص وموجها للرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن الخطاب عام للمكلفين .

فنهى الله أن يقول العبد فى الأمور المستقبلة « إنى فاعل ذلك » من دون أن يقرنه بمشيئة الله ، وذلك لما فيه من المحذور ، وهو : الكلام على الغيوب المستقبلة ، التى لا يدرى ، هل يفعلها أم لا ؟ وهل تكون أم لا؟ وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالا .

وذلك محذور محظور ، لأن المشيئة كلها لله « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » ولما فى ذكر مشيئة الله ، من تيسير الأمر وتسهيله ، وحصول البركة فيه ، والاستعانة من العبد لربه ،

ولما كان العبد بشرا ، لابد أن يسهو عن ذكر المشيئة ، أمره الله أن يستثنى بعد ذلك ، إذا ذكر ، ليحصل المطلوب ، ويندفع المحذور .

ويؤخذ من عموم قوله [واذكر ربك إذا نسيت] الأمر بذكر الله عند النسيان ، فإنه يزيله ، ويذكّر العبد ما سها عنه .

لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وكذلك يؤمر الساهى الناسى لذكر الله ، أن يذكر ربه ، ولا يكونن من الغافلين .

ولما كان العبد مفتقرا إلى الله فى توفيقه للإصابة ، وعدم الخطأ ، فى أقواله وأفعاله ، أمره الله أن يقول : [عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً] .

فأمره أن يدعو الله ويرجوه ، ويثق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة إلى الرشد .

وحَرِىٌّ بعبد ، تكون هذه حاله ، ثم يبذل جهده ، ويستفرغ وسعه فى طلب الهدى والرشد ، أن يوفق لذلك ، وأن تأتيه المعونة من ربه ، وأن يسدده فى جميع أموره .

* لما نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب ، فى شأن أهل الكهف — لعدم علمهم بذلك ، وكان الله ، عالم الغيب والشهادة ، العالم بكل شىء — أخبره الله بمدة لبثهم ، وأن علم ذلك ، عنده وحده ، فإنه من غيب السموات والأرض ، وغيبها مختص به .

فما أخبر به عنها على ألسنة رسله ، فهو الحق اليقين ، الذى لا شك فيه .

وما لا يطلع رسله عليه ، فإن أحدا من الخلق ، لا يعلمه .

أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

وقوله : [أبصر به وأسمع] تعجب من كمال سمعه وبصره ، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات ، بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات .

ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة والخاصة ، فهو الولى الذى يتولى تدبير جميع الكون ، الولى لعباده المؤمنين ، يخرجهم من الظلمات إلى النور وييسرهم لليسرى ، ويجنبهم العسرى ، ولهذا قال : [ما لهم من دونه من ولى] .

أى : هو الذى تولى أصحاب الكهف ، بلطفه وكرمه ، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق .

[ولا يشرك فى حكمه أحدا] وهذا يشمل الحكم الكونى القدرى ، والحكم الشرعى الدينى ، فإنه الحاكم فى خلقه ، قضاء وقدرا ، وخلقا وتدبيرا والحاكم فيهم ، بأمره ونهيه ، وثوابه وعقابه .

ولما أخبر أنه تعالى ، له غيب السموات والأرض ، فليس لمخلوق إليها طريق ، إلا عن الطريق التى يخبر بها عباده ، وكان هذا القرآن ، قد اشتمل على كثير من الغيوب ، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال : « واتل » إلى قوله « ملتحدا » .

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِـكَلِمَٰتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

التلاوة ، هى الاتباع أى : اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها ، وتصديق أخباره ، وامتثال أوامره ونواهيه ، فإنه الـكتاب الجليل ، الذى لا مبدل لـكلماته ، أى : لاتغير ولاتبدل لصدقها وعدلها ، وبلوغها من الحسن ، فوق كل غاية « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا » .

فلـكمالها ، استحال عليها التغيير والتبديل .

فلو كانت ناقصة ، لعرض لها ذلك ، أو شيء منه .

وفى هذا ، تعظيم للقرآن ، فى ضمنه ، الترغيب على الإقبال عليه .

[ولن تجد من دونه ملتحدا] أى : لن تجد من دون ربك ، ملجأ تلجأ إليه ، ولا معاذا تعوذ به .

فإذا تعين أنه وحده ، الملجأ فى كل الأمور ، تعين أن يكون هو المألوه المرغوب إليه ، فى السراء والضراء ، المفتقر إليه فى جميع الأحوال ، المسئول فى جميع المطالب .

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

---

* يأمر تعالى نبيه محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، وغيره أسوته ، فى الأوامر والنواهى — أن يصبر نفسه مع المؤمنين العُبَّاد المنيبين [الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى] أى : أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله .

فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها .

ففيها الأمر ، بصحبة الأخيار ، ومجاهدة النفس على صحبتهم ، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن فى صحبتهم من الفوائد ، مالا يحصى .

[ولا تعد عيناك عنهم] أى : لا تجاوزهم بصرك ، وترفع عنهم نظرك .

[تريد زينة الحياة الدنيا] فإن هذا ضار غير نافع ، وقاطع عن المصالح الدينية .

فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا ، فتصير الأفكار والهواجس فيها وتزول من القلب ، الرغبة فى الآخرة ، فإن زينة الدنيا ، تروق للناظر ، وتسحر القلب ، فيغفل القلب عن ذكر الله ، ويُقْبِل على اللذات والشهوات فيضيع وقته ، وينفرط أمره ، فيخسر الخسارة الأبدية ، والندامة السرمدية ولهذا قال :

وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

[ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا] غفل عن الله ، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره .

[واتبع هواه] أي : صار تبعا لهواه ، حيث ما اشتهت نفسه فعله ، وسعى في إدراكه ، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه ، فهو قد اتخذ إلهه هواه كما قال تعالى: « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم » الآية .

[وكان أمره] أي: مصالح دينه ودنياه [فرطا] أي : ضائعة معطلة .

فهذا قد نهى الله عن طاعته ، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به ، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به .

ودلت الآية ، على أن الذي ينبغي أن يطاع ، ويكون إماما للناس ، من امتلأ قلبه بمحبة الله ، وفاض ذلك على لسانه ، فلهج بذكر الله ، واتبع مراضي ربه ، فقدمها على هواه ، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته ، وصلحت أحواله ، واستقامت أفعاله ، ودعا الناس إلى ما منّ الله به عليه .

فحقيق بذلك ، أن يتبع ويجعل إماماً .

والصبر ، المذكور في هذه الآية ، هو الصبر على طاعة الله ، الذي هو أعلى أنواع الصبر ، وبتمامه يتم باقي الأقسام .

وفي الآية ، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرَفَي النهار ، لأن الله مدحهم بفعله .

وكل فعل مدح الله فاعله ، دل ذلك على أن الله يحبه ، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به ، ويرغب فيه .

﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟

---

* أى : قل للناس يا محمد : هو الحق من ربكم .

أى : قد تبين الهدى من الضلال ، والرشد من الغى ، وصفات أهل السعادة ، وصفات أهل الشقاوة ، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله .

فإذا بان واتضح ، ولم يبق فيه شبهة .

[فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر] أى : لم يبق إلا سلوك أحد الطريقين ، بحسب توفيق العبد ، وعدم توفيقه .

وقد أعطاه الله مشيئة ، بها يقدر على الإيمان والكفر ، والخير والشر

فمن آمن ، فقد وفق للصواب ، ومن كفر ، فقد قامت عليه الحجة ، وليس بمكره على الإيمان كما قال تعالى « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال : [إنا اعتدنا للظالمين] بالكفر والفسوق والعصيان [نارا أحاط بهم سرادقها] أى : سورها المحيط بها .

فليس لهم منفذ ، ولا طريق ، ولا مخلص منها ، تصلاهم النار الحامية .

[وإن يستغيثوا] أن يطلبوا الشراب ، ليطفىء مانزل بهم من العطش الشديد .

يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا

[يغاثوا بماء كالمهل] أى : كالرصاص المذاب ، أو كعكر الزيت ، من شدة حرارته .

[يشوى الوجوه] أى : فكيف بالأمعاء والبطون ، كما قال تعالى « يصهر به مافى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد » .

[بئس الشراب] الذى يراد ليطفىء العطش ، ويدفع بعض العذاب ، فيكون زيادة فى عذابهم ، وشدة عقابهم .

[وساءت] النار [مرتفقا] وهذا ذم لحالة النار ، أنها ساءت المحل ، الذى يرتفق به .

فإنها ليس فيها ارتفاق ، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق ، الذى لا يُفَتَّر عنهم ساعة ، وهم فيه مبلسون[1] قد أيسوا من كل خير ، ونسيهم الرحيم فى العذاب ، كما نسوه .

---

(١) قوله : (مبلسون) أى شديدو الحزن مع اليأس من رحمة الله تعالى لانقطاع حجتهم عندما يحاسبهم الله عز وجل فيلزمون السكوت من شدة حزنهم .

مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

ثم ذكر الفريق الثانى فقال : [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر والقدر ، خيره ، وشره ، وعمل الصالحات ، من الواجبات والمستحبات [إنا لانضيع أجر من أحسن عملا] .

وإحسان العمل ، أن يريد العبد العمل لوجه الله ، متبعا فى ذلك شرع الله .

فهذا العمل لايضيعه الله ، ولا شيئا منه ، بل يحفظه للعاملين ، ويوفيهم من الأجر ، بحسب عملهم وفضله وإحسانه ، وذكر أجرهم بقوله :

[أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك] .

أى : أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح ، لهم الجنات العاليات التى قد كثرت أشجارها ، فأَجَنَّتْ من فيها ، وكثرت أنهارها ، فصارت تجرى من تحت تلك الأشجار الأنيقة ، والمنازل الرفيعة .

وحليتهم فيها ، الذهب ، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس ، وهو الغليظ من الديباج ، والإستبرق ، وهو : مارق منه .

متكئين فيها على الأرائك وهى : السرر المزينة ، المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لاتسمى أريكة ، حتى تكون كذلك .

. . . .

وفى اتكائهم على الأرائك ، ما يدل على كمال الراحة ، وزوال النصب والتعب ، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون ، وتمام ذلك ، الخلود الدائم والإقامة الأبدية .

فهذه الدار الجليلة [نعم الثواب] للعاملين [وحسنت مرتفقا] يرتفقون بها ، ويتمتعون بما فيها ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من الحبرة والسرور ، والفرح الدائم ، واللذات المتواترة ، والنعم المتوافرة .

وأى مرتفق ، أحسن من دار ، أدنى أهلها ، يسير فى ملكه ونعيمه ، وقصوره وبساتينه ، ألْفَىْ سنة ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم .

قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه ، وزيد من المطالب ، ما قصرت عنه الأمانى .

ومع ذلك ، فنعيمهم على الدوام ، متزايد فى أوصافه وحسنه .

فنسأل الله الكريم ، أن لايحرمنا خير ماعنده ، من الإحسان ، بِشَرِّ ما عندنا من التقصير والعصيان .

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها ، على أن الحلية ، عامة للذكور والإناث ، كما ورد فى الأخبار الصحيحة لأنه أطلقها فى قوله [يحلون] وكذلك الحرير ونحوه .

۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وماصدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك، من العقاب العاجل، والآجل، والثواب ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما،

وليس معرفة أعيان الرجلين، وفى أى زمان أو مكان هما، فيه فائدة أو نتيجة.

فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف.

فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين أى: بستانين حسنين، من أعناب.

[وحففناهما بنخل] أى: فى هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصا أشرف الأشجار، العنب، والنخل.

فالعنب، وسطها، والنخل، قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التى تكمل لها الثمار، وتنضج وتتجوهر.

ومع ذلك، جعل بين تلك الأشجار زرعاً.

فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟

ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ ۞

۞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا

فأخبر تعالى ، أن كلا من الجنتين آنت[1] أكلها أى : ثمرها وزرعها ضعفين أى : متضاعفا [و] أنها [لم تظلم منه شيئا] أى : لم تنقص من أكلها أدنى شيء .

ومع ذلك ، فالأنهار فى جوانبهما سارحة ، كثيرة غزيرة .

[وكان له] أى لذلك الرجل [ثمر] أى عظيم كما يفيده التنكير أى : قد استكملت جنتاه ثمارهما ، وارجحنت[2] أشجارهما ، ولم تعرض لهما آفة أو نقص .

فهذا غاية منتهى زينة الدنيا فى الحرث ، ولهذا اغتر هذا الرجل ، وتبجح وافتخر ، ونسى آخرته .

* أي : فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن ، وهما يتحاوران ، أى يتراجعان الكلام بينهما فى بعض المجريات المعتادة ، مفتخرا عليه :

[أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا] فخر بكثرة ماله ، وعزة أنصاره ، من عبيد ، وخدم ، وأقارب ، وهذا جهل منه .

---

(١) آنت . أى : أعطت .

(٢) ارجحنت . أى : مالت أشجارها من كثرة ثمارها وثقلها وأصبحت الأغصان متدلية ، كادت تلامس الأرض من ثقل ثمارها .

وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

وإلا فأى افتخار بأمرخارجى ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية. وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى، التى لاحقائق تحتها.

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم، بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته.

ف[قال ما أظن أن تبيد] أى : تنقطع وتضمحل [هذه أبدا].

فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضى بها، وأنكر البعث، فقال :

[وما أظن الساعة قائمة، ولئن رددت إلى ربى] على ضرب المثل [لأجدن خيرا منها منقلبا] أى ليعطينى خيرا من هاتين الجنتين، وهذا لايخلو من أمرين.

إما أن يكون عالما بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره.

وإما أن يكون هذا ظنه فى الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظًا من العقل.

فأى تلازم بين عطاء الدنيا، وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله، أن من أُعْطِىَ فى الدنيا، أعطى فى الآخرة.

بل الغالب، أن الله تعالى يَزْوِى الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم فى الآخرة نصيب.

والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام، على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله : [ودخل جنته وهو ظالم لنفسه].

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ

فإثبات أن وصفه الظلم ، فى حال دخوله ، الذى جرى منه ، من القول ماجرى ، يدل على تمرده وعناده .

* أى : قال له صاحبه المؤمن — ناصحا له ، ومذكرا له حاله الأولى ، التى أوجده الله فيها فى الدنيا [من تراب ، ثم من نطفة ،ثم سواك رجلا] .

فهو الذى أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد ، وواصل عليك النعم ، ونقلك من طور إلى طور ، حتى سواك رجلا ، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة ، والمعقولة .

وبذلك يسّر لك الأسباب ، وهيأ لك ما هيأ ، من نعم الدنيا .

فلم تحصل لك الدنيــا ، بحولك وقوتك ، بل بفضل الله تعالى عليك .

فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ثم سواك رجلا ، وتجهل نعمته ، وتزعم أنه لا يبعثك ، وإن بعثك أنه يعطيك خيرا من جنتك ، هذا مما لاينبغى ولا يليق .

ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن ، حاله واستمراره على كفره وطغيانه ، قال — مخبرا عن نفسه ، على وجه الشكر لربه ، والإعلان بدينه ، عند ورود المجادلات والشبه : [لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً] .

فأقر بربوبية ربه ، وانفراده فيها ، والتزام طاعته وعبادته ، وأنه لايشرك به أحداً من المخلوقين .

رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ

إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ

ثم أخبر أن نعمة الله عليه ، بالإيمان والإسلام ، ولو مع قلة ماله وولده ـ أنها ، هى النعمة الحقيقية ، وأن ماعداها، مُعرَّضٌ للزوال والعقوبة عليه والنكال ، فقال : [إن ترن أنا أقل] إلى [وخير عقبا] .

* أى : قال للكافر صاحبه المؤمن : أنت — وإن نخرت علىَّ بكثرة مالك وولدك ، ورأيتنى أقل منك مالا وولدا — فإن ما عند الله ، خير وأبقى .

وما يرجى من خيره وإحسانه ، أفضل من جميع الدنيا ، التى يتنافس فيها المتنافسون .

[فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها] أى : على جنتك التى طغيت بها وغرتك [حسباناً من السماء] أى : عذابا ، بمطر عظيم أو غيره .

[فتصبح] بسبب ذلك [صعيدا زلقا] أى : قد اقتلعت أشجارها ، وتلفت ثمارها ، وغرق زرعها ، وزال نفعها .

[أو يصبح ماؤها] الذى مادتها منه [غورا] أى : غائرا فى الأرض

طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ

[فلن تستطيع له طلبا] أى : غائرا لايستطاع الوصول إليه ، بالمعاول ولا بغيرها .

وإنما دعا على جنته المؤمن ، غضبا لربه ، لكونها غرته وأطغته،واطمأن إليها ، لعله ينيب ، ويراجع رشده ، ويتبصر فى أمره .

فاستجاب الله دعاه [وأحيط بثمره] أى : أصابه عذاب ، أحاط به ، واستهلكه ، فلم يبق منه شيء .

والإحاطة بالثمر ، يستلزم تلف جميع أشجاره ، وثماره ، وزرعه .

فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه ،[فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها] أى على كثرة نفقاته الدنيوية عليها ، حيث اضمحلت وتلاشت ، فلم يبق لها عوض ، وندم أيضاً على شركه ، وشره ، ولهذا قال :

[ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا] .

قال الله تعالى : [ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً] .

أى : لما نزل العذاب بجنته ، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه : [أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا] فلم يدفعوا عنه من العذاب شيئا ، أشد ما كان إليهم حاجة ، وما كان بنفس منتصراً .

وكيف ينتصر ، أو يكون له انتصارا ، على قضاء الله وقدره ، الذى

مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

إذا أمضاه وقدره ، لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه ، لم يقدروا ؟ ! ! !

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه ، أن صاحب هذه الجنة ، التي أحيط بها ، تحسنت حاله ، ورزقه الله الإنابة إليه ، وراجع رشده ، وذهب تمرده وطغيانه ، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه ، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه ، وعاقبه فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبد خيرا عجل له العقوبة فى الدنيا .

وفضل الله لاتحيط به الأوهام والعقول ، ولا ينكره إلا ظالم جهول .

[هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا] أى : فى تلك الحال التى أجرى الله فيها العقوبة على من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، والكرامة لمن آمن ، وعمل صالحاً ، وشكر الله ، ودعا غيره ، لذلك تبين وتوضح ، أن الولاية الحق ، لله وحده .

فمن كان مؤمنا به تقيا ، كان له وليا ، فأكرمه بأنواع الكرامات ، ودفع عنه الشرور والمثلات ، ومن لم يؤمن بربه ، ولا يتولاه ، خسر دينه ودنياه ، فثوابه الدنيوى والأخروى ، خير ثواب يرجى ويؤمل .

ففى هذه القصة العظيمة ، اعتبار بحال الذى أنعم الله عليه نعما دنيوية ، فألهته عن آخرته وأطغته ، وعصى الله فيهـا ، أن مآلها الانقطاع والاضمحلال .

. . . .

وأنه وإن تمتع بها قليلا ، فإنه يحرمها طويلا .

وأن العبد ، ينبغي له — إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده — أن أن يضيف النعمة إلى موليها ومسديها ، وأن يقول : « ما شاء الله ، لاقوة إلا بالله » ليكون شاكرا ، متسببا لبقاء نعمته عليه ، لقوله :

[ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله] .

وفيها ، الإرشاد إلى التسلى عن لذات الدنيا وشهواتها ، بما عند الله من الخير لقوله :

[إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك] .

وفيها أن المال والولد لا ينفعان ، إن لم يعينا على طاعة الله كما قال تعالى :

« وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً » .

وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه .

خصوصا إن فضّل نفسه بسببه ، على المؤمنين ، ونخر عليهم

وفيها ، أن ولاية الله وعدمها ، إنما تتضح نتيجتها ، إذا انجلى الغبار وحق الجزاء ، ووجد العاملون أجرهم فـ [هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا] أى : عاقبة ومالا .

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، أصلا، ولمن قام بوراثته بعده تبعا : اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، أو تنبت من كل زوج بهيج.

فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين.

إذ أصبحت هشيما، تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهى.

فأصبحت الأرض غبراء ترابا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.

كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها، قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها وديناراها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض فى الشهوات فى جميع أوقاته، وظن أنه لايزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله.

فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته، وماله، وانفرد بصالح، أو سيء أعماله.

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

هنالك يعض الظالم على يديه ، حين يعلم حقيقة ما هو عليه ، ويتمنى العود إلى الدنيا ، لا ليستكمل الشهوات ، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات ، بالتوبة والأعمال الصالحات .

فالعاقل الجازم الموفق ، يعرض على نفسه هذه الحالة ، ويقول لنفسه : « قَدِّرِي أنك قد مِتِّ ، ولا بد أن تموتى ، فأى الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار ، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة أم العمل ، لدار أكلها دائم وظلها ظليل ، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين .

فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه ، وربحه من خسرانه .

ولهذا أخبر تعالى ، أن المال والبنين ، زينة الحياة الدنيا ، أى : ليس وراء ذلك شيء .

وأن الذى يبقى للإنسان وينفعه ويسره ، الباقيات الصالحات .

وهذا يشمل جميع الطاعات ، الواجبة ، والمستحبة ، من حقوق الله ، وحقوق عباده ، من صلاة ، وزكاة ، وصدقة ، وحج ، وعمرة ، وتسبيح ، وتحميد ، وتهليل ، وقراءة ، وطلب علم نافع ، وأمر بمعروف ، ونهى عن منكر ، وصلة رحم ، وبر والدين ، وقيام بحق الزوجات ، والمماليك ، والبهائم ، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق ، كل هذا من الباقيات الصالحات ، فهذه خير عند الله ثوابا ، وخير أملا .

فثوابها يبقى ، ويتضاعف على الآباد ، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها ، عند الحاجة .

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

فهذه التي ينبغى أن يتنافس بها المتنافسون ، ويستبق إليها العاملون ، ويَجِدُّ فى تحصيلها المجتهدون .

وتأمل ، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها ، ذكر أن الذى فيها نوعان .

نوع من زينتها ، يتمتع به قليلا ، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه ، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون .

ونوع يبقى لصاحبه على الدوام ، وهى : الباقيات الصالحات .

* يخبر تعالى عن حال يوم القيامة ، ومافيه من الأهوال المقلقة ، والشدائد المزعجة فقال :

[ويوم نسير الجبال] أى : يزيلها عن أماكنها ، يجعلها كثيبا ، ثم يجعلها كالعهن[1] المنفوش ثم تضمحل وتتلاشى ، وتكون هباء منبثا ، وتبرز الأرض ، فتصير قاعا صفصفاً ، لا عوج فيه ولا أمتا .

ويحشر الله جميع الخلق ، على تلك الأرض ، فلا يغادر منهم أحدا .

بل يجمع الأولين والآخرين ، من بطون الفلوات ، وقعور البحار ، ويجمعهم بعدما تفرقوا ، ويعيدهم ، بعد ما تمزقوا ، خلقا جديداً .

---

(١) العهن . أى : الصوف ، أو المصبوغ ألواناً . اهـ . قاموس .

وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

فيعرضون عليه صفاً ، ليستعرضهم ، وينظر فى أعمالهم ، ويحكم فيهم ، بحكمه العدل ، الذى لا جور فيه ولا ظلم ، ويقول لهم : « لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » أى ، بلا مال ، ولا أهل ، ولا عشيرة ، ما معهم إلا الأعمال ، التى عملوها ، والمكاسب فى الخير والشر ، التى كسبوها كما قال تعالى :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء » .

وقال هنا ، مخاطباً للمنكرين للبعث ، وقد شاهدوه عيانا : [بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً] أى : أنكرتم الجزاء على الأعمال ، ووعد الله ، ووعيده فيها ، قد رأيتموه وذقتموه .

فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التى كتبها الملائكة الأبرار .

فتطير لها القلوب ، وتعظم من وقعها ، الكروب ، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب ، ويشفق منها المجرمون .

فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم ، مُحْصًى عليهم أقوالهم وأفعالهم ، قالوا : [ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها] أى : لا يترك خطيئة ، صغيرة ولا كبيرة ، إلا وهى مكتوبة فيه ، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية ، ولا ليل ولا نهار .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾

[ووجدوا ما عملوا حاضرا] لا يقدرون على إنكاره [ولا يظلم ربك أحدا] .

فحينئذ يجازون بها ، ويتقررون بها ، ويخزون ، ويحق عليهم العذاب ، « ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد » بل هم غير خارجين عن عدله وفضله .

* يخبر تعالى ، عن عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، إكراما وتعظيما ، وامتثالا لأمر الله .

فامتثلوا ذلك [إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه] وقال : « أأسجد لمن خلقت طينا » وقال : « أنا خير منه » .

فتبين بهذا ، عداوته لله ولأبيكم ، فكيف تتخذونه وذريته أى : الشياطين (أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) .

أى : بئس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان ، الذى لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر عن ولاية الرحمن،الذى كل السعادة والفلاح والسرور فى ولايته .

وفى هذه الآية ، الحث على اتخاذ الشيطان عدوا ، والإغراء بذلك ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم

وأى ظلم ، أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقى . ولياً ، وترك الولى الحميد ؟!! .

﴿ مَآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ

قال تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات »].

وقال تعالى : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله » .

* يقول تعالى : ما أشهدت الشياطين وهؤلاء المضلين ، خلق السموات والأرض ، ولا خلق أنفسهم .

أى : ما أحضرتهم ذلك ، ولا شاورتهم عليه ، فكيف يكونون خالقين لشىء من ذلك ؟ !

بل المنفرد بالخلق والتدبير ، والحكمة والتقدير ، هو الله ،خالق الأشياء كلها ، المتصرف فيها بحكمته .

فكيف يجعل له شركاء من الشياطين ، يوالون ويطاعون ، كما يطاع الله ، وهم لم يخلقوا ، ولم يشهدوا خلقا ، ولم يعاونوا الله تعالى ؟! .

ولهذا قال : [وما كنت متخذ المضلين عضدا] أى : معاونين ، مظاهرين لله على شأن من الشئون .

أى : ما ينبغى ، ولا يليق بالله ، أن يجعل لهم قسطاً من التدبير ، لأنهم ساعون فى إضلال الخلق والعداوة لربهم ، فاللائق ، أن يقصيهم ولا يدنيهم.

ولما ذكر حال من أشرك به فى الدنيا ، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال ، وحكم بجهل صاحبه وسفهه ، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم

نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

القيامة ، وأن الله يقول لهم : [نادوا شركائى] بزعمكم أى : على موجب زعمكم الفاسد .

وإلا ، فالحقيقة ، ليس لله شريك فى الأرض ولا فى السماء ، أى: نادوهم ، لينفعوكم ، ويخلصوكم من الشدائد .

(فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) لأن الحكم والملك يومئذ لله ، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ، ولا لغيره .

(وجعلنا بينهم) أى : بين المشركين وشركائهم (موبقا)أى ، مهلكا ، يفرق بينهم وبينهم ، ويبعد بعضهم من بعض ، ويتبين حينئذ ، عداوة الشركاء لشركائهم ، وكفرهم بهم ، وتبرّيهم منهم ، كما قال تعالى « وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

* أى : لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل ، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم ، وحقت كلمة العذاب على المجرمين ، فرأوا جهنم قبل دخولها ، فانزعجوا ، واشتد قلقهم ، لظنهم أنهم مواقعوها ، وهذا الظن قال المفسرون : إنه بمعنى اليقين ، فأيقنوا أنهم داخلوها [ولم يجدوا عنها مصرفا) أى : معدلا يعدلون إليه ، ولا شافع لهم من دون إذنه .

وفى هذا من التخويف والترهيب ، ما ترعد له الأفئدة والقلوب .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه وأنه صرَّف فيه من كل مَثَل .

أى : من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة ، والسعادة الأبدية ، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك .

ففيه أمثال الحلال والحرام ، وجزاء الأعمال ، والترغيب والترهيب ، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب ، اعتقادا ، وطمأنينة ، ونورا .

وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة ، وعدم المنازعة له ، فى أمر من الأمور .

ومع ذلك ، كان كثير من الناس ، يجادلون فى الحق ، بعد ما تبين ، ويجادلون بالباطل [ليدحضوا به الحق] ولهذا قال :

[وكان الإنسان أكثر شىء جدلا] أى : مجادلة ومنازعة فيه ، مع أن ذلك ، غير لائق بهم ، ولا عدل منهم .

والذى أوجب له ذلك ، وعدم الإيمان بالله ، إنما هو الظلم والعناد ، لا لقصور فى بيانه وحجته ، وبرهانه .

وإلا ، فلو جاءهم العذاب ، وجاءهم ما جاء قبلهم ، لم تكن هذه حالهم ، ولهذا قال : [وما منع الناس] إلى [قُبُلاً] .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ ﴾

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ

---

* أى : ما منع الناس من الإيمان ، والحال أن الهدى الذى يحصل به الفرق ، بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، قد وصل إليهم ، وقامت عليهم حجة الله .

فلم يمنعهم عدم البيان ، بل منعهم الظلم والعدوان ، عن الإيمان .

فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله ، وعادته فى الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا ، عوجلوا بالعذاب ، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم ، ورأوه مقابلة ومعاينة .

أى : فَلْيَخَافوا من ذلك ، وَلْيَتُوبوا من كفرهم ، قبل أن يكون العذاب الذى لا مرد له .

* أى : لم نرسل الرسل عبثاً ، ولا ليتخذهم الناس أربابا ، ولا ليدعوا إلى أنفسهم .

بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير ، وينهون عن كل شر ، ويبشرونهم على امتثال ذلك ، بالثواب العاجل والآجل ، وينذرونهم على معصية ذلك ، بالعقاب العاجل والآجل ، فقامت بذلك حجة الله على العباد.

ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون ، إلا المجادلة بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ

فسعوا فى نصر الباطل ، مهما أمكنهم ، وفى إدحاض الحق وإبطاله .

واستهزءوا برسل الله وآياته ، وفرحوا بما عندهم من العلم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، ويظهر الحق على الباطل «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق» .

ومن حكمة الله ورحمته ، أن تقييضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل ، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهده وأدلته ، وتبين الباطل وفساده ، فبضدها تتبين الأشياء .

* يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً ، ولا أكبر جرماً ، من عبد ذُكِّر بآيات الله وبُيِّن له الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، وخُوِّف ورُهِّب ورُغِّب ، فأعرض عنها .

فلم يتذكر بما ذُكِّر به ، ولم يرجع عما كان عليه ، ونسى ما قدمت يداه من الذنوب ، ولم يراقب علام الغيوب .

فهذا أعظم ظلماً ، من المعرض الذى لم تأته آيات الله ، ولم يذكر بها ، وإن كان ظالما ، فإنه أشد ظلما من هذا ، لكون العاصى على بصيرة وعلم ، أعظم ممن ليس كذلك .

وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ

ولكن الله تعالى ، عاقبه بسبب إعراضه عن آياته ، ونسيانه لذنوبه ، ورضاه لنفسه ، حالة الشر ، مع علمه بها أن سد عليه أبواب الهداية ، بأن جعل على قلبه أكنة ، أى: أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها ، فليس فى إمكانه ، الفقه الذى يصل إلى القلب .

[وفى آذانهم وقرا] أى : صمما يمنعهم من وصول الآيات ، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإن كانوا بهذه الحالة ، فليس لهدايتهم سبيل .

[وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبدا] لأن الذى يرجى أن يجيب الداعى للهدى ، من ليس عالما .

وأما هؤلاء ، الذين أبصروا ثم عموا ، ورأوا طريق الحق فتركوه ، وطريق الضلال فسلكوه ، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها . فليس فى هدايتهم حيلة ولا طريق .

وفى هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه ، أن يحال بينه وبينه ، ولا يتمكن منه بعد ذلك ، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته ، وأنه يغفر الذنوب ، ويتوب الله على من يتوب ، فيتغمده برحمته ، ويشمله بإحسانه ، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب ، لعجل لهم العذاب .

ولكنه تعالى ، حليم لا يعجل بالعقوبة ، بل يمهل ، ولا يهمل .

لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

والذنوب لا بد من وقوع آثارها ، وإن تأخرت عنها مدة طويلة ، ولهذا قال :

[بل لهم موعد لن يجـدوا من دونه موئلا] أى : لهم موعد ، يجازون فيه بأعمالهم ، لا بد لهم منه ، ولا مندوحة لهم عنه ، ولا ملجأ ، ولا محيد عنه .

وهذه سنته فى الأولين والآخرين ، أن لا يعاجلهم بالعقاب ، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة .

فإن تابوا وأنابوا ، غفر لهم ورحمهم ، وأزال عنهم العقاب .

وإلا ، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم ، وجاء الوقت الذى جعله موعداً لهم ، أنزل بهم بأسه .

ولهـذا قال : [وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا] أى : بظلمهم ، لا بظلم منا [وجعلنا لمهلكهم موعدا] أى : وقتاً مقدرا ، لا يتقدمون عنه ، ولا يتأخرون .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا

---

* يخبر تعالى ، عن نبيه ، موسى عليه السلام ، وشدة رغبته فى الخير وطلب العلم ، أنه قال لفتاه ، أى : خادمه الذى يلازمه فى حضره وسفره ، وهو « يوشع بن نون » الذى نبأه الله بعد ذلك :

[لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين] أى : لا أزال مسافرا وإن طالت علىّ الشقة ، ولحقتنى المشقة ، حتى أصل إلى مجمع البحرين ، وهو : المكان الذى أوحى إليه أنك ستجد فيه عبدا من عباد الله العالمين ، عنده من العلم ، ما ليس عندك .

[أو أمضى حقبا] أى : مسافة طويلة .

المعنى : أن الشوق والرغبة ، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة .

وهذا عزم منه جازم ، فلذلك أمضاه .

[فلما بلغا] أى : هو وفتاه [مجمع بينهما نسيا حوتهما] وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان وقد وعد أنه متى فقد الحوت فَثَمّ ذلك العبد ، الذى قصدته ، فاتخذ ذلك الحوت سبيله ، أى : طريقه فى البحر سربا وهذا من الآيات .

قال المفسرون إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه ، لما وصلا إلى ذلك المكان ، أصابه بلل البحر ، فانسرب بإذن الله فى البحر ، وصار مع حيواناته حيا .

غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين ، قال موسى لفتاه :

[آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا] أى : لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط ، وإلا فالسفر الطويل ، الذى وصلا به إلى مجمع البحرين ، لم يجدا من التعب فيه ، وهذا من الآيات والعلامات ، الدالة لموسى ، على وجود مطلبه .

وأيضا ، فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان ، سهل لهما الطريق ، فلما تجاوزا غايتهما ، وجدا مس التعب .

فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة ، قال له فتاه :

[أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة ، فإنى نسيت الحوت ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره] لأنه السبب فى ذلك [واتخذ سبيله فى البحر عجبا] أى : لما انسرب فى البحر ، ودخل فيه ، كان ذلك من العجائب .

قال المفسرون : كان ذلك المسلك للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا .

فلما قال له الفتى هذا القول ، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت ، وجد الخضر ، فقال موسى :

[ذلك ما كنا نبغ] أى : نطلب [فارتدا] أى : رجعا [على آثارهما قصصا] أى : رجعا يقصان أثرهما ، الذى نسيا فيه الحوت .

نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ

فلما صلا إليه ، وجدا عبدا من عبادنا ، وهو الخضر ، وكان عبدا صالحا ، لا نبيا على الصحيح[1] .

[آتيناه رحمة من عندنا] أى : أعطاه الله رحمة خاصة ، بها زادعلمه ، وحسن عمله [وعلمناه من لدنا] أى : من عندنا [علما] .

وكان قد أعطى من العلم ، مالم يعط موسى ، وإن كان موسي عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء ، وخصوصا فى العلوم الإيمانية ، والأصولية ، لأنه من أولى العزم من المرسلين ، الذين فضلهم الله على سائر الخلق ، بالعلم ، والعمل ، وغير ذلك .

فلما اجتمع به موسى ، قال له ، على وجه الأدب والمشاورة ، والإخبار عن مطلبه :

[هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا] أى : هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمك الله ، ما به أسترشد وأهتدى ، وأعرف به الحق فى تلك القضايا ؟

---

(١) بل الصحيح أنه نبي بدليل قوله [وما فعلته عن أمرى] يعنى . أنه أوحى إليه فعل مافعل ، من خرق السفينة ، وقتل الغلام وبناءالجدار ، والوحى لا ينزل إلا على نبي . هذا هو التحقيق فى هذه المسألة .

لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ

وكان الخضر ، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة ، ما به يحصل له الاطلاع ، على بواطن كثير من الأشياء ، التي خفيت ، حتى على موسى عليه السلام .

فقال الخضر لموسى : لا أمتنع من ذلك ، ولكنك [لن تستطيع معى صبرا] .

أي : لا تقدر على اتباعى وملازمتى ، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور ، التي ظاهرها المنكر ، وباطنها غير ذلك ، ولهذا قال :

[وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً] أى : كيف تصبر على أمر ، ما أحطت بباطنه وظاهره ولا علمت المقصود منه ومآله ؟

فقال موسى : [ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً] وهذا عزم منه ، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به .

والعزم شيء ، ووجود الصبر شيء آخر ، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر .

فحينئذ قال له الخضر : [فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً] أى : لا تبتدئنى بسؤال منك وإنكار ، حتى أكون أنا الذى أخبرك بحاله ، فى الوقت الذى ينبغى إخبارك به .

لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا

فنهاه عن سؤاله ، ووعده أن يوقفه على حقيقة الأمر .

[فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها] أى : اقتلع الخضر منها ، لوحا ، وكان له مقصود فى ذلك ، سيبينه .

فلم يصبر موسى عليه السلام ، لأن ظاهره أنه منكر ، لأنه عيب للسفينة ، وسبب لغرق أهلها ، ولهذا قال موسى :

[أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرا] أى : عظيما شنيعا ، وهذا من عدم صبره عليه السلام ، فقال له الخضر :

[ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً] أى : فوقع كما أخبرتك .

وكان هذا من موسي ، نسياناً فقال : [لاتؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً] أى : لا تعسر على الأمر ، واسمح لى ، فإن ذلك وقع على وجه النسيان ، فلا تؤاخذنى فى أول مرة .

فجمع بين الإقرار به والعذر منه ، وأنه ما ينبغى لك أيها الخضر ، الشدة على صاحبك ، فسمح عنه الخضر .

لقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا

[فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً] أي : صغيراً [فقتله] الخضر .

فاشتد بموسى الغضب ، وأخذته الحمية الدينية ، حين قتل غلاماً صغيراً، لم يذنب .

[قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً] .

وأى نكر مثل قتل الصغير ، الذى ليس عليه ذنب ، ولم يقتل أحد ؟!

وكان الأول من موسى نسياناً ، وهذه غير نسيان ، ولكن عدم صبر .

فقال له الخضر ، معاتباً ومذكراً : [ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً] .

فقال له موسى : [إن سألتك عن شي بعدها] أى : بعد هذه المرة [فلا تصاحبنى] أي : فأنت معذور بذاك ، وبترك صحبتى [قد بلغت من لدنى عذراً] أى أعذرت منى ، ولم تقصر .

[فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها] أى : استضافاهم [فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض] أى : عاب واستهدم [فأقامه] الخضر أى : بناه وأعاده جديداً .

فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾

فقال له موسي : [لو شئت لاتخذت عليه أجراً ، أي : أهل هذه القرية ، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم ، وأنت تبنيه من دون أجرة ، وأنت تقدر عليها ؟ .

فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال ، واستعذر الخضر منه ، فقال له :

[هذا فراق بيني وبينك] فإنك شرطت ذلك على نفسك ، فلم يبق الآن عذر ، ولا موضع للصحبة .

[سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً] أي : سأخبرك بما أنكرت عليّ ، وأنبئك بأن لى فى ذلك من المآرب ، وما يئول إليه الأمر .

[أما السفينة] التى خرقتها [فكانت لمساكين يعملون فى البحر] يقتضي ذلك الرقة عليهم ، والرأفة بهم .

[فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً] أي : كان مرورهم على ذلك الملك الظالم ، فكل سفينة صالحة تمر عليه ، ما فيها عيب ، غصبها وأخذها ظلما ، فأردت أن أخرقها ، ليكون فيها عيب ، فتسلم من ذلك الظالم .

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ

[وأما الغلام] الذى قتلته [فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً] .

وكان ذلك الغلام ، قد قدر عليه ، أنه لو بلغ ، لأرهق أبويه طغياناً وكفراً .

أى : لحملهما على الطغيان والكفر ، إما لأجل محبتهما إياه ، أو للحاجة إليه يحملهما على ذلك .

أى : فقتلته ، لاطلاعى على ذلك ، سلامة لدين أبويه المؤمنين ، وأى فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة ؟ !!

وهو وإن كان فيه إساءة إليهما ، وقطع لذريتهما ، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ، ما هو خير منه ، ولهذا قال :

[فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً] أى : ولداً صالحاً ، زكياً ، واصلاً لرحمه .

فإن الغلام الذى قتل ، لو بلغ لعقهما أشد العقوق ، بحملهما على الكفر والطغيان .

[وأما الجدار] الذى أقمته [فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً] أى : حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما ،

تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَـٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

لكونهما صغيرين ، عدما أباهما ، وحفظهما الله أيضاً ، بصلاح والدهما .

[فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما] أى : فلهذا هدمت الجدار ، واستخرجت ما تحته من كنزهما ، ورددته ، وأعدته مجاناً .

[رحمة من ربك] أى : هذا الذى فعلته رحمة من الله ، آتاها الله عبده الخضر [وما فعلته عن أمرى] أى : ما أتيت شيئا من قبل نفسى ، ومجرد إرادتى ، وإنما[1] ذلك من رحمة الله وأمره .

[ذلك] الذى فسرته لك [تأويل ما لم تسطع عليه صبراً] .

وفى هذه القصة العجيبة الجليلة ، من الفوائد ، والأحكام ، والقواعد ، شىء كثير ، ننبه على بعضه بعون الله .

فمنها فضيلة العلم ، والرحلة فى طلبه ، وأنه أهم الأمور .

فإن موسى عليه السلام ، رحل مسافة طويلة ، ولقى النصب فى طلبه ، وترك القعود عند بنى إسرائيل ، لتعليمهم وإرشادهم ، واختار السفر لزيادة العلم على ذلك .

ومنها : البداءة بالأهم فالأهم ، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان ، أهم من

---

(١) قوله « إنما ذلك الخ » الصحيح أن يقال « وإنما ذلك وحى من الله أوحاه إلىّ » .

. . . .

ترك ذلك ، والاشتغال بالتعليم ، من دون تزود من العلم ، والجمع بين الأمرين أكمل .

ومنها : جواز أخذ الخادم فى الحضر والسفر لكفاية المؤن ، وطلب الراحة ، كما فعل موسى .

ومنها : أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه ، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه ، وأين يريده ، فإنه أكمل من كتمه .

فإن فى إظهاره ، فوائد من الاستعداد له ، واتخاذ عدته ، وإتيان الأمر على بصيرة ، وإظهار الشوق لهذه العبادة الجليلة ، كما قال موسى : [لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً] .

وكما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، أصحابه حين غزا تبوك ، بوجهه ، مع أن عادته التورية ، وذلك تبع للمصلحة .

ومنها : إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان ، على وجه التسويل والتزيين ، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره ، لقول فتى موسى : [وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره] .

ومنها : جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس ، من نصب وجوع ، أو عطش ، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقا ، لقول موسى : [لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا] .

ومنها : استحباب كون خادم الإنسان ، ذكياً فطناً كيساً ، ليتم له أمره الذى يريده .

. . . .

ومنها : استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله ، وأكلهما جميعاً ، لأن ظاهر قوله :

[آتنا غداءنا] إضافة إلى الجميع ، أنه أكل هو ، وهو جميعاً .

ومنها : أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به ، وأن الموافق لأمر الله ، يعان ما لا يعان غيره لقوله : [لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً] والإشارة إلى السفر المجاوز ، لمجمع البحرين .

وأما الأول ، فلم يشتك منه التعب ، مع طوله ، لأنه هو السفر على الحقيقة .

وأما الأخير ، فالظاهر أنه بعض يوم ، لأنهم فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة .

فالظاهر أنهم باتوا عندها ، ثم ساروا من الغد .

حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفتاه « آتنا غداءنا » ، فحينئذ تذكر أنه نسيه ، فى الموضع الذى إليه منتهى قصده .

ومنها : أن ذلك العبد الذى لقياه ، ليس نبيا ، بل عبداً صالحاً ، لأنه وصفه بالعبودية ، وذكر مِنَّة الله عليه بالرحمة والعلم ، ولم يذكر رسالته ولا نبوته ، ولو كان نبياً ، لذكر ذلك ، كما ذكره غيره .

وأما قوله فى آخر القصة [وما فعلته عن أمرى] فإنه لا يدل على أنه

. . . .

نبي[1] وإنما يدل على الإلهام والتحديث ، كما يكون لغير الأنبياء ، كما قال تعالى [وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه] ، [وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً .

ومنها : أن العلم الذى يعلمه الله لعباده نوعان .

علم مكتسب يدركه العبده بجده واجتهاده .

---

(١) قوله « فإنه لا يدل على أنه نبي الخ » سبق أن قلنا إن التحقيق أنه نبي . ونزيد هنا ما قاله أبو السعود فى تفسيره (فوجدا عبداً من عبادنا) التنكير للتفخيم ، والإضافة للتشريف والجمهور على أنه الخضر واسمه بليا بن ملكان . وقيل : اليسع ، وقيل : إلياس عليهم الصلاة والسلام ، (آتيناه رحمة من عندنا) وهى الوحى والنبوة كما يشعر به تنكير الرحمة واختصاصها بجناب الكبرياء (وعلمناه من لدنا علماً) خاصاً لا يكتنه كنهه ولا يقادر قدره وهو علم الغيوب اهـ .

ونزيد ثانياً أن الله قال (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول) فلما أظهر الخضر على علم الغيب دل على أنه رسول بنص الآية التى ذكرناها لأنه تعالى خصص إظهار علم الغيب وحصره فى المرسلين وغيرهم لا يطلعه على شىء من علم الغيب وتنظير المؤلف ما أوحاه الله إلى الخضر بالوحى إلى النحل وبالوحى إلى أم موسى بعيد كل البعد عن مسألة الخضر فإن الوحى إلى النحل وإلى أم موسى ليس من الأمور الغيبية حتى يستقيم التنظير .

. . . .

ونوع علم لدنى ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله [وعلمناه من لدنا علماً] .

ومنها : التأدب مع المعلم ، وخطاب المتعلم إياه ألطف خطاب ، لقول موسى عليه السلام :

[هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً] فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة ، وأنك هل تأذن لى فى ذلك أم لا ، وإقراره بأنه يتعلم منه.

بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر ، الذين لا يظهرون للمعلم افتقارهم إلى علمه بل يدعون أنه يتعاونون هم وإياه ، بل ربما ظن أحدهم أنه يعلم معلمه ، وهو جاهل جداً .

فالذل للمعلم ، وإظهار الحاجة إلى تعليمه ، من أنفع شيء للمتعلم .

ومنها تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه فإن موسى — بلا شك — أفضل من الخضر .

ومنها : تعلم العالم الفاضل ، للعلم الذي لم يتمهر فيه ، ممن مهر فيه ، وإن كان دونه فى العلم بدرجات كثيرة .

فإن موسى عليه السلام من أولى العزم من المرسلين ، الذين منحهم الله ، وأعطاهم من العلم ، ما لم يعط سواهم ، ولكن فى هذا العلم الخاص ، كان عند الخضر ، ما ليس عنده ، فلهذا حرص على التعلم منه .

فعلى هذا ، لا ينبغى للفقيه المحدث ، إذا كان قاصراً فى علم النحو ، أو الصرف ، أو نحوهما من العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه ، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً .

. . . .

ومنها : إضافة العلم وغيره من الفضائل ، لله تعالى ، والإقرار بذلك ، وشكر الله عليها لقوله :

[تعلمن مما علمت] أى : مما علمك الله تعالى .

ومنها : أن العلم النافع ، هو العلم المرشد إلى الخير ، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطريق الخير ، وتحذير عن طريق الشر ، أو وسيلة لذلك ، فإنه من العلم النافع .

وما سوى ذلك ، فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة لقوله : [أن تعلمن مما علمت رشداً] .

ومنها : أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم ، وحسن الثبات على ذلك ، أنه ليس بأهل لتلقى العلم .

فمن لا صبر له ، لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه ، أدرك به كل أمر سعى فيه ، لقول الخضر — يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى فى الأخذ عنه : إنه لا يصبر معه .

ومنها : أن السبب الكبير لحصول الصبر ، إحاطة الإنسان علماً وخبرة ، بذلك الأمر ، الذى أمر بالصبر عليه .

وإلا فالذى لا يدريه ، أو لا يدرى غايته ولا نتيجته ، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله : [وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً] .

فجعل الموجب لعدم صبره ، عدم إحاطته خبراً بالأمر .

ومنها : الأمر بالتأنى والتثبت ، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشىء ، حتى يعرف ما يراد منه ، وما هو المقصود .

. . . .

ومنها : تعليق الأمور المستقبلة التي من أفعال العباد بالمشيئة ، وأن لا يقول الإنسان للشيء : إني فاعل ذلك في المستقبل ، إلا أن يقول « إن شاء الله » .

ومنها : أن العزم على فعل الشيء ، ليس بمنزلة فعله ، فإن موسى قال : [ستجدني إن شاء الله صابراً] فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل .

ومنها : أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم ، أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء ، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها ، فإن المصلحة تتبع .

كما إذا كان فهمه قاصراً ، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها ، أو لا يدركها ذهنه ، أو يسأل سؤالا ، لا يتعلق بموضع البحث .

ومنها : جواز ركوب البحر ، في غير الحالة التي يخاف منها .

ومنها : أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه ، لا في حق الله ، ولا في حقوق العباد لقوله : [لا تؤاخذني بما نسيت].

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم ، العفو منها ، وما سمحت به أنفسهم ، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون ، أو يشق عليهم ، ويرهقهم ، فإن هذا ، مدعاة إلى النفور منه والسآمة ، بل يأخذ المتيسر ، ليتيسر له الأمر .

ومنها : أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام

. . . .

الدنيوية ، فى الأموال ، والدماء وغيرها .

فإن موسى عليه السلام ، أنكر على الخضر خرقه السفينة ، وقتل الغلام ، وأن هذه الأمور ظاهرها ، أنها من المنكر .

وموسى عليه السلام لا يسعه السكوت عنها ، فى غير هذه الحال ، التى صحب عليها الخضر .

فاستعجل عليه السلام ، وبادر إلى الحكم فى حالتها العامة ، ولم يلتفت إلى هذا العارض ، الذى يوجب عليه الصبر ، وعدم المبادرة إلى الإنكار .

ومنها : القاعدة[1] الكبيرة الجليلة وهو أنه « يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير » ويراعى أكبر المصلحتين ، بتفويت أدناها .

---

(١) وردت هذه القاعدة فى مجلة القوانين الشرعية والأحكام العدلية فى المادة (٢٧) بالصيغة الآتية .

« الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف » وفى المادة (٢٨) .

« إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمها ضرراً بارتكاب أخفهما » .

وساق الشراح لذلك أمثلة :

منها : لو أشرفت سفينة على الغرق وكان فى طرح المال سلامة النفوس ، يطرح فى البحر من المال قدر ما يسلمها من الغرق .

ومنها : حبس الأب ، لو امتنع عن الإنفاق على ولده غير المكتسب .

ومنها : لو ابتلعت دجاجة لؤلؤة ، ينظر إلى أكثرهما قيمة ، فيضمن صاحب الأكثر قيمة الأقل .

. . . .

فإن قتل الغلام شر ، ولـكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما ، أعظم شراً منه .

وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته ، وإن كان يظن أنه خير ، فالخير ببقاء دين أبويه ، وإيمانهما ، خير من ذلك ، فلذلك قتله الخضر .

وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ، مما لا يدخل تحت الحصر .

فتزاحم المصالح والمفاسد كلها ، داخل فى هذا .

ومنها القاعدة الـكبيرة أيضاً وهى أن « عمل الإنسان فى مال غيره ، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة ، أنه يجوز ، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله ، إتلاف بعض مال الغير ، كما خرق الخضر السفينة لتعيب ، فتسلم من غصب الملك الظالم .

فعلى هذا لو وقع حرق ، أو غرق ، أو نحوهما ، فى دار إنسان أو ماله ، وكان إتلاف بعض المال ، أو هدم بعض الدار ، فيه سلامة للباقى ، جاز للإنسان بل شرع له ذلك ، حفظاً لمال الغير .

وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير ، ودفع إليه إنسان بعض المال ، إفتداء للباقى ، جاز ولو من غير إذن .

ومنها : أن العمل يجوز فى البحر ، كما يجوز فى البر لقوله :
[يعملون فى البحر] ولم ينـكر عليهم عملهم .

ومنها : أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته ، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة ، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين ، لهم سفينة .

. . . .

ومنها : أن القتل من أكبر الذنوب لقوله فى قتل الغلام [لقد جئت شيئاً نكراً] .

ومنها : أن القتل قصاصاً غير منكر لقوله [بغير نفس] .

ومنها : أن العبد الصالح يحفظه الله ، فى نفسه ، وفى ذريته .

ومنها : أن خدمة الصالحين ، أو من يتعلق بهم ، أفضل من غيرها ، لأنه علل استخراج كنزها ، وإقامة جدارها ، بأن أباها صالح .

ومنها : استعمال الأدب مع الله تعالى فى الألفاظ .

فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله [فأردت أن أعيبها] .

وأما الخير ، فأضافه إلى الله تعالى لقوله : [فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك] .

كما قال إبراهيم عليه السلام [وإذا مرضت فهو يشفين] .

وقالت الجن : [وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً] مع أن الكل بقضاء الله وقدره .

ومنها : أنه ينبغى للصاحب أن لا يفارق صاحبه ، فى حالة من الأحوال ، ويترك صحبته ، حتى يعتبه ، ويعذر منه ، كما فعل الخضر مع موسى .

ومنها : أن موافقة الصاحب لصاحبه ، فى غير الأمور المحذورة ، مدعاة ، وسبب لبقاء الصحبة ، وتأكدها ، كما أن عدم الموافقة ، سبب لقطع المرافقة .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا

---

* كان أهل الكتاب أو المشركون ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة ذى القرنين .

فأمره الله أن يقول : [سأتلو عليكم منه ذكراً] فيه نبأ مفيد ، وخطاب عجيب .

أى : سأتلو عليكم من أحواله ، ما يتذكر فيه ، ويكون عبرة .

وأما ما سوى ذلك من أحواله ، فلم يتله عليهم .

[إنا مكنا له فى الأرض] أى : ملكه الله تعالى ، ومكنه من النفوذ فى أقطار الأرض ، وانقيادهم له .

[وآتيناه من كل شىء سبباً ، فأتبع سبباً] أى : أعطاه الله من الأسباب الموصلة له ، لما وصل إليه ، ما به يستعين على قهر البلدان ، وسهولة الوصول إلى أقاصى العمران .

وعمل بتلك الأسباب ، التى أعطاه الله إياها ، أى : استعملها على وجهها .

فليس كل من عنده شىء من الأسباب يسلكه ، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب .

فإذا اجتمعت القدرة على السبب الحقيقى ، والعمل به ، حصل المقصود ، وإن عدما ، أو أحدهما لم يحصل .

تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ

وهـذه الأسباب التى أعطاه الله إياها ، لم يخبرنا الله ولا رسوله بها ، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم ، فلهذا ، لايسعنا غير السكوت عنها ، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها .

ولـكننا نعلم بالجملة ، أنها أسباب قوية كثيرة ، داخلية وخارجيـة ، بها صار له جند عظيم ، ذو عَدَدٍ وعُدَدٍ ونظام .

وبه تمكن من قهر الأعداء ، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وأنحائها .

فأعطاه الله ، ما بلغ به مغرب الشمس ، حتى رأى الشمس فى مرأى العين ، كأنها تغرب فى عين حمئة ، أى : سوداء ، وهذا هو المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربى ماء ، رآها تغرب فى نفس الماء وإن كانت فى غاية الارتفاع ، ووجد عندها ، أى : عند مغربها قوماً .

[قلنا ياذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا] أى : إما أن تعذبهم ، بقتل ، أو ضرب ، أو أسر ونحوه ، وإما أن تحسن إليهم فَخُيِّرَ بين الأمرين ، لأن الظاهر أنهم كفار، أو فساق ، أو فيهم شىء من ذلك .

لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق ، لم يُرَخَّص له فى تعذيبهم .

فـكان عند ذى القرنين من السياسة الشرعية ، ما استحق به المدح والثناء ، لتوفيق الله له لذلك ، فقال : سأجعلهم قسمين .

فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ

[أما من ظلم] بالكفر [فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا] أى : تحصل له العقوبتان ، عقوبة الدنيا ، وعقوبة الآخرة .

[وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى] أى : فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة .

[وسنقول له من أمرنا يسرا] أى : وسنحسن إليه ، ونلطف له بالقول ، ونيسر له المعاملة .

وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين الأولياء ، العادلين العالمين ، حيث وافق مرضاة الله فى معاملة كل أحد ، بما يليق بحاله .

* أى لما وصل إلى مغرب الشمس كرّ راجعا ، قاصدا مطلعها ، متبعا للأسباب ، التى أعطاه الله .

فوصل إلى مطلع الشمس فـ [وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا] أى : وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس .

إما لعدم استعدادهم فى المساكن ، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم ، وعدم تمدنهم .

وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

وإما لسكون الشمس، دائمة عندهم، لاتغرب غروبا يذكر، كما يوجد ذلك فى شرقى أفريقيا الجنوبى.

فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض، فضلا عن وصولهم إليه بأبدانهم.

ومع هذا، فكل هذا بتقدير الله له، وعلمه به، ولهذا قال [كذلك وقد أحطنا] بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه، حيثما توجه وسار.

[ثم أتبع سببا حتى إذا بلغ بين السدين] قال المفسرون: ذهب متوجها من المشرق، قاصدا للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا معروفين فى ذلك الزمان.

سدان من سلاسل الجبال، المتصلة يَمْنَةً ويَسْرَةً حتى تتصل بالبحار، بين يأجوج ومأجوج وبين الناس.

وجد من دون السدين قوما، لايكادون يفقهون قولا، لعجمة ألسنتهم، واستعجام أذهانهم وقلوبهم.

وقد أعطى الله ذا القرنين، من الأسباب العلمية، مافقه به ألسنة أولئك القوم، وفقههم، وراجعهم، وراجعوه.

قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ

فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ، وهما : أمتان عظيمتان من بنى آدم فقالوا :

[إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض] بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك .

[فهل نجعل لك خرجا] أى جُعْلاً [على أن تجعل بيننا وبينهم سدا]

ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم ، على بنيان السد ، وعرفوا اقتدار ذى القرنين عليه، فبذلوا له أجرة ، ليفعل ذلك ، وذكروا له السبب الداعى ، وهو : إفسادهم فى الأرض .

فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة فى الدنيا ، ولا تاركا لإصلاح أحوال الرعية .

[بل قصده الإصلاح ، فلذلك أجاب طلبتهم ، لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم أجرة ، وشكر ربه على تمكينه واقتداره ، فقال لهم :

[ما مكني فيه ربى خير] أى : مما تبذلون لى وتعطونى ، وإنما أطلب منكم أن تعينونى بقوة منكم بأيديكم [أجعل بينكم وبينهم ردما] أى : مانعا من عبورهم عليكم .

بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ

[آتونى زبر الحديد] أى : قطع الحديد ، فأعطوه ذلك .

[حتى إذا ساوى بين الصدفين] أى : الجبلين اللذين بني بينهما السد

[قال انفخوا] أى : أو قدوها إيقادا عظيما ، واستعملوا لها المنافيخ ، لتشتد ، فتذيب النحاس .

فلما ذاب النحاس ، الذى يريد أن يلصقه بين زبر الحديد [قال آتونى أفرغ عليه قطرا] أى : نحاسا مذابا .

فأفرغ عليه القطر ، فاستحكم السد استحكاما هائلا ، وامتنع به مَنْ وراءه من الناس ، من ضرر يأجوج ومأجوج .

[فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا] أى : فما لهم استطاعة ، ولا قدرة على الصعود عليه ، لارتفاعه ، ولا على نقبه لإحكامه وقوته .

فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى موليها وقال :

[هذا رحمة من ربى] أى : من فضله وإحسانه علىَّ .

وهذه حال الخلفاء والصالحين ، إذا مَنَّ الله عليهم بالنعم الجليلة ، ازداد شكرهم وإقرارهم ، واعترافهم بنعمة الله كما قال سليمان عليه السلام ، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ ، مع البعد العظيم قال : «هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر »

وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

بخلاف أهل التجبر والتكبر ، والعلو فى الأرض فإن النعم الكبار ، تزيدهم أشرا وبطرا .

كما قال قارون — لما آتاه الله من الكنوز ، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة قال : « إنما أوتيته على علم عندى »

وقوله : [فإذا جاء وعد ربى] أى : لخروج يأجوج ومأجوج [جعله] أى : ذلك السد المحكم المتقن [دكاء] أى : دكه فانهدم ، واستوى هو والأرض [وكان وعد ربى حقا] .

[وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض] يحتمل أن الضمير ، يعود إلى يأجوج ومأجوج .

وأنهم إذا خرجوا على الناس — من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها — يموج بعضهم ببعض ، كما قال تعالى «حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون » .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة ، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض ، من الأهوال والزلازل العظام ، بدليل قوله : [وتركنا بعضهم] إلى [لا يستطيعون سمعا]

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ ﴾

أى : إذا نفخ إسرافيل فى الصور ، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد ، ثم حشرهم ، وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخرين ، والكافرين والمؤمنين ، ليسألوا ويحاسبوا ويجزوا بأعمالهم .

فأما الكافرون — على اختلافهم — فإن جهنم جزاؤهم ، خالدين فيها أبدا .

ولهذا قال : [وعرضنا جنهم يومئذ للكافرين عرضا] كما قال تعالى : « وإذا الجحيم برزت » أى : عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم ، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها ، وحميمها ، وزمهريرها ، وليذوقوا من العقاب ، ماتبكم له القلوب ، وتصم الآذان ، وهذا آثار أعمالهم ، وجزاء أفعالهم .

فإنهم فى الدنيا [كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى] أى : معرضين عن الذكر الحكيم ، والقرآن الكريم ، وقالوا : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه » .

وفى أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى : « وعلى أبصارهم غشاوة » .

[وكانوا لا يستطيعون سمعا] أى : لايقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان ، لبغضهم القرآن والرسول .

﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ ﴾

فإن المبغض ، لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه .

فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم سمع ولا بصر ، ولا عقل نافع ، فقد كفروا بالله ، وجحدوا آياته ، وكذبوا رسله ، فاستحقوا جهنم ، وساءت مصيرا .

* وهذا برهان وبيان ، لبطلان دعوى المشركين الكافرين ، الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء ، شركاء لله يعبدونهم ، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء ، ينجونهم من عذاب الله ، وينيلونهم ثوابه ، وهم قد كفروا بالله وبرسوله .

يقول الله لهم على وجه الاستفهام والإنكار المتقرر بطلانه فى العقول : [أفحسب الذين كفرا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء] أى : لا يكون ذلك ولا يوالى ولِيٌّ الله ، معاديا لله أبدا .

فإن الأولياء موافقون لله ، فى محبته ، ورضاه ، وسخطه ، وبغضه .

فيكون على هذا المعنى ، مشابها لقوله تعالى « ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم » .

فمن زعم أنه يتخذ وَلِيّ الله وليًا له ، وهو معاد لله ، فهو كاذب .

ويحتمل — وهو الظاهر — أن المعنى : أفحسب الكفار بالله ، المنابذون لرسله ، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم ، وينفعونهم من دون الله ، ويدفعون عنهم الأذى ؟ .

۞ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ

هذا حسبان باطل ، وظن فاسد ، فإن جميع المخلوقين ، ليس بيدهم من النفع والضر ، شيء .

ويكون هذا ، كقوله تعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » ، « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة » .

ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله فيها ، أن المتخذ من دونه وليا ينصره ويواليه ، ضال خائب الرجاء ، غير نائل لبعض مقصوده .

[إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا] أى ضيافة وقرى فبئس النزل نزلهم ، وبئست جهنم ، ضيافتهم .

۞ أى : قل يامحمد ، للناس — على وجه التحذير والإنذار - : هل أخبركم بأخسر الناس أعمالا على الإطلاق ؟

[الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا] أى : بطل واضمحل كل ماعملوه ، من عمل ، وهم يحسبون أنهم محسنون فى صنعه .

فكيف بأعمالهم ، التى يعلمون أنها باطلة ، وأنها محادة لله ورسله ، ومعاداة ؟ ! !

فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم ، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ؟ ألا ذلك هو الخسران المبين .

صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

[أولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه] أى: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانية ، الدالة على وجوب الإيمان به ، وملائكته ، ورسله ، وكتبه ، واليوم الآخر .

[فحبطت] بسبب ذلك [أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا] لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات ، والنظر فى الراجح منها والمرجوح

وهؤلاء ، لا حسنات لهم، لعدم شرطها ، وهو: الإيمان ، كما قال تعالى « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضما » .

لكن تعد أعمالهم ، وتحصى ، ويقررون بها ، ويخزون بها على رءوس الأشهاد ، ثم يعذبو ن عليها ، ولهذا قال : [ذلك جزاؤهم] أى : حبوط أعمالهم ، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ، وزْنٌ ، لحقارتهم وخستهم ، بكفرهم بآيات الله ، واتخاذهم آياته ورسله ، هزوا يستهزئون بها ، ويسخرون منهم .

مع أن الواجب فى آيات الله ورسله ، الإيمان التام بها ، والتعظيم لها ، والقيام بها أتم القيام .

وهؤلاء عكسوا القضية ، فانعكس أمرهم ، وتعسوا ، وانتكسوا فى العذاب .

ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم ، بَيَّن أعمال المؤمنين ومآلهم فقال :

[إن الذين آمنوا] إلى [حولا] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

---

* أى : إن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم .

وشمل هذا الوصف جميع الدين ، عقائده ، وأعماله ، أصوله ، وفروعه الظاهرة ، والباطنة .

فهؤلاء — على اختلاف طبقاتهم من الإيمان ، والعمل الصالح — لهم جنات الفردوس .

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس ، أعلى الجنة ، ووسطها ، وأفضلها ، وأن هذا الثواب ، لمن كمل فيه الإيمان ، والعمل الصالح ، وهم الأنبياء والمقربون .

ويحتمل أن يراد بها ، جميع منازل الجنان ، فيشمل هذا الثواب ، جميع طبقات أهل الإيمان ، من المقربين ، والأبرار ، والمقتصدين ، كلٌّ بحسب حاله .

وهذا أولى المعنيين ، لعمومه ، ولذكر الجنة ، بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس ، وأن الفردوس يطلق على البستان ، المحتوى على الكرم ، أو الأشجار الملتفة ، وهذا صادق على جميع الجنة .

فجنة الفردوس ، نُزُلٌ ، وضيافة لأهل الإيمان ، والعمل الصالح .

وأى ضيافة أجل ، وأكبر ، وأعظم ، من هذه الضيافة ، المحتوية على كل نعيم ، للقلوب ، والأرواح ، والأبدان ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من المنازل الأنيقة ، والرياض الناضرة ، والأشجار المثمرة ، والطيور

. . . .

المغردة المشجية ، والمآكل اللذيذة ، والمشارب الشهية ، والنساء الحسان ، والخدم ، والولدان ، والأنهار السارحة ، والمناظر الرائقة ، والجمال الحسى والمعنوى ، والنعمة الدائمة .

وأعلى ذلك وأفضله وأجله ، التنعم بالقرب من الرحمن [ونيل رضاه ، الذى هو أكبر نعيم الجنان ، والتمتع برؤية وجهه الكريم ، وسماع كلام الرءوف الرحيم .

فلله تلك الضيافة ، ما أجلها وأجملها ، وأدومها ، وأكملها !!

وهى أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق ، أو تخطر على القلوب .

فلو علم العباد بعض ذلك النعيم ، علماً حقيقياً ، يصل إلى قلوبهم ، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق ، ولتقطعت أرواحهم ، من ألم الفراق ، ولساروا إليها زرافات ووحداناً .

ولم يؤثروا عليها دنيا فانية ، ولذات منغصة متلاشية .

ولم يفوتوا أوقاتاً ، تذهب ضائعة خاسرة ، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب . آلاف مؤلفة .

ولكن الغفلة شملت . والإيمان ضعف ، والعلم قلّ ، والإرادة وهَتْ فكان ما كان ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقوله [خالدين فيها] هذا هو تمام النعيم ، إن فيها ، النعم الكامل ، ومن تمامه أنه لا ينقطع [لا يبغون عنها حولا] .

أى : تحولا ولا انتقالا ، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم ، ويسرهم ويفرحهم ، ولا يرون نعيما فوق ما هم فيه .

﴿قُلْ لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾

---

* أى قل لهم — مخبراً عن عظمة البارى ، وسعة صفاته ، وأنها لا يحيط العباد بشىء منها : [لو كان البحر] أى هذه الأبحر الموجودة فى العالم .

[مداداً لكلمات ربى] أى : وأشجار الدنيا ، من أولها إلى آخرها ، من أشجار البلدان والبرارى ، والبحار ، أقلام .

[لنفد البحر] وتكسرت الأقلام [قبل أن تنفد كلمات ربى] وهذا شىء عظيم ، لا يحيط به أحد .

وفى الآية الأخرى « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » .

وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان ، لأن هذه الأشياء مخلوقة ، وجميع المخلوقات ، منقضية منتهية .

وأما كلام الله ، فإنه من جملة صفاته ، وصفاته غير مخلوقة ، ولا لها حد ولا منتهى .

فأىُّ سعة وعظمة تصورتها القلوب ، فالله فوق ذلك .

وهكذا سائر صفات الله تعالى ، كعلمه ، وحكمته ، وقدرته ، ورحمته .

فلو جمع علم الخلائق ، من الأولين والآخرين ، أهل السموات وأهل

۞ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا

الأرض ، لكان بالنسبة إلى علم العظيم ، أقل[1] من نسبة عصفور ، وقع على حافة البحر ، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته .

ذلك بأن الله ، له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة ، وأن إلى ربك المنتهى .

* أى : (قل) يا محمد للكفاو وغيرهم : [إنما أنا بشر مثلكم] أى : لست بإله ، ولا لى شركة فى الملك ، ولا علم بالغيب ، ولا عندى خزائن الله .

(إنما أنا بشر مثلكم) عبد من عبيد ربى ، [يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد] أى : فضلت عليكم بالوحى ، الذى يوحيه إلى ، الذى أَجَلُّهُ الإخبار لكم ، أنما إلهكم إله واحد ، أى : لا شريك له ، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة ، وأدعوكم إلى العمل الذى يقربكم منه ، وينيلكم ثوابه ، ويدفع عنكم عقابه . ولهذا قال :

[فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً] وهو الموافق لشرع الله ، من واجب ومستحب .

---

(١) قوله « أقل من نسبة عصفور الخ » لا يخفى ما فى هذا التعبير من الخلل . ولو قال « أقل من نسبة نقطة إلى البحر أخذها عصفور منه بمنقاره » لكان أوجز وأوضح .

وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

[ولا يشرك بعبادة ربه أحداً] أى : لا يرائى بعمله ، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى .

فهذا الذى جمع بين الإخلاص والمتابعة ، هو الذى ينال ما يرجو ويطلب .

وأما من عدا ذلك ، فإنه خاسر فى دنياه وأخراه ، وقد فاته القرب من مولاه ، ونيل رضاه .

آخر تفسير سورة الكهف ، ولله الحمد .

تفســـير

سورة مريم

بسم الله الرحمن الرحيم

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾

أى : هذا (ذكر رحمة ربك عبده زكريا] سنقصه عليك ، ونفصله تفصيلا ، يعرف به حالة نبيه زكريا ، وآثاره الصالحة ، ومناقبه الجميلة .

فإن فى قصها عبرة للمعتبرين ، وأسوة للمقتدين .

ولأن فى تفصيل رحمته لأوليائه ، وبأى سبب حصلت لهم ، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته ، والسبب الموصل إليه .

وذلك أن الله تعالى، اجتبى واصطفى ، زكريا عليه السلام لرسالته ، وخصه بوحيه .

فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين ، ودعا العباد إلى ربه ، وعلمهم ما علمه الله ، ونصح لهم فى حياته وبعد مماته ، كإخوانه من المرسلين ، ومن اتبعهم .

فلما رأى من نفسه الضعف ، وخاف أن يموت ، ولم يكن أحد ينوب منابه فى دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم ، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ

والباطن ، وناداه نداء خفيا ، ليكون أكمل ، وأفضل ، وأتم إخلاصاً فقال :

[رب إنى وهن العظم منى] أى : وَهِىَ وضعف ، وإذا ضعف العظم ، الذى هو عماد البدن ، ضعف غيره .

[واشتعل الرأس شيباً] لأن الشيب دليل الضعف والكبر ، ورسول الموت ، ورائده ، ونذيره .

فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه ، وهذا من أحب الوسائل إلى الله ، لأنه يدل التَّبرِّى من الحول والقوة ، وتعلق القلب بحول الله وقوته .

[ولم أكن بدعائك رب شقيا] أى : لم تكن يارب تردنى خائباً ولا محروماً من الإجابة .

بل لم تزل بى حفياً ، ولدعائى مجيباً .

ولم تزل ألطافك تتوالى علىَّ ، وإحسانك واصلا إلىَّ .

وهذا توسل إلى الله ، بإنعامه عليه ، وإجابة دعواته السابقة .

فسأل الذى أحسن سابقاً ، أن يتمم إحسانه لاحقاً .

[وإنى خفت الموالى من ورائى] أى : وإنى خفت من يتولى على بنى إسرائيل من بعد موتى ، أى : لا يقوموا بدينك حق القيام ، ولا يدعوا عبادك إليك .

مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

وظاهر هذا ، أنه لم ير فيهم أحداً ، فيه لياقة للإمامة فى الدين .

وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ، ونصحه . وأن طلبه للولد ، ليس كطلب غيره ، قصده مجرد المصلحة الدنيوية ، وإنما قصده ، مصلحة الدين ، والخوف من ضياعه ، ورأى غيره ، غير صالح لذلك .

وكان بيته من البيوت المشهورة فى الدين ، ومعدن الرسالة ، ومظنة للخير.

فدعا الله أن يرزقه ولداً ، يقوم بالدين من بعده .

واشتكى أن امرأته عاقر ، أى ليست تلد أصلا ، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً ، أى : عمرا يندر معه وجود الشهوة والولد .

[فهب لى من لدنك ولياً] وهذه الولاية ، ولاية الدين ، وميراث النبوة والعلم والعمل .

ولهذا قال : [يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا] أى : عبدا صالحا ترضاه ، وتحببه إلى عبادك .

والحاصل أنه سأل الله ولدا ، ذكرا ، صالحا ، يبقى بعد موته ، ويكون وليا من بعده ، ويكون نبيا مرضيا عند الله وعند خلقه ، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد .

ومن رحمة الله بعبده ، أن يرزقه ولدا صالحا ، جامعا لمكارم الأخلاق ، ومحامد الشيم .

فرحمه ربه ، واستجاب دعوته فقال : [يازكريا] إلى [وعشيا] .

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى

أى : بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له « يحيى ».

وكان اسماً موافقا لمسماه : يحيا حياة حسية ، فتتم به المنة ، ويحيا حياة معنوية ، وهى حياة القلب والروح ، بالوحى والعلم والدين .

[لم نجعل له من قبل سمياً] أى : لم يسم هذا الاسم قبله أحد .

ويحتمل أن المعنى : لم نجعل له من قبل مثيلا ومسامياً .

فيكون ، بشارة بكماله ، واتصافه بالصفات الحميدة ، وأنه فاق من قبله .

ولكن على هذا الاحتمال[1] هذا العموم ، لا بد أن يكون مخصوصاً بإبراهيم ، وموسى ، ونوح عليهم الصلاة والسلام ، ونحوهم ، ممن هو أفضل من يحيي قطعاً .

فحينئذ لما جاءته البشارة بهذا المولود ، الذى طلبه ، استغرب وتعجب وقال :

[رب أنى يكون لى غلام] والحال أن المانع من وجود الولد، موجود بي وبزوجتي ؟

---

(١) قوله (ولكن على هذا الاحتمال هذا العموم الخ) تعبير قلق . ولو قال « ولكن هذا الاحتمال عام لا بد أن يخصص لئلا يلزم المحذور لأنه يلزم أنه أفضل من نوح وإبراهيم وموسى، والواقع أنهم أفضل من يحيي» لكان أسلس أسلوبا وأوضح للمعنى .

عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

وكأنه وقت دعائه ، لم يستحضر هذا المانع ، لقوة الوارد فى قلبه ، وشدة الحرص العظيم على الولد .

وفى هذه الحال ، حين قبلت دعوته ، تعجب من ذلك ، فأجابه الله بقوله :

[كذلك قال ربك هو على هين] أى : الأمر مستغرب فى العادة ، وفى سنة الله فى الخليقة ، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاده بدون أسبابها فذلك هين عليه ، ليس بأصعب من إيجاده قَبْلُ ، ولم يكن شيئاً .

[قال رب اجعل لى آية] أى : يطمئن بها قلبى .

وليس هذا شكا فى خبر الله ، وإنما هو ، كما قال الخليل عليه السلام «رب أرنى كيف تحيي الموت ، قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى» فطلب زيادة العلم ، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين ، فأجابه الله إلى طلبته ، رحمة به .

[قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا] وفى الآية الأخرى « ثلاثة أيام إلا رمزا » .

والمعنى واحد ، لأنه تارة يعبر بالليالى ، وتارة بالأيام ومؤداها واحد .

وهذا من الآيات العجيبة ، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام ، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة ، بل كان سويا ، لا نقص فيه — من الأدلة

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ

على قدرة الله الخارقة للعوائد ، ومع هذا ، ممنوع من الكلام ، الذى يتعلق بالآدميين وخطابهم .

وأما التسبيح ، والذكر ونحوه ، فغير ممنوع منه .

ولهذا قال فى الآية الأخرى « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإشراق » .

فاطمأن قلبه ، واستبشر بهذه البشارة العظيمة ، وامتثل لأمر الله له ، بالشكر ، بعبادته وذكره .

فعكف فى محرابه ، وخرج على قومه منه ، فأوحى إليهم .

أى : بالإشارة والرمز [أن سبحوا بكرة وعشيا] لأن البشارة بـ « يحيى » فى حق الجميع ، مصلحة دينية .

* دل الكلام السابق ، على ولادة يحيى ، وشبابه ، وتربيته .

فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب ، أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة ، أى : بجد واجتهاد .

وذلك بالاجتهاد فى حفظ ألفاظه ، وفهم معانيه ، والعمل بأوامره ونواهيه .

هذا تمام أخذ الكتاب بقوة .

فامتثل أمر ربه ، وأقبل على الكتاب ، لحفظه وفهمه ، وجعل الله فيه

صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

من الذكاء والفطنة ، ما لا يوجد فى غيره ولهذا قال: [وآتيناه الحكم صبيا].

[و]آتيناه أيضا [حنانا من لدنا] أى :رحمة ورأفة، تيسرت بها أموره ، وصلحت بها أحواله ، واستقامت بها أفعاله .

[وزكاة] أى : طهارة من الآفات والذنوب ، فطهر قلبه ، وتزكى عقله ، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة ، والأخلاق الرديئة ، وزيادة الأخلاق الحسنة ، والأوصاف المحمودة ، ولهذا قال :

[وكان تقيا] أى : فاعلا للمأمور ، تاركا المحظور .

ومن كان مؤمنا تقيا ، كان لله وليا ، وكان من أهل الجنة ، التى أعدت للمتقين .

وحصل له من الثواب الدنيوى والأخروى ، مارتبه الله على التقوى .

[و]كان أيضا [براً بوالديه] أى لم يكن عاقا ، ولا مسيئا إلى أبويه ، بل كان محسنا إليهما بالقول والفعل .

[ولم يكن جبارا عصيا] أى لم يكن متجبرا متكبرا عن عبادة الله ، ولا مترفعا عل عباد الله ، ولا على والديه .

فجمع بين القيام بحق الله ، وحق خلقه ، ولهذا حصلت له السلامة من الله ، فى جميع أحواله ، مبادئها وعواقبها .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا

فلذا قال : [وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا] وذلك يقتضى سلامته من الشيطان ، والشر ، والعقاب فى هذه الأحوال الثلاثة وما بينها ، وأنه سالم من النار والأهوال ، ومن أهل دار السلام .

فصلوات الله وسلامه عليه ، وعلى والده ، وعلى سائر المرسلين ، وجعلنا من أتباعهم ، إنه جواد كريم .

* لما ذكر قصة زكريا ويحيى ، وكانت من الآيات العجيبة ، انتقل ، منها إلى ما هو أعجب منها ، تدريجا من الأدنى إلى الأعلى فقال :

[واذكر فى الكتاب] الكريم [مريم] عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها ، أن تذكر فى الكتاب العظيم ، الذى يتلوه المسلمون ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، تذكر فيه بأحسن الذكر ، وأفضل الثناء ، جزاء لعملها الفاضل ، وسعيها الكامل .

أى : واذكر فى الكتاب مريم ، فى حالها الحسنة ، حين [انتبذت] أى : تباعدت عن أهلها [مكانا شرقيا] أى : مما يلى الشرق عنهم .

[فاتخذت من دونهم حجابا] أى : سترا ومانعا .

وهذا التباعد منها ، واتخاذ الحجاب ، لتعتزل ، وتنفرد بعبادة ربها ، وتقنت له فى حالة الإخلاص والخضوع ، والذل لله تعالى ، وذلك امتثال منها لقوله تعالى :

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا

« وإذ قالت الملائكة : يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » .

[فأرسلنا إليها روحنا] وهو : جبريل عليه السلام [فتمثل لها بشرا سويا] أى : كاملا من الرجال ، فى صورة جميلة ، وهيئة حسنة ، لا عيب فيه ولا نقص ، لكونها لاتحتمل رؤيته على ماهو عليه .

فلما رأته فى هذه الحال ، وهى معتزلة عن أهلها ، منفردة عن الناس ، قد اتخذت الحجاب عن أعزالناس عليها ،وهم أهلها ، خافت أن يكون رجلا قد تعرض لها بسوء ، وطمع فيها ، فاعتصمت بربها ، واستعاذت منه فقالت له :

[إنى أعوذ بالرحمن منك] أى . ألتجىء به وأعتصم برحمته ، أن تنالنى بسوء .

[إن كنت تقيا] أى : إن كنت تخاف الله ، وتعمل بتقواه ، فاترك التعرض لى .

فجمعت بين الاعتصام بربها ، وبين تخويفه وترهيبه ، وأمره بلزوم التقوى ، وهى فى تلك الحالة الخالية ، والشباب ، والبعد عن الناس .

وهو فى ذلك الجمال الباهر ، والبشرية الكاملة السوية ، ولم ينطق لها بسوء ، أو يتعرض لها .

وإنما ذلك خوف منها ، وهذا أبلغ ما يكون من العفة ، والبعد عن الشر وأسبابه .

زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً

وهذه العفة — خصوصا مع اجتماع الدواعى ، وعدم المانع — من أفضل الأعمال .

ولذلك أثنى الله عليها فقال : « ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا » ، « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين » .

فأعاضها الله بعفتها ، ولدا من آيات الله ، ورسولا من رسله .

فلما رأى جبريل منها الروع والخيفة ، قال : [إنما أنا رسول ربك] أى ، إنما وظيفتى وشغلى ، تنفيذ رسالة ربى فيك [لأهب لك غلاما زكيا] .

وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكائه ، فإن الزكاء ، يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة ، واتصافه بالخصال الحميدة .

فتعجبت من وجود الولد من غير أب فقالت : [أنى يكون لى غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا] والولد لا يوجد إلا بذلك ؟ ! ! .

[قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس] تدل على قدرة الله تعالى ، وعلى أن الأسباب جميعها ، لا تستقل بالتأثير ، وإنما تأثيرها بتقدير الله .

فيرى عباده خرق العوائد فى بعض الأسباب العادية ، لئلا يقفوا مع الأسباب ، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسببها [ورحمة منا] ولنجعله رحمة منا به ، وبوالدته ، وبالناس .

لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ

أما رحمة الله به ، فلما خصه الله بوحيه ومَنّ عليه بما منّ به على أولى العزم .

وأما رحمته بوالدته ، فلما حصل لها من الفخر ، والثناء الحسن ، والمنافع العظيمة .

وأما رحمته بالناس ، فإن أكبر نعمه عليهم ، أن بعث فيهم رسولا ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فيؤمنون به ، ويطيعونه ، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة .

[وكان] أى:وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة [أمرا مقضيا] قضاء سابقا ، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضا، فنفخ جبريل عليه السلام فى جيبها .

☆ أى : لما حملت بعيسى عليه السلام ، خافت من الفضيحة ، فتباعدت عن الناس [مكانا قصيا] .

فلما قرب ولادها ، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة .

فلما آلمها وجع الولادة ، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب ، ووجع قلبها من قالة الناس ، وخافت عدم صبرها ، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث ، وكانت نسيا منسيا ، فلا تذكر .

نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

وهذا التمني بناء على ذلك المزعج ، وليس فى هذه الأمنية خير لها ، ولا مصلحة ،

وإنما الخير والمصلحة ، بتقدير ما حصل فحينئذ سكّن الملك روعها (١) وثبّت جأشها(٢) وناداها من تحتها ، لعله من مكان أنْزَلَ من مكانها ، وقال لها : لا تحزنى ، أى : لا تجزعى ولا تهتمى ، ف[قد جعل ربك تحتك سريا] أى : نهراً تشربين منه .

[وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيًّا] أى : طريا لذيذا نافعا [فكلى] من التمر ، [واشربى] من النهر [وقرى عينا بعيسى] .

فهذا طمأ نينتها من جهة السلامة من ألم الولادة ، وحصول المأكل والمشرب الهنيّ .

---

(١) قوله : روعها . بضم الراء . أى : قلبها . وفى المصباح « الروع » بضم الراء ـــ : الخاطر والقلب .

(٢) قوله « جأشها » أى : قلبها . قال فى النهاية : الجأش: القلب والنفس والجنان يقال : فلان رابط الجأش . أى ثابت القلب لا يرتاع للعظائم والشدائد « وفى المختار من الصحاح « الجأش: رواع القلب أى: خوفه ، إذا اضطرب عند الفزع ، ونفس الإنسان »

ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴿٢٦﴾

فَأَتَتۡ بِهِۦ قَوۡمَهَا تَحۡمِلُهُۥۖ قَالُواْ يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ

وأما من جهة قالة الناس ، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر ، أن تقول على وجه الإشارة : [إنى نذرت للرحمن صوما] أى سكوتا [فلن أكلم اليوم إنسيا] أى : لا تخاطبيهم بكلام ، لتستريحى من قولهم وكلامهم .

وكان معروفا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة .

وإنما لم تؤمر بمخاطبتهم فى نفْيِ ذلك عن نفسها لأن الناس لايصدقونها، ولا فيه فائدة ، وليكون تبرئتها بكلام عيسى فى المهد ، أعظم شاهد على براءتها .

فإن إتيان المرأة بولد ، من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد ، من أكبر الدعاوى ، التى لو أقيم عليها عدة من الشهود ، لم تصدق بذلك .

فجعلت بينة هذا الخارق للعادة ، أمرا من جنسه ، وهو كلام عيسى فى حال صغره جدا ، ولهذا قال تعالى : [فأتت به] إلى [أبعث حيا]

* أى : فلما تعلت مريم من نفاسها ، أتت بعيسى قومها تحمله ، وذلك ، لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها ، فأتت غير مبالية ولا مكترثة .

فقالوا : [لقد جئت شيئا فريا] أى: عظيما وخيا وأرادوا بذلك : البغاء حاشاها من ذلك .

شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ

[يا أخت هرون] الظاهر ، أنه أخ لها حقيقى ، فنسبوها إليه .

[ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا] أى : لم يكن أبواك إلا صالحين سالمين من الشر ، وخصوصا هذا الشر ، الذى يشيرون إليه .

وقصدهم : فكيف كنت على غير وصفهما ؟ وأتيت بما لم يأتيا به ؟ .

وذلك أن الذرية — فى الغالب — بعضها من بعض ، فى الصلاح وضده .

فتعجبوا — بحسب ما قام بقلوبهم — كيف وقع منها ، فأشارت لهم إليه ، أى كلموه .

وإنما أشارت لذلك ، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها ، أن ، تقول : [إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا] .

فلما أشارت إليهم بتكليمه ، تعجبوا من ذلك وقالوا : [كيف نكلم من كان فى المهد صبيا] لأن ذلك لم تجر به عادة ، ولا حصل من أحد فى ذلك السن .

فحينئذ قال عيسى عليه السلام ، وهو فى المهد صبى : [إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا]

فخاطبهم بوصفه بالعبودية ، وأنه ليس فيه صفة ، يستحق بها أن يكون إلها ، أو ابنا للإله ، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى — فى قوله [إنى عبد الله] ومدعون موافقته

وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

[آتانى الكتاب] أى : قضى أن يؤتينى الكتاب [وجعلنى نبيا] فأخبرهم بأنه عبد الله ، وأن الله علمه الكتاب ، وجعله من جملة أنبيائه ، فهذا من كماله لنفسه .

ثم ذكر تكميله لغيره فقال : [وجعلني مباركا أينما كنت] أى : فى أى مكان ، وأى زمان .

فالبركة جعلها الله فىَّ من تعليم الخير والدعوة إليه ، والنهى عن الشر ، والدّعوة إلى الله فى أقواله ، وأفعاله فكل من جالسه ، أو اجتمع به ، نالته بركته ، وسعد به مصاحبه .

[وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا] أى : أوصانى بالقيام بحقوقه ، التى من أعظمها الصلاة ، وحقوق عباده ، التى أجلها الزكاة ، مدة حياتى ، أى : فأنا ممتثل لوصية ربى ، عامل عليها ، منفذ لها .

وأوصانى أيضاً ، أن أبر والدتى فأحسن إليها غاية الإحسان ، وأقوم بما ينبغى لها ، لشرفها وفضلها ، ولكونها والدة ، لها حق الولادة وتوابعها .

[ولم يجعلنى جبارا] أى : متكبرا على الله ، مترفعا على عباده [شقيا] فى دنياى وأخراى ، فلم يجلعنى كذلك بل جعلنى مطيعا له خاضعا خاشعا متذللا ، متواضعا لعباد الله ، سعيدا فى الدنيا والآخرة ، أنا ومن اتبعنى .

فلما تم له الكمال ، ومحامد الخصال قال : [وسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا] أى : من فضل ربى وكرمه ، حصلت لى

جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ

السلامة يوم ولادتى ، ويوم بعثى — من الشر ، والشيطان والعقوبة .

وذلك يقتضى سلامته من الأهوال ، ودار الفجار ، وأنه من أهل دار السلام .

فهذه معجزة عظيمة،وبرهان باهر ، على أنه رسول الله ، وعبد الله حقا .

* أى : ذلك الموصوف بتلك الصفات ، عيسى بن مريم ، من غير شك ولا مرية . بل قول الحق ، وكلام الله ، الذى لا أصدق منه قيلا ، ولا أحسن منه حديثا .

فهذا الخبر اليقينى ، عن عيسى عليه السلام ، وما قيل فيه مما يخالف هذا ، فإنه مقطوع ببطلانه .

وغايته أن يكون شكا من قائله لا علم له به ، ولهذا قال : [الذى فيه يمترون] أى : يشكون فيمارون بشكهم ، ويجادلون بخرصهم

فمن قائل عنه : إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن إفكهم وتقوُّلهم ، علوا كبيرا .

فـ [ما كان لله أن يتخذ من ولد] أى : ما ينبغى ولا يليق ، لأن ذلك من الأمور المستحيلة ، لأنه الغني الحميد ، المالك لجميع الممالك ، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ، ولدا ؟!!

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾

[سبحانه] أى : تنزه وتقدس عن الولد والنقص .

[إذا قضى أمرا] أى من الأمور الصغار والكبار ، لم يمتنع ، عليه ولم يستصعب [فإنما يقول له كن فيكون] .

فإذا كان قدره ومشيئته نافذا فى العالم العلوى والسفلى ، فكيف يكون له ولد ؟ ! ! .

وإذا كان إذا أراد شيئا قال له: « كن ، فيكون» فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب ؟ ! ! .

ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره فقال : [وإن الله ربى وربكم] الذى خلقنا ، وصورنا ، ونفذ فينا تدبيره ، وصرفنا تقديره .

[فاعبدوه] أى : أخلصوا له العبادة ، واجتهدوا فى الإنابة .

وفى هذا ، الإقرار بتوحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، والاستدلال بالأول على الثانى .

ولهذا قال : [هذا صراط مستقيم] أى : طريق معتدل ، موصل إلى الله ، لكونه طريق الرسل وأتباعهم ، وما عدا هذا ، فإنه من طرق الغىّ والضلال .

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ

---

* لما بين تعالى حال عيسى بن مريم الذى لايُشَكُّ فيها ولايمترى ، أخبر أن الأحزاب ، أى : فرق الضلال ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، على اختلاف طبقاتهم — اختلفوا فى عيسى عليه السلام ، فمن غالٍ فيه وجافٍ .

فمنهم من قال : إنه الله ، ومنهم من قال : إنه ابن الله .

ومنهم من قال : إنه ثالث ثلاثة .

ومنهم من لم يجعله رسولا ، بل رماه بأنه ولد بَغِيٍّ كاليهود .

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة ، وآراؤهم فاسدة ، مبنية على الشك والعناد ، والأدلة الفاسدة ، والشبه الكاسدة ، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد ، ولهذا قال :

[فويل للذين كفروا] بالله ورسله ، وكتبه . ويدخل فيهم ، اليهود والنصارى ، القائلون بعيسى قول الكفر .

[من مشهد يوم عظيم] أى : مشهد يوم القيامة ، الذى يشهده الأولون والآخرون ، أهل السموات ، وأهل الأرض ، الخالق والمخلوق ، الممتلىء بالزلازل والأهوال المشتمل على الجزاء بالأعمال .

فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون ، وما كانوا يكتمون .

[أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا] أى : ما أسمعهم وما أبصرهم فى ذلك اليوم ؟ ! .

فيقررون بكفرهم وشركهم ، وأقوالهم ويقولون : « ربنا أبصرنا وسمعنا

ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ

فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » فنى القيامة ، يستيقنون حقيقة ماهم عليه .

[لـكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين] وليس لهم عذر فى هذا الضلال ، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة ، عارف بالحق ، صادف عنه ، وبين ضال عن طريق الحق ، متمكن من معرفة الحق والصواب ، ولـكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله ، غير ساع فى معرفة الحق من الباطل .

وتأمل كيف قال : [فويل للذين كفروا] بعد قوله [فاختلف الأحزاب من بينهم] .

ولم يقل « فويل لهم » ليعود الضمير إلى الأحزاب ، لأن من الأحزاب المختلفين ، طائفة أصابت الصواب ، ووافقت الحق فقالت فى عيسى : « إنه عبدالله ورسوله » فآمنوا به ، واتبعوه .

فهؤلاء مؤمنون ، غير داخلين فى هذا الوعيد ، فلهذا خص الله بالوعيد الـكافرين .

* الإنذار هو : الإعلام بالخوف على وجه الترهيب ، والإخبار بصفاته ، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر ، فيجمع الأولون والآخرون فى موقف واحد ، ويسألون عن أعمالهم .

فمن آمن بالله ، واتبع رسله ، سعد سعادة لايشقى بعدها .

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شَقِىَ شقاء لايسعد بعدها ، وخسر نفسه وأهله .

فحينئذ يتحسر ويندم ندامة ، تنقطع منها القلوب ، وتتصدع منها الأفئدة .

وأى : حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته ، واستحقاق سخطه والنار ، على وجه لايتمكن الرجوع ، ليستأنف العمل ولاسبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا ؟ ! !

فهذا قدامهم ، والحال أنهم فى الدنيا فى غفلة عن هذا الأمر العظيم لايخطر بقلوبهم ، ولو خطر ، فعلى سبيل الغفلة ، قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكرة ، فهم لايؤمنون بالله ، ولا يتبعون رسله .

قد ألهتهم دنياهم ، وحالت بينهم وبين الإيمان ، شهواتهم المنقضية الفانية .

فالدنيا وما فيها ، من أولها إلى آخرها ، ستذهب عن أهلها ، ويذهبون عنها ، وسيرث الله الأرض ومن عليها ، ويرجعهم إليه ، فيجازيهم بما عملوا فيها ، وما خسروا فيها أو ربحوا .

فمن عمل خيرا ، فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومنَّ إلا نفسه .

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا

* أجل الكتب وأفضلها وأعلاها ، هذا الكتاب المبين ، والذكر الحكيم .

فإن ذُكِرَ فيه الأخبار ، كانت أصدق الأخبار ، وأحقها ، وأنفعها .

وإن ذُكِرَ فيه الأمر والنهى ، كانت أجل الأوامر والنواهى ، وأعدلها وأقسطها .

وإن ذكر فيه الجزاء ، والوعد والوعيد ، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة ، والعدل والفضل .

وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون ، كان المذكور فيه ، أكمل من غيره ، وأفضل .

ولهذا كثيرا مايبدىء ويعيد فى قصص الأنبياء ، الذين فضلهم على غيرهم ، ورفع قدرهم ، وأعلى أمرهم ، بسبب ماقاموا به ، من عبادة الله ومحبته ، والإنابة إليه ، والقيام بحقوقه ، وحقوق العباد ، ودعوة الخلق إلى الله ، والصبر على ذلك ، والمقامات الفاخرة ، والمنازل العالية .

فذكر الله فى هذه السورة ، جملة من الأنبياء ، يأمر الله رسوله أن يذكرهم .

لأن فى ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم ، وبيان فضله وإحسانه إليهم .

وفيه الحث على الإيمان بهم ، ومحبتهم ، والاقتداء بهم ، فقال :

[واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا] جمع الله له بين الصديقية والنبوة .

نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ

فالصديق : كثير الصدق ، فهو الصادق فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله المصدق بكل ما أمر بالتصديق به .

وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب ، المؤثر فيه ، الموجب لليقين ، والعمل الصالح الكامل .

وإبراهيم عليه السلام ، هو أفضل الأنبياء كلهم ، بعد محمد صلى الله عليه وسلم .

وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة .

وهو الذى جعل الله فى ذريته النبوة والكتاب .

وهو الذى دعا الخلق إلى الله ، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم .

فدعا القريب والبعيد ، واجتهد فى دعوة أبيه ، مهما أمكنه .

وذكر الله مراجعته إياه فقال : [إذ قال لأبيه] مهجنا له عبادة الأوثان [يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئا] .

أى : لم تعبد أصناما ، ناقصة فى ذاتها ، وفى أفعالها ، فلا تسمع ، ولا تبصر ولا تملك لعابدها ، نفعا ولا ضرا ، بل لاتملك لأنفسها شيئا من النفع ، ولاتقدر على شىء من الدفع .

فهذا برهان جلىٌّ دال ، على أن عبادة الناقص ، فى ذاته ، وأفعاله ، مستقبح ، عقلا وشرعا .

مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ

ودل تنبيهه وإشارته ، أن الذى يجب ، ويحسن ، عبادة من له الكمال الذى ، لا ينال العباد نعمة إلا منه ، ولا يدفع عنهم نقمة ، إلا هو ، وهو الله تعالى .

[يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك] أى : يا أبت لا تحقرنى وتقول : إنى ابنك ، وإن عندك ما ليس عندى ، بل قد أعطانى الله من العلم ، مالم يعطك .

والمقصود من هذا قوله : [فاتبعنى أهدك صراطا سويا] أى : مستقيما معتدلا ، وهو : عبادة الله وحده لاشريك له ، وطاعته فى جميع الأحوال .

وفى هذا من لطف الخطاب ولينه ، مالا يخفى ؛ فإنه لم يقل « يا أبت أنا عالم ، وأنت جاهل » أو « ليس عندك من العلم شىء » .

وإنما أتى بصيغة أن عندى وعندك علما ، وأن الذى وصل إلىّ لم يصل إليك ، ولم يأتك .

فينبغى لك أن تتبع الحجة ، وتنقاد لها .

[يا أبت لاتعبد الشيطان] لأن من عبد غير الله ، فقد عبد الشيطان كما قال تعالى « ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

[إن الشيطان كان للرحمن عصيا] فمن اتبع خطواته ، فقد اتخذه ولياً وكان عاصيا لله بمنزلة الشيطان .

أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ

وفى ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن ، إشارة إلى أن المعاصى ، تمنع العبد من رحمة الله ، وتغلق عليه أبوابها .

كما أن الطاعة ، أكبر الأسباب لنيل رحمته ، ولهذا قال :

[يا أبت إنِّى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن] أى : بسبب إصرارك على الكفر ، وتماديك فى الطغيان [فتكون للشيطان ولياً] أى : فى الدنيا والآخرة ، فتنزل بمنازله الذميمة ، وترتع فى مراتعه الوخيمة .

فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه ، بالأسهل فالأسهل .

فأخبره بعلمه ، وأن ذلك ، موجب لاتباعك إياى وأنك إن أطعتنى ، اهتديت إلى صراط مستقيم .

ثم نهاه عن عبادة الشيطان ، وأخبره بما فيها من المضار .

ثم حذره عقاب الله ونقمته ، إن أقام على حاله ، وأنه يكون ولياً للشيطان .

فلم ينجع هذا الدعاء ، بذلك الشقىّ ، فأجاب بجواب جاهل وقال :

[أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم] فتبجح بآلهته ، التى هى من الحجر والأصنام .

ولام إبراهيم عن رغبته عنها ، وهذا من الجهل المفرط ، والكفر الوخيم ، يتمدح بعبادة الأوثان ، ويدعو إليها .

وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

[لئن لم تنته] أى : عن شتم آلهتى ، ودعوتى إلى عبادة الله [لأرجمنك] أى : قتلا بالحجارة [واهجرنى مليا] أي : لا تكلمنى زماناً طويلا .

فأجابه الخليل ، جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين ، ولم يشتمه بل صبر ، ولم يقابل أباه بما يكره ، وقال : [سلام عليك] أى : ستسلم من خطابى إياك بالشتم والسب ، وبما تكره .

[سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا] أى : لا أزال أدعو الله لك بالهداية والمغفرة ، بأن يهديك للإسلام ، الذى به تحصل المغفرة .

فـ[إنه كان بى حفيا] أى : رحيما رءوفا بحالى ، معتنيا بى .

فلم يزل يستغفر الله له ، رجاء أن يهديه الله .

فلما تبين له أنه عدو لله ، وأنه لا يفيد فيه شيئا ، ترك الاستغفار له ، وتبرأ منه .

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم ، فمن اتباع ملته ، سلوك طريقه فى الدعوة إلى الله ، بطريق العلم والحكمة ، واللين والسهولة ، والانتقال من رتبة إلى رتبة ، والصبر على ذلك ، وعدم السآمة منه ، والصبر على ما ينال الداعى من أذى الخلق ، بالقول والفعل ، ومقابلة ذلك ، بالصفح والعفو ، بل بالإحسان القولى والفعلى .

فلما أيس من قومه وأبيه قال : [وأعتزلكم وما تدعون من دون الله]

وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ

أى : أنتم وأصنامكم [وأدعو ربى] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسئلة [عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا] أى : عسى الله أن يسعدنى ، بإجابة دعائى ، وقبول أعمالى .

وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم ، فاتبعوا أهواءهم ، فلم تنجع فيهم المواعظ ، فأصروا فى طغيانهم يعمهون .

« فمن وقع فى هذه الحال فعليه »(١) أن يشتغل بإصلاح نفسه ، ويرجو القبول من ربه ، ويعتزل الشر وأهله .

ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومألفه وأهله وقومه ، من أشق شىء على النفس ، لأمور كثيرة معروفة ، ومنها انفراده عمن يتعزز بهم ويتكثر وكان من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه ، واعتزل إبراهيم قومه ، قال الله فى حقه :

[فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلا] من إسحق ويعقوب [جعلنا نبيا] لحصل له ولهؤلاء الصالحين المرسلين إلى الناس ، الذين خصهم الله بوحيه ، واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين .

[ووهبنا لهم] أى : لإبراهيم وابنيه ، إسحق ويعقوب [من رحمتنا] .

---

(١) مابين القوسين ، زيادة يقتضيها المقام ، لينتظم الكلام .

وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة ، من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة ، والذرية الكثيرة المنتشرة ، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون .

[وجعلنا لهم لسان صدق عليا] وهذا أيضا من الرحمة التى وهبها لهم ، لأن الله وعد كل محسن ، أن ينشر له ثناء صادقا بحسب إحسانه ، وهؤلاء من أئمة المحسنين ، فنشر الله الثناء الحسن الصادق،غير الكاذب ، العالى[1] غير الخفى فذكرهم ملأ الخافقين ، والثناء عليهم ومحبتهم ، امتلأت بها القلوب ، وفاضت بها الألسنة فصاروا قدوة للمقتدين ، وأئمة للمهتدين .

ولا تزال أذكارهم فى سائر العصور ، متجددة ، وذلك فضل الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(١) قوله « العالى » هكذا فى الأصل . ولو قال « الظاهر » بدل « العالى » لكان هو الصواب ، ولظهر جمال الطباق بين المتضادين وهما « الظاهر » و « الخفى » .

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ

---

* أى : واذكر فى هذا القرآن العظيم ، موسى بن عمران ، على وجه التبجيل له و التعظيم ، والتعريف بمقامه الكريم ، وأخلاقه الكاملة .

[إنه كان مخلصا] وقرىء بفتح اللام ، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه ، واصطفاه على العالمين .

وقرىء بكسرها ، على معنى أنه كان مخلصا لله تعالى ، فى جميع أعماله ، وأقواله ، ونياته .

فوصفه الإخلاص فى جميع أحواله ، والمعنيان متلازمان .

فإن الله أخلصه ، لإخلاصه ، وإخلاصه ، موجب لاستخلاصه .

وأجل حالة يوصف بها العبد ، الإخلاص منه ، والاستخلاص من ربه .

[وكان رسولا نبيا] أى : جمع الله له بين الرسالة والنبوة ، فالرسالة تقتضى تبليغ كلام المرسل ، وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع ، دقه وجله .

والنبوة ، تقتضى إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحى إليه .

فالنبوة ، بينه وبين ربه ، والرسالة ، بينه وبين الخلق ، بل خصه الله من أنواع الوحى ، بأجل أنواعه وأفضلها ، وهو : تكليمه تعالى وتقريبه مناجيا لله تعالى ، وبهذا اختص من بين الأنبياء ، بأنه كليم الرحمن ، ولهذا قال :

[وناديناه من جانب الطور الأيمن] أى : الأيمن من موسى فى وقت

نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

مسيره ، أو الأيمن أى : الأبرك من « الْيُمْنِ » والبركة .

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى : « أن بورك من فى النار ومن حولها » .

[وقربناه نجيا] والفرق بين النداء والنجاء ، أن النداء هو : الصوت الرفيع ، والنجاء ، مادون ذلك .

وفى هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه ، من النداء ، والنجاء ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، خلافا لمن أنكر ذلك ، من الجهمية ، والمعتزلة ، ومن نحا نحوهم .

وقوله : [ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا] هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ، ونصحه لأخيه هرون ، أنه سأل ربه أن يشركه فى أمره ، وأن يجعله رسولا مثله .

فاستجاب الله له ذلك ، ووهب له من رحمته ، أخاه هرون نبياً .

فنبوة هرون ، تابعة لنبوة موسى عليهما السلام ، فساعده على أمره ، وأعانه عليه .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

* أى : واذكر فى القرآن الكريم ، هذا النبى العظيم ، الذى خرج منه الشعب العربى ، أفضل الشعوب وأجلها ، الذين منهم سيد ولد آدم .

[إنه كان صادق الوعد] أى : لايعد وعداً ، إلا وفى به .

وهذا شامل للوعد الذى يعقده مع الله أو مع العباد .

ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه له قال « ستجدنى إن شاء الله من الصابرين » وفّى بذلك ومكّن أباه من الذبح ، الذى هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان .

ثم وصفه بالرسالة والنبوة ، التى هى أكبر منن الله على عبده ، وجعله من الطبقة العليا من الخلق .

[وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة] أى : كان مقيما لأمر الله على أهله فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود ، وبالزكاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد ، فكمل نفسه وكمل غيره وخصوصا أخص الناس عنده وهم أهله لأنهم أحق بدعوته من غيرهم .

[وكان عند ربه مرضيا] وذلك بسبب امتثاله لمراضى ربه واجتهاده فيما يرضيه ، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين ، فرضى الله عنه ، ورضى هو عن ربه .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ

---

* أى : اذكر فى الكتاب على وجه التعظيم والإجلال ، والوصف بصفات الكمال .

[إدريس إنه كان صديقا نبيا] جمع الله له بين الصديقية ، الجامعة للتصديق التام ، والعلم الكامل ، واليقين الثابت ، والعمل الصالح ، وبين اصطفائه لوحيه ، واختياره لرسالته .

[ورفعناه مكانا عليا] أى : رفع الله ذكره فى العالمين ، ومنزلته بين المقربين ، فكان عالى الذكر ، عالى المنزلة .

* لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين ، وخواص المرسلين ، وذكر فضائلهم ومراتبهم فقال : [أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين] .

أى : أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق ، ومِنَّةً لا تسبق ، من النبوة والرسالة .

وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعم عليهم ، وأن من أطاع الله ، كان « مع الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين » الآية.

وأن بعضهم [من ذرية آدم ، ممن حملنا مع نوح] أى : من ذريته [ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل] ، فهذه خير بيوت العالم ، اصطفاهم الله ، واختارهم ، واجتباهم .

وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ

وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم ، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب والإخبار باليوم الآخر ، والوعد والوعيد .

[خروا سجدا وبكيا] أى : خضعوا لآيات الله ، وخشعوا لها ، وأثرت فى قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ، ما أوجب لهم البكاء والإنابة ، والسجود لربهم .

ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله « خروا عليها صما وعميانا » .

وفى إضافة الآيات إلى اسمه « الرحمن » دلالة على أن آياته ، من رحمته بعباده ، وإحسانه إليهم حيث هداهم بها إلى الحق ، وبصرهم من العمى ، وأنقذهم من الضلالة ، وعلمهم من الجهالة .

* لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء وهم المخلصون المتبعون لمراضى ربهم ، المنيبون إليه .

ذكر من أتى بعدهم ، وبدّلوا ما أمِرُوا به ، وأنه خاف من بعدهم خلف ، رجعوا إلى الخلف والوراء ، فأضاعوا الصلاة ، التى أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها ، فتهاونوا بها وضيعوها .

وإذا ضيعوا الصلاة التى هى عماد الدين ، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين ، التى هى آكد الأعمال ، وأفضل الخصال ، كانوا لما سواها من دينهم ، أضيع ، وله أرفض .

ٱلشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ

والسبب الداعى لذلك ، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإرادتها فصارت هممهم منصرفة إليها ، مقدمة لها على حقوق الله .

فنشأ من ذلك،التضييع لحقوقه ، والإقبال على شهوات أنفسهم ، مهما لاحت لهم ، حصلوها ، وعلى أى وجه اتفقت ، تناولوها .

[فسوف يلقون غيا] أى : عذابا مضاعفا شديداً .

ثم استثنى تعالى فقال : [إلا من تاب] عن الشرك والبدع والمعاصى ، فأقلع عنها وندم عليها ، وعزم عزما جازما أن لا يعاودها .

[وآمن] بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

[وعمل صالحاً] وهو العمل الذي شرعه الله على ألسنة رسله ، إذا قصد به وجهه .

[فأولئك] الذى جمعوا بين التوبة والإيمان ، والعمل الصالح .

[يدخلون الجنة] المشتملة على النعيم المقيم ، والعيش السليم ، وجوار الرب الكريم .

[ولا يظلمون شيئا] من أعمالهم ، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها ، مضاعفا عددها .

ثم ذكر أن الجنة التى وعدهم بدخولها ، ليست كسائر الجنات .

وإنما هى [جنات عدن] أى : جنات إقامة ، لاظعن فيها ، ولاحوَلَ ولا زوال .

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ

وذلك لسعتها ، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور ، والبهجة والحبور .

[التى وعد الرحمن عباده بالغيب] ، أى : التى وعدها الرحمن .

أضافها إلى اسمه « الرحمن » لأن فيها من الرحمة والإحسان ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وسماها تعالى رحمته فقال « وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

وأيضا ففى إضافتها إلى رحمته ، مايدل على استمرار سرورها ، وأنها باقية ، ببقاء رحمته التى هى أثرها وموجبها .

و « العباد » فى هذه الآية المراد ، عباد إلهيته ، الذين عبدوه ، والتزموا شرائعه ، فصارت العبودية وصفا لهم كقوله « وعباد الرحمن » ونحوه .

بخلاف عباده المماليك فقط ، الذين لم يعبدوه .

فهؤلاء وإن كانوا عبيدا لربوبيه ، لأنه خلقهم ورزقهم ، ودبرهم ، فليسوا داخلين فى عبيد إلهيته ، العبودية الاختيارية ، التى يمدح صاحبها ، وإنما عبوديتهم ، عبودية اضطرار ، لا مدح لهم فيها .

وقوله [بالغيب] يحتمل أن تكون متعلقة بـ « وعد الرحمن » .

مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا

فيكون المعنى على هذا ، أن الله وعدهم إياها ، وعدا غائبا ، لم يشاهدوه ولم يروه .

فآمنوا بها ، وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيها ، مع أنهم لم يروها .

فكيف لو رأوها ، لكانوا أشد لها طلبا ، وأعظم فيها رغبة ، وأكثر لها سعيا .

ويكون فى هذا ، مدح لهم بإيمانهم بالغيب ، الذى هو الإيمان النافع .

ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده ، أى : الذين عبدوه فى حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه .

فهذه عبادتهم ولم يروه ، فلو رأوه ، لكانوا أشد له عبادة ، وأعظم إنابة ، وأكثر حبا ، وأجل شوقا .

ويحتمل أيضا ، أن المعنى : هذه الجنات التى وعدها الرحمن عباده ، من الأمور التى لا تدركها الأوصاف ، ولا يعلمها أحد إلا الله .

ففيه من التشويق لها ، والوصف المجمل ، ما يهيج النفوس ، ويزعج الساكن إلى طلبها .

فيكون هذا مثل قوله « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » والمعانى كلها صحيحة ثابتة .

ولكن الاحتمال الأول ، أولى بدليل قوله [إنه كان وعده مأتيا] لا بد من وقوعه ، فإنه لا يخلف الميعاد ، وهو أصدق القائلين .

[لا يسمعون فيها لغوا] أى : كلاما لاغيا ، لافائدة فيه ، ولا ما يؤثم .

بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

فلا يسمعون فيها شتما ، ولا عيبا ، ولا قولا فيه معصية لله ، أو قولا مكدراً .

[إلا سلاما] أى : الأقوال السالمة من كل عيب ، من ذكر لله ، وتحية ، وكلام سرور ، وبشارة ، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان وسماع خطاب الرحمن ، والأصوات الشجية ، من الحور ، والملائكة ، والولدان ، والنغمات المطربة ، والألفاظ الرخيمة ، لأن الدار ، دار السلام ، فليس فيها إلا السلام التام فى جميع الوجوه .

[ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا] أى : أرزاقهم من المآكل والمشارب ، وأنواع اللذات ، مستمرة حيثما طلبوا ، وفى أى وقت رغبوا .

ومن تمامها ، ولذتها ، وحسنها ، أن تكون فى أوقات معلومة .

[بكرة وعشياً] ليعظم وقعها ويتم نفعها .

فتلك الجنة التى وصفناها بما ذكر [التى نورث من عبادنا من كان تقيا] أى : نورثها المتقين ، ونجعلها منزلهم الدائم ، الذى لا يظعنون عنه ، ولا يبغون عنها حِوَلاً كما قال تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّمَٰوَٰتِ

---

* استبطأ النبي صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: « لو تأتينا أكثر مما تأتينا » ، شوقا إليه ، وتوحشا لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله .

فأنزل الله تعالى على لسان جبريل [وما نتنزل إلا بأمر ربك] أي : ليس لنا من الأمر شيء ، إن أمرنا ، ابتدرنا أمره ، ولم نعص له أمرا ، كما قال الله عنهم : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » فنحن عبيد مأمورون .

[له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك] أي : له الأمور الماضية والمستقبلة والحاضرة ، في الزمان ، والمكان .

فإذا تبين أن الأمر كله لله ، وأننا عبيد مدبرون ، فيبقى الأمر دائراً بين « هل تقتضيه الحكمة الإلهية » ؟ فينفذه ، أم لا تقتضيه فيؤخره » ؟ ولهذا قال :

[وما كان ربك نسياً] أي : لم يكن لينساك ويهملك ، كما قال تعالى : « ما ودعك ربك وما قلى » .

بل لم يزل معتنياً بأمورك ، مجربا لك على أحسن عوائده الجميلة ، وتدابيره الجليلة .

أي : فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد ، فلا يحزنك ذلك، ولا يهمك، واعلم أن الله ، هو الذي أراد ذلك ، لما له من الحكمة فيه .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

ثم علل إحاطة علمه ، وعدم نسيانه ، بأنه [رب السموات والأرض] فربوبيته للسموات والأرض ، وكونهما على أحسن نظام وأكمله ، ليس فيه غفلة ولا إهمال ، ولا سُدًى ، ولا باطل ، برهان قاطع على علمه الشامل .

فلا تشغل نفسك بذلك ، بل اشغلها بما ينفعك ، ويعود عليك طائله وهو : عبادته وحده ، لا شريك له .

[واصطبر لعبادته] أى : اصبر نفسك عليها ، وجاهدها ، وقم عليها أتم القيام وأكمله بحسب قدرتك .

وفى الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتهيات ، كما قال تعالى : «ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه] إلى أن قال « وأْمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها » الآية .

[هل تعلم له سمياً] أى : هل تعلم لله مساميا ، ومشابها ، ومماثلا من المخلوقين .

وهذا استفهام بمعنى النَّفْى ، المعلوم بالعقل .

أى : لا تعلم له مسامياً ولا مشابها ، لأنه الرب ، وغيره مربوب ، الخالق ، وغيره مخلوق ، الغنى من جميع الوجوه ، وغيره فقير بالذات من كل وجه .

الكامل ، الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال ، إلا ما أعطاه الله تعالى .

فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية وأن عبادته حق ، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده ، والاصطبار عليها ، وعلل بكماله وانفراده ، بالعظمة ، والأسماء الحسنى .

* المراد بالإنسان ههنا ، كل منكر للبعث ، مستبعد لوقوعه .

فيقول — مستفهما على وجه النفى والعناد والكفر — [أإذا مت لسوف أخرج حيا] .

أى : كيف يعيدنى الله حيا بعد الموت ، وبعد ما كنت رميا ؟!!

هذا لا يكون ولا يتصور .

وهذا بحسب عقله الفاسد ، ومقصده السيء ، وعناده لرسل الله وكتبه .

فلو نظر أدنى نظر ، وتأمل أدنى تأمل ، لرأى استبعاده للبعث،فى غاية السخافة .

ولهذا ذكر تعالى برهانا قاطعا ، ودليلا واضحا ، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال :

حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ

[أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ، ولم يك شيئا] أى : أولا يلفت نظره ، ويستذكر حالته الأولى ، وأن الله خلقه أول مرة ، ولم يك شيئا .

فمن قدر على خلقه من العدم ، ولم يك شيئا مذكورا ، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق ، وجمعه بعد ما تفرق ؟

وهذا كقوله « وهو الذى يبدىء الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » .

وفى قوله [أولا يذكر الإنسان] دعوة للنظر ،بالدليل العقلى ، بألطف خطاب ، وأن إنكار من أنكر ذلك ، مبنى على غفلة منه عن حاله الأولى. وإلا فلو تذكرها وأحضرها فى ذهنه ، لم ينكر ذلك .

* أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين — بربوبيته ، ليحشرن [1] هؤلاء المنكرين للبعث ، هم و شياطينهم وليجمعنهم لميقات يوم معلوم .

[ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا] أى : جاثين على ركبهم من شدة الأهوال ، وكثرة الزلزال ، وفظاعة الأحوال ، منتظرين لحكم الكبير

---

(١) فى الأصل المطبوع « ليحشر »و «فيجمعهم » فأصلحنا الكلمتين كما ترى لينتظم الكلام على حسب مقتضى الكلام .

جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

المتعال ، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال :

[ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا] أى : ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين فى الظلم والكفر ، والعُتُوّ[1] أشدهم عتوا ، وأعظمهم ظلما ، وأكبرهم كفراً فيقدمهم إلى العذاب ، ثم هكذا يقدم إلى العذاب ، الأغلظ إثما ، فالأغلظ ، وهم فى تلك الحال متلاعنون ، يلعن بعضهم بعضا .

ويقول أخراهم لأولاهم :

« ربنا هؤلاء الذين أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا فى النار * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل » .

وكل هذا ، تابع لعدله . وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال :

[ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا] أى : علمنا محيط بمن هو أولى صليا بالنار ، وقد علمناهم ، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها ، وقسطها من العذاب .

---

(٢) قوله « والعتو » كانت فى الأصل « والعتق » وهو خطأ لا معنى له .

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

---

* وهذا خطاب لسائر الخلائق ، برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، أنه ما منهم من أحد ، إلا سيرد النار ، حكما حتمه الله على نفسه ، وأوعد به عباده ، فلا بد من نفوذه ، ولا محيد عن وقوعه .

واختلف فى معنى الورود فقيل : ورودها ، حضورها للخلائق كلهم ، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد ، ثم بَعْدُ ، ينجى الله المتقين .

وقيل : ورودها ، دخولها وحضورها ، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً .

وقيل : الورود ، هو المرور على الصراط ، الذى هو على متن جهنم .

فيمر الناس على قدر أعمالهم ، فمنهم من يمر كلمح البصر ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل ، وكأجاويد الركاب .

ومنهم من يسعى ، ومنهم من يمشى مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف فيلقى فى النار ، كُلٌّ بحسب تقواه ، ولهذا قال :

[ثم ننجى الذين اتقوا] الله تعالى بفعل المأمور ، واجتناب المحظور .

[ونذر الظالمين] أنفسهم بالكفر والمعاصى [فيها جثياً] وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم ، وجب لهم الخلود ، وحق عليهم العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* أى : وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات ، أى : واضحات الدلالة على وحدانية الله ، وصدق رسله ، توجب لمن سمعها ، صدق الإيمان ، وشدة الإيقان - قابلوها بضد ما يجب لها ، واستهزءوا بها ، وبمن آمن بها واستدلوا بحسن حالهم فى الدنيا ، على أنهم خير من المؤمنين فقالوا معارضين للحق :

[أى الفريقين] أى : نحن والمؤمنين [خير مقاما] أى : فى الدنيا ، من كثرة الأموال والأولاد ، وتفوق الشهوات [وأحسن نديا] أى مجلسا .

أى : فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة ، بسبب أنهم أكثر مالا وأولادا وقد حصلت أكثر مطالبهم من الدنيا ، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة .

والمؤمنون بخلاف هذه الحال ، فهم خير من المؤمنين ، وهذا دليل فى غاية الفساد .

وهو من باب قلب الحقائق ، وإلا فكثرة الأموال والأولاد ، وحسن المنظر ، كثيرا ما يكون سببا لهلاك صاحبه ، وشقائه ، وشره ، ولهذا قال تعالى :

[وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا] أى: متاعا ، من أوان وفرش ، وبيوت ، وزخارف [ورئياً] أى : أحسن مرأى ومنظراً ،

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ ﴾

من غضارة العيش ، وسرور اللذات ، وحسن الصور .

فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاثا ورئيا ، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم ، فكيف يكون هؤلاء ، وهم أقل منهم وأذل ، معتصمين من العذاب « أكفاركم خير من أولئكم ، أم لكم براءة فى الزبر » ؟

وعلم من هذا ، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا ، من أفسد الأدلة ، وأنه من طرق الكفار .

* لما ذكر دليلهم الباطل ، الدال على شدة عنادهم ، وقوة ضلالهم ، أخبر هنا ، أن من كان فى الضلالة ، بأن رضيها لنفسه ، وسعى فيها ، فإن الله يمده منها ، ويزيده فيها حبا ، عقوبة له على اختيارها على الهدى قال تعالى « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

[حتى إذا رأوا] أى : القائلون « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا [ما يوعدون إما العذاب] بقتل أو غيره [وإما الساعة] التى هى باب الجزاء على الأعمال [فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا] أى : فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم ، وأنها دعوى مضمحلة ، ويتيقنون أنهم أهل الشر .

[وأضعف جنداً] ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئا ، لأنه لا يمكنهم

﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾

الرجوع إلى الدنيا ، فيعملون غير عملهم الأول .

* لما ذكر أنه يمد للظالمين فى ضلالهم ، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته .

والهدى يشمل العلم النافع ، والعمل الصالح .

فكل من سلك طريقاً فى العلم والإيمان ، والعمل الصالح ،زاده الله منه وسهله عليه ، ويسره له ، ووهب له أموراً أخر ، لا تدخل تحت كسبه .

وفى هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه ، كما قاله السلف الصالح .

ويدل عليه قوله تعالى« ليزداد الذين آمنوا إيمانا » « وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » .

ويدل عليه أيضا ، الواقع ، فإن الإيمان قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، والمؤمنون متفاوتون فى هذه الأمور ، أعظم تفاوت .

ثم قال : [والباقيات الصالحات] أى الأعمال الباقية ، التى لا تنقطع إذا انقطع غيرها ، ولا تضمحل ، هى الصالحات منها ، من صلاة ، وزكاة ، وصوم ، وحج ، وعمرة ، وقراءة ، وتسبيح ، وتكبير ، وتحميد ، وتهليل ، وإحسان إلى المخلوقين ، وأعمال قلبية وبدنية .

فهذه الأعمال [خير عند ربك ثوابا وخير مرداً] أى : خير عند الله ، ثوابها وأجرها ، وكثير للعاملين نفعها وردها ، وهذا من باب استعمال

﴿ أَفَرَأَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا

أفعل التفضيل فى غير بابه ، فإنه ما ثَمَّ غير الباقيات الصالحات ، عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه ، ولا ينجع .

ومناسبة ، ذكر الباقيات الصالحات ، والله أعلم — أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد ، وحسن المقام ونحو ذلك ، علامة لحسن حال صاحبها ، أخبر هنا أن الأمر ، ليس كما زعموا .

بل العمل الذى هو عنوان السعادة ، ومنشور الفلاح ، بما يحبه الله ويرضاه .

* أى : أفلا تعجب من حالة هذا الكافر ، الذى جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة ، أنه سيؤتَى فى الآخرة مالا وولدا ، أى : يكون من أهل الجنة ، هذا من أعجب الأمور .

فلو كان مؤمنا بالله وادعى هذه الدعوى ، لسهل الأمر .

وهذه الآية وإن كانت نازلة فى كافر معين ، فإنها تشمل كل كافر ، معين ، فإنها تشمل كل كافر ، زعم أنه على الحق ، وأنه من أهل الجنة .

قال الله ، توبيخاً له وتكذيبا : [أطلع الغيب] أى : أحاط علمه بالغيب ، حتى علم ما يكون ، وأن من جملة ما يكون ، أنه يؤتَى يوم القيامة مالا وولدا ؟

[أم اتخذ عند الرحمن عهدا] أنه نائل ما قاله ، أى : لم يكن شىء من ذلك ، فعلم أنه مُتَقَوِّلٌ ، قائل ما لا علم لديه .

وهذا التقسيم والترديد ، فى غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة .

سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

فإن الذى يزعم أنه حاصل له خير عندالله فى الآخرة ، لا يخلو .

إما أن يكون قوله صادرا عن علم بالغيوب المستقبلة ، وقد علم أن هذا ، لله وحده ، فلا أحد يعلم شيئا من المستقبلات الغيبية ، إلا من أطلعه الله عليه من رسله .

وإما أن يكون متخذا عهدا عندالله ، بالإيمان به ، واتباع رسله ، الذين عهد الله لأهله ، وأوزع أنهم أهل الآخرة ، والناجون الفائزون .

فإذا انتفى هذان الأمران ، علم بذلك ، بطلان الدعوى ، ولهذا قال تعالى :

[كلا] أى : ليس الأمر كما زعم ، فليس للقائل اطلاع على الغيب . لأنه كافر ، ليس عنده من علم الرسائل شىء ، ولا اتخذ عند الرحمن عهدا ، لكفره وعدم إيمانه .

ولكنه يستحق ضد ما تقوّل ، وأن قوله مكتوب ، محفوظ ، ليجازى عليه ويعاقب .

ولهذا قال : [سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً] أى : نزيده من أنواع العقوبات ، كما ازداد من الغى والضلال .

[ونرثه ما يقول] أى : نرثه ماله وولده ، فينتقل من الدنيا فردا ، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ، ولا أعوان [ويأتينا فردا] فيرى من وخيم العقاب ، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ ﴾

---

* وهذا من عقوبة الكافرين أنهم — لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه، من الشياطين — سلطهم عليهم، وقيضهم.

فجعلت الشياطين، تؤزهم إل المعاصى أزا، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجا، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق.

فيدخل حب الباطل في قلوبهم، ويتشربها فيسعى فيه سعى المحق فى حقه فينصره بجده، ويجاهد أهل الحق فى سبيل الباطل.

وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه جعل له عليه سلطانه.

وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى:

« إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ».

[فلا تعجل عليهم] أى على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب [إنما نعد لهم عدا] أى أن لهم أياما معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين ، المتقين ، والمجرمين .

وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصى - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين ، مبجلين معظمين .

وأن مآلهم الرحمن ، وقصدهم المنان ، وفداً إليه .

والوافد ، لابد أن يكون فى قلبه ، من الرجاء ، وحسن الظن بالوافد إليه ، ما هو معلوم .

فالمتقون ، يفدون إلى الرحمن ، راجين من رحمته ، وعميم إحسانه ، والفوز بعطاياه فى دار رضوانه ، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه ، واتباع مراضيه ، وأن الله عهد إليهم بذلك الثواب ، على ألسنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به ، واثقين بفضله .

وأما المجرمون ، فإنهم يساقون إلى جهنم وردا ، أى : عطاشا .

وهذا أبشع ما يكون من الحالات سوقهم على وجه الذل والصغار ، إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة ، وهو جهنم ، فى حال ظمأهم ونصبهم ، يستغيثون ، فلا يغاثون ، ويدعون ، فلا يستجاب لهم ، ويستشفعون ، فلا يشفع لهم ، ولهذا قال :

[لا يملكون الشفاعة] أى : ليست الشفاعة ملكهم ، ولا لهم منها شىء ، وإنما هى لله تعالى « قل لله الشفاعة جميعا » .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ

وقد أخبر أنه ، لاتنفعهم شفاعة الشافعين ، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدابالإيمان به وبرسله .

وإلا ، فمن اتخذ عنده عهداً فآمن به وبرسله ، واتبعهم ، فإنه ممن ارتضاه الله ، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى:«ولا يشفعون إلالمن ارتضى»

وسمى الله الإيمان به ، واتباع رسله ، عهدا ، لأنه عهد فى كتبه ، وعلى ألسنة رسله ، بالجزاء الجميل ، لمن اتبعهم .

* وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين ، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدا كقول النصارى « المسيح ابن الله » واليهود « عزير ابن الله » والمشركين « الملائكة بنات الله » تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

[لقد جئتم شيئا إدا] أى : عظيما وخيما .

من عظيم أمره أنه [تكاد السموات] على عظمتها وصلابتها [يتفطرون منه] أى : من هذا القول [وتنشق الأرض] منه ، تتصدع وتنفطر [وتخر الجبال هدّا] أى : تندك الجبال .

[أن دعوا للرحمن ولدا] أي : من أجل هذه الدعوى القبيحة ، تكاد هذه المخلوقات ، أن يكون منها ما ذكر .

والحال أنه : [ما ينبغى] أى : لا يليق ولا يكون [للرحمن أن

أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

يتخذ ولدا] وذلك لأن اتخاذه الولد ، يدل على نقصه واحتياجه ، وهو الغني الحميد .

والولد أيضا ، من جنس والده ، والله تعالى ، لا شبيه له ، ولا مثل ، ولا سَمِيّ .

[إن كل من فى السموات والأرض ، إلا آتى الرحمن عبدا] أى : ذليلا منقادا ، غير متعاص ولا ممتنع ، الملائكة ، والإنس ، والجن وغيرهم .
الجميع مماليك ، متصرف فيهم ليس لهم من الملك شيء ، ولا من التدبير شيء .

فكيف يكون له ولد ، وهذا شأنه وعظمة ملكه ؟ ! ! .

[لقد أحصاهم وعدهم عدا] أى : لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم ، أهل السموات والأرض ، وأحصاهم ، وأحصى أعمالهم ، فلا يضل ولا ينسى ، ولا تخفى عليه خافية .

[وكلهم آتيه يوم القيمة فردا] أى : لا أولاد ، ولا مال ، ولا أنصار ، ليس معه ، إلا عمله ، فيجازيه الله ، ويوفيه حسابه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر كما قال تعالى « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة » .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ ﴾

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ

---

* هذا من نعمه على عباده ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، أن يجعل لهم ودا أى : محبة ووددادا فى قلوب أوليائه ، وأهل السماء والأرض .

وإذا كان لهم من الخيرات ، والدعوات ، والإرشاد ، والقبول ، والإمامة ، ما حصل ، ولهذا ورد فى الحديث الصحيح .

« إن الله إذا أحب عبداً ، نادى جبريل : إنى أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل .

ثم ينادى فى أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض » .

وإنما جعل الله لهم ودا ، لأنهم ودوه ، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه .

* يخبر تعالى عن نعمته ، وأنه يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم :

يسر ألفاظه ومعانيه ، ليحصل المقصود منه ، والانتفاع به .

[لتبشر به المتقين] بالترغيب فى المبشر به من الثواب العاجل والآجل ، وذكر الأسباب الموجبة للبشارة .

[وتنذر به قوما لدا] أى : شديدين فى باطلهم ، أقوياء فى كفرهم ، فتنذرهم .

قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

فتقوم عليهم الحجة ، وتتبين لهم المحجة ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة .

ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال :

[وكم أهلكنا قبلهم من قرن] من قوم نوح ، وعاد، وثمود ، وغيرهم من المعاندين المكذبين ، لما استمروا فى طغيانهم ، أهلكهم الله فليس لهم من باقية .

[هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا] والركز : الصوت الخفى ، أى : لم يبق منهم عين ولا أثر ، بل بقيت أخبارهم ، عبرة للمعتبرين ، وأسمارهم ، عظة للمتعظين .

تم تفسير سورة مريم ، ولله الحمد والشكر

تفســـــير

سورة طه

بسم الله الرحمن الرحيم

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾

---

* [طه] من جملة الحروف المقطعة ، المفتتح بها كثير من السور ، وليست اسما للنبى ، صلى الله عليه وسلم .

[ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى] أى : ليس المقصود بالوحى ، وإنزال القرآن عليك ، وشرع الشريعة ، لتشقى بذلك ، ويكون فى الشريعة تكليف ، يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العاملين .

وإنما الوحى ، والقرآن والشرع ، شرعه الرحيم الرحمن ، وجعله موصلا للسعادة ، والفلاح ، والفوز ، وسهله غاية التسهيل ، ويسر كل طرقه وأبوابه ، وجعله غذاء للقلوب والأرواح ، وراحة للأبدان .

فتلقته الفطر السليمة والعقول المستقيمة ، بالقبول ، والإذعان ، لعلمها بما احتوى عليه ، من الخير فى الدنيا والآخرة ، ولهذا قال :

إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ

[إلا تذكرة لمن يخشى] أى : إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى ، فيتذكر ما فيه من الترغيب ، لأجل المطالب ، فيعمل بذلك ، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران ، فيرهب منه ، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة ، التى كانت مستقرا فى عقله حسنها مجملا ، فوافق التفصيل مايجده فى فطرته وعقله ، ولهذا سماه الله « تذكرة » .

والتذكرة لشىء كان موجوداً ، إلا أن صاحبه غافل عنه ، أو غير مستحضر لتفصيله .

وخص بالتذكرة « من يخشى » لأن غيره لا ينتفع به .

وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنة ولا نار ، ولا فى قلبه من خشية الله مثقال ذرة ؟ هذا ما لا يكون .

« سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى » .

ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم ، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات ، المدبر لجميع المخلوقات .

أى : فاقبلوا تنزيله ، بغاية الإذعان ، والمحبة ، والتسليم ، وعظموه نهاية التعظيم .

وكثيراً ما يقرن بين الخلق والأمر ، كما فى هذه الآية ، وكما فى قوله : « ألا له الخلق والأمر » وفى قوله : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » وذلك أنه الخالق الآمر الناهى .

فكما أنه لا خالق سواه ، فليس على الخلق إلزام ، ولا أمر ، ولا نهى إلا من خالقهم .

ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ

وأيضاً ، فإن خلقه للخلق ، فيه من التدبير القدرى الكونى ، وأمره ، فيه التدبير الشرعى الدينى .

فكما أن الخلق لايخرج عن الحكمة ، فلم يخلق شيئاً عبثا ، فكذلك لا يأمر ولا ينهى ، إلا بما هو عدل ، وحكمة ، وإحسان .

فلما بين أنه الخالق المدبر ، الآمر الناهى ، أخبر عن عظمته وكبريائه ، فقال :

[الرحمن على العرش] الذى هو أرفع المخلوقات وأعظمها ، وأوسعها .

[استوى] استواء يليق بجلاله ، ويناسب عظمته وجماله ، فاستوى على العرش ، واحتوى على الملك .

[له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما] من مَلَكٍ وإنسى وجنى ، وحيوان ، وجماد ، ونبات .

[وما تحت الثرى] أى الأرض ، فالجميع ملك لله ، تعالى ، عبيد مدبرون مسخرون ، تحت قضائه وتدبيره ليس لهم من الملك شىء ، ولا يملكون لأنفسهم ، نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا .

[وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر] الكلام الخفى [وأخفى] من السر ، الذى فى القلب ، ولم ينطق به ، أو السر : ما خطر على القلب « وأخفى » : ما لم يخطر ، يعلم تعالى أنه يخطر فى وقته ، وعلى صفته .

بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

المعنى : أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء ، دقيقها ، وجليها خفيها ، وظاهرها .

فسواء جهرت بقولك أو أسررته ، فالكل سواء ، بالنسبة لعلمه تعالى .

فلما قرر كماله المطلق ، بعموم خلقه ، وعموم أمره ونهيه ، وعموم رحمته ، وسعة عظمته ، وعلوه على عرشه ، وعموم ملكه ، وعموم علمه ، نتج من ذلك ، أنه المستحق للعبادة ، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع ، والعقل ، والفطرة . وعبادة غيره باطلة ، فقال :

[الله لا إله إلا هو] أي : لا معبود بحق ، ولا مألوه بالحب والذل ، والخوف والرجاء ، والمحبة والإنابة والدعاء ، إلا هو .

[له الأسماء الحسنى] أي : له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى .

من حسنها ، أنها كلها ، أسماء دالة على المدح .

فليس فيها ، اسم لا يدل على المدح والحمد .

ومن حسنها ، أنها ليست أعلاما محضة ، وإنما هي أسماء وأوصاف .

ومن حسنها ، أنها دالة على الصفات الكاملة ، وأن له من كل صفة ، أكملها ، وأعمها ، وأجلها .

ومن حسنها ، أنه أمر العباد أن يدعوه بها ، لأنها وسيلة مقربة إليه ، يحبها ، ويحب من يحبها ، ويحب من يحفظها ، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها ، قال تعالى : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » .

۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ

---

* يقول تعالى لنبيه محمد ، صلى الله عليه وسلم على وجه الاستفهام التقريرى والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها : [وهل أتاك حديث موسى] فى حاله التى هى مبدأ سعادته ، ومنشأ نبوته ، أنه رأى نارا من بعيد ، وكان قد ضل الطريق ، وأصابه البرد ، ولم يكن عنده ، ما يتدفأ به فى سفره .

[فقال لأهله إنى آنست] أى : أبصرت [نارا] وكان ذلك فى جانب الطور الأيمن .

[لعلى آتيكم منها بقبس] تصطلون به [أو أوجد على النار هدى] .
أى : من يهدينى الطريق . وكان مطلبه ، النور الحسى والهداية الحسية .

فوجد ثمّ النور المعنوى ، نور الوحى ، الذى تستنير به الأرواح والقلوب ، والهداية الحقيقية ، هداية الصراط المستقيم ، الموصلة إلى جنات النعيم .

فحصل له أمر ، لم يكن فى حسابه ، ولا خطو بباله .

[فلما أتاها] أى : النار التى آنسها من بعيد ، وكانت ـ فى الحقيقة ـ نورا ، وهى نار تحرق وتشرق ، ويدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « حجابه النور أو النار لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره »

فلما وصل إليها نودى منها أى : ناداه الله كما قال : « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا »

أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ

[إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى] أخبره أنه ربه ، وأمره أن يستعد ويتهيأ لمناجاته ، ويهتم لذلك ، ويلقى نعليه ، لأنه بالوادى المقدس المطهر المعظم .

ولو لم يكن من تقديسه ، إلا أنه اختار لمناجاته ، كليمه موسى ، لكفى .

وقد قال كثير من المفسرين: « إن الله أمره أن يلقى نعليه ، لأنهما من جلد حمار » ، فالله أعلم بذلك .

[وأنا اخترتك] أى : تخيرتك واصطفيتك من الناس .

وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه ، تقتضى من الشكر ، مايليق بها ، ولهذا قال :

[فاستمع لما يوحى] أى : ألق سمعك للذى أوحى إليك فإنه حقيق بذلك ، لأنه أصل الدين ومبدأه ، وعماد الدعوة الإسلامية .

ثم بين الذى يوحيه إليه بقوله : [إننى أنا الله لا إله إلا أنا] أى : الله المستحق الألوهية المتصف بها ، لأنه الكامل فى أسمائه ، وصفاته ، المنفرد بأفعاله ، الذى لا شريك له ، ولا مثيل ، ولا كفو ولا سَمِىٌّ .

[فاعبدنى] بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها ، أصولها وفروعها .

ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة فى العبادة ، لفضلها وشرفها ، وتضمنها عبودية القلب ، واللسان ، والجوارح .

أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾

وقوله : [لذكرى] اللام للتعليل أى: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياى .

لأن ذكره تعالى ، أجل المقاصد ، وبه عبودية القلب ، وبه سعادته .

فالقلب المعطل عن ذكر الله ، معطل عن كل خير ، وقد خرب كل الخراب .

فشرع الله للعباد ، أنواع العبادات ، التى ، المقصود منها ، إقامة ذكره وخصوصاً ، الصلاة .

قال تعالى : « اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر » .

أى : ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وهذا النوع يقال له توحيد الإلهية ، وتوحيد ، العبادة فالألوهية ، وصفه تعالى ، والعبودية ، وصف عبده .

[إن الساعة آتية] أى : لا بد من وقوعها [أكاد أخفيها] .

أى : عن نفسى كما فى بعض القراآت ، كقوله تعالى « يسئلونك عن الساعة قل إنما علمها عند الله » وقال : « وعنده علم الساعة » .

فعلمها ، قد أخفاه عن الخلائق كلهم ، فلا يعلمها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

والحكمة فى إتيان الساعة [لتجزى كل نفس بما تسعى] من الخير والشر ، فهى الباب لدار الجزاء « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » .

﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

* أى : فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة ، والجزاء ، والعمل لذلك ، من كان كافراً بها ، غير معتقد لوقوعها .

يسعى فى الشك فيها ، والتشكيك ، ويجادل فيها ، بالباطل ، ويقيم من الشبه ، ما يقدر عليه ، متبعا فى ذلك هواه ، ليس قصده الوصول إلى الحق ، وإنما قصاراه ، اتباع هواه .

فإياك أن تصغى إلى من هذه حاله ، أو تقبل شيئاً ، من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعى لها سعيها .

وإنما حذر الله تعالى عمن هذه حاله ، لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن ، بوسوسته وتدجيله ، وكون النفوس مجبولة على التشبه ، والاقتداء بأبناء الجنس .

وفى هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير ، عن كل داع إلى باطل ، يصد عن الإيمان الواجب ، أو عن كماله ، أو يوقع الشبهة فى القلب .

وعن النظر فى الكتب ، المشتملة على ذلك .

وذكر فى هذا ، الإيمان به ، وعبادته ، والإيمان باليوم الآخر ، لأن هذه الأمور الثلاثة ، أصول الإيمان ، وركن الدين ، وإذاتمت تم أمر الدين ، ونقصه أو فقده بنقصها ، أو نقص شىء منها

وهذه نظير قوله تعالى فى الإخبار عن ميزان سعادة الفرق ، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

وقوله [فتردى] أى : تهلك وتشقى ، إن اتبعت طريق من يصد عنها

وقوله تعالى : [وما تلك] إلى [من آياتنا الكبرى] .

* لما بين الله لموسى أصل الإيمان ، أراد أن يبين له ، ويريه من آياته ، ما يطمئن به قلبه ، وتقر به عينه ، ويقوى إيمانه ، بتأييد الله له على عدوه فقال :

[وما تلك بيمينك يا موسى] هذا ، مع علمه تعالى ، ولكن لزيادة الاهتمام فى هذا الموضع ، أخرج الكلام بطريق الاستفهام .

فقال موسى : [هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى] ذكر فيها ، هاتين المنفعتين ، منفعة لجنس الآدمى ، وهو أنه يعتمد عليها فى قيامه ومشيه ، فيحصل فيها معونة .

ومنفعة للبهائم ، وهو أنه كان يرعى الغنم ، فإذا رعاها فى شجر الخبط ونحوه ، هش بها ، أى : ضرب الشجر ، ليتساقط ورقه ، فيرعاه الغنم .

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام ، الذى من آثاره ، حسن رعاية الحيوان البهيم ، والإحسان إليه ، دل على عناية من الله له واصطفاء ، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته .

[ولى فيها مآرب] أي : مقاصد [أخرى] غير هذين الأمرين .

قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ

ومن أدب موسى عليه السلام ، أن الله لما سأله عما فى يمينه ، وكان السؤال محتملا عن السؤال عن عينها ، أو منفعتها - أجابه بعينها ، ومنفعتها فقال الله له :

[ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هى حية تسعى] انقلبت بإذن الله ثعباناً عظيما .

فولى موسى هارباً خائفاً ، ولم يعقب .

وفى وصفها بأنها تسعى ، إزالة لوهم يمكن وجوده ، وهو أن يظن أنها تخييل ، لا حقيقة .

فكونها تسعى يزيل هذا الوهم .

فقال الله لموسى : [خذها ولا تخف] أى : ليس عليك منها بأس .

[سنعيدها سيرتها الأولى] أى هيئتها وصفتها ، إذ كانت عصا .

فامتثل موسى أمر الله ، إيماناً به ، وتسليما ، فأخذها ، فعادت عصاه التى كان يعرفها ، هذه آية .

ثم ذكر الآية الأخرى فقال : [واضمم يدك إلى جناحك] أى: أدخل يدك إلى جيبك ، وضم عليك عضدك ، الذى هو جناح الإنسان [تخرج بيضاء من غير سوء] أى : بياضا ساطعاً ، من غير عيب ولا برص [آية أخرى] .

تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى

قال الله : « فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين » .

[لنريك من آياتنا الكبرى] أى : فعلنا ما ذكرنا ، من انقلاب العصا حية تسعى ، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين ، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى ، الدالة على صحة رسالتك ، وحقيقة ما جئت به ، فيطمئن قلبك ، ويزداد علمك ، وتثق بوعد الله لك ، بالحفظ والنصرة ، ولتكون حجة وبرهاناً ، لمن أرسلت إليهم .

* لما أوحى الله إلى موسى ، ونبأه ، وأراه الآيات الباهرات ، أرسله إلى فرعون ، ملك مصر فقال :

[اذهب إلى فرعون إنه طغى] أى : تمرد وزاد على الحد ، فى الكفر والفساد ، والعلو فى الأرض ، والقهر للضعفاء ، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية ، قبحه الله ، أى : وطغيانه سبب لهلاكه .

ولكن من رحمة الله ، وحكمته ، وعدله ، أنه لا يعذب أحداً ، إلا بعد قيام الحجة بالرسل .

فحينئذ علم موسى عليه السلام ، أنه تحمل حملا عظيما ، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد ، الذى ليس له منازع فى مصر من الخلق .

وموسى عليه السلام ، وحده ، وقد جرى منه ما جرى من القتل .

صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ

فامتثل أمر ربه ، وتلقاه بالانشراح والقبول ، وسأله المعونة ، وتيسير الأسباب ، التي هى من تمام الدعوة فقال :

[رب اشرح لى صدرى] أى : وسعه وأفسحه ، لأتحمل الأذى القولى والفعلى ، ولا يتكدر قلبي بذلك ، ولا يضيق صدرى ، فإن الصدر إذا ضاق ، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ، ودعوتهم .

قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم « فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم .

[ويسر لى أمرى] أى : سهل عليّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده فى سبيلك ، وهَوِّنْ عليّ ما أمامى من الشدائد .

ومن تيسير الأمر ، أن ييسر للداعى ، أن يأتى جميع الأمور من أبوابها ، ويخاطب كل أحد بما يناسب له ، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله .

[واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى] وكان فى لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام ، كما قال المفسرون ، وكما قال الله عنه أنه قال : [وأخى هرون هو أفصح منى لساناً] فسأل الله أن يحل منه عقدة ، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة ، والمراجعة ، والبيان عن المعانى .

[واجعل لى وزيراً من أهلى] أى : معينا يعاوننى ، ويؤازرنى ، ويساعدنى على من أرسلت إليهم .

أَخِي ﴿٣٠﴾ اُشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

وسأل أن يكون من أهله ، لأنه من باب البر ، وأحق ببر الإنسان ، قرابته .

ثم عينه بسؤاله فقال : [هٰرون أخى * اشدد به أزرى] أى : قونى به وشد به ظهرى .

قال الله « سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً » .

[وأشركه فى أمرى] أى : فى النبوة ، بأن تجعله نبياً رسولا ، كما جعلتنى .

ثم ذكر الفائدة فى ذلك فقال : [كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً] علم ، عليه الصلاة والسلام ، أن مدار العبادات كلها والدين ، على ذكر الله ، فسأل الله أن يجعل أخاه معه ، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى ، فيكثر منهما ذكر الله ، من التسبيح ، والتهليل ، وغيره من أنواع العبادات .

[إنك كنت بنا بصيراً] تعلم حالنا ، وضعفنا ، وعجزنا ، وافتقارنا إليك فى كل الأمور .

وأنت أبصر بنا ، من أنفسنا وأرحم ، فَمُنَّ علينا بما سألناك ، وأجب لنا فيما دعوناك .

فقال الله : [قد أوتيت سؤلك ياموسى] أى : أعطيت جميع ماطلبت .

فسنشرح صدرك ، ونيسر أمرك ، ونحل عقدة من لسانك ، يفقهوا

. . . .

قولك ، ونشد عضدك بأخيك هرون ، « ونجعل لكما سلطاناً ، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون » .

وهذا السؤال من موسى عليه السلام ، يدل على كمال معرفته بالله ، وكمال فطنته ومعرفته للأمور ، وكمال نصحه .

وذلك أن الداعى إلى الله ، المرشد للخلق ، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد ، والتكبر ، والطغيان ، يحتاج إلى سعة صدر ، وحلم تام ، على ما يصيبه من الأذى ، ولسان فصيح ، يتمكن من التعبير به عن ما يريده ويقصده .

بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام ، من ألزم ما يكون ، لكثرة المراجعات والمراوضات ، ولحاجته لتحسين الحق ، وتزيينه بما يقدر عليه ، ليحببه إلى النفوس ، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه ، لينفر عنه .

ويحتاج مع ذلك أيضاً ، أن يتيسر له أمره ، فيأتى البيوت من أبوابها ، ويدعو إلى سبيل الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، يعامل الناس كلا بحسب حاله .

وتمام ذلك ، أن يكون لمن هذه صفته ، أعوان ووزراء ، يساعدونه على مطلوبه .

لأن الأصوات إذا كثرت ، لا بد أن تؤثر ، فلذلك سأله عليه الصلاة والسلام هذه الأمور ، فأعطيها .

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق ، رأيتهم بهذه الحال ،

۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

بحسب أحوالهم . خصوصاً ، خاتمهم وأفضلهم ، محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه فى الذروة العليا من كل صفة كمال .

وله من شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وفصاحة اللسان ، وحسن التعبير والبيان ، والأعوان على الحق ، من الصحابة ، فمن بعدهم ، ما ليس لغيره .

* لما ذكر منته على عبده ورسوله ، موسى بن عمران ، فى الدين ، والوحى ، والرسالة ، وإجابة سؤله ، ذكر نعمته عليه ، وقت التربية ، والتنقلات فى أطواره فقال :

[ولقد مننا عليك مرة أخرى] حيث ألهمنا أمك ، أن تقذفك فى التابوت وقت الرضاع ، خوفاً من فرعون ، لأنه أمر بذبح أبناء بنى إسرائيل .

فأخفته أمه ، وخافت عليه خوفاً شديداً فقذفته فى التابوت ، ثم قذفته فى اليم ، أى : شط نيل مصر .

فأمر الله اليم ، أن يلقيه فى الساحل ، وقيض الله أن يأخذه ، أعدى الأعداء لله ولموسى ، ويتربى فى أولاده ، ويكون قرة عين لمن رآه : ولهذا قال :

[وألقيت عليك محبة منى] فكل من رآه أحبه [ولتصنع على عينى] أى : ولتتربى على نظرى وفى حفظى وكلاءتى .

مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ

وأى نظر وكفالة ، أجل وأكمل ، من ولاية البر الرحيم ، القادر على إيصال مصالح عبده ، ودفع المضار عنه ؟ !

فلا ينتقل من حالة إلى حالة ، إلا ، والله تعالى هو الذى دبر ذلك لمصلحة موسى .

ومن حسن تدبيره ، أن موسى لما وقع فى يد عدوه ، قلقت أمه قلقاً شديداً ، وأصبح فؤادها فارغاً ، وكادت تخبر به ، لولا أن الله ثبتها ،وربط على قلبها .

ففى هذه الحالة ، حرم الله على موسى المراضع ، فلا يقبل ثدى امرأة قط ، ليكون مآله إلى أمه ، فترضعه ، ويكون عندها ، مطمئنة ساكنة ، قريرة العين .

فجعلوا يعرضون عليه المراضع ، فلا يقبل ثدياً .

فجاءت أخت موسى ، فقالت لهم « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » .

[فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسا] وهو القبطى ، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها ، وجد رجلين يقتتلان ، واحد من شيعة موسى ، والآخر من عدوه قبطى « فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه » .

سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾

فدعا الله وسأله المغفرة ، فغفر له ، ثم فر هارباً ، لما سمع أن الملأ طلبوه ، يريدون قتله .

[فنجيناك من الغم] من عقوبة الذنب ، ومن القتل .

[وفتناك فتوناً] أى : اختبرناك ، وبلوناك ، فوجدناك مستقيما فى أحوالك .

أو نقلناك فى أحوالك ، وأطوارك ، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه.

[فلبثت سنين فى أهل مدين] حين فر هارباً من فرعون وملأه ، حين أرادو قتله .

فتوجه إلى مدين ، ووصل إليها ، وتزوج هناك ، ومكث عشر سنين ، أو ثمان سنين .

[ثم جئت على قدر يا موسى] أى : جئت مجيئا ، ليس اتفاقاً من غير قصد ، ولا تدبير منا ، بل بقدر ولطف منا .

وهذا يدل على كمال اعتناء الله ، بكليمه ، موسى عليه السلام ، ولهذا قال :

[واصطنعتك لنفسى] أى : أجريت عليك صنائعى ونعمى ، وحسن عوائدى ، وتربيتى ، لتكون لنفسى حبيباً مختصا ، وتبلغ فى ذلك ، مبلغاً لا يناله أحد من الخلق ، إلا النادر منهم .

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ

وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين ، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له مايبلغ ، يبذل غاية جهده ، ويسعى نهايةمايمكنه فى إيصاله لذلك .

فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم ، وما تحسبه يفعل ، بمن أراده لنفسه ، واصطفاه من خلقه ؟ ! !

* لما امتن الله على موسى بما امتن به ، من النعم الدينية والدنيوية قال له :

[اذهب أنت وأخوك] هرون [بآياتى] أى : الآيات التى منى ، الدالة على الحق وحسنه ، وقبح الباطل ، كاليد ، والعصا ونحوها ، فى تسع آيات إلى فرعون وملإه .

[ولا تنيافى ذكرى] أي : لاتفترا ، ولا تكسلا عن مداومة ذكرى بالاستمرار عليه ، والزماه كما وعدتما بذلك [كى نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً] .

فإن ذكر الله ، فيه معونة على جميع الأمور ، يسهلها ، ويخفف حملها .

[اذهبا إلى فرعون إنه طغى] أى : جاوز الحد ، فى كفره وطغيانه ، وظلمه وعدوانه .

[فقولا له قولا لينا] أى : سهلا لطيفا ، برفق ولين وأدب فى اللفظ من دون فحش ولا صلف ، ولاغلظة فى المقال ، أو فظاظة فى الأفعال .

[لعله] بسبب القول اللين [يتذكر] ما ينفعه فيأتيه .

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

[أو يخشى] ما يضره فيتركه ، فإن القول اللين ، داع لذلك ، والقول الغليظ ، منفر عن صاحبه .

وقد فسر القول اللين فى قوله : « فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى » .

فإن فى هذا الكلام ، من لطف القول وسهولته ، وعدم بشاعته ، ما لا يخفى على المتأمل .

فإنه أتى بـ « هل » الدالة على العرض والمشاورة ، التى لا يشمئز منها أحد ، ودعاه إلى التزكى والتطهر من الأدناس ، التى أصلها ، التطهر من الشرك ، الذى يقبله كل عقل سليم ، ولم يقل « أزكيك » بل قال « تزكى » أنت بنفسك .

ثم دعاه إلى سبيل ربه ، الذى رباه ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة التى ينبغى مقابلتها بشكرها ، وذكرها فقال :

[وأهديك إلى ربك فتخشى] فلما لم يقبل هذا الكلام اللين ، الذي يأخذ حسنه بالقلوب ، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر

[قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا] أى : يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا ، قبل أن نبلغه رسالاتك ، ونقيم عليه الحجة [أو أن يطغى] أى : يتمرد عن الحق ، ويطغى بملكه ، وسلطانه ، وجنده ، وأعوانه .

[قال لا تخافا] أن يفرط عليكما [إننى معكما أسمع وأرى] أى : أنتما بحفظى ورعايتى ، أسمع قولكما ، وأرى جميع أحوالكما ، فلا تخافا منه .

﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

فزال الخوف عنهما ، واطمأنت قلوبهما بوعد ربهما .

* أى : فأتياه بهذين الأمرين ، دعوته إلى الإسلام ، وتخليص هذا الشعب الشريف ، بنى إسرائيل ، من قيده وتعبيده لهم ، ليتحرروا ويملكوا أمرهم ، ويقيم فيهم موسى ، شرع الله ودينه .

[قد جئناك بآية] تدل على صدقنا « فألقى موسى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » إلى آخر ماذكر الله عنهما .

[والسلام على من اتبع الهدى] أى : من اتبع الصراط المستقيم ، واهتدى بالشرع المبين ، حصلت له السلامة فى الدنيا والآخرة .

[إنا قد أوحى إلينا] أى : خبرنا من عند الله ، لا من عند أنفسنا [أن العذاب على من كذب وتولى] أى : كذب بأخبار الله ، وأخبار رسله ، وتولى عن الانقياد لهم ، واتباعهم .

وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما ، والترهيب من ضد ذلك .

ولكن لم يفد فيه هذا الوعظ والتذكير ، فأنكر ربه ، وكفر ، وجادل فى ذلك ، ظلما وعنادا .

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ

---

* أى : قال فرعون لموسى على وجه الإنكار : [فمن ربكما يا موسى].

فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال : [ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى] أى : ربنا الذى خلق جميع المخلوقات ، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به ، على حسن صنعه من خلقه ، من كبر الجسم وصغره ، وتوسطه ، وجميع صفاته .

« ثم هدى » كل مخلوق إلى ما خلقه له ، وهذه ، الهداية الكاملة المشاهدة فى جميع المخلوقات .

فكل مخلوق ، تجده يسعى لما خلق له من المنافع ، وفى دفع المضار عنه .

حتى إن الله أعطى الحيوان البهيم ، من العقل ، ما يتمكن به به من ذلك .

وهذا كقوله تعالى : « الذى أحسن كل شيء خلقه » .

فالذى خاق المخلوقات ، وأعطاها خلقها الحسن ، الذى لا تقترح العقول فوق حسنه ، وهداها لمصالحها ، هو الرب على الحقيقة .

فإنكاره ، إنكار لأعظم الأشياء وجودا ، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب .

فلو قدر أن الإنسان ، أنكر من الأمور المعلومة ، ما أنكر ، كان إنكاره لرب العالمين ، أكبر من ذلك .

ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ

ولهذا لما لم يمكن فرعون ، أن يعاند هذا الدليل القاطع ، عدل إلى المشاغبة ، وحاد عن المقصود فقال لموسى : [فما بال القرون الأولى] .

أى : ماشأنهم ، وما خبرهم ؟ وكيف وصلت بهم الحال،وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر ، والظلم ، والعناد ، ولنا فيهم أسوة ؟

فقال موسى : [علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى] أى : قد أحصى أعمالهم من خير وشر ، وكتبه فى كتابه ، وهو اللوح المحفوظ ، وأحاط به علما وخُبْراً فلا يضل عن شىء منها ، ولا ينسى ما علمه منها .

ومضمون ذلك ، أنهم قدموا إلى ما قدموه ، ولاقوا أعمالهم ، وسيجازون عليها .

فلا معنى لسؤالك واستفهامك ، يافرعون ، عنهم ، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم .

فإن كان الدليل الذى أوردناه عليك ، والآيات التى أريناكها ، قد تحققت صدقها ويقينها ، وهو الواقع ، فانقد إلى الحق ، ودع عنك الكفر والظلم ، وكثرة الجدال بالباطل .

وإن كنت قد شككت فيها أو رأيتها غير مستيقنة ، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق فرد الدليل بالدليل ، والبرهان بالبرهان ، ولن تجد لذلك سبيلا ، مادام الملوان .

فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى

كيف وقد أخبر الله عنه ، أنه جحدها مع استيقانها ، كما قال تعالى « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

وقال موسى : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » .

فعلم أنه ظالم فى جداله ، قصده ، العلو فى الأرض .

ثم استطرد فى هذا الدليل القاطع ، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضرورى ، فقال :

[الذى جعل لكم الأرض مهدا] أى : فراشا بحالة تتمكنون من السكون فيها ، والقرار ، والبناء ، والغراس ، وإثارتها للازدراع وغيره ، وذللها لذلك ، ولم يجعلها ممتنعة عن مصلحة من مصالحكم .

[وسلك لكم فيها سُبُلاً] أى : نفذ لكم الطرق الموصلة ، من أرض ، إلى أرض ، ومن قطر إلى قطر ، حتى كان الآدميون ، يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون ، وينتفعون بأسفارهم ، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم .

[وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى] .

أي : أنزل المطر « فأحيا به الأرض بعد موتها » وأنبت بذلك جميع أصناف النباتات على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها ، وتباين أحوالها.

فساقه ، وقدره ، ويسره ورزقا لنا ولأنعامنا ، ولولا ذلك ، لهلك من عليها من آدمى وحيوان .

ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

ولهذا قال : [كلوا وارعوا أنعامكم] وساقها على وجه الامتنان ، ليدل ذلك على أن الأصل فى جميع النباتات الإباحة ، فلا يحرم منهم ، إلا ما كان مضرا ، كالسموم ونحوه .

[إن فى ذلك لآيات لأولى النهى] أى : لذوى العقول الرزينة ، والأفكار المستقيمة على فضل الله ، وإحسانه ، ورحمته ، وسعة جوده ، وتمام عنايته ، وعلى أنه الرب المعبود ، المالك المحمود ، الذى لايستحق العبادة سواه ، ولا الحمد والمدح والثناء ، إلا من امتن بهذه النعم ، وعلى أنه على كل شىء قدير .

فكما أحيا الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي الموتى .

وخص الله أولى النهى بذلك ، لأنهم المنتفعون بها ، الناظرون إليها نظر اعتبار .

وأما من عداهم ، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة ، والأنعام السائمة ، لاينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها .

بل حظهم ، حظ البهائم ، يأكلون ويشربون ، وقلوبهم لاهية ، وأجسادهم معرضة .

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

ولما ذكر كرم الأرض ، وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر ،

۞ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ

وأنها بإذن ربها ، تخرج النبات المختلف الأنواع — أخبر أنه خلقنا منها ، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها ، ومنها يخرجنا تارة أخرى .

فكما أوجدنا منها من العدم ، وقد علمنا ذلك ، وتحققناه ، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا ، ليجازينا بأعمالنا ، التى عملناها عليها .

وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحان : إخراج النبات من الأرض بعد موتها ، وإخراج المكلفين منها فى إيجادهم .

* يخبر تعالى ، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع ، جميع أنواعها العيانية ، والأفقية والنفسية ، فما استقام ولا ارعوى ، وإنما كذب وتولى .

كذب الخبر ، وتولى عن الأمر والنهى ، وجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، وجادل بالباطل ، ليضل الناس فقال : [أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك] .

زعم أن هذه الآيات التى أراه إياها موسى ، سحر وتمويه ، المقصود منها ، إخراجهم من أرضهم ، والاستيلاء عليها ، ليكون كلامه مؤثراً فى قلوب قومه .

فإن الطباع ، تميل إلى أوطانها ، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها .

فأخبرهم أن موسى هذا قصده ، ليبغضوه ، ويسعوا فى محاربته ،

بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ

فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا ، واجعل لنا [موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى] أى : مستو علمنا وعلمك به ، أو مكانا مستويا معتدلا لتتمكن من رؤية ما فيه .

فقال موسى : [موعدكم يوم الزينة] وهو عيدهم ، الذى يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم .

[وأن يحشر الناس ضحى] أى : يجمعون كلهم فى وقت الضحى .

وإنما سأل موسى ذلك ، لأن يوم الزينة ووقت الضحى فيه يحصل كثرة الاجتماع ، ورؤية الأشياء على حقائقها ، مالا يحصل فى غيره .

[فتولى فرعون فجمع كيده] أى : جميع ما يقدر عليه ، مما يكيد به موسى .

فأرسل فى مدائنه ، من يحشر السحرة الماهرين فى سحرهم .

وكان السحر إذ ذاك ، متوافرا ، وعلمه مرغوبا فيه .

فجمع خلقا كثيرا من السحرة ، ثم أتى كل منهما للموعد ، واجتمع الناس للموعد .

فكان الجمع حافلا ، حضره الرجال والنساء ، والملأ ، والأشراف ، والعوام ، والصغار ، والكبار ، وحضوا الناس على الاجتماع وقالوا للناس « هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين » .

وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا

[فحين اجتمعوا من جميع البلدان ، وعظهم موسى عليه السلام ، وأقام الحجة عليهم ، وقال لهم :

[ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب] أى : لاتنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ويخيب سعيكم وافتراؤكم ، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملإه ، ولا تسلموا من عذاب الله .

وكلام الحق لابد أن يؤثر فى القلوب ، لاجرم ، ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة ، لما سمعوا كلام موسى ، وارتبكوا .

ولعل من جملة نزاعهم ، الاشتباه فى موسى ، هل هو على الحق أم لا؟

ولكن هم إلى الآن ، ما تم أمرهم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .

فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى ، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة ، لينجحوا فى مقالهم وفعالهم ، وليتمسك الناس بدينهم .

والنجوى التى أسروها وفسرها ، بقوله : « قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما » كمقالة فرعون السابقة .

فإما أن يكون ذلك توافقا من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد .

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ

وإما أن يكون تلقينا منه لهم مقالته، التى صمم عليها، وأظهرها للناس.

وزادوا على قول فرعون أن قالوا :

[ويذهبا بطريقتكم المثلى] أى : طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم ، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذى شغلتم زمانكم فيهويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه ، وما يتبع ذلك من الرياسة .

وهذا حض من بعضهم على بعض ، على الاجتهاد فى مغالبته ، ولهذا قالوا :

[فأجمعوا كيدكم] أى : أظهروه دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه ، متناصرين ، متفقا رأيكم وكلمتكم .

[ثم ائتوا صفا] ليكون أمكن لعملكم ، وأهيب لكم فى القلوب ، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل.

واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره ، فإنه المفلح الفائز ، فهذا يوم له ما بعده من الأيام .

فما أصلبهم فى باطلهم ، وأشدهم فيه ، حيث أتوا بكل سبب ، ووسيلة وممكن ، ومكيدة يكيدون بها الحق .

ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل .

فلما تمت مكيدتهم ، وانحصر قصدهم ، ولم يبق إلا العمل [قالوا ياموسى إما أن تلقى] عصاك [وإما أن نكون أول من ألقى] .

وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ

خيروه ، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه ، بأى حالة كانت .

فقال لهم موسى : [بل ألقوا] فألقوا حبالهم وعصيهم .

[فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه] أى : إلى موسى [من سحرهم] البليغ [أنها تسعى] فلما خيل إلى موسى ذلك .

[أوجس فى نفسه خيفة موسى] كما هو مقتضى الطبيعة البشرية ، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره .

[قلنا] له تثبيتا وتطمينا : [لا تخف إنك أنت الأعلى] عليهم ، أى : ستعلو عليهم وتقهرهم ، ويذلوا لك ويخضعوا .

[وألق ما فى يمينك] أى : عصاك [تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى] أى : كيدهم ومكرهم ، ليس بمثمر لهم ، ولا ناجح فإنه من كيد السحرة ، الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق .

فألقى موسى عصاه ، فتلقفت ما صنعوا كله ، وأكلته ، والناس ينظرون لذلك الصنيع .

ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم

فعلم السحرة علما يقينا ، أن هذا ليس بسحر ، وأنه من الله ، فبادروا للإيمان .

[فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا] برب العالمين ، [رب موسى وهرون] .

فوقع الحق وظهر وسطع ، وبطل السحر والمكر والكيد ، فى ذلك الجمع العظيم .

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين ، وحجة على المعاندين فـ [قال] فرعون للسحرة : [آمنتم له قبل أن آذن لكم] أى : كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة منى ولا إذن ؟

استغرب ذلك منهم ، لأدبهم معه ، وذلهم ، وانقيادهم له فى كل أمر من أمورهم ، وجعل هذا من ذاك .

ثم استلج فرعون فى كفره وطغيانه بعد هـذا البرهان ، واستخف بقوله قومه ، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة ، ليس لأن الذى معه الحق ، بل لأنه تمالأ هو والسحرة ، ومكروا ، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم .

فقبل قومه هذا المكر منه ، وظنوه صدقا « فاستخفف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .

مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى

مع أن هذه المقالة التى قالها ، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع .

فإن موسى ، أتى من مدين وحيداً .

وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم ، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه ، وأراهم الآيات .

فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى ، فسعى ما أمكنه ، وأرسل فى مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم .

فجاءوا إليه ، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة ، وهم حرصوا غاية الحرص ، وكادوا أشد الكيد ، على غلبتهم لموسى ، وكان منهم ما كان .

فهل يمكن ، أن يتصور مع هذا ، أن يكونوا دبروا ، هم وموسى ، واتفقوا على ما صدر ؟ هذا من أمحل المحال .

ثم توعد فرعون السحرة فقال: [لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف] كما يفعل بالمحارب الساعى بالفساد ، يقطع يده اليمنى ، ورجله اليسرى .

[ولأصلبنكم فى جذوع النخل] أى : لأجل أن تشهروا وتختزوا .

[ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى] يعنى بزعمه هو وأمته ، وأنه أشد عذابا من الله ، وأبقى قلباً للحقائق ، وترهيباً لمن لا عقل له .

ولهذا لما عرف السحرة الحق ، ورزقهم الله من العقل ، ما يدركون به الحقائق ، أجابوا بقولهم :

فَطَرَنَا فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾

[لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات] الدالات على أن الله هو الرب المعبود وحده ، المعظم المبجل وحده ، وأن ما سواه باطل ، ونؤثرك على الذى فطرنا وخلقنا .

هذا لا يكون [فاقض ما أنت قاض] مما أوعدتنا به ، من القطع ، والصلب ، والعذاب .

[إنما تقضى هذه الحياة الدنيا] أى : إنما توعدنا به ، غاية ما يكون فى هذه الحياة الدنيا ، ينقضى ويزول ولا يضرنا .

بخلاف عذاب الله ، لمن استمر على كفره ، فإنه دائم عظيم .

وهذا كأنه جواب منهم لقوله : [ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى] .

وفى هذا الكلام ، من السحرة ، دليل على أنه ينبغى للعاقل، أن يوازن بين لذات الدنيا ، ولذات الآخرة ، وبين عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة .

[إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا] أى : كفرنا ومعاصينا ،فإن الإيمان مكفر للسيئات ، والتوبة تَجُبُّ ما قبلها .

وقولهم ، [وما أكرهتنا عليه من السحر] الذى عارضنا به الحق ، هذا دليل على أنهم غير مختارين فى عملهم المتقدم ، وإنما أكرههم فرعون إكراها .

. . . .

والظاهر — والله أعلم — أن موسى لما وعظهم كما تقدم فى قوله [ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب] أثَّر معهم ، ووقع منهم موقعاً كبيراً ، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام والموعظة .

ثم إن فرعون ألزمهم ذلك، وأكرههم على المكر الذى أجروه ، ولهذا تكلموا بكلامه السابق ، قبل إتيانهم ، حيث قالوا : [إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما] فجروا على ما سَنَّهُ لهم ، وأكرههم عليه .

ولعل هذه النكتة ، التى قامت بقلوبهم ، من كراهتهم لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ، ما فعلوا على وجه الإغماض ، هى التى أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها ، ووفقهم للإيمان والتوبة .

والله خير مما أوعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه ، وأبقى ثوابا وإحساناً لا ما يقول فرعون [ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى] يريد أنه أشد عذاباً وأبقى وجميع ما أتى من قصص موسى مع فرعون ، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة السحرة ، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب ، ولم يذكر أنه فعل ذلك ، ولم يأت فى ذلك حديث صحيح .

والجزم بوقوعه ، أو عدمه ، يتوقف على الدليل ، والله أعلم بذلك وغيره .

إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ

---

* يخبر تعالى أن من أتاه ، وقدم عليه مجرما — أى :وصفه الجرم من كل وجه ، وذلك يستلزم الكفر — واستمر على ذلك حتى مات ، فإن له نار جهنم ، الشديد نكالها ، العظيمة أغلالها ، البعيد قعرها ، الأليم حرها وقرها، التى فيها من العقاب ، مايذيب الأكباد والقلوب .

ومن شدة ذلك ، أن المعذب فيها ، لا يموت ولايحيا ، لايموت فيستريح ولا يحيا حياة يتلذذ بها ، وإنما حياته ، محشوة بعذاب القلب ، والروح ، والبدن ، الذى لا يقدر قدره ، ولا يفتر عنه ساعة ، يستغيث فلا يغاث ، ويدعو فلا يستجاب له .

نعم إذا استغاث ، أغيث بماء كالمهل ، يشوى الوجوه ، وإذا دعا ، أجيب بـ « أخسأوا فيها ولا تكلمون » .

ومن يأت ربه مؤمنا به مصدقا لرسله ، متبعاً لكتبه [قدعمل الصالحات] الواجبة والمستحبة ، [فأولئك لهم الدرجات العلى] أى : المنازل العاليات ، فى الغرف المزخرفات ، واللذات المتواصلات ، والأنهار السارحات ، والخلود الدائم ، والسرور العظيم ، فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[وذلك] الثواب ، [جزاء من تزكى] أى : تطهر من الشرك ، والكفر ، والفسوق ، والعصيان .

إما أن لا يفعلها بالكلية ، أو يتوب مما فعله منها .

لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ

وزكى أيضاً نفسه ، ونماها بالإيمان والعمل الصالح .

فإن للتزكية معنيين ، التنقية ، وإزالة الخبث ، والزيادة بحصول الخير .

وسميت الزكاة زكاة ، لهذين الأمرين .

* لما ظهر موسى بالبراهين ، على فرعون وقومه ، مكث فى مصر ، يدعوهم إلى الإسلام ، ويسعى فى تخليص بنى إسرائيل ، من فرعون ، وعذابه .

وفرعون فى عتو ونفور ، وأمره شديد على بنى إسرائيل ، ويريه الله من الآيات والعبر ، ما قصه الله علينا فى القرآن .

وبنو إسرائيل ، لا يقدرون أن يظهروا إيمانهم ويعلنوه ، قد اتخذوا بيوتهم مساجد ، وصبروا على فرعون وأذاه .

فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم ، ويمكن لهم فى الأرض،ليعبدوه جهراً ، ويقيموا أمره .

فأوحى إلى نبيه موسى ، أن يواعد بنى إسرائيل سرا ، ويسيروا أول الليل ، ليتمادوا فى الأرض ، وأخبره أن فرعون وقومه ، سيتبعونه .

فخرجوا أول الليل ، جميع بنى إسرائيل ، ونساؤهم ، وذريتهم .

فلما أصبح أهل مصر إذا هم ، ليس فيها منهم ، داع ولا مجيب .

لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

فحنق عليهم ، عدوهم فرعون ، وأرسل فى المدائن ، من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج فى أثر بنى إسرائيل ، فأتبعوهم مشرقين .

« فلما تراءى الجمعان، قال أصحاب موسى، إنا لمدركون »وقلقوا وخافوا .

البحر أمامهم ، وفرعون من ورائهم ، قد امتلأ عليهم غيظا وحنقاً .

وموسى مطمئن القلب ، ساكن البال ، قد وثق بوعد ربه فقال :

[كلا إن معى ربى سيهدين] .

فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه ، فانفرق اثنى عشر طريقا ، وصار الماء كالجبال العالية ، عن يمين الطرق ويسارها .

وأيبس الله طرقهم ، التى انفرق عنها الماء ، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون ، ولا يخشوا من الغرق فى البحر فسلكوا فى تلك الطرق .

فجاء فرعون وجنوده ، فسلكوا وراءهم ، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين ، أمر الله البحر ، فالتطم عليهم ، وغشيهم من اليم ما غشيهم ، وغرقوا كلهم ، ولم ينج منهم أحد ، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم ، قد أقر الله أعينهم بهلاكه .

وهذه عاقبة الكفر والضلال،وعدم الاهتداء بهدى الله ،ولهذاقال تعالى:

[وأضل فرعون قومه] بما زين لهم من الكفر ، وتهجين ما أتى به موسى ، واستخفافه إياهم ، وما هداهم فى وقت من الأوقات .

۞ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ

فأوردهم موارد الغي والضلال ، ثم أوردهم مورد العذاب والنكال .

* يُذَكِّر تعالى بنى إسرائيل مِنَّتَهُ العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم ، ومواعدته لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن ، لينزل عليه الكتاب ، الذى فيه الأحكام الجليلة ، والأخبار الجميلة ، فتتم عليهم النعمة الدينية ، بعد النعمة الدنيوية .

ويذكر منته أيضا عليهم ، فى التيه ، بإنزال المن والسلوى ، والرزق الرغد الهنى ، الذى يحصل لهم بلا مشقة ، وأنه قال لهم :

[كلوا من طيبات ما رزقناكم] .

أى : واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم [ولا تطغوا فيه] .

أى : فى رزقه ، فتستعملوه فى معاصيه ، وتبطروا النعمة .

فإنكم إن فعلتم ذلك ، حل عليكم غضبى أى : غضبت عليكم ، ثم عذبتكم .

[ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى] أى : ردى وهلك ، وخاب وخسر ، لأنه عدم الرضا والإحسان ، وحل عليه الغضب والخسران .

ومع هذا ، فالتوبة معروضة ، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصى ، ولهذا قال : [وإنى لغفار] أى : كثير المغفرة والرحمة ، لمن تاب من الكفر ،

عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ

والبدعة ، والفسوق ، وآمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن ، وأقوال اللسان .

[ثم اهتدى] أى : سلك الصراط المستقيم ، وتابع الرسول الكريم ، واقتدى بالدين القويم .

فهذا يغفر الله أوزاره ، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره ، لأنه أتى بالسبب الأكبر ، للمغفرة والرحمة ، بل الأسباب كلها منحصرة فى هذه الأشياء فإن التوبة تجُبُّ ما قبلها ، والإيمان والإسلام ،يهدم ما قبله، والعمل الصالح ، الذى هو الحسنات ، يذهب السيئات ، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها ، من تعلم علم ، وتدبر آية أو حديث ، حتى يتبين له معنى من المعانى يهتدى به ، ودعوة إلى دين الحق ، ورد بدعة ، أو كفر ، أو ضلالة ، وجهاد ، وهجرة ، وغير ذلك من جزئيات الهداية ، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب .

* كان الله تعالى، قد واعد موسى ، أن يأتيه ، لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة ، فأتمها بعشر .

فلما تم الميقات ، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد ، شوقا لربه ، وحرصا على موعوده . فقال الله له : [وما أعجلك عن قومك ياموسى] أى : ما الذى قدمك عليهم ؟ ولِمَ لَمْ تصبر حتى تقدم أنت وهم ؟

عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ

قال : [هم أولاء على أثرى] أى : قريبا منى . وسيصلون فى أثرى . والذى عجلنى إليك . يارب . الطلب لقربك . والمسارعة فى رضاك . والشوق إليك .

فقال الله له : [فإنا قد فتنا قومك من بعدك] أى : بعبادتهم للعجل ، ابتليناهم ، واختبرناهم ، فلم يصبروا . وحين وصلت إليهم المحنة ، كفروا [وأضلهم السامرى] .

[فأخرج لهم عجلا جسداً] وصاغه فصار [له خوار فقالوا] لهم [هذا إلهكم وإله موسى] فنسيه موسى ، فافتتن به بنو إسرائيل ،فعبدوه ،ونهاهم هرون فلم ينتهوا .

فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف ، أى ممتلىء غيظاً وحنقا وغما ، قال لهم موبخا ومقبحاً لفعلهم :

[ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا] وذلك بإنزال التوراة .

[أفطال عليكم العهد] أى : المدة ، فتطاولتم غيبتى وهى مدة قصيرة ؟ هذا قول كثير من المفسرين .

ويحتمل أن معناه : أفطال عليكم عهد النبوة والرسالة ، فلم يكن لكم علم ولا أثر ، واندرست آثارها ، فلم تقفوا منها على خبر ، فانمحت آثارها ،

فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾

قَالُواْ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

لبعد العهد بها ، فعبدتم غير الله ، لغلبة الجهل ، وعدم العلم بآثار الرسالة ؟

أى : ليس الأمر كذلك ، بل النبوة بين أظهركم ، والعلم قائم، والعذر غير مقبول ؟

أم أردتم بفعلكم ، أن يحل عليكم غضب من ربكم ؟ أى : فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه ، وهذا هو الواقع .

[فأخلفتم موعدى] حين أمرتكم بالاستقامة ، ووصيت بكم هرون ، فلم ترقبوا غائبا ، ولم تحترموا حاضراً .

☆ أى : قالوا له : ما فعلنا الذى فعلنا عن تعمد منا ، وملك منا لأنفسنا .

ولكن السبب الداعى لذلك ، أننا تأثمنا من زينة القوم التى عندنا .

وكانوا فيما يذكرون ، استعاروا حليا كثيرا من القبط ، فخرجوا وهو معهم .

وألقوه ، وجمعوه حين ذهب موسى ، ليراجعوه فيه ، إذا رجع .

وكان السامرى قد بَصُرَ يوم الغرق بأثر الرسول ، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره ، وأنه إذا ألقاها على شىء حَيِىَ ، فتنة وامتحانا .

فألقاها على ذلك العجل الذى صاغه بصورة عجل ، فتحرك العجل ، وصار له خوار وصوت ، وقالوا : إن موسى ذهب يطلب ربه ، وهوههنا ، فنسيه .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ

وهذا من بلادتهم ، وسخافة عقولهم ، حيث رأوا هذا العجل الغريب الذى صار له خوار ، بعد أن كان جمادا ، فظنوه إله الأرض والسموات .

[أفلا يرون] أن العجل [أن لا يرجع إليهم قولا] أى : لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً .

فالعبادة للكمال والكلام والفعال ، لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه .

فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء ، من النفع والدفع ، بإقدار الله لهم .

☆ أى إنهم باتخاذهم العجل ، ليسوا معذورين فيه .

فإنه ، وإن كانت عرضت لهم الشبهة فى أصل عبادته ، فإن هرون قد نهاهم عنه ، وأخبرهم أنه فتنة ، وأن ربهم الرحمن ، الذى منه النعم الظاهرة والباطنة ، الدافع للنقم .

وأنه أمرهم أن يتبعوه ، ويعتزلوا العجل .

فأبوا وقالوا : [لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى] .

عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

فأقبل موسى على أخيه لائماً وقال: [ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعن] فتخبرنى لأبادر للرجوع إليهم ؟

[أفعصيت أمرى] فى قولى [اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين] .

فأخذ موسى برأس هرون ولحيته ، يجره من الغضب والعتب عليه .

فقال هرون : [ياابن أم] ترقيق له ، وإلا فهو شقيقه [لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى] .

[فإنك أمرتنى أن أخلفك فيهم ، فلو تبعتك ، لتركت ما أمرتنى بلزومه وخشيت لائمتك ، و [أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل] حيث تركتهم ، وليس عندهم راع ولا خليفة ، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم .

فلا تجعلنى مع القوم الظالمين ، ولا تشمت فينا الأعداء .

فندم موسى على ما صنع بأخيه ، وهو غير مستحق لذلك فـ [قال : رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين]

ثم أقبل على السامرى ، فـ [قال : فما خطبك ياسامرى] إلى [فى اليم نسفا]

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ ﴾

---

* أى : ما شأنك ياسامرى ، حيث فعلت ما فعلت ؟ .

فقال : [بصرت بما لم يبصروا به] وهو جبريل عليه السلام ، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر ، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون .

فقضبت قبضة من أثر حافر فرسه ، فنبذتها على العجل .

[وكذلك سولت لى نفسى] أن أقبضها ، ثم أنبذها ، فكان ماكان .

فقال له موسى :

[فاذهب] أى تباعد عنى واستأخر مني [فإنلك فى الحياة أن تقول لا مساس] أى : تعاقب فى الحياة عقوبة ، لا يدنو منك أحد ، ولا يمسك أحد .

حتى إن من أراد القرب منك ، قلت : لا تمسني ، ولا تقرب مني ، عقوبة على ذلك ، حيث مس ما لم يمسه غيره ، وأجرى ما لم يُجْرِه أحد .

[وإن لك موعدا لن تخلفه] فتجازى بعملك ، من خير وشر .

[وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا] أى : العجل [لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا] ففعل موسى ذلك .

إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ

فلو كان إلها ، لامتنع ممن يريده بأذى ، ويسعى له بالإتلاف ، وكان قد أُشْرِبَ العجل فى قلوب بني إسرائيل .

فأراد موسى عليه السلام ، إتلافه — وهم ينظرون ، على وجه لا تمكن إعادته ـ وبالحراق والسحق ذَرْيِهِ فى اليم ، ونَسْفِهِ ، ليزول مافى قلوبهم من حبه ، كما زال شخصه .

ولأن فى إبقائه ، محنة لأن فى النفوس ، أقوى داع إلى الباطل .

فلما تبين لهم بطلانه ، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له ، فقال : [إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما] .

* أى : لا معبود إلا وجهه الكريم ، فلايؤله ، ولا يُحَبُّ ، ولا يُرْجَى ولا يُخَافُ ، ولا يُدْعَى إلا هو لأنه الكامل الذى له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، المحيط علمه ، بجميع الأشياء ، الذى ما من نعمة بالعباد ، إلا منه ، ولا يدفع السوء إلا هو .

فلا إله إلا هو ، ولا معبود سواه .

* يمتن الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، بما قصه عليه من أنباء السابقين ، وأخبار السالفين ، كهذه القصة العظيمة ، وما فيها من الأحكام وغيرها ، التى لا ينكرها أحد من أهل الكتاب .

فأنت لم تدرس أخبار الأولين ، ولم تتعلم ممن دراها .

فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم ، دليل على أنك رسول الله حقا ، وما جئت به صدق .

ولهذا قال : [وقد آتيناك من لدنا] أي : عطية نفسية ومنحة جزيلة من عندنا [ذكرا] وهو : وهذا القرآن الكريم ، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة ، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء ، والصفات الكاملة ، ويتذكر به أحكام الأمر والنهى ، وأحكام الجزاء .

وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام ، التى تشهد العقول والفطر ، بحسنها ، وكمالها ، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها .

وإذا كان القرآن ذكرا للرسول ولأمته ، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم ، والانقياد ، والتعظيم ، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم ، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم .

وأما مقابلته بالإعراض ، أو ما هو أعم منه من الإنكار فإنه كفر لهذه النعمة ، ومن فعل ذلك ، فهو مستحق للعقوبة .

ولهذا قال : [من أعرض عنه] فلم يؤمن به ، أو تهاون بأوامره ونواهيه ، أو بتعلم معانيه الواجبة [فإنه يحمل يوم القيامة وزرا] وهو ذنبه ، الذى بسببه ، أعرض عن القرآن وأولاه الكفر والهجران .

وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

[خالدين فيه] أى : فى وزرهم ، لأن العذاب هو نفس الأعمال ، تنقلب عذابا على أصحابها ، بحسب صغرها وكبرها .

[وساء لهم يوم القيامة حملا] أى : بئس الحمل الذى يحملونه ، والعذاب الذى يعذبونه يوم القيامة ثم استطرد ، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال : [يوم ينفخ فى الصور] إلى [إلا يوماً] .

☆ أى : إذا نفخ فى الصور،وخرج الناس من قبورهم كُلٌّ على حسب حاله .

فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدا،والمجرمون يحشرون زُرْقاً ألوانهم من الخوف والقلق ، والعطش .

يتناجون بينهم ، ويتخافتون فى قصر مدة الدنيا ، وسرعة الآخرة .

فيقول بعضهم : مالبثتم إلا عشرة أيام ، ويقول بعضهم غير ذلك .

والله يعلم تخافتهم ، ويسمع ما يقولون [إذ يقول أمثلهم طريقة] .

أى : أعدلهم وأقربهم إلى التقدير [إن لبثتم إلا يوماً] .

المقصود من هذا،الندم العظيم ، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة،وقطعوها ساهين لاهين ، معرضين عما ينفعهم ، مقبلين على مايضرهم .

وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ

فيها ، قد حضر الجزاء ، وحق الوعيد ، فلم يبق إلا الندم والدعاء ، بالويل والثبور .

كما قال تعالى « قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون » .

* يخبر تعالى عن أهوال القيامة ، وما فيها من الزلازل والقلاقل ، فقال :

[ويسئلونك عن الجبال] أى ماذا يصنع بها يوم القيامة ، وهل تبقى بحالها أم لا ؟

[فقل ينسفها ربى نسفا] أى : يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن ، وكالرمل ، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثا .

فتضمحل وتتلاشى ، ويسويها بالأرض ، ويجعل الأرض قاعا صفصفا ، مستويا « لايرى فيها الناظر « عوجا » ، هذا من تمام استوائها «ولا أمتا» أى : أودية وأماكن منخفضة ، أومرتفعة ، فتبرز الأرض ، وتتسع للخلائق ويمدها الله مَدَّ الأديم ، فيكونون فى موقف واحد ، يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، ولهذا قال :

[يومئذ يتبعون الداعى] وذلك حين يبعثون من قبورهم ، ويقومون منها ، يدعوهم الداعى إلى الحضور والاجتماع للموقف ، فيتبعون مهطعين إليه ، لا يلتفتون عنه ، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة .

وقوله [لاعوج له] أى : لا عوج لدعوة الداعى بل تكون دعوته حقا

فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ

وصدقا ، لجميع الخلق ، يسمعهم جميعم ، ويصيح لهم أجمعين .

فيحضرون لموقف القيامة ، خاشعة أصواتهم للرحمن .

[فلا تسمع إلا همسا] أى : إلا وطء الأقدام ، أو المخافتة سرا بتحريك الشفتين فقط ، يملكهم الخشوع والسكوت ، والإنصات ، انتظارا لحكم الرحمن فيهم ، وتعنو وجوههم أى : تذل وتخضع .

فترى فى ذلك الموقف العظيم ، الأغنياء والفقراء ، والرجال والنساء ، والأحرار والأرقاء ، والملوك والسوقة ، ساكتين منصتين ، خاشعة أبصارهم ، خاضعة رقابهم ، جاثين على ركبهم ، عانية وجوههم .

لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ، ولا ماذا يفعل به .

قد اشتغل كلٌّ بنفسه وشأنه ، عن أبيه وأخيه ، وصديقه وحبيبه « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

يحكم فيه الحاكم العدل الديان ، ويجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بالحرمان .

والأمل بالرب الكريم ، الرحمن الرحيم ، أن يرى الخلائق منه ، من الفضل والإحسان ، والعفو والصفح والغفران ، مالا تعبر عنه الألسنة ، ولا تتصوره الأفكار .

خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً ﴿١١٢﴾

ويتطلع لرحمته إذ ذاك ، جميع الخلق لما يشاهدونه فيختص المؤمنون به وبرسله ، بالرحمة .

فإن قيل : من أين لكم هذا الأمل ؟ وإن شئت قلت : من أين لكم هذا العلم بما ذكر ؟ .

قلنا : لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه ، ومن سعة جوده ، الذى عم جميع البرايا ، ومما نشاهده فى أنفسنا وفى غيرنا ، من النعم المتواترة فى هذه الدار ، وخصوصا فى فضل القيامة ، فإن قوله [وخشعت الأصوات للرحمن * إلا من أذن له الرحمن] مع قوله [الملك يومئذ الحق للرحمن] مع قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة ، بها يتراحمون ويتعاطفون ، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها ، خشية أن تطأه ، من الرحمة المودعة فى قلبها ، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة ، فرحم بها العباد .

مع قوله صلى الله عليه وسلم : « لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها » .

فقل ماشئت عن رحمته ، فإنها فوق ماتقول ، وتصور فوق ماشئت ، فإنها فوق ذلك

فسبحان من رحم فى عدله وعقوبته ، كما رحم فى فضله وإحسانه ومثوبته .

وتعالى من وسعت رحمته كل شىء ، وعم كرمه كل حى وجَلَّ من غَنِيٍّ

. . . .

عن عباده ، رحيم بهم ، وهم مفتقرون إليه على الدوام ، فى جميع أحوالهم ، فلا غنى لهم عنه ، طرفة عين :

وقوله : [يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضىَ له قولا] أى : لا يشفع أحد عنده من الخلق ، إلا من أذن له فى الشفاعة ، ولا يأذن إلا لمن رضى قوله ، أى:شفاعته ، من الأنبياء والمرسلين ، وعباده المقربين ، فيمن ارتضى قوله ، وهو المؤمن المخلص .

فإذا اختل واحد من هذه الأمور ، فلا سبيل لأحد إلى شفاعة من أحد .

وينقسم الناس فى ذلك الموقف قسمين .

ظالمين بكفرهم ، فهؤلاء ، لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان ، والعذاب الأليم فى جهنم ، وسخط الديان .

والقسم الثانى : من آمن الإيمان المأمور به ، وعمل صالحا ، من واجب ومسنون [فلا يخاف ظلماً] أى : زيادة فى سيئاته [ولا هضما] أى : نقصا من حسناته ، بل تغفر ذنوبه ، وتطهر عيوبه ، وتضاعف حسناته . « وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما » .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾

---

* أي : وكذلك أنزلنا هذا الكتاب ، باللسان الفاضل العربى ، الذى تفهمونه وتفقهونه ، ولايخفى عليكم لفظه ، ولا معناه .

[وصرفنا فيه من الوعيد] أى نوّعناها أنواعا كثيرة .

تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام .

وتارة بذكر المثلات التى أحلها بالأمم السابقة ، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة .

وتارة بذكر آثار الذنوب ، وما تكسبه من العيوب .

وتارة بذكر أهوال القيامة ، وما فيها من المزعجات ، والمقلقات .

وتارة ، بذكر جهنم ، وما فيها من أنوع العقاب ، وأصناف العذاب .

كل هذا ، رحمة بالعباد ، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصى ، ما يضرهم .

[أو يحدث لهم ذكرا] فيعملون من الطاعات والخير ، ما ينفعهم .

فكونه عربيا ، وكونه مصرفا فيه من الوعيد ، أكبر سبب ، وأعظم داع للتقوى ، والعمل الصالح .

فلو كان غير عربى أو غير مصرف فيه ، لم يكن له هذا الأثر .

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى حكمه الجزئى فى عباده ، وحكمه الأمرى الديني ، الذى أنزل فى الكتاب وكان هذا من آثار ملكه قال :

[فتعالى الله] أى جَلَّ وارتفع ، وتقدس ، عن كل نقص وآفة .

[الملك] الذى الملك وصفه ، والخلق كلهم ، مماليك له .

وأحكام الملك القدرية والشرعية ، نافذة فيهم .

[الحق] أى وجوده ، وملكه ، وكماله ، حق .

فصفات الكمال ، لا تكون حقيقة ، إلا لذى الجلال ، ومن ذلك : الملك .

فإن غيره من الخلق ، وإن كان له ملك فى بعض الأوقات ، على بعض الأشياء ، فإنه ملك قاصر باطل ، يزول .

وأما الرب ، فلا يزال ولا يزول مَلِكاً حيًّا قَيُّوماً جليلا .

[ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه] أى لاتبادر بِتَلَقُّفِ القرآن حين يتلوه عليك جبريل ، واصبر حتى يفرغ منه .

فإذا فرغ منه فاقرأه ، فإن الله قد ضمن لك جمعه فى صدرك ، وقراءتك إياه .

كما قال تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه » .

ولما كانت عجلته صلى الله عليه وسلم ، على تَلَقُّف الوحى ومبادرته

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

إليه ، تدل على محبته التامة للعلم ، وحرصه عليه ، أمره تعالى أن يسأله زيادة العلم خير ، فإن العلم خير ، وكثرة الخير مطلوبة ، وهى من الله .

والطريق إليها ، الاجتهاد ، والشوق للعلم ، وسؤال الله ، والاستعانة به ، والافتقار إليه فى كل وقت .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة ، الأدب فى تلقى العلم ، وأن المستمع للعلم ، ينبغى له أن يتأنّى ويصبر ، حتى يفرغ الملى والمعلم من كلامه ، المتصل بعضه ببعض .

فإذا فرغ منه ، سأل ، إن كان عنده سؤال .

ولا يبادر بالسؤال ، وقطع كلام مُلْقِي العلم فإنه سبب للحرمان .

وكذلك المسئول ، ينبغى له أن يستملى سؤال السائل ، ويعرف المقصود منه قبل الجواب ، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب .

* أى : ولقد وصينا آدم ، وأمرناه ، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به ، فالتزمه، وأذعن له ، وانقاد ، وعزم على القيام به ومع ذلك ، نسى ما أمر به ، وانتقضت عزيمته المحكمة ، فجرى عليه ما جرى ، فصار عبرة لذريته ، وصارت طبائعهم مثل طبيعة آدم ، نسى فنسيت ذريته ، وخطىء فخطئوا ، ولم يثبت على العزم المؤكد ، وهم كذلك ، وبادر بالتوبة من خطيئته ، وأقرّ بها واعترف ، فغفرت له ، ومن يشابه أباه فما ظلم .

ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال : [وإذ قلنا] إلى [فتاب عليهوهدى]

۞ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ

---

* أى : لما أكمل خلق آدم بيده ، وعلمه الأسماء ، وفضله ، وكرمه ، أمر الملائكة بالسجود له ، إكراماً ، وتعظيما ، وإجلالا ، فبادروا بالسجود ممتثلين .

وكان بينهم إبليس ، فاستكبر عن أمر ربه ، وامتنع من السجود لآدم وقال :

[أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين] فتبينت حينئذ،عداوته البليغة لآدم وزوجه ، لما كان عدو الله ، وظهر من حسده ، ما كان سبب العداوة .

فحذر الله آدم وزوجه منه ، وقال « لا يخرجنكما من الجنة فتشقى » إذا أخرجت منها .

فإن لك فيها الرزق الهنى والراحة التامة .

[إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وإنك لا تظمأ فيها ولا تضحى] أى : تصيبك الشمس بحرها .

فضمن له ، استمرار الطعام والشراب ، والكسوة ، والماء ، وعدم التعب والنصب .

إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال : [ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين] .

فلم يزل الشيطان يوسوس لهما ، ويزين أكل الشجرة ويقول : [هل أدلك على شجرة الخلد] أى : التى من أكل منها خُلِّد فى الجنة .

[وملك لا يبلى] أى : لا ينقطع ، إذا أكلت منها .

فأتاه بصورة ناصح ، وتلطف له فى الكلام ، فاغتر به آدم ، فأكلا من الشجرة فَسُقِطَ فى أيديهما ، وسقطت كسوتهما ، واتضحت معصيتهما ، وبدا لكل منهما سوأة الآخر ، بعد أن كانا مستورين .

وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة ، ليسترا بذلك ، وأصابهما من الخجل ، ما الله به عليم .

[وعصى آدم ربه فغوى] فبادرا إلى التوبة والإنابة ، وقالا :

«ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» .

فاجتباه ربه ، واختاره ، ويسر له التوبة [فتاب عليه وهدى] فكان بعد التوبة ، أحسن منه قبلها .

ورجع كيد العدو عليه ، وبطل مكره ، فتمت النعمة عليه ، وعلى

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾

ذريته ، ووجب عليهم القيام بها ، والاعتراف ، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم ، ليلا ونهاراً « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » أى : ينزع عنهما لباسهما ، ليريهما سوآتهما ، « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

* يخبر تعالى ، أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض ، وأن يتخذ آدم وبنوه . الشيطان عدواً لهم ، فيأخذوا الحذر منه ، ويُعِدُّوا له عُدَّته ويحاربوه .

وأنه سينزل عليهم كتباً ، ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته ، ويحذرونهم من هذا العدو المبين .

وأنهم أى وقت جاءهم ذلك الهدى ، الذى هو : الكتب والرسل ، فإن من اتبعه ، اتبع ما أمر به ، واجتنب ما نهى عنه ، فإنه لا يضل فى الدنيا ،ولا فى الآخرة ، ولا يشقى فيهما،بل قد هُدِىَ إلى صراط مستقيم ، فى الدنيا والآخرة ، وله السعادة والأمن فى الآخرة .

وقد نفى عنه الخوف والحزن فى آية أخرى بقوله « فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

واتباع الهدى ، بتصديق الخبر ، وعدم معارضته بالشبه ، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة .

وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

[ومن أعرض عن ذكرى] أى : كتابى الذى يتذكر به جميع المطالب العالية ، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه ، أو ما هو أعظم من ذلك ، بأن يكون على وجه الإنكار له ، والكفر به [فإن له معيشة ضنكا] أى : فإن جزاءه ، أن نجعل معيشته ضيقة مشقة ، ولا يكون ذلك إلا عذاباً .

وفسرت المعيشة الضنك ، بعذاب القبر ، وأنه يضيق عليه قبره ، ويحصر فيه ، ويعذب ، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه ، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر .

والثانية قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم » الآية .

والثالثة قوله « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر » .

والرابعة قوله عن آل فرعون « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » الآية .

والذى أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف ، وقصرها على ذلك — والله أعلم — آخر الآية ، وأن الله ذكر فى آخرها عذاب يوم القيامة .

وبعض المفسرين ، يرى أن المعيشة الضنك ، عامة فى دار الدنيا ، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه ، من الهموم ، والغموم ، والآلام ، التى هى عذاب معجل ، وفى دار البرزخ ، وفى الدار الآخرة ، لإطلاق المعيشة الضنك ، وعدم تقييدها .

[ونحشره] أى : هذا المعرض عن ذكر ربه [يوم القيامة أعمى] البصر

أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

على الصحيح ، كما قال تعالى « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما » .

قال على وجه الذل ، والمراجعة ، والتألم ، والضجر من هذه الحالة [رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت] فى دار الدنيا [بصيراً] فما الذى صيرنى إلى هذه الحالة البشعة .

[قال كذلك آتتك آياتنا فنسيتها] بإعراضك عنها [وكذلك اليوم تنسى] أى تترك فى العذاب .

فأجيب ، بأن هذا هو عين عملك ، والجزاء من جنس العمل .

فكما عميت عن ذكر ربك ، وعشيت عنه ، ونسيته ، ونسيت حظك منه ، أعمى الله بصرك فى الآخرة ، فحشرت إلى النار أعمى ، أصم ، أبكم ، وأعرض عنك ، ونسيك فى العذاب .

[وكذلك] أى : هذا الجزاء [نجزيه] [من أسرف] بأن تعدى الحدود ، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له [ولم يؤمن بآيات ربه] الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة ، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة فى غير محلها وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه .

[ولعذاب الآخرة أشد] من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة [وأبقى]

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ ﴾

لكونه لا ينقطع ، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع .

فالواجب ، الخوف والحذر من عذاب الآخرة .

* أى أفلم يهد لهؤلاء المكذبين المعرضين ، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد ، وتجنب طريق الغى والفساد ، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم ، من القرون الخالية ، والأمم المتتابعة ، الذين يعرفون قصصهم ، ويتناقلون أسمارهم ، وينظرون بأعينهم ، مساكنهم من بعدهم ، كقوم هود ، وصالح ، ولوط وغيرهم ، وأنهم لما كذبوا رسلنا ، وأعرضوا عن كتبنا ، أصبناهم بالعذاب الأليم ؟

فما الذى يؤمن هؤلاء ، أن يحل بهم ، ما حل بأولئك ؟ « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر » .

لا شىء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار ، خيراً من أولئك ، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم ، بل هم شر منهم ، لأنهم كفروا بأشرف الرسل ، وخير الكتب .

وليس لهم براءة مزبورة ، وعهد عند الله .

وليسوا كما يقولون ، أن جمعهم ينفعهم ، ويدفع عنهم ، بل هم أذل وأحقر من ذلك .

فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم ، من أسباب الهداية ، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل ، الذين جاءوهم ، وبطلان ما هم عليه .

ولكن ما كل أحد ينتفع بالآيات ، إنما ينتفع بها ، أولو النهى ،

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾

أى : العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والألباب التى تزجر أصحابها عما لا ينبغى .

* هذه تسلية للرسول ، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين ، المعرضين ، وأن كفرهم وتكذيبهم ، سبب صالح ، لحلول العذاب بهم ، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات ، سببا وناشئا عن الذنوب ، ملازما لها.

وهؤلاء قد أتوا بالسبب ، ولكن الذى أخره عنهم ، كلمة ربك ، المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم ، وضرب الأجل المسمى .

فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله ، هو الذى أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها .

ولعلهم يراجعون أمر الله ، فيتوب عليهم ، ويرفع عنهم العقوبة ، إذا لم تحق عليهم الكلمة .

ولهذا أمر الله رسوله ، بالصبر على أذيتهم بالقول ، وأمره أن يتعوض عن ذلك ، ويستعين عليه ، بالتسبيح بحمد ربه ، فى هذه الأوقات الفاضلة ، قبل طلوع الشمس ، وقبل غروبها ، وفى أطراف النهار ، أوله وآخره ، عموم بعد خصوص ، وأوقات الليل وساعاته .

ولعلك إن فعلت ذلك ، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل .

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ ﴾

وليطمئن قلبك ، وتقر عينك بعبادة ربك ، وتتسلى بها عن أذيتهم ، فيخف حينئذ عليك الصبر .

* أى : ولا تمد عينيك معجبا ، ولا تكرر النظر مستحسنا — إلى أحوال الدنيا والمتعين بها ، من المآكل والمشارب اللذيذة ، والملابس الفاخرة ، والبيوت المزخرفة ، والنساء المجملة .

فإن ذلك كله ، زهرة الحياة الدنيا ، تبتهج بها نفوس المغترين ، وتأخذ إعجاباً ، بأبصار المعرضين ، ويتمتع بها — بقطع النظر عن الآخرة — القوم الظالمون .

ثم تذهب سريعاً ، وتمضى جميعاً ، وتقتل محبيها وعشاقها ، فيندمون حيث لا تنفع الندامة ، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا يوم القيامة .

وإنما جعلها الله فتنة واختباراً ، ليعلم من يقف عندها ، ويغتر بها ، ومن هو أحسن عملا كما قال تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً » .

[ورزق ربك] العاجل من العلم والإيمان ، وحقائق الأعمال الصالحة ، والآجل من النعيم المقيم ، والعيش السليم فى جوار الرب الرحيم [خير] مما متعنا به أزواجاً ، فى ذاته وصفاته [وأبقى] لكونه لا ينقطع أكلها دائم وظلها كما قال تعالى « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » .

وفى هذه الآية ، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه ، طموحا إلى زينة الدنيا ، وإقبالا عليها ، أن يذكر ما أمامها من رزق ربه ، وأن يوازن بين هذا وهذا .

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾

---

* أى : حث أهلك على الصلاة وأزعجهم إليها من فرض ونفل .

والأمر بالشيء ، أمر بجميع ما لا يتم إلا به ، فيكون أمرا بتعليمهم، ما يصلح الصلاة ، ويفسدها ، ويكملها .

[واصطبر عليها] أى : على الصلاة بإقامتها ، بحدودها ، وأركانها ، وخشوعها ، فإن ذلك ، مشق على النفس .

ولكن ينبغى إكراهها وجهادها على ذلك ، والصبر معها دائماً .

فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به ، كان لما سواها من دينه ، أحفظ وأقوم .

وإذا ضيعها ، كان لما سواها أضيع .

ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق ، وأن لا يشغله الاهتمام به ، عن إقامة دينه فقال :

[نحن نرزقك] أى : رزقك علينا ، قد تكفلنا به ، كما تكفلنا بأرزاق الخلائق كلهم .

فكيف بمن قام بأمرنا ، واشتغل بذكرنا ؟ ! ! ورزق الله عام للمتقى وغيره .

فينبغى الاهتمام ، بما يجلب السعادة الأبدية ، وهو: التقوي ، ولهذا قال:

[والعاقبة] فى الدنيا والآخرة [للتقوى] التى هى فعل المأمور وترك المنهى .

فمن قام بها ، كان له العاقبة ، كما قال تعالى « والعاقبة للمتقين » .

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ

---

* أى : قال المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم : هلا يأتينا بآية من ربه ؟

يعنون آيات الاقتراح كقولهم : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا » .

وهذا تعنت منهم ، وعناد وظلم ، فإنهم ، هم والرسول ، بشر عبيدلله ، فلا يليق منهم الاقتراح ، بحسب أهوائهم ، وإنما الذى ينزلها ، ويختار منها ما يختار بحسب حكمته ، هو الله .

ولما كان قولهم : « لولا أنزل عليه آيات من ربه » يقتضى أنه لم يأتهم بآية على صدقه ، ولا بينة على حقه ، وهذا كذب وافتراء ، فإنه أتى من المعجزات الباهرات ، والآيات القاهرات ، ما يحصل ببعضه ، المقصود .

ولهذا قال: [أو لم تأتهم] إن كانوا صادقين فى قولهم ، وأنهم يطلبون الحق بدليله .

[بينة ما فى الصحف الأولى] أى : هذا القرآن العظيم ، المصدق لما فى الصحف الأولى ، من التوراة ، والإنجيل ، والكتب السابقة المطابق لها ، المخبر بما أخبرت به .

لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ

وتصـديقه أيضا مذكور فيها ، ومبشر بالرسول بها ، وهذا كقوله تعالى :

« أو لم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » .

فالآيات تنفع المؤمنين ، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم .

وأما المعرضون عنها المعارضون لها ، فلا يؤمنون بها ، ولا ينتفعون بها ، « إن الذين حقت عليهم كلة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » .

وإنما الفائدة فى سوقها إليهم ومخاطبتهم بها ، لتقوم عليهم حجة الله ، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب : [لولا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى] بالعقوبة ، فها قد جاءكم رسولى ومعه آياتى وبراهينى .

فإن كنتم كما تقولون ، فصدقوه .

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به ريب المنون [قل كل متربص] فتربصوا بى الموت ، وأنا أتربص بكم العذاب « قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين » أى : الظفر أو الشهادة « ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » .

أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

[فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى] أى المستقيم .

[ومن اهتدى] بسلوكه ، أنا أم أنتم ؟ فإن صاحبه ، هو الفائز الراشد ، الناجى المفلح .

ومن حاد عنه فهو خاسر خائب معذب .

وقد علم أن الرسول هو الذى بهذه الحالة ، وأعداؤه ، بخلافه . والله أعلم .

تم تفسير سورة طه ولله الحمد

تفســـير

سُورَةُ الأنبياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ

هذا تعجب من حالة الناس ، وأنهم لاينجع فيهم تذكير ، ولا يرعون إلى نذير ، وأنهم قد قرب حسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة ، والحال أنهم فى غفلة معرضون أى : غفلة عما خلقوا له ، وإعراض عما زجروا به .

كأنهم للدنيا خلقوا ، وللتمتع بها ولدوا ، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ ، ولا يزالون فى غفلتهم وإعراضهم ، ولهذا قال :

[ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث] يذكرهم ما ينفعهم ، ويحثهم عليه ومايضرهم،ويرهبهم منه [إلا استمعوه] سماعا ، تقوم عليهم به الحجة .

[وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم] أى : قلوبهم غافلة معرضة بمطالبها

. . . .

الدنيوية وأبدانهم لاعبة ، قد اشتغلوا بتناول الشهوات ، والعمل بالباطل، والأقوال الردية .

مع أن الذى ينبغى لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة ، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه ، وتستمعه استماعا ، تفقه المراد منه ، وتسعى جوارحهم ، فى عبادة ربهم ، التى خلقوا لأجلها ، ويجعلون القيامة والحساب، والجزاء منهم على بال .

فبذلك يتم لهم أمرهم ، وتستقيم أحوالهم ، وتزكو أعمالهم .

وفى معنى قوله [اقترب للناس حسابهم] قولان .

أحدهما أن هذه الأمة ، هى آخر الأمم ، ورسولها ، آخر الرسل ، وعلى أمته تقوم الساعة ، فقد قرب الحساب منها ، بالنسبة لما قبلها من الأمم ، لقوله صلى الله عليه وسلم « بعثت أنا والساعة كهاتين ، وقرن بين إصبعيه ، السبابة والتى تليها » .

والقول الثانى : أن المراد بقرب الحساب الموت ، وأن من مات ، قامت قيامته ، ودخل فى دار الجزاء على الأعمال ، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض ، لا يدرى متى يفجأه الموت ، صباحا أو مساء .

فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية ، فاستعد للموت وما بعده .

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون ، على وجه العناد ، ومقابلة الحق بالباطل ، وأنهم تناجوا ، وتواطأوا فيما بينهم ، أن يقولوا فى الرسول

مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾

صلى الله عليه وسلم ، إنه بشر مثلكم ، فما الذى فضله عليكم ، وخصه من بينكم .

فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه ، لكان قوله من جنس قوله .

ولكنه يريد أن يتفضل عليكم ، ويرأس فيكم ، فلا تطيعوه ، ولا تصدقوه .

وأنه ساحر ، وما جاء به من القرآن ، سحر ، فانفروا عنه ، ونفروا الناس ، وقولوا .

[أفتأتون السحر وأنتم تبصرون] هذا ، وهم يعلمون أنه رسول الله حقا بما يشاهدون من الآيات الباهرة ، مالم يشاهده غيرهم ، ولكن حملهم على ذلك ، الشقاء والظلم والعناد .

والله تعالى قد أحاط علما بما تناجوا به ، وسيجازيهم عليه ولهذا قال :

[قال ربى يعلم القول] الخفى والجلى [فى السماء والأرض] أي : فى جميع ما احتوت عليه أقطارها [وهو السميع] لسائر الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات [العليم] بما فى الضمائر ، وأكنته السرائر .

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمِۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾

---

* يذكر تعالى انتفاك المكذبين بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم تقوّلوا فيه، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة.

فتارة يقولون «أضغاث أحلام» بمنزلة كلام النائم الهاذى، الذى لايحس بما يقول.

وتارة يقولون «افتراه» واختلقه وتقوّله من عند نفسه.

وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر فى هذا الذى جاء به، جزم جزما لايقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحداً من البشر، لايقدر على الإتيان بمثل بعضه.

كما تحدى الله أعداءه بذلك، ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته، وعداوته فلم يقدروا على شىء من معارضته، وهم يعلمون ذلك.

وإلا، فما الذى أقامهم، وأقعدهم؟ وأقض مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذى لا يقوم له شىء؟

وإنما يقولون هذه الأقوال فيه، حيث لم يؤمنوا به، تنفيرا عنه لمن لم يعرفه.

. . . .

وهو أكبر الآيات المستمرة ، الدالة على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصدقه ، وهو كاف شاف .

فمن طلب دليلا غيره ، أو اقترح آية من الآيات سواه ، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه ، وطلبوا من الآيات الاقتراحية ، ما هو أضر شيء عليهم .

وليس لهم فيها مصلحة لأنهم إن كان قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله ، فقد تبين دليله بدونها .

وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم ، إن لم يأت بما طلبوا فإنهم بهذه الحالة — على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات — لا يؤمنون قطعا ، فلو جاءتهم كل آية ، لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

ولهذا قال الله عنهم : [فليأتنا بآية كما أرسل الأولون] أى : كناقة صالح ، وعصا موسى ، ونحو ذلك .

قال الله : [ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها] أى : بهذه الآيات المقترحة .

وإنما سنته تقتضى أن من طلبها ، ثم حصلت له لم يأمن أن يعاجله بالعقوبة .

فالأولون ما آمنوا بها أفيؤمن هؤلاء بها ؟

ما الذى فضلهم على أولئك وما الخير الذى فيهم ، يقتضي الإيمان عند وجودها ؟

وهذا الاستفهام ، بمعنى النفى ، أى : لايكون ذلك منهم أبداً .

۞ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا

هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هَلاَّ كان مَلَكاً، لايحتاج إلى طعام وشراب، وتصرُّف فى الأسواق؟ وهلاَّ كان خالداً؟

فإذا لم يكن كذلك، دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت فى قلوب المكذبين للرسل، تشابهوا فى الكفر، فتشابهت أقوالهم.

فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله.

ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام، الذى قد أقر بنبوته جميع الطوائف.

والمشركون، يزعمون أنهم على دينه وملته — بأن[1] الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم، كلهم من البشر، الذين يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية، من الموت وغيره.

وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأممهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم.

وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم، ولأتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

---

(١) قوله «بأن الرسل الخ» متعلق بقوله السابق «فأجاب تعالى الخ».

لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَـكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾

فما بال محمد صلى الله عليه وسلم ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته وهى موجودة فى إخوانه المرسلين ، الذين يُقِرُّ بهم المكذبون لمحمد ؟

فهذا إلزام لهم ، فى غاية الوضوح .

وأنهم إن أقروا برسول من البشر ، ولن يقروا برسول من غير البشر ،فإن شبههم باطلة ، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها ، وتناقضهم بها .

فلو قدر انتقالهم هذا إلى إنكار نبوة البشر رأسا ، وأنه لا يكون نبى إن لم يكن ملكا مُخَلَّداً ، لا يأكل الطعام ، فقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

«وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون* ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقى الوحى من الملائكة [قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا] .

فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين « فاسألوا أهل الذكر » من الكتب السالفة ، كأهل التوراة والإنجيل ، يخبروكم بما عندهم من العلم ، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم .

وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر ، وهم أهل العلم ، فإنها عامة فى كل مسألة من مسائل الدين ، أصوله وفروعه ، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها ، أن يسأل من يعلمها .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم .

ولم يؤمر بسؤالهم ، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه .

وفى تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم ، نهى عن سؤال المعروف بالجهل ، وعدم العلم ، ونهى له أن يتصدى لذلك ، وفى هذه الآية ، دليل على أن النساء ليس منهن نبية ، لا مريم ولا غيرها ، لقوله [إلا رجالا] .

* أى : لقد أنزلنا إليكم — أيها المرسل إليهم ، محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب — كتابا جليلا ، وقرآنا مبينا [فيه ذكركم] أى شرفكم وفخركم ، وارتفاعكم ، إن تذكرتم به ، ما فيه من الأخبار الصادقة ، فاعتقدتموها ، وامتثلتم ما فيه من الأوامر ، واجتنبتم ما فيه من النواهى ، وارتفع قدركم ، وعظم أمركم .

[أفلا تعقلون] ماينفعكم وما يضركم ؟ كيف لا تعملون على ما فيه ذكركم ، وشرفكم فى الدنيا والآخرة ، فلو كان لكم عقل ، لسلكتم هذا السبيل .

فلما لم تسلكوه ، وسلكتم غيره ، من الطرق ، التى فيها ضَعَتُكُمْ وَخِسَّتُكُمْ فى الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما ، علم أنه ليس لكم معقول صحيح ، ولا رأى رجيح .

وهذه الآية ، مصداقها ما وقع .

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

فإن المؤمنين بالرسول ، والذين تذكروا بالقرآن ، من الصحابة ، فمن بعدهم ، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر ، والصيت العظيم ، والشرف على الملوك ، ما هو أمر معلوم لكل أحد .

كما أنه معلوم ما حصل ، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأسا ، ولم يهتد ، ولم يتزكَّ به ، من المقت والضعة ، والتدسية ، والشقاوة ، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، إلا بالتذكر بهذا الكتاب .

* يقول تعالى — محذرا لهؤلاء الظالمين ، المكذبين للرسول ، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل — [وكم قصمنا] أي : أهلكنا بعذاب مستأصل [من قرية] تلفت عن آخرها [وأنشأنا بعدها قوماً آخرين] وأن هؤلاء المهلكين ، لما أحسوا بعذاب الله وعقابه ، وباشرهم نزوله ، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ، ندما ، وقلقاً ، وتحسروا على ما فعلوا .

فقيل لهم على وجه التهكم بهم : [لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون] أي : لا يفيدكم الركض والندم .

ولكن إن كان لكم اقتدار ، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه ، من اللذات ، والمشتهيات ، ومساكنكم المزخرفات ، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم ، حتى جاءكم أمر الله .

فكونوا فيها متمكنين ، وللذاتها جانين ، وفى منازلكم مطمئنين

لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

معظمين ، لعلكم أن تكونوا مقصودين فى أموركم ، كما كنتم سابقاً ، مسئولين من مطالب الدنيا ، كحالتكم الأولى ، وهيهات ، أين الوصول إلى هذا ؟ وقد فات الوقت ، وحل بهم العقاب والمقت ، وذهب عنهم عزهم ، وشرفهم ودنياهم ، وحضرهم ندمهم وتحسرهم ؟

ولهذا [قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم].

أى : الدعاء بالويل والثبور ، والندم ، والإقرار على أنفسهم بالظلم وأن الله عادل فيما أحل بهم .

[حتى جعلناهم حصيدا خامدين] أى : بمنزلة النبات الذى قد حصد وأُنيم .

قد خمدت منهم الحركات ، وسكنت منهم الأصوات .

فاحذروا — أيها المخاطبون — أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل ، فيحل بكم كما حل بأولئك .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

---

* يخبر تعالى أنه ما خلق السموات والأرض عبثا ، ولا لعبامن غير فائدة بل خلقها بالحق وللحق ، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم ، المدبر الحكيم ، الرحمن الرحيم ، الذى له الكمال كله ، والحمد كله ، والعزة كلها .

الصادق فى قيله ، الصادقة رسله ، فيما تخبر عنه ، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما،قادر على إعادة الأجساد بعد موتها ، ليجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

[لو أردنا أن تتخذ لهوا] على الفرض والتقدير المحال [لاتخذناه من لدنا] أى : من عندنا [إن كنا فاعلين] ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء ، لا نحب أن نريه إياكم (١) .

فالسموات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام ، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو .

كل هذا تنزُّلٌ مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة .

فسبحان الحليم الرحيم ، الحكيم ،فى تنزيله الأشياء منازلها .

---

(١) قوله « على أن نريه إياكم » خطأ نحوى فالصواب أن يقال : « أن نريكموه » كما قال تعالى« ولو أراكهم كثيراً »الآية ، وقوله:« أنلزمكموها » الآية ، لأن مهما أمكن الاتصال فى الضمائر ، فلا يعدل عنه إلى الانفصال .

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَـكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

---

* يخبر تعالى ، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل .

وإن كان باطل قيل وجودل به ، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان ، ما يدمغه ، فيضمحل ، ويتبين لكل أحد بطلانه [فإذا هو زاهق].

أى : مضمحل ، فانٍ ، وهذا عام فى جميع المسائل الدينية ، لا يورد مبطل ، شبهة ، عقلية ولا نقلية ، فى إحقاق باطل ، أو رد حق ، إلا وفى أدلة الله ،من القواطع العقلية والنقلية، ما يُذْهِبُ ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد .

وهذا يتبين باستقراء المسائل ، مسئلة مسئلة ، فإنك تجدها كذلك

ثم قال : [ولكم] أيها الواصفون الله ، بما لا يليق به ، من اتخاذ الولد والصاحبة ، ومن الأنداد والشركاء ، حظكم من ذلك ، ونصيبكم الذى تدركون به [الويل] والندامة والخسران .

ليس لكم مما قلتم فائدة ، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها ، وتعملون لأجلها ، وتسعون فى الوصول إليها ، إلا عكس مقصودكم ، وهو : الخيبة والحرمان .

ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما .

فالكل عبيده ومماليكه ، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونة عليه ، ولا يشفع إلا بإذن الله .

فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة وكيف يجعل لله منها ولد ؟ !

وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾
يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾
أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

فتعالى وتقدس ، المالك العظيم ، الذى خضعت له الرقاب ، وذلّتْ له الصعاب ، وخشعت له الملائكة المقربون ، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة ، أجمعون .

ولهذا قال : [ومن عنده] أى الملائكة [لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرن] أى : لا يملون ولا يسأمون ، لشدة رغبتهم ، وكمال محبتهم ، وقوة أبدانهم .

[يسبحون الليل والنهار لا يفترون] أى : مستغرقين فى العبادة والتسبيح فى جميع أوقاتهم فليس فى أوقاتهم وقت فارغ ولا خال منها وهم على كثرتهم بهذه الصفة ، وفى هذا من بيان عظمته وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته ، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو ، ولا تُصْرَفَ العبادة لغيره .

* لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمته ، وخضوع كل شىء له ، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض ، فى غاية العجز وعدم القدرة [هم ينشرون] .

استفهام بمعنى النفى ، أى : لا يقدرون على نشرهم وحشرهم ، يفسرها قوله تعالى :

« واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً * واتخذوا من دون

لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا

الله آلهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون » .

فالمشرك يعبد المخلوق ، الذى لا ينفع ولا يضر ، ويدع الإخلاص لله ، الذى له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضر .

وهذا من عدم توفيقه ، وسوء حظه ، وتَوَفُّر جهله ، وشدة ظلمه .

فإنه لا يصلح الوجود ، إلا على إله واحد ، كما أنه لم يوجد ، إلا برب واحد .

ولهذا قال : [لو كان فيهما] أى : فى السموات والأرض [آلهة إلا الله لفسدتا] فى ذاتهما ، وفسد من فيهما ، من المخلوقات .

وبيان ذلك : أن العالم العلوى والسفلى ، على ما يرى ، فى أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام ، الذى ما فيه خلل ولا عيب ، ولا ممانعة ، ولا معارضة .

فدل ذلك ، على أن مدبره واحد ، وربه واحد ، وإلهه واحد .

فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك ، لاختل نظامه ، وتقوضت أركانه ، فإنهما يتمانعان ويتعارضان .

وإذا أراد أحدهما تدبير شىء ، وأراد الآخر عدمه ، فإنه محال وجود مرادهما معاً .

ووجود مراد أحدهما دون الآخر ، يدل على عجز الآخر ، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد فى جميع الأمور ، غير ممكن .

فإذاً ، يتعين أن القاهر الذى يوجد مراده وحده ، من غير ممانع

يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ

ولا مدافع ، هو الله الواحد القهار ، ولهذا ذكر الله دليل التمانع فى قوله :

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه وتعالى عما يصفون » .

ومنه — على أحد التأويلين — قوله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً » .

ولهذا قال هنا : [فسبحان الله] أى : تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده .

[رب العرش] الذى هو سقف المخلوقات وأوسعها ، وأعظمها ، فربوبية ما دونه من باب أولى .

[عما يصفون] أى: الجاحدون الكافرون ، من اتخاذ الولد والصاحبة ، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه [لا يسأل عما يفعل] لعظمته وعزته ، وكمال قدرته ، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه ، لا بقول ، ولا بفعل .

ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها ، وإتقانها ، أحسن كل شىء يقدره العقل ، فلا يتوجه إليه سؤال ، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال .

[وهم] أى : المخلوقون كلهم [يسألون] عن أفعالهم وأقوالهم ، لعجزهم وفقرهم ، ولكونهم عبيدا ، قد استحقت أفعالهم وحركاتهم فليس لهم من التصرف والتدبير فى أنفسهم ، ولا فى غيرهم ، مثقال ذرة .

مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين ، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعا [أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم] أى حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه ، ولن يجدوا لذلك سبيلا بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه ، ولهذا قال :

[هذا ذكر من معى وذكر من قبلى] أى : قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم ، من إبطال الشرك .

فهذا كتاب الله الذى فيه ذكر كل شىء ، بأدلته العقلية والنقلية .

وهذه الكتب السابقة كلها ، براهين وأدلة لما قلت .

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه ، علم أنه لا برهان لهم ، لأن البرهان القاطع ، يجزم أنه لا معارض له ، وإلا لم يكن قطعيا .

وإن وجد معارضات ، فإنها شُبَه لا تغنى من الحق شيئا .

وقوله [بل أكثرهم لا يعلمون الحق] أى : وإنما أقاموا على ما هم عليه ، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى .

وليس عدم علمهم بالحق لخفائه وغموضه ، وإنما ذلك ، لإعراضهم عنه .

وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات ، لتبين لهم الحق من الباطل تبينا واضحا جليا ، ولهذا قال : [فهم معرضون] .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين ، وأمر بالرجوع إليهم فى بيان هذه المسئلة ، بيَّنها أتم تبيين فى قوله «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

فكل الرسل ، الذين من قبلك مع كتبهم ، زبدة رسالتهم وأصلها ، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ، وبيان أنه الإله الحق المعبود ، وأن عبادة ما سواه ، باطلة .

* يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول ، وأنهم زعموا — قبحهم الله — أن الله اتخذ ولدا فقالوا : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن قولهم .

وأخبر عن وصف الملائكة ، بأنهم عبيد مربوبون مدبرون ، ليس لهم من الأمر شىء .

وإنما هم مكرمون عند الله ، قد ألزمهم الله ، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته ، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل ، وأنهم فى غاية الأدب مع الله ، والامتثال لأوامره .

[لا يسبقونه بالقول] أى : لا يقولون قولا مما يتعلق بتدبير المملكة ، حتى يقول الله ، لكمال أدبهم ، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه .

[وهم بأمره يعملون] أى : مهما أمرهم ، امتثلوا لأمره ، ومهما دبرهم عليه ، فعلوه .

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

فلا يعصونه طرفة عين ، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله ، ومع هذا ، فالله قد أحاط بهم علمه .

[يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم] أى : أمورهم الماضية والمستقبلة ، فلا خروج لهم عن علمه ، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره .

ومن جزئيات وصفهم ، بأنهم لا يسبقونه بالقول ، وأنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه ، فإذا أذن لهم ، وارتضى من يشفعون فيه ، شفعوا فيه .

ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل ، إلا ما كان خالصاً لوجهه ، متبعا فيه الرسول .

وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة ، وأن الملائكة يشفعون .

[وهم من خشيته مشفقون] أى : خائفون وَجِلُون ، قد خضعوا لجلاله ، وعنت وجوههم لعزه وجماله .

فلما بين أنه لا حق لهم فى الألوهية ، ولا يستحقون شيئا من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك — ذكر أيضا أنه لا حظ لهم، من الألوهية، ولا بمجرد الدعوى ، وأن من قال منهم : [إنى إله من دونه] على سبيل الفرض والتنزل [فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين] .

وأى : ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص ، الفقير إلى الله من جميع الوجوه ، مشاركته الله فى خصائص الإلهية والربوبية ؟!!

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى : أو لم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم ، وجحدوا الإخلاص له فى العبودية ، ما يدلهم دلالة مشاهدة ، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود .

فيشاهدون السماء والأرض ، فيجدونهما رتقا : هذه ليس فيها سحاب ولا مطر .

وهذه هامدة ميتة ، لا نبات فيها ، ففتقناهما : السماء بالمطر ، والأرض بالنبات .

أليس الذى أوجد فى السماء السحاب ، بعد أن كان الجو صافياً لا قزعة فيه .

وأودع فيه الماء الغزير ، ثم ساقه إلى بلد ميت ؛ قد اغبرّتْ أرجاؤه ، وقحط عنه ماؤه .

فأمطره فيها ، فاهتزت ، وتحركت ، وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، مختلف الأنواع ، متعدد المنافع .

أليس ذلك دليلا على أنه الحق ، وما سواه باطل ، وأنه محيي الموتى ، وأنه الرحمن الرحيم ؟

ولهذا قال [أفلا يؤمنون] أى : إيمانا صحيحاً ، ما فيه شك ولا شرك .

﴿ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا

ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية فقال : [وجعلنا فى الأرض] إلى [فى فلك يسبحون] .

* أى : ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته ، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال ، أرساها بها وأوتدها ، لئلا تميد بالعباد ، أى : لئلا تضطرب ، فلا يتمكن العباد من السكون فيها ، ولا حرثها ، ولا الاستقرار بها .

فأرساها بالجبال ، فحصل بسبب ذلك ، من المصالح والمنافع ، ما حصل .

ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض ، قد اتصلت اتصالا كثيرا جداً ، فلو بقيت بحالها ، جبالا شامخات ، وقللا باذخات ، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان .

فمن حكمة الله ورحمته ، أن جعل بين تلك الجبال فجاجا سبلا .

أى: طرقا سهلة لا حَزْنَةً[1] . لعلهم يهتدون إلى الوصول ، إلى مطالبهم من البلدان .

ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان .

[وجعلنا السماء سقفا] للأرض التى أنتم عليها [محفوظا] من السقوط

---

(١) حزنة ، أى : وعرة صعبة السلوك والمشى فيها .

وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) محفوظا أيضا من استراق الشياطين للسمع .

[وهم عن آياتها معرضون] أى : غافلون لا هون ، وهذا عام فى جميع آيات السماء ، من علوها ، وسعتها ، وعظمتها ، ولونها الحسن ، وإتقانها العجيب ، وغير ذلك من المشاهد فيها ، من الكواكب الثوابت ، والسيارات ، وشمسها ، وقمرها النيرات ، المتولد عنهما ، الليل والنهار ، وكونهما دائما فى فلكهما سابحين ، وكذلك النجوم .

فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد ، والفصول ، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم ، ويستريحون فى ليلهم ، ويهدأون ويسكنون وينتشرون فى نهارهم ، ويسعون فى معايشهم .

كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب ، وأمعن فيها النظر ، جزم حزما لاشك فيه ، أن الله جعلها مؤقتة فى وقت معلوم ، إلى أجل محتوم ، يقضى العباد منها مآربهم ، وتقوم بها منافعهم ، وليستمتعوا وينتفعوا .

ثم بعد هذا ، ستزول وتضمحل ، ويفنيها الذى أوجدها ، ويسكنها الذى حركها .

وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار ، يجدون فيها جزاء أعمالهم ، كاملاً موفَّرا ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار ، وأنها منزل سفر ، لامحل إقامة .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾

---

* لما كان أعداء الرسول يقولون (تربصوا به ريب المنون) قال الله تعالى : هذا طريق مسلوك ومعبد ، منهوك ، فلم نجعل لبشر [من قبلك] يامحمد [الخلد] فى الدنيا .

فإذا مت ، فسبيل أمثالك ، من الرسل والأنبياء ، والأولياء .

[أفإن مت فهم الخالدون] أى : فهل إذا مت خُلِّدُوا بعدك .

فَلْيَهْنِهِمْ الخلود إذاً ، إن كان ، وليس الأمر كذلك ، بل كل من عليها فانٍ .

ولهذا قال : [كل نفس ذائقة الموت] وهـذا يشمل سائر نفوس الخلائق ، وإن هذا كأس لابد من شربه وإن طال بالعبد المدى ، وعمر سنين .

ولكن الله تعالى ، أوجد عباده فى الدنيا ، وأمرهم ، ونهاهم ، وابتلاهم بالخير والشر ، وبالغنى والفقر ، والعز والذل ، والحياة والموت ، فتنة منه تعالى (ليبلوهم أيهم أحسن عملا) ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو .

[ثم إلينا ترجعون] فنجازيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر « وما ربك بظلام للعبيد » .

وهذه الآية ، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر ، وأنه مخلد فى الدنيا .

وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾

فهو قول ، لا دليل عليه ، ومناقض للأدلة الشرعية .

* وهذا من شدة كفرهم ، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استهزأوا به وقالوا : [هذا الذى يذكر آلهتكم] .

أى : هذا المحتقر بزعمهم ، الذى يسب آلهتكم ويذمها ، ويقع فيها ، أى : فلا تبالوا به ، ولا تحتفلوا به .

هذا استهزاؤهم واحتقارهم له ، بما هو من كماله ، فإنه الأكمل الأفضل الذى من فضائله ومكارمه ، إخلاص العبادة لله ، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه ، وذكر محله ومكانته .

ولكن محل الازدراء والاستهزاء ، هؤلاء الكفار ، الذين جمعوا كل خلق ذميم .

ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب ، وجحدهم لرسله فصاروا بذلك ، من أخساء الخلق وأراذلهم ، ومع هذا ، فذكرهم للرحمن ، الذى هو أعلى حالاتهم، كافرون به، لأنهم لايذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون فذكرهم كفر وشرك ، فكيف بأحوالهم بعد ذلك ؟

ولهذا قال : [وهم بذكر الرحمن هم كافرون] وفى ذكر اسمه (الرحمن) هنا ، بيان لقباحة حالهم ، وأنهم كيف قابلوا الرحمن — مسدى النعم كلها ، ودافع النقم الذى ، ما بالعباد من نعمة إلا منه ، ولا يدفع السوء

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ

إلا هو — بالكفر والشرك .

[خلق الإنسان من عجل] أى : خلق عجولا ، يبادر الأشياء ، ويستعجل وقوعها .

فالمؤمنون ، يستعجلون عقوبة الله للكافرين ، ويستبطئونها .

والكافرون ، يتولون ويستعجلون بالعذاب ، تكذيبا وعنادا ، ويقولون :

[متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] والله تعالى ، يمهل ولا يهمل ويحلم ، ويجعل لهم أجلا مؤقتا (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

ولهذا قال : [سأريكم آياتى] أى : فى انتقامى ممن كفر بى وعصانى [فلا تستعجلون] ذلك .

وكذلك الذين كفروا يقولون : [متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] قالوا هذا القول ، اغترارا ، ولما يحق عليهم العقاب ، وينزل بهم العذاب .

فـ[لو يعلم الذين كفروا] حالهم الشنيعة [حين لا يكفون عن وجوههم العذاب ولا عن ظهورهم] إذ قد أحاط بهم من كل جانب وغشيهم من كل مكان [ولاهم ينصرون] أى : لا ينصرهم غيرهم ، فلا نصروا ولا انتصروا .

رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

[بل تأتيهم] النار [بغتة فتبهتهم] من الانزعاج والذعر والخوف العظيم .

[فلا يستطيعون ردها] إذ هم أذل وأضعف ، من ذلك .

[ولاهم ينظرون] أى : يمهلون ، فيؤخر عنهم العذاب .

فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة ، لما استعجلوا بالعذاب ، ولخافوه أشد الخوف .

ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم ، قالوا ما قالوا .

ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم « أهذا الذى يذكر آلهتكم » سلاّه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال :

[ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم] .

أى : نزل بهم [ما كانوا به يستهزئون] أى : نزل بهم العذاب ، وتقطعت عنهم الأسباب .

فليحذر هؤلاء ، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين .

﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا

---

* يقول تعالى ـ ذاكرا عجز هؤلاء ، الذين اتخذوا من دونه آلهة ، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن ، الذى رحمته ، شملت الْبَرَّ ، والفاجر ، فى لياليهم ونهارهم فقال :

[قل من يكلؤكم] أى : يحرسكم ويحفظكم [بالليل] إذا كنتم نائمين على فرشكم ، وذهبت حواسكم [وبالنهار] وقت انتشاركم وغفلتكم [من الرحمن] أى : بدله غيره .

أى: هل يحفظكم أحد غيره ؟ لا حافظ إلا هو .

[بل هم عن ذكر ربهم معرضون] فلهذا أشركوا به ، وإلا فلو أقبلوا على ربهم ، وتلقوا نصائحه ، لَهُدُوا لرشدهم ، وَوُفِّقُوا فى أمرهم .

[أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا] أى : إذا أردناهم بسوء هل من آلهتهم ، من يقدر على منعهم من ذلك السوء ، والشر النازل بهم .

[لا يستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون] أى : لا يعانون على أمورهم من جهتنا .

وإذا لم يعانوا من الله ، فهم مخذولون فى أمورهم ، لايستطيعون جلب منفعة ، ولا دفع مضرة .

والذى أوجب لهم استمرارهم على كفرهم ، وشركهم قوله : [بل متعنا

هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر] أى : أمددناهم بالأموال والبنين ، وأطلنا أعمارهم ، فاشتغلوا بالتمتع بها ، ولهَوْا بها ، عما له خلقوا ، وطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وعظم طغيانهم ، وتغلظ كفرانهم .

فلو لفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم ، وعن يسارهم من الأرض ، لم يجدوا إلا هالكا ، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية ، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك ، وقد نصب الموت فى كل طريق لاقتناص النفوس، الأشراك[١] .

ولهذا قال : [أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها] أى : بموت أهلها وفنائهم ، شيئا فشيئا ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

فلو رأوا هذه الحالة ، لم يغتروا ، ويستمروا على ماهم عليه .

[أفهم الغالبون] الذين بوسعهم ، الخروج عن قدر الله ؟ وبطاقتهم الامتناع عن الموت ؟

فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء ؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم ، أذعنوا ، وذلوا ، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة ؟

---

(١) الأشراك مفرده (شرك) بفتح الشين والراء،ومعناه : الفخ الذى يستعمله الصيادون .

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

---

* أى : [قل] يامحمد ، للناس كلهم : [إنما أنذركم بالوحى] أى : إنما أنا رسول ، لا آتيكم بشىء من عندى ، ولا عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك ، وإنما أنذركم بما أوحاه الله إلىّ .

فإن استجبتم ، فقد استجبتم لله ، وسيثيبكم على ذلك .

وإن أعرضتم وعارضتم ، فليس بيدى من الأمر شيء ، وإنما الأمر لله ، والتقدير كله لله .

[ولا يسمع الصم الدعاء] أى : الأصم لا يسمع صوتا ، لأن سمعه قد فسد وتعطل .

وشرط السماع مع الصوت ، أن يوجد محل قابل لذلك .

كذلك الوحى سبب لحياة القلوب والأرواح ، والفقه عن الله .

ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى ، كان بالنسبة للهدى والإيمان ، بمنزلة الأصم ، بالنسبة إلى الأصوات

فهؤلاء المشركون ، صم عن الهدى ، فلا يستغرب عدم اهتدائهم ، خصوصا فى هذه الحالة ، التى لم يأتهم العذاب ، ولا مَسّهم ألمه .

[ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك] أى : ولو جزء يسير من عذابه .

[ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين] أى : لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور ، والندم ، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم العذاب .

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن حكمه العدل ، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم يوم القيامة ، وأنه يضع لهم الموازين العادلة ، التي يبين فيها مثاقيل الذر ، الذى توزن به الحسنات والسيئات .

[فلا تظلم نفس] مسلمة ولا كافرة [شيئا] بأن تنقص من حسناتها ، أو يزاد فى سيئاتها .

[وإن كان مثقال حبة من خردل] التى هى أصغر الأشياء وأحقرها ، من خير أو شر [أتينا بها] وأحضرناها ، ليجازى بها صاحبها .

كقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« قالوا ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا » .

[وكفى بنا حاسبين] يعنى بذلك نفسه الكريمة ، فكفى بها حاسبا ، أى : عالما بأعمال العباد ، حافظا لها ، مثبتا لها فى الكتاب ، عالما بمقاديرها ومقادير ثوابها واستحقاقها ، موصلا للعمال جزاءها .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ

---

* كثيرا ما يجمع تعالى ، بين هذين الكتابين الجليلين ، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما ، ولا أعظم ذكرا ، ولا أبرك ، ولا أعظم هدى وبيانا ، وهما : التوراة والقرآن .

فأخبر أنه آتى موسى أصلا ، وهرون تبعا [الفرقان] وهى التوراة الفارقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وأنها [ضياء] أى : نور يهتدى به المهتدون ، ويأتم به السالكون ، وتعرف به الأحكام ، ويميز به بين الحلال والحرام ، وينير فى ظلمة الجهل والبدع والغواية .

[وذكراً للمتقين] يتذكرون به ، ما ينفعهم ، وما يضرهم ، ويتذكر به الخير والشر .

وخص « المتقين » بالذكر ، لأنهم المنتفعون بذلك ، علما وعملا ، ثم فسر المتقين فقال :

[الذين يخشون ربهم بالغيب] أى : يخشونه فى حال غيبتهم ، وعدم مشاهدة الناس لهم ، فمع المشاهدة أولى ، فيتورعون عما حرم ، ويقومون بما ألزم .

[وهم من الساعة مشفقون] أى : خائفون وجلون ، لكمال معرفتهم بربهم .

فجمعوا بين الإحسان والخوف .

مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

والعطف ، هنا ، من باب عطف الصفات المتغايرات ، الواردة على شيء واحد ، وموصوف واحد .

[وهذا] أى : القرآن [ذكر مبارك أنزلناه] فوصفه بوصفين جليلين .

كونه ذكرا يتذكر به جميع المطالب ، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم ، ومن أحكام الجزاء ، والجنة ، والنار ، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية .

وسماه ذكرا ، لأنه يذكر ما ركزه الله فى العقول والفطر ، من التصديق بالأخبار الصادقة ، والأمر بالحسن عقلا ، والنهى عن القبيح عقلا .

وكونه « مباركا » يقتضي كثرة خيره ونماءه ، وزيادته .

ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن ، فإن كل خير ونعمة ، وزيادة دينية أو دنيوية ، أو أخروية ، فإنها بسببه ، وأثر عن العمل به .

فإذا كان ذكرا مباركا ، وجب تلقيه بالقبول والانقياد ، والتسليم ، وشكرا لله على هذه المنحة الجليلة ، والقيام بها ، واستخراج بركته ، بتعلم ألفاظه ومعانيه .

ومقابلته بضد هذه الحالة ، من الإعراض عنه ، والإضراب عنه ، صفحا وإنكاره ، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم .

ولهذا أنكر تعالى ، على من أنكره فقال : [أفأنتم له منكرون] .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ

---

* لما ذكر تعالى موسى ومحمدا صلى الله عليه وسلم ، وكتابيهما قال : [ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل] أى : من قبل إرسال موسى ومحمد ، ونزول كتابيهما .

فأراه الله ملكوت السموات والأرض ، وأعطاه من الرشد ، الذى كمل به نفسه ، ودعا الناس إليه ، مالم يؤته أحداً من العالمين ، غير محمد .

وأضاف الرشد إليه ، لكونه رشدا ، بحسب حاله ، وعلو مرتبته .

وإلا ، فلا مؤمن ، له من الرشد ، بحسب ما معه فى الإيمان .

[وكنا به عالمين] أى : أعطيناه رشده ، واختصصناه بالرسالة والخلة ، واصطفيناه فى الدنيا والآخرة ، لعلمنا أنه أهل لذلك ، وكفء له ، لزكائه[1] وذكائه[2] .

ولهذا ذكر محاجته لقومه ، ونهيهم عن الشرك ، وتكسير الأصنام ، وإلزامهم بالحجة .

فقال : [إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل] التى مثلتموها ونحتموها بأيديكم ، على صور بعض المخلوقات [التى أنتم لها عاكفون] مقيمون على عبادتها ، ملازمون لذلك ، فما هى ؟ وأى فضيلة ثبتت لها ؟ وأين عقولكم ،

---

(١) قوله (لزكائه) أى : لطهارته قلباً ونفساً .

(٢) وقوله (لذكائه) أى : لفطنتة ، وتوقد ذكائه ، وسعة عقله .

كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّـٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

التى ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها ؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم ، فهذا من أكبر العجائب ، تعبدون ما تنحتون .

فأجابوا بغير حجة ، جواب العاجز ، الذى ليس بيده أدنى شبهة فقالوا: [وجدنا آباءنا] كذلك يفعلون ، فسلكنا سبيلهم ، واتبعناهم على عبادتها .

ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ، ليس بحجة ، ولا تجوز به القدوة : خصوصاً ، فى أصل الدين ، وتوحيد رب العالمين .

ولهذا قال لهم إبراهيم — مضللا للجميع : [لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين] أى : ضلال بين واضح .

وأى ضلال ، أبلغ من ضلالهم فى الشرك ، وترك التوحيد ؟!!

أى : فليس ما قلتم ، يصلح للتمسك به ، وقد اشتركتم وإياهم فى الضلال الواضح ، البيِّن لكل أحد .

[قالوا] على وجه الاستغراب لقوله ، والاستفهام لما قال ، وكيف بادأهم بتسفيههم ، وتسفيه آبائهم — : [أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين] أى . هذا القول الذى قلته ، والذى جئتنا به ، هل هو حق وجد ؟ أم كلامك لنا ، كلام لاعب مستهزىء ، لا يدرى ما يقول ؟ وهذا الذى أرادوا .

وإنما رددوا الكلام بين الأمرين ، لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد ، أن الكلام الذى جاء به إبراهيم ، كلام سفيه لا يعقل ما يقول .

ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا

فرد عليهم إبراهيم ردا يبين به وجه سفههم ، وقلة عقولهم فقال :

[بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين] فجمع لهم بين الدليل العقلى ، والدليل السمعى .

أما الدليل العقلى ، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم ، أن الله وحده ، الخالق لجميع المخلوقات ، من بنى آدم ، والملائكة ، والجن ، والبهائم . والسموات ، والأرض ، المدبر لهن ، بجميع أنواع التدبير .

فيكون كل مخلوق مفطوراً مدبَّراً متَصرَّفاً فيه .

ودخل فى ذلك ، جميع ما عبد من دون الله .

أفيليق عند من له أدنى مسكة من عقل وتميز ، أن يعبد مخلوقا متصرفاً فيه ، لا يملك نفعاً ، ولا ضراً ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا ، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر ؟

أما الدليل السمعى : فهو المنقول عن الرسل ، عليهم السلام ، فإن ما جاءوا به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق ، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك فلهذا قال إبراهيم [وأنا على ذلكم] أى أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل [من الشاهدين] وأى شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل ؟ خصوصاً أولى العزم منهم خصوصاً خليل الرحمن . ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شىء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيدا يحصل به إقرارهم بذلك فلهذا قال [وتالله لأكيدن أصنامكم]أى أكسرها على وجه

إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥ

الكيد [بعد أن تولوا مدبرين] عنها إلى عيد من أعيادهم ، فلما تولوا مدبرين،ذهب إليها بخفية [فجعلهم جذاذاً] أى كِسَراً وقِطَعاً ،وكانت مجموعة فى بيت واحد ، فكسرها كلها .

[إلا كبيراً لهم] أى إلا صنمهم الكبير ، فإنه تركه لمقصد سيبينه .

وتأمل هذا الاحتراز العجيب ، فإن كل ممقوت عند الله ، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم ، إلا على وجه إضافته لأصحابه ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: « إلى عظيم الفرس» « إلى عظيم الروم » ونحو ذلك ، ولم يقل « إلى العظيم » .

وهنا قال تعالى : [إلا كبيرا لهم] ولم يقل « كبيراً من أصنامهم ».

فهذا ينبغى التنبه له ، والاحتراز من تعظيم ماحقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه .

وقوله : [لعلهم إليه يرجعون] أى ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه ، ويستملوا حجته ، ويلتفتوا إليها ، ولا يعرضوا عنها ولهذا قال فى آخرها : [فرجعوا إلى أنفسهم] .

لحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزى [قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين] فرموا إبراهيم بالظلم الذى هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيره لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده .

وإنما الظالم من اتخذها آلهة ، وقد رأى ما يفعل بها [قالوا سمعنا فتى

إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ

يذكرهم] أى يعيبهم ويذمهم ، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذى كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها [يقال له إبراهيم] فلما تحققوا أنه إبراهيم [قالوا فأتوا به] أى : بإبراهيم [على أعين الناس] أى بمرأى منهم ومسمع [لعلهم يشهدون] .

أى : يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم ، وهذا الذى أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة ، كما قال موسى حين واعد فرعون .

« موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى » .

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له : [أأنت فعلت هذا] أى : التكسير [بآلهتنا يا إبراهيم] ؟

وهذا استفهام تقرير ، أى : فما الذى جرأك ، وما الذى أوجب لك الإقدام على هذا الأمر ؟ .

فقال إبراهيم والناس مشاهدون [بل فعله كبيرهم هذا] أى: كسرها غضباً عليها ، لما عبدت معه ، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده .

وهذا الكلام من إبراهيم ،المقصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه .

ولهذا قال : [فاسألوهم إن كانوا ينطقون] وأراد : الأصنام المكسرة اسئلوها لم كسرت ؟ والصنم الذى لم يكسر ، اسألوه لأى شىء كسرها ، إن كان عندهم نطق ، فسيجيبونكم إلى ذلك ، وأنا وأنتم ، وكل أحد يدرى

كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن

أنها لا تنطق ولا تتكلم ، ولا تنفع ولا تضر ، بل ولا تنصر نفسها ممن يريدها بأذى .

[فرجعوا إلى أنفسهم] أى : ثابت إليهم عقولهم ، ورجعت إليهم أحلامهم ، وعلموا أنهم ضالون فى عبادتها ، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك .

[فقالوا إنكم أنتم الظالمون] فحصل بذلك المقصود ، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل وأن فعلهم كفر وظلم .

ولكن لم يستمروا على هذه الحالة .

بل[1] [نكسوا على رءوسهم] أى : انقلب الأمر عليهم ،وانتكست عقولهم وضلت أحلامهم ، فقالوا لإبراهيم :

[لقد علمت ما هؤلاء ينطقون] فكيف تتهكم بنا وتستهزىء بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق ؟

فقال إبراهيم — موبخا لهم ومعلناً بشركهم على رءوس الأشهاد ، ومبيناً عدم استحقاق آلهتهم للعبادة ـ :[أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم] .

---

(١) قوله « بل » فى الأصل المطبوع « ولكن » وهو خطأ لذلك أبدلناها بـ « بل » ليستقيم الكلام .

دُونِ ٱللَّهِ مَالَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾

فلا نفع ولا دفع [أف لكم ولما تعبدون من دون الله] أى : ما أضلكم وأخسر صفقتكم ، وما أخسكم ، أنتم وما عبدتم من دون الله .

[أفلا تعقلون] لتعرفوا هذه الحال .

فلما عدمتم العقل ، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة ، صارت البهائم ، أحسن حالا منكم .

فحينئذ لما أفحمهم ، ولم يبينوا حجة ، استعملوا قوتهم فى معاقبته .

و [قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين] أى : اقتلوه أشنع القتلات ، بالإحراق ، غضباً لآلهتكم ، ونصرة لها .

فتعساً لهم ثم تعساً ، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم ، واتخذوه إلها .

فانتصر الله لخليله لما ألقوه فى النار وقال لها : [كونى بردا وسلاما على إبراهيم] فكانت عليه بردا وسلاما ، لم ينله فيها أذى ، ولا أحس بمكروه .

[وأرادوا به كيداً] حيث عزموا على إحراقه .

[فجعلناهم الأخسرين] أى : فى الدنيا والآخرة ، كما جعل الله خليله وأتباعه ، هم الرابحين المفلحين .

وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾

[ونجيناه ولوطاً] وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام قيل : إنه ابن أخيه ، فنجاه الله ، وهاجر [إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين] أى : الشام ، فغادر قومه فى « بابل » من أرض العراق .

[وقال إنى ذاهب إلى ربى] إنه هو العزيز الحكيم .

ومن بركة الشام ، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها ، وأن الله اختارها ، مهاجراً لخليله .

وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة ، وهو بيت المقدس .

[ووهبنا له] حين اعتزل قومه [إسحاق ويعقوب] ابن إسحق [نافلة] بعد ما كبر ، وكانت زوجته عاقراً ، فبشرته الملائكة بإسحق .

[ومن وراء إسحق يعقوب] ويعقوب ، هو إسرائيل ، الذى كانت منه الأمة العظيمة ، وإسماعيل بن ابراهيم ، الذى كانت منه الأمة الفاضلة العربية ، ومن ذريته ، سيد الأولين والآخرين .

[وكلا] من إبراهيم وإسحق ويعقوب [جعلنا صالحين] أى: قائمين بحقوقه ، وحقوق عباده .

ومن صلاحهم ، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماما يهتدى به المهتدون ، ويمشى خلفه السالكون ، وذلك لما صبروا ، وكانوا بآيات الله يوقنون .

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

وقوله : [يهدون بأمرنا] أى : يهـدون الناس بديننا ، لا يأمرون بأهواء أنفسهم ، بل بأمر الله ودينه ، واتباع مرضاته ، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله .

[وأوحينا إليهم فعل الخيرات] يفعلونها ويدعون الناس إليها .

وهذا شامل للخيرات كلها ، من حقوق الله ، وحقوق العباد .

[وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة] هذا من باب عطف الخاص على العام ، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما ، ولأن من كملهما كما أمر ، كان قائماً بدينه ، ومن ضيعهما ، كان لما سواهما أضيع .

ولأن الصلاة أفضل الأعمال ، التى فيها حقه .

والزكاة أفضل الأعمال ، التى فيها الإحسان لخلقه .

[وكانوا لنا] أى : لا لغيرنا [عابدين] أى : مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية فى أكثر أوقاتهم .

فاستحقوا أن تـكون العبادة وصفهم ، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق ، وخلقهم لأجله .

﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعى،والحكم بين الناس ، بالصواب والسداد ، وأن الله أرسله إلى قومه ، يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عما هم عليه من الفواحش ، فلبث يدعوهم ، فلم يستجيبوا له .

فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم [كانوا قوم سوء فاسقين] .

كذبوا الداعى ، وتوعدوه بالإخراج ، ونجى الله لوطاً وأهله .

فأمره أن يسرى بهم ليلا ، ليبعدوا عن القرية ، فسروا ونجوا ، وذلك من فضل الله عليهم ومِنَّته .

[وأدخلناه فى رحمتنا] التى من دخلها ، كان من الآمنين ، من جميع المخاوف ، النائلين كل خير وسعادة ، وبر ، وسرور ، وثناء .

وذلك لأنه من الصالحين ، الذين صلحت أعمالهم ، وزكت أحوالهم ، وأصلح الله فاسدهم .

والصلاح ، هو السبب لدخول العبد برحمة الله .

كما أن الفساد ، سبب لحرمانه الرحمة والخير .

وأعظم الناس صلاحاً ، الأنبياء عليهم السلام ولهذا يصفهم بالصلاح .

وقال سليمان عليه السلام « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ، نوحاً عليه السلام ، مثنياً مادحاً ، حين أرسله الله إلى قومه ، فلبث فيهم ألف سنة ، إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن الشرك به ،ويُبْدِي فيهم ويعيدُ ، ويدعوهم سراً وجهاراً ، وليلا ونهاراً .

فلما رآهم لاينجع فيهم الوعظ ، ولايفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال:

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » .

فاستجاب الله له ، فأغرقهم ، ولم يُبْقِ منهم أحدا .

ونجّى الله نوحا وأهله ، ومن معه من المؤمنين ، فى الفلك المشحون .

وجعل ذريته هم الباقين ، ونصرهم الله على قومه المستهزئين .

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ

---

* أى : واذكر هذين النبيين الكريمين « سليمان » و« داود » مثنياً مبجلا ، إذ آتاهما الله العلم الواسع والحكم بين العباد ، بدليل قوله :

[إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم] أى : إذ تحاكم إليهما صاحب حرث ، نفشت فيه غنم القوم الأخرى ، أى . رعت ليلا ، فأكلت ما فى أشجاره ، وَرعت زرعه .

فقضى فيه داود عليه السلام ، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث ، نظرا إلى تفريط أصحابها ، فعاقبهم بهذه العقوبة .

وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب ، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدَرِّها[١] وصوفها ويقومون على بستان صاحب الحرث ، حتى يعود إلى حاله الأولى ، فإذا عاد إلى حاله ، تراداً[٢] ورجع كل منهما بماله ، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام ولهذا قال :

[ففهمناها سليمان] أى فهمناه هذه القضية .

---

(١) درها . أى . لبنها .

(٢) تراداًّ أى : يرد كل من صاحب الحرث والغنم للآخر ما أخذه منه .

وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى

ولا يدل ذلك ، أن داود لم يفهمه الله فى غيرها ، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله [وكلا] من داود وسليمان [آتينا حكما وعلماً] .

وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطىء ذلك .

وليس بملوم إذا أخطأ ، مع بذل اجتهاده .

ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال : [وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير] .

وذكر أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسبيحا ، وتمجيدا .

وكان قد أعطاه الله ، من حسن الصوت ورقته ورخامته ، ما لم يؤته أحدا من الخلق .

فكان إذا سبح وأثنى على الله ، جاوبته الصم والطيور البُهْم ، وهذا فضل الله عليه وإحسانه ولهذا قال : [وكنا فاعلين] .

[وعلمناه صنعة لبوس لكم] أى : علم الله داود عليه السلام ، صنعة الدروع .

فهو أول من صنعها وعلمها وسرت صناعته إلى من بعده .

فألاَنَ الله له الحديد ، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة .

[لتحصنكم من بأسكم] أى : هى وقاية لكم ، وحفظ عند الحرب ، واشتداد البأس .

بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

[فهل أنتم شاكرون] نعمة الله عليكم ، حيث أجراها على يد عبده داود .

كما قال تعالى : « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » .

يحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع وَإِلاَنتِهَا أمر خارق للعادة .

وأن يكون — كما قاله المفسرون — : إن الله أَلاَنَ له الحديد ، حتى كان يعمله كالعجين والطين ، من دون إذابة له على النار .

ويحتمل أن تعليم الله له ، على جارى العادة ، وأن إلانة الحديد له ، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن ، لإذابتها .

وهذا هو الظاهر ، لأن الله امْتَنَّ على العباد وأمرهم بشكرها .

ولولا أن صنعته من الأمور التى جعلها الله مقدورة للعباد،لم يمتن عليهم بذلك ، ويذكر فائدتها ، لأن الدروع التى صنع داود عليه السلام ، متعذر أن يكون المراد أعينها ، وإنما المِنَّةُ بالجنس .

والاحتمال الذى ذكره المفسرون ، لا دليل عليه إلا قوله [وألنا له الحديد] .

وليس فيه أن الإلانة من دون سبب ، والله أعلم بذلك .

[ولسليمان الريح] أى : سخرناها [عاصفة] أى : سريعة فى مرورها .

[تجرى بأمره] حيث أُدِيرَتْ امتثلت أمره ، غدوها شهر ورواحها شهر [إلى الأرض التى باركنا فيها] وهى أرض الشام ، حيث كان مقره .

وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

فيذهب على الريح شرقا وغربا ، ويكون مأواها ورجوعها ، إلى الأرض المباركة .

[وكنا بكل شىء عالمين] قد أحاط علمنا بجميع الأشياء ، وعلمنا داود وسليمان ، ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا

[ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك] هذا أيضا من خصائص سليمان عليه السلام ، أن الله سخر له الشياطين والعفاريت ، وسلطه على تسخيرهم فى الأعمال ، التى لا يقدر على كثير منها غيرهم .

فكان منهم ، من يغوص له فى البحر ، ويستخرج الدر ، واللؤلؤ ، وغير ذلك .

ومنهم من يعمل له [محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات] . وسخر طائفة منهم ، لبناء بيت المقدس ، ومات ، وهم على عمله ، وبقوا بعده سنة ، حتى علموا موته ، كما سيأتى ، إن شاء الله تعالى .

[وكنا لهم حافظين] أى : لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه ، بل حفظهم الله له ، بقوته وعزته ، وسلطانه .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ، أيوب ، مثنيا معظما له ، رافعا لقدره ، حين ابتلاه ، ببلاء شديد ، فوجده صابرا راضيا عنه .

وذلك أن الشيطان سلط على جسده ، ابتلاء من الله ، وامتحانا فنفخ فى جسده ، فتقرح قروحا عظيمة[1] ومكث مدة طويلة ، واشتد به البلاء ، ومات أهله ، وذهب ماله ، فنادى ربه قائلا رب [إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين] .

فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه ، وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ . وبرحمة ربه الواسعة العامة استجاب الله له ، وقال :

---

(١) قوله فتقرح قروحاً عظيمة الخ هذه عبارة توهم أن أيوب صار بحالة يشمئز الناظر إليه والمقرر فى العقيدة الإسلامية فى باب النبوات أن الأنبياء يستحيل عليهم الأمراض المنفرة للناس كالبرص والتقرحات فى أبدانهم والعمى والصمم ، لأنهم مرشدون محتاجون إلى مخالطة الناس لإرشادهم ، والنبي إذا كان بحالة تتقزز منها النفوس ، لايستمع إليه أحد ، ولا يمكنه ـ والحالة هذه ـ أن يجالس الناس ويجتمع معهم وبالتالى لا يقدر على القيام بواجب الدعوة لذلك كان من اللوازم الواجبة للرسل أن يكونوا على أحسن حالة وأجمل هيئة . نعم يجوز لهم الأعراض البشرية كالأمراض ولكن بشرط أن لا تكون منفرة ، وللكلام فى ذلك مجال آخر ، ليس هنا محل بسطه .

وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

(اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) فركض برجله ، فخرجت من ركضته عين ماء باردة ، فاغتسل منها وشرب ، فأذهب الله عنه ما به من الأذى .

[وآتيناه أهله] أى : رددنا عليه أهله وماله .

[ومثلهم معهم] بأن منحه الله العافية،ومن الأهل والمال شيئا كثيرا .

[رحمة من عندنا] به ، حيث صبر ورضى ، فأثابه الله ثوابا عاجلا ، قبل ثواب الآخرة .

[وذكرى للعابدين] أى : جعلناه عبرة للعابدين ، الذين ينتفعون بالصبر .

فإذا رأوا ما أصاب أيوب عليه السلام من البلاء ، ثم ما أثابه الله بعد زواله ، ونظروا السبب ، وجدوه ، الصبر .

ولهذا أثنى الله عليه به فى قوله : [إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب] .

فجعلوه أسوة وقدوة ، عندما يصيبهم الضر .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

---

* أى : واذكر عبادنا المصطفين ، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر ، وأثنِ عليهم ، أبلغ الثناء ، إسمعيل بن إبراهيم ، وإدريس ، وذا الكفل ، نبيين من أنبياء بني إسرائيل [كل] من هؤلاء المذكورين [من الصابرين] .

والصبر هو : حبس النفس ومنعها ، مما تميل بطبعها إليه .

وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة :

الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصية الله ، والصبر على أقدار الله المؤلمة .

فلا يستحق العبد اسم الصبر التام ، حتى يوفى هذه الثلاثة حقها .

فهؤلاء الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام ، قد وصفهم الله بالصبر .

فدل أنهم وفوها حقها ، وقاموا بها ، كما ينبغى .

ووصفهم أيضا بالصلاح ، وهو يشمل صلاح القلب ، بمعرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه كل وقت .

وصلاح اللسان ، بأن يكون رطبا من ذكر الله .

وصلاح الجوارح ، باشتغالها بطاعة الله وكفّها عن المعاصى .

فبصبرهم وصلاحهم ، أدخلهم الله برحمته ، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين ، وأثابهم الثواب العاجل والآجل .

ولو لم يكن من ثوابهم ، إلا أن الله تعالى نوّه بذكرهم فى العالمين وجعل لهم لسان صدق فى الآخرين ، لكفى بذلك شرفا وفضلا .

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون وهو : يونس ، أى : صاحب النون ، وهى الحوت ، بالذكر الجميل ، والثناء الحسن .

فإن الله تعالى أرسله إلى قومه ، فدعاهم ، فلم يؤمنوا .
فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم .

فجاءهم العذاب ورأوه عيانا ، فعجُّوا إلى الله ، وضجوا وتابوا ، فرفع الله عنهم العذاب كما قال تعالى : [فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى ومتعناهم إلى حين] .

وقال:[وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمتعناهم إلى حين].

وهذه الأمة العظيمة ، الذين آمنوا بدعوة يونس ، من أكبر فضائله .

ولكنه عليه الصلاة والسلام ، ذهب مغاضبا ، وأبق عن ربه لذنب من الذنوب ، التى لم يذكرها الله لنا فى كتابه ، ولا حاجة لنا إلى تعيينها لقوله.

[إذ أبق إلى الفلك . . . وهو مليم] أى : فاعل ما يلام عليه .
وظن أن الله ، لا يقدر عليه ، أى : يضيق عليه فى بطن الحوت .
أو ظن أنه سيفوت الله تعالى ، ولا مانع[1] من عروض هذا الظن

---

(١) قوله [ولا مانع إلخ] عجيب جدا أن يظن بنبى أنه يعرض له أنه سيفوت الله ويأوى إلى مكان خارج عن ملكه تعالى وقدرته . =

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

للكل من الخلق على وجه لا يستقر ، ولا يستمر عليه ، فركب فى السفينة مع أناس .

فاقترعوا ، مَنْ يلقون منهم فى البحر ؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم .

فأصابت القرعة يونس ، فالتقمه الحوت ، وذهب فيه إلى ظلمات البحار.

فنادى فى تلك الظلمات : [لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين] .

فأقر لله تعالى بكمال الألوهية ، ونزهه عن كل نقص ، وعيب ، وآفة ، واعترف بظلم نفسه وجنايته .

قال الله تعالى : « فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون » .

ولهذا قال هنا : [فاستجبنا له ونجيناه من الغم] أى : الشدة التى وقع فيها .

[وكذلك ننجى المؤمنين] وهذا وعد وبشارة ، لكل مؤمن وقع فى شدة وغم ، أن الله تعالى سينجيه منها ، ويكشف عنه ويخفف ، لإيمانه كما فعل بـ « يونس » عليه السلام .

=ومعلوم أن هذا العروض مستحيل على الصالحين من عباد الله فكيف بالأنبياء ؟ ! ! .

ولا شك أن هذا الظن بالأنبياء من أشد المستحيلات وأن ذلك لا يليق بمراتبهم العلية التى حباهم الله إياها .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ

---

* أى : واذكر عبدنا ورسولنا ، زكريا ، منوها بذكره ، ناشراً لمناقبه وفضائله ، التى من جملتها ، هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحه الخلق ، ورحمة الله وإياه .

وأنه [نادى ربه رب لا تذرنى فردا] أى : « قال رب إنى وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا * ولم أكن بدعائك رب شقيا * وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا ، فهب لى من لدنك وليا * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » .

من هذه الآيات علمنا أن قوله [رب لا تذرنى فردا] أنه لما تقارب أجله . خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه فى الدعوة إلى الله ، والنصح لعباد الله ، وأن يكون فى وقته فردا ، ولا يخلف من يشفعه ويعينه ، على ما قام به .

[وأنت خير الوارثين] أى : خير الباقين ، وخير من خلفنى بخير ، وأنت أرحم بعبادك مني .

ولكني أريد مايطمئن به قلبى ، وتسكن له نفسى ، ويجرى فى موازيني ثوابه .

[فاستجبنا له ووهبنا له يحيى] النبى الكريم ، الذى لم يجعل الله له من قبل سميا .

زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

[وأصلحنا له زوجه] بعد ما كانت عاقراً ، لايصلح رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل ، لأجل نبيه زكريا .

وهذا من فوائد الجليس ، والقرين الصالح ، أنه مبارك على قرينه .

فصار يحيى مشتركا بين الوالدين .

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، كُلاً على انفراده ، أثنى عليهم عموما فقال :

[إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات] أى : يبادرون إليها ويفعلونها فى أوقاتها الفاضلة ، ويكملونها على الوجه اللائق ، الذى ينبغى ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها ، إلا انتهزوا الفرصة فيها .

[ويدعوننا رغبا ورهبا] أى يسألوننا الأمور المرغوب فيها ، من مصالح الدنيا والآخرة ، ويتعوذون بنا ، من الأمور المرهوب منها ، من مضار الدارين ، وهم راغبون لا غافلون ، لاهون ولا مدلون .

[وكانوا لنا خاشعين] أى خاضعين متذللين متضرعين ، وهذا لكمال معرفتهم بربهم .

۞ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ

---

* أى : واذكر مريم ، عليها السلام ، مثنيا عليها مبينا لقدرها ، شاهرا لشرفها .

فقال : [والتى أحصنت فرجها] أى : حفظته من الحرام وقربانه ، بل ومن الحلال .

فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة ، واستغراق وقتها بالخدمة لربها .

وحين جاءها جبريل فى صورة بشر سَوِىٍّ تامٍّ الخلق والحسن [قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا] فجازاها الله من جنس عملها ، ورزقها ولدا من غير أب ، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام ، فحملت بإذن الله .

[وجعلناها وابنها آية للعالمين] حيث حملت به ، ووضعته من دون مسيس أحد ، وحيث تكلم فى المهد ، وبرّأها مما ظن بها المتهمون وأخبر عن نفسه فى تلك الحالة ، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ، ما هو معلوم .

فكانت وابنها آية للعالمين ، يتحدث بها ، جيلا بعد جيل ، ويعتبر بها المعتبرون .

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام ، قال مخاطبا للناس : [إن هذه أمتكم أمة واحدة] .

أى : هؤلاء الرسل المذكورون . هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون ، وبهديهم تقتدون ، كلهم على دين واحد ، وصراط واحد ، والرب أيضاً واحد .

وَأَنَاْ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا

ولهذا قال : [وأنا ربكم] الذى خلقتكم ، وربيتكم بنعمتى ، في الدين والدنيا .

فإذا كان الرب واحدا ، والنبي واحدا ، والدين واحدا ، وهو : عبادة الله ، وحده لاشريك له ، بجميع أنواع العبادة — كان وظيفتكم ، والواجب عليكم ، القيام بها .

ولهذا قال : [فاعبدون] فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ، ترتيب المسبب على سببه .

وكان اللائق ، الاجتماع على هذا الأمر ، وعدم التفرق فيه .

ولكن البغى والاعتداء ، أبيا إلا الافتراق والتقطع .

ولهذا قال [وتقطعوا أمرهم بينهم] أى : تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فِرَقاً ، وتشتتوا ، كُلٌّ يدّعِي أن الحق معه ، والباطل مع الفريق الآخر و « كل حزب بما لديهم فرحون » .

وقد علم أن المصيب منهم ، من كان سالكا للدين القويم ، والصراط المستقيم ، مؤتما بالأنبياء .

وسيظهر هذا ، إذا انكشف الغطاء ، وبرح الخفاء ، وحشر الله الناس لفصل القضاء .

فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب . ولهذا قال : [كل] من الفرق المتفرقة وغيرهم [إلينا راجعون] أى : فنجازيهم أتم الجزاء .

رَاجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾

ثم فصل جزاءه فيهم ، منطوقا ومفهوما ، فقال : [فمن يعمل من الصالحات] أى : الأعمال التى شرعتها الرسل ، وحثت عليها الكتب [وهو مؤمن] بالله وبرسله ، وما جاءوا به [فلا كفران لسعيه] .

أى : لا نضيع سعيه ولا نبطله ، بل نضاعفه له ، أضعافا كثيرة .

[وإنا له كاتبون] أى : مثبتون له فى اللوح المحفوظ ، وفى الصحف التى مع الحفظة .

أى : ومن يعمل من الصالحات ، أو عملها وهو ليس بمؤمن ، فإنه محروم ، خاسر فى دينه ، ودنياه .

* أى : يمتنع على القرى المهلكة المعذبة ، الرجوع إلى الدنيا ، ليستدركوا ما فرطوا فيه فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب .

فليحذر المخاطبون ، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم ، فلا يمكن رفعه ، وليقلعوا وقت الإمكان والإدارك .

۞ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا

---

* هذا تحذير من الله للناس ، أن يقيموا على الكفر والمعاصى ، وأنه قد قرب انفتاح يأجوج ومأجوج ، وهما قبيلتان من بنى آدم ، وقد سد عليهم ذو القرنين ، لما شُكِىَ إليه إفسادهم فى الأرض .

وفى آخر الزمان ، ينفتح السد عنهم ، فيخرجون إلى الناس وفى هذه الحالة والوصف ، الذى ذكره الله من كل مكان مرتفع ، وهو الحدب ينسلون أى : يسرعون .

فى هذا ، دلالة على كثرتهم الباهرة ، وإسراعهم فى الأرض ، إما بذواتهم ، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التى تقرب لهم البعيد ، وتسهل عليهم الصعب .

وأنهم يقهرون الناس ، ويعلون عليهم فى الدنيا ، وأنه لا يد لأحد بقتالهم .

[واقترب الوعد الحق] أى يوم القيامة الذى وعد الله بإتيانه ، ووعده حق وصدق .

ففى ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة ، من شدة الأفزاع والأهوال المزعجة ، والقلاقل المفظعة ، وما كانوا يعرفون من جناياتهم وذنوبهم ، وأنهم يدعون بالويل والثبور ، والندم والحسرة ، على ما فات ويقولون :

[قد كنا فى غفلة عن هذا] اليوم العظيم ، فلم نزل فيها مستغرقين ، وفى

ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ

لهو الدنيا متمتعين ، حتى أتانا اليقين ، ووردنا القيامة ، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة ، لماتوا .

[بل كنا ظالمين] اعترفوا بظلمهم ، وعدل الله فيهم ، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار ، هم وما كانوا يعبدون ، ولهذا قال :

[إنكم وما تعبدون] إلى [توعدون] .

* أى : وإنكم ، أيها العابدون مع الله آلهة غيره [حصب جهنم] .

أى : وقودها وحطبها [أنتم لها واردون] وأصنامكم .

والحكمة فى دخول الأصنام ، النار ، وهى جماد ، لا تعقل ، وليس عليها ذنب — بيان كذب من اتخذها آلهة ، وليزداد عذابهم ، فلهذا قال :

[لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها] هذا كقوله تعالى « ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين » .

وكل من العابدين والمعبودين فيها ، خالدون ، لا يخرجون منها ، ولا ينقلون عنها .

[لهم فيها زفير] من شدة العذاب [وهم فيها لا يسمعون] صم بكم عمى .

أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها ، لشدة غليانها ، واشتداد زفيرها وتغيظها .

فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ

ودخول آلهة المشركين النار ، إنما هو الأصنام ، أو من عبد ، وهو راض بعبادته .

وأما المسيح ، وعزير ، والملائكة ونحوهم ، ممن عبد من الأولياء ، فإنهم لا يعذبون فيها ، ويدخلون فى قوله [إن الذين سبقت لهم منا الحسنى] أى : سبقت لهم سابقة السعادة فى علم الله ، وفى اللوح المحفوظ وفى تيسيرهم فى الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة .

[أولئك عنها] أى : عن النار [مبعدون] فلا يدخلونها ، ولا يكونون قريباً منها ، بل يبعدون عنها ، غاية البعد ، حتى لا يسمعوا حسيسها ، ولا يروا شخصها .

[وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون] من المآكل ، والمشارب ، والمناكح والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مستمر لهم ذلك ، يزداد حسنه على الأحقاب .

[لا يحزنهم الفزع الأكبر] أى : لا يقلقهم إذا فزع الناس أكبر فزع .

وذلك يوم القيامة ، حين تقرب النار ، تتغيظ على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم ، لعلمهم بما يقدمون عليه ، وأن الله قد أمنهم مما يخافون .

ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ

[وتتلقاهم الملائكة] إذا بعثوا من قبورهم ، وأتوا على النجائب وفدا ، لنشورهم ، مهنئين لهم قائلين: [هذا يومكم الذى كنتم توعدون] فَلْيَهْنِكُمْ ما وعدكم الله .

وليعظم استبشاركم ، بما أمامكم من الكرامة ، وليكثر فرحكم وسروركم ، بما أمنكم الله من المخاوف والمكاره .

* يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوى السموات — على عظمها واتساعها — كما يطوى الكاتب للسجل أى : الورقة المكتوب فيها .

فتنتثر نجومها ، وتكور شمسها وقمرها ، وتزول عن أماكنها [كما بدأنا أول خلق نعيده] أى إعادتنا للخلق ، مثل ابتدائنا لخلقهم .

فكما ابتدأنا خلقهم ، ولم يكونوا شيئا ، كذلك نعيدهم بعد موتهم .

[وعدا علينا إنا كنا فاعلين] ننفذ ما وعدنا ، لكمال قدرته ، وأنه لا تمتنع منه الأشياء .

[ولقد كتبنا فى الزبور] وهو الكتاب المزبور ، والمراد : الكتب المنزلة ، كالتوراة ونحوها [من بعد الذكر] أى : كتبناه فى الكتب المنزلة ، بعد ما كتبنا فى الكتاب السابق ، الذى هو اللوح المحفوظ ،

ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾

إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ

وأم الكتاب الذى توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب فى ذلك .

[أن الأرض] أى أرض الجنة [يرثها عبادى الصالحون] الذين قاموا بالمأمورات ، واجتنبوا المنهيات .

فهم الذين يورثهم الله الجنات ، كقول أهل الجنة : « الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » .

ويحتمل أن المراد : الاستخلاف فى الأرض ، وأن الصالحين يمكن الله لهم فى الأرض ، ويوليهم عليها كقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم » .

* يثنى الله تعالى على كتابه العزيز « القرآن » ويبين كفايته التامة عن كل شيء ، وأنه لا يستغنى عنه فقال :

[إن فى هـذا لبلاغا لقوم عابدين] أى : يتبلغون به ، فى الوصول إلى ربهم ، وإلى دار كرامته ، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب .

وليس للعابدين ، الذين هم أشرف الخلق ، وراءه غاية ، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم ، بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وبالإخبار بالغيوب الصادقة ، وبالدعوة لحقائق الإيمان ، وشواهد الإيقان ، المبين للمأمورات كلها ، والمنهيات جميعاً ، المعرف بعيوب النفس والعمل ، والطرق التى ينبغى سلوكها فى دقيق الدين وجليله ، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخله على الإنسان .

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ

فمن لم يغنه القرآن ، فلا أغناه الله ؛ ومن لا يكفيه ، فلا كفاه الله .

ثم أثنى على رسوله ، الذى جاء بالقرآن فقال : [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] .

فهو رحمته المهداة لعباده .

فالمؤمنون به ، قبلوا هذه الرحمة ، وشكروها ، وقاموا بها .

وغيرهم ، كفروها ، وبدلوا نعمة الله كفرا ، وأبوا رحمة الله ونعمته .

[قل] يامحمد [إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد] الذى لا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال : [فهل أنتم مسلمون] أى : منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته ، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم ، بهذه النعمة ، التى فاقت المنن .

[فإن تولوا] عن الانقياد لعبودية ربهم ، فحذرهم حلول المثلات ، ونزول العقوبة .

[فقل آذنتكم] أى : أعلمتكم بالعقوبة [على سواء] أى علمى وعلمكم بذلك مستو فلا تقولوا — إذا نزل بكم العذاب — « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

بل الآن ، استوى علمى وعلمكم ، لما أنذرتكم ، وحذرتكم ، وأعلمتكم بمآل الكفر ، ولم أكتم عنكم شيئاً .

سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

[وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون] أى : من العذاب لأن علمه عند الله ، وهو بيده ، ليس لى من الأمر شىء .

[وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين] أى : لعل تأخير العذاب الذى استعجلتموه ، شر لكم ، وإن تتمتعوا فى الدنيا إلى حين ، ثم يكون أعظم لعقوبتكم .

[قال رب احكم بالحق] أى : بيننا وبين القوم الكافرين .

فاستجاب الله هذا الدعاء ، وحكم بينهم فى الدنيا قبل الآخرة ، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة « بدر » وغيرها .

[وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون] أى : نسأل ربنا الرحمن ، ونستعين به على ماتصفون ، من قولكم ؛ سنظهر عليكم ، وسيضمحل دينكم .

فنحن فى هذا ، لا نعجب بأنفسنا ، ولا نتكل على حولنا وقوتنا .

وإنما نستعين بالرحمن ، الذى ناصية كل مخلوق بيده .

ونرجوه أن يتم ما استعنا به ، من رحمته ، وقد فعل ، ولله الحمد .

سُورَةُ الحَجّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ

---

* يخاطب الله الناس كافة ، بأن يتقوا ربهم ، الذى رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

فحقيق بهم ، أن يتقوه ، بترك الشرك ، والفسوق ، والعصيان ، ويمتثلوا أوامره ، مهما استطاعوا .

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى ، ويحذرهم من تركها ، وهو : الإخبار بأهوال القيامة ، فقال :

[إن زلزلة الساعة شيء عظيم] لا يقدر قدره ، ولا يبلغ كنهه .

ذلك بأنها إذا وقعت الساعة ، رجفت الأرض ، وزلزلت زلزالها ، وتصدعت الجبال ، واندكت ، وكانت كثيبا مهيلا ، ثم كانت هباء منبثا .

ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج .

فهنالك تنفطر السماء ، وتكور الشمس والقمر ، وتنتثر النجوم ،ويكون من القلاقل والبلابل ، ما تنصدع له القلوب ، وتوجل منه الأفئدة ، وتشيب

كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

منه الولدان ، وتذوب له الصم الصلاب ، ولهذا قال :

[يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت] مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها ، خصوصا فى هذه الحال ، التى لا يعيش إلا بها .

[وتضع كل ذات حمل حملها] من شدة الفزع والهول .

[وترى الناس سكارى وما هم بسكارى] .

أى : تحسبهم — أيها الرائى لهم — سكارى من الخمر ، وليسوا سكارى .

[ولكن عذاب الله شديد] : فلذلك أذهب عقولهم ، وفرغ قلوبهم ، وملأها من الفزع ، وبلغت القلوب الحناجر ، وشخصت الأبصار .

فى ذلك اليوم ، لايجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا .

و « يومئذ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * وفصيلته التى تؤويه * لكل امرىء منهم يومئذ ، شأن يغنيه » .

وهناك يعض الظالم على يديه ، يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه .

وتنصب الموازين ، التى يوزن بها مثاقيل الذر ، من الخير والشر .

وتنشر صحائف الأعمال ، وما فيها من جميع الأعمال والأقوال ، والنيات ، من صغير وكبير ، وينصب الصراط على متن جهنم .

. . . .

وتزلف الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين .

إذا رأتهم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظا وزفيرا .

وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين ، دعوا هنالك ثبوراً .

ويقال لهم: « لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيراً ».

وإذا نادوا ربهم ، ليخرجهم منها ، قال « اخسأوا فيها ولا تكلمون » .

قد غضب عليهم الرب الرحيم وحضرهم العذاب الأليم ، وأيسوا من كل خير ، ووجدوا أعمالهم كلها ، لم يفقدوا منها نقيرا ولا قطميرا .

هذا ، والمتقون فى روضات الجنات يحبرون ، وفى أنواع اللذات يتفكهون ، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون .

فحقيق بالعاقل ، الذى يعرف أن كل هذا أمامه ، أن يُعِدَّ له عُدَّتَهُ ، وأن لا يلهيه الأمل ، فيترك العمل ، وأن تكون تقوى الله شعاره ، وخوفه دثاره ، ومحبة الله ، وذكره ، روح أعماله .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾

---

* أى : ومن الناس طائفة وفرقة ، سلكوا طريق الضلال ، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق ، يريدون إحقاق الباطل ، وإبطال الحق .

والحال ، أنهم فى غاية الجهل ما عندهم من العلم شىء .

وغاية ما عندهم ، تقليد أئمة الضلال ، من كل شيطان مريد ، متمرد على الله وعلى رسله ، معاند لهم ، قد شاقَّ الله ورسوله ، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار .

[كُتِبَ عليه] أى : قدر على هذا الشيطان المريد [أنه من تولاه] أى : اتبعه [فأنه يضله] عن الحق ، ويجنبه الصراط المستقيم [ويهديه إلى عذاب السعير] .

وهذا نائب إبليس حقا ، فإن الله قال عنه « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

فهذا الذى يجادل فى الله ، قد جمع بين ضلاله بنفسه ، وتصديه إلى إضلال الناس .

وهو متبع ، ومقلد لكل شيطان مريد ، ظلمات بعضها فوق بعض .

ويدخل فى هذا ، جمهور أهل الكفر والبدع ، فإن أكثرهم مقلدة ، يجادلون بغير علم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

---

* يقول تعالى [يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث] أى : شك واشتباه ، وعدم علم بوقوعه ، مع أن الواجب عليكم ، أن تصدقوا ربكم ، وتصدقوا رسله فى ذلك .

ولكن إذا أبيتم إلا الريب ، فهاكم دليلين عقليين ، تشاهدونهما ، كل واحد منهما ، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه ، ويزيل عن قلوبكم الريب .

أحدهما : الاستدلال بابتداء خلق الإنسان ، وأن الذى ابتدأه ، سيعيده فقال فيه :

[فإنا خلقناكم من تراب] وذلك بخلق أبى البشر ، آدم عليه السلام .

[ثم من نطفة] أى : مَنِيٍّ ، وهذا ابتداء أول التخليق .

[ثم من علقة] أى : تنقلب تلك النطفة ، بإذن الله ، دما أحمر .

[ثم من مضغة] أى : ينتقل الدم مضغة ، أى : قطعة لحم ، بقدر ما يمضغ .

وتلك المضغة تارة تكون [مخلقة] أى : مصور منها خلق الآدمى .

[وغير مخلقة] تارة ، بأن تقذفها الأرحام ، قبل تخليقها .

[لنبين لكم] أصل نشأتكم ، مع قدرته تعالى ، على تكميل خلقه

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا

فى لحظة واحدة ، ولكن ليبين لنا ، كمال حكمته ، وعظيم قدرته، وسعة رحمته .

[ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى] ، ونقر . أى : نبقى فى الأرحام من الحمل ، الذى لم تقذفه الأرحام ، مانشاء إبقاءه إلى أجل مسمى وهو مدة الحمل .

[ثم نخرجكم] من بطون أمهاتكم [طفلا] لا تعلمون شيئاً ، وليس لكم قدرة .

وسخرنا لكم الأمهات ، وأجرينا لكم فى ثديها ، الرزق .

ثم تنقلون ، طورا بعد طور ، حتى تبلغوا أشدكم ، وهو كمال القوة والعقل .

[ومنكم من يتوفى] من قبل أن يبلغ سن الأشد .

ومنكم من يتجاوزه فيرد إلى أرذل العمر ، أى : أخسه وأرذله ، وهو : سن الهرم والتخريف ، الذى به يزول العقل ، ويضمحل ، كما زالت باقى القوة ، وضعفت .

[لكيلا يعلم من بعد علم شيئا] أى: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئا ، مما كان يعلمه قبل ذلك ، وذلك لضعف عقله .

فقوة الآدمى محفوفة بضعفين ، ضعف الطفولية ونقصها ، وضعف الهرم ونقصه .

وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ

كما قال تعالى : « الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير » .

والدليل الثانى ، إحياء الأرض بعد موتها ، فقال الله فيه :

[وترى الأرض هامدة] أى : خاشعة مغبرة لا نبات فيها ، ولا خضرة .

[فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت] أى : تحركت بالنبات [وربت] أى: ارتفعت بعد خشوعها(١) وذلك لزيادة نباتها .

[وأنبتت من كل زوج] أى : صنف من أصناف النبات [بهيج] أى : يبهج الناظرين ، ويسر المتأملين .

فهذان الدليلان القاطعان ، يدلان على هذه المطالب الخمسة ، وهى هذه .

[ذلك] الذى أنشأ الآدمى من ما وصف لكم ، وأحيا الأرض بعد موتها .

[بأن الله هو الحق] أى الرب المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

وعبادته هى الحق ، وعبادة غيره باطلة .

---

(١) قوله « خشوعها » هكذا فى الأصل المطبوع والمناسب هنا أن يقال « خفوضها » لينتظم الكلام ويظهر جمال الطباق « خفوضها » و « ارتفعت » .

يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا

[وأنه يحيي الموتى] كما ابتدأ الخلق ، وكما أحيا الأرض بعد موتها.

[وأنه على كل شيء قدير] كما أشهدكم من بديع قدرته، وعظيم صنعته، ما أشهدكم .

[وأن الساعة آتية لا ريب فيها] فلا وجه لاستبعادها .

[وأن الله يبعث من فى القبور] فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها .

* المجادلة المتقدمة للمقلد ، وهذه المجادلة للشيطان المريد ،الداعى إلى البدع .

فأخبر أنه [يجادل فى الله] أى : يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق .

[بغير علم] صحيح [ولا هدى] أى : غير متبع فى جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد ، ولا متبوع مهتد .

[ولا كتاب منير] أى : واضح بين ، فلا له حجة عقلية ولا نقلية .

إن هى إلا شبهات ، يوحيها إليه الشيطان « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » .

مع هذا [ثانى عطفه] أى : لاَوِيَ جانبه وعنقه ، وهذا كناية عن كبره عن الحق ، واحتقاره للخلق .

خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾

فقد فرح بما معه من العلم الغير النافع . واحتقر أهل الحق ، وما معهم من الحق .

[ليضل] الناس أى : ليكون من دعاة الضلال .

ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال .

ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال :

[له فى الدنيا خزى] أى : يفتضح هذا فى الدنيا قبل الآخرة .

وهذا من آيات الله العجيبة ، فإنك لا تجد داعيا من دعاة الكفر والضلال ، إلا وله من المقت بين العالمين ، واللعنة ، والبغض ، والذم ، ماهو حقيق به ، وكلٌّ بحسب حاله .

[ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق] أى نذيقه حَرَّها الشديد ، وسعيرها البليغ ، وذلك بما قدمت يداه .

* [ذلك] ما ذكر من العذاب الدنيوى والأخروى .

وما فيه من معنى البعد (وهو معنى اللام فى « ذلك » الموضوعة للدلالة على البعد) للدلالة على كون الكافر فى الغاية القصوى من الهول والفظاعة .

[بما قدمت يداك] أى : بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى .

[وأن الله ليس بظلام للعبيد] أى : والأمر أنه تعالى ليس بمعذب عبيده بغير ذنب من قبلَهم .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَ

والمعنى الإجمالى : أنه يقال للكافر الموصوف بتلك الأوصاف فى الآيتين السابقتين :

ذلك الذى تلقاه من خزى وعذاب إنما كان بسبب افترائك وتكبرك لأن الله عادل لا يظلم ، ولا يسوى بين المؤمن والكافر ، والصالح والفاجر ، بل يجازى كلا منهم بعمله .

* أى : ومن الناس من هو ضعيف الإيمان ، لم يدخل الإيمان قلبه ، ولم تخالطه بشاشته .

بل دخل فيه ، إما خوفا ، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن .

[فإن أصابه خير اطمئن به] أي : إن استمر رزقه رغدا ، ولم يحصل له من المكاره شيء ، اطمأن بذلك الخير ، لا إيمانه .

فهذا ، ربما أن الله يعافيه ، ولا يقيض له من الفتن ، ما ينصرف به عن دينه .

[وإن أصابته فتنة] من حصول مكروه ، أو زوال محبوب [انقلب على وجهه] أى : ارتد عن دينه .

[خسر الدنيا والآخرة] أما فى الدنيا ، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذى جعل الردة رأساً لماله ، وعوضا عما يظن إدراكه فخاب سعيه ، ولم يحصل له ، إلا ما قسم له .

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

وأما الآخرة ، فظاهر ، حرم الجنة التى عرضها السموات والأرض والأرض ، واستحق النار .

[ذلك هو الخسران المبين] أى : الواضح البيِّن .

[يدعو] هذا الراجع على وجهه [من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه] .

وهذا صفة كل مدعو ومعبود ، من دون الله ، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره ، نفعاً ولا ضراً .

[ذلك هو الضلال البعيد] الذى بلغ فى البعد إلى حد النهاية ، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار ، الغنى المغنى .

وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه ، ليس بيده من الأمر شىء ، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب . ولهذا قال :

[يدعو لمن ضره أقرب من نفعه] فإن ضرره فى العقل والبدن ، والدنيا والآخرة ، معلوم [لبئس المولى] أى هذا المعبود [ولبئس العشير] أى : القرين الملازم على صحبته .

فإن المقصود من المولى والعشير ، حصول النفع ، ودفع الضرر .

فإذا لم يحصل شىء من هذا ، فإنه مذموم ملوم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾

---

* لما ذكر تعالى المجادل بالباطل ، وأنه على قسمين ، مقلد ، وداع .

ذكر أن المتسمى بالإيمان أيضاً على قسمين ، قسم لم يدخل الإيمان قلبه كما تقدم .

والقسم الثانى : المؤمن حقيقة،صدق ما معه من الإيمان بالأعمال الصالحة فأخبر تعالى أنه يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وسميت الجنة جنة ، لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنباتات التى تُجِنُّ مَنْ فيها ، ويستتر بها ، من كثرتها .

[إن الله يفعل ما يريد] فمهما أراده تعالى ، فعله من غير ممانع ولا معارض .

ومن ذلك ، إيصال أهل الجنة إليها . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

* أي من كان يظن[١] أن الله لا ينصر رسوله ، وأن دينه سيضمحل ، فإن النصر ، من الله ينزل من السماء [فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع] النصر عن الرسول .

---

(١) الظن هنا . ليس على حقيقته الذى هو «إدراك الطرف الراجح» بل هو بمعنى اليقين . فيكون المعنى : « من كان يعتقد أن الله لا ينصر رسوله الخ » .

فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

[فلينظر هل يذهبن كيده] أى : ما يكيد به الرسول ، ويعمله من محاربته ، والحرص على إبطال دينه ، ما يغيظه من ظهور دينه .

وهذا استفهام بمعنى النفى ، أى : إنه لا يقدر على شفاء غيظه ، بما يعمله من الأسباب .

ومعنى هذه الآية الكريمة : يأيها المعادى للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، الساعى فى إطفاء دينه ، الذى يظن بجهله ، أن سعيه سيفيده شيئا .

إعلم أنك ، مهما فعلت من الأسباب ، وسعيت فى كيد الرسول ، فإن ذلك لا يذهب غيظك ، ولا يشفى كمدك ، فليس لك قدرة فى ذلك .

ولكن سنشير عليك برأى ، تتمكن به من شفاء غيظك ، ومن قطع النصر عن الرسول ، إن كان ممكنا .

ائت الأمر من بابه ، وارتق إليه بأسبابه .

إعمد إلى حبل من ليف أو غيره ، ثم عَلِّقْهُ فى السماء ، ثم اصعد به ، حتى تصل إلى الأبواب التى ينزل منها النصر ، فَسُدَّها ، وأغلقها ، واقطعها ، فبهذه الحال تشفى غيظك .

فهذا هو الرأىُ والمكيدة ، وما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك تشفى بها غيظك ولو ساعدك من ساعدك من الخلق .

وهذه الآية الكريمة ، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله لدينه ، ولرسوله ، وعباده المؤمنين ، ما لا يخفى ، ومن تأييس الكافرين ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون أى : وسعوا مهما أمكنهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

---

* أى : وكذلك لما فصلنا فى هذا القرآن مافصلنا ، جعلناه آيات بينات ، واضحات ، دالات على جميع المطالب والمسائل النافعة ، ولكن الهداية بيد الله .

فمن أراد الله هدايته ، اهتدى بهذا القرآن ، وجعله إماما له وقدوة ، واستضاء بنوره .

ومن لم يرد الله هدايته ، فلو جاءته كل آية ، ما آمن ، ولم ينفعه القرآن شيئاً ، بل يكون حجة عليه .

* يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض ، من الذين أوتوا الكتاب ، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين ، ومن المجوس ، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل ، ويجازيهم بأعمالهم ، التى حفظها وكتبها ، وشهدها ، ولهذا قال: [إن الله على كل شىء شهيد] .

ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله : [هذان خصمان اختصموا فى ربهم] كلٌّ يدعى أنه المحق .

[فالذين كفروا] يشمل كل كافر ، من اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، والصابئين ، والمشركين .

إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِي رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ

[قطعت لهم ثياب من نار] أى : يجعل لهم ثياب من قطران ، وتشعل فيها النار ، ليعمهم العذاب ، من جميع جوانبهم .

[يصب من فوق رءوسهم الحميم] الماء الحار جدا ، يصهر مافى بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء ، من شدة حره ، وعظيم أمره .

[ولهم مقامع من حديد] بيد الملائكة الغلاظ الشداد ، تضربهم فيها وتقمعهم .

[كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها] فلا يُفَتَّرُ عنهم العذاب ، ولا هم ينظرون ، ويقال لهم توبيخا : [ذوقوا عذاب الحريق] أى : المحرق للقلوب والأبدان .

ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

---

* [إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار] .

ومعلوم أن هذا الوصف لايصدق على غير المسلمين ، الذين آمنوا بجميع الكتب ، وجميع الرسل .

[يحلون فيها من أساور من ذهب] أى : يُسَوَّرُونَ فى أيديهم ، رجالهم ونساؤهم ، أساور الذهب .

[ولباسهم فيها حرير] فتم نعيمهم بذلك ، من أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها ، لفظ الجنات ، وذكر الأنهار السارحات .

أنهار الماء واللبن والعسل والخمر ، وأنواع اللباس ، والحلى الفاخر .

وذلك بسبب أنهم [هدوا إلى الطيب من القول] الذى أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص ، ثم سائر الأقوال الطيبة ، التي فيها ، ذكر الله ، أو إحسان إلى عباد الله .

[وهدوا إلى صراط الحميد] أى : الصراط المحمود .

وذلك ، لأن جميع الشرع كله ، محتو على الحكمة والحمد ، وحسن المأمور به ، وقبح المنهى ، وهو الدين الذى ، لا إفراط فيه ولا تفريط ، المشتمل على

. . . .

العلم النافع ، والعمل الصالح .

أو ، وهدوا إلى صراط الله الحميد ، لأن الله ، كثيرا ما يضيف الصراط إليه ، لأنه يوصل صاحبه إلى الله .

وفى ذكر « الحميد » هنا ، ليبين أنهم نالوا الهداية ، بحمد ربهم ، ومنته عليهم .

ولهذا يقولون فى الجنة « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

واعترض تعالى بين هذه الآيات ، بذكر سجود المخلوقات له ، جميع من فى السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، الذى يشمل الحيوانات كلها ، وكثير من الناس ، وهم المؤمنون .

[وكثير حق عليه العذاب] أي : وجب وكتب ، لكفره ، وعدم إيمانه ، فلم يوفقه للإيمان ، لأن الله أهانه .

[ومن يهن الله فما له من مكرم] ولا رادّ لما أراد ، ولا معارض لمشيئته .

فإذا كانت المخلوقات كلها ، ساجدة لربها ، خاضعة لعظمته ، مستكينة لعزته ، عانية لسلطانه ، دل على أنه وحده ، الرب المعبود ، والملك المحمود ، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه ، فقد ضل ضلالا بعيداً ، وخسر خسرانا مبينا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم ، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله ، وبين الصد عن سبيل الله ، ومنع الناس من الإيمان ، والصد أيضا ، عن المسجد الحرام ، الذى ليس ملكا لهم ولا لآبائهم ، بل الناس فيه سواء ، المقيم فيه ، والطارىء إليه .

بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه ، والحال أن المسجد الحرام ، من حرمته واحترامه وعظمته ، أن من يرد فيه بإلحاد بظلم ، نذقه من عذاب أليم .

فمجرد الإرادة للظلم والإلحاد فى الحرم ، موجب للعذاب ، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم .

فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم ، من الكفر والشرك ، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة ، فما ظنكم أن يفعل الله بهم ؟!!

وفى هذه الآية الكريمة ، وجوب احترام الحرم ، وشدة تعظيمه ، والتحذير من إرادة المعاصى فيه ، وفعلها .

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾

---

* يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه وهو خليل الرحمن فقال :

[وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت] أى : هيأناه له ، وأنزلنا إياه .

وجعل قسما من ذريته من سكانه ، وأمره الله ببنيانه .

فبناه على تقوى الله ، وأسسه على طاعة الله .

وبناه هو وابنه إسماعيل ، وأمره أن لا يشرك به شيئا ، بأن يخلص لله أعماله ، ويبنيه على اسم الله .

[وطهر بيتى] أى : من الشرك والمعاصى ، ومن الأنجاس والأدناس

وإضافة الرحمن إلى نفسه ، لشرفه ، وفضله ، ولتعظم محبته فى القلوب ، وتنصب إليه الأفئدة من كل جانب ، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه ، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر ، وقراءة وتعلم علم وتعليمه ، وغير ذلك من أنواع القرب .

[والركع السجود] أي : المصلين ، أى : طهره لهؤلاء الفضلاء ، الذين همهم ، طاعة مولاهم ، وخدمته والتقرب إليه عند بيته .

فهؤلاء ، لهم الحق ولهم الإكرام ، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم ويدخل فى تطهيره ، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التى تشوش المتعبدين ، بالصلاة والطواف .

وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة ، لاختصاصه بهذا البيت .

وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ

ثم الاعتكاف ، لاختصاصه بجنس المساجد .

[وأذن فى الناس بالحج] أى : أعلمهم به ، وادعهم إليه ، وبلِّغْ دانيهم وقاصيهم ، فرضه وفضيلته .

فإنك إذا دعوتهم ، أتوك حجاجا : وعُمَّاراً ، رجالا ، أى : مشاة على أرجلهم من الشوق .

[وعلى كل ضامر] أى : ناقة ضامر ، تقطع المهامه والمفاوز . وتواصل السير ، حتى تأتى إلى أشرف الأماكن .

[من كل فج عميق] أى : من كل بلد بعيد .

وقد فعل الخليل عليه السلام ، ثم من بعده ابنه محمد صلى الله عليه وسلم .

فدعيا إلى حج هذا البيت ، وأبديا فى ذلك وأعادا .

وقد حصل ما وعد الله به .

أتاه الناس ، رجالا وركبانا من مشارق الأرض ، ومغاربها .

ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام ، مرغبا فيه فقال :

[ليشهدوا منافع لهم] أى : لينالوا ببيت الله ، منافع دينية ، من العبادات الفاضلة ، والعبادات التى لا تكون إلا فيه .

ومنافع دنيوية ، من التكسب ، وحصول الأرباح الدنيوية ، وكل هذا أمر مشاهد ، كُلٌّ يعرفه .

مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

[ويذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام] وهذا من المنافع الدينية والدنيوية أى : ليذكروا اسم الله ، عند ذبح الهدايا ، شكرا لله على ما رزقهم منها ، ويسرها لهم .

فإذا ذبحتموها [فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير] .

أى : شديد الفقر .

[ثم ليقضوا تفثهم] أى : يقضوا نسكهم ، ويزيلوا الوسخ والأذى ، الذى لحقهم فى حال الإحرام

[وليوفوا نذورهم] التى أوجبوها على أنفسهم ، من الحج ، والعمرة والهدايا .

[وليطوفوا بالبيت العتيق] أى : القديم ، أفضل المساجد على الإطلاق .

والمعتق : من تسلط الجبابرة عليه .

وهذا أمر بالطواف ، خصوصا بعد الأمر بالمناسك له عموما ، لفضله ، وشرفه ، ولكونه المقصود ، وما قبله وسائل إليه .

ولعله — والله أعلم أيضا — لفائدة أخرى ، وهو : أن الطواف مشروع كل وقت ، وسواء كان تابعا لنسك ، أم مستقلا بنفسه .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ

---

* [ذلك] أى : ماذكرنا لكم من تلكم الأحكام ، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها ، وتكريمها ، لأن تعظيم حرمات الله ، من الأمور المحبوبة لله ، المقربة إليه ، التى من عظمها وأجلها ، أثابه الله ثواباً جزيلا ، وكانت خيراً له ، فى دينه ، ودنياه وأخراه ، عند ربه .

وحرمات الله : كل ماله حرمة ، وأمر باحترامه ، من عبادة أو غيرها ، كالمناسك كلها ، وكالحرم والإحرام ، وكالهدايا ، وكالعبادات التى أمر الله العباد بالقيام بها .

فتعظيمها يكون إجلالا بالقلب ، ومحبتها ، وتكميل العبودية فيها ، غير متهاون ، ولا متكاسل ، ولا متثاقل .

ثم ذكر منته وإحسانه ، بما أحله لعباده ، من بهيمة الأنعام ، من إبل وبقر ، وغنم ،وشرعها من جملة المناسك ، التى يتقرب بها إليه ،فعظمت منته فيها من الوجهين .

[إلا ما يتلى عليكم] فى القرآن تحريمه من قوله : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » الآية .

ولكن الذى من رحمته بعباده ، أن حرمه عليهم ، ومنعهم منه ، تزكية لهم ، وتطهيراً من الشرك به ، وقول الزور ، ولهذا قال :

[فاجتنبوا الرجس] أى الخبث القذر [من الأوثان] أى الأنداد ، التي جعلتموها آلهة مع الله ، فإنها أكبر أنواع الرجس .

مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾

والظاهر أن « من » هنا ليست لبيان الجنس ، كما قاله كثير من المفسرين ، وإنما هي للتبعيض ، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات .

فيكون منهيا عنها عموماً ، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصا .

[واجتنبوا قول الزور] أي : جميع الأقوال المحرمات ، فإنها من قول الزور .

أمرهم أن يكونوا [حنفاء لله] مقبلين عليه ، وعلى عبادته ، معرضين عما سواه .

[غير مشركين به ، ومن يشرك بالله] فمثله [فكأنما خر من السماء] أي : سقط منها [فتخطفه الطير] بسرعة [أو تهوى به الريح في مكان سحيق] أي : بعيد ، كذلك المشركون .

فالإيمان بمنزلة السماء ، محفوظة مرفوعة .

ومن ترك الإيمان ، بمنزلة الساقط من السماء ، عرضة للآفات والبليات .

فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء ، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب ، ومزقوه ، وأذهبوا عليه دينه ودنياه .

وإما أن تأخذه عاصفة شديدة من الريح فتعلو به في طبقات الجو فتقذفه بعد أن تتقطع أعضاؤه في مكان بعيد جداً .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾

---

* أى : ذلك الذى ذكرناه لكم ، من تعظيم حرماته وشعائره .

والمراد بالشعائر : أعلام الدين الظاهرة ، ومنها المناسك كلها ، كما قال تعالى « إن الصفا والمروة من شعائر الله » .

ومنها الهدايا والقربان للبيت .

وتقدم أن معنى تعظيمها ، إجلالها ، والقيام بها ، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد .

ومنها الهدايا ، فتعظيمها ، باستحسانها واستسمانها ، وأن تكون مكملة من كل وجه .

فتعظيم شعائر الله ، صادر من تقوى القلوب .

فالمعظم لها ، يبرهن على تقواه ، وصحة إيمانه ، لأن تعظيمها ، تابع لتعظيم الله وإجلاله .

[لكم فيها] أى : فى الهدايا [منافع إلى أجل مسمى] هذا فى الهدايا المسوقة ، من البدن ونحوها ، ينتفع بها أربابها ، بالركوب ، والحلب ونحو ذلك ، مما لا يضرها [إلى أجل مسمى] مقدر ، موقت وهو ذبحها ، إذا وصلت [محلها] وهو [البيت العتيق] أى الحرم كله « منى » وغيرها .

فإذا ذبحت ، أكلوا منها ، وأهدوا ، وأطعموا البائس الفقير .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

---

* أى : ولكل أمة من الأمم السالفة ، جعلنا منسكا .

أى : فاستبقوا إلى الخيرات وسارعوا إليها ، ولننظر أيكم أحسن عملا .

والحكمة فى جعل الله لكل أمة منسكا ، إقامة ذكره ، والالتفات لشكره .

ولهذا قال : [ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد] .

وإن اختلفت أجناس الشرائع ، فكلها متفقة على هذا الأصل ، وهو : ألوهية الله ، وإفراده بالعبودية ، وترك الشرك به .

ولهذا قال : [فله أسلموا] أى : انقادوا واستسلموا له لا لغيره ، فإن الإسلام له ، طريق الوصول إلى دار السلام .

[وبشر المخبتين] بخير الدنيا والآخرة .

والمخبت : الخاضع لربه ، المستسلم لأمره ، المتواضع لعباده .

ثم ذكر صفات المخبتين فقال : [الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم] أى : خوفا وتعظيما ، فتركوا لذلك ، المحرمات ، لخوفهم ووجلهم من الله وحده .

وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾

[والصابرين على ما أصابهم] من البأساء والضراء ، وأنواع الأذى فلا يجرى منهم التسخط لشىء من ذلك ، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم ، محتسبين ثوابه ، مرتقبين أجره .

[والمقيمى الصلاة] أى : الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة ، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب ، وعبوديتها الظاهرة والباطنة .

[ومما رزقناهم ينفقون] وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة ، كالزكاة ، والكفارة ، والنفقة على الزوجات والمماليك ، والأقارب .

والنفقات المستحبة ، كالصدقات بجميع وجوهها .

وأتى بـ « من » المفيدة للتبعيض ، ليعلم سهولة ما أمر الله به ، ورغب فيه ، وأنه جزء يسير مما رزق الله ، ليس للعبد فى تحصيله قدرة ، لولا تيسير الله له ، ورزقه إياه .

فيا أيها المرزوق من فضل الله ، أنفق مما رزقك الله ، ينفق الله عليك ، ويزدك من فضله .

۞ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ

---

* هذا دليل على أن الشعائر عام ، فى جميع أعلام الدين الظاهرة .

وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره ، فإن ذلك من تقوى القلوب وهنا أخبر ، أن من جملة شعائره ، الْبُدْنُ ، أى : الإبل ، والبقر ، على أحد القولين ، فتعظم وتسمن ، وتستحسن .

[لكم فيها خير] أى : للمهدى وغيره ، من الأكل ، والصدقة ، والانتفاع ، والثواب ، والأجر .

[فاذكروا اسم الله عليها] أى : عند ذبحها قولوا « بسم الله » واذبحوها .

[صواف] أى : قائمات ، بأن تقام على قوائمها الأربع ، ثم تعقل يدها اليسرى ، ثم تنحر .

[فإذا وجبت جنوبها] أى: سقطت على[1] الأرض جنوبها ، حين تسلخ ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض ، فحينئذ قد استعدت، لأن يؤكل منها .

[فكلوا منها] وهذا خطاب للمهدى ، فيجوز له الأكل من هديه .

[وأطعموا القانع والمعتر] أى : الفقير الذى لا يسأل ، تقنعاً ، وتعففاً ، والفقير الذى يسأل ، فكل منهما ، له حق فيهما .

---

(١) قوله « أى سقطت » إلى « لأن يؤكل منها» العبارة قلقة كما ترى : والصواب أن يقال « أى: سقطت جنوبها على الأرض ، فإذا سلخها الجزار، تكون قد صلحت لأن يؤكل منها » وبهذا يتضح المعنى بأوجز عبارة .

تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

[كذلك سخرناها لكم] أى : البدن [لعلكم تشكرون] الله على تسخيرها .

فإنه ، لولا تسخيره لها ، لم يكن لكم بها طاقة ، ولكنه ذللها لكم ، وسخرها ، رحمة بكم وإحسانا إليكم ، فاحمدوه .

وقوله [لن ينال الله لحومها ولا دماؤها] أى : ليس المقصود منها ، ذبحها فقط .

ولا ينال الله من لحومها ، ولا دمائها شىء ، لكونه الغنى الحميد .

وإنما يناله الإخلاص فيها ، والاحتساب ، والنية الصالحة ، ولهذا قال : [ولكن يناله التقوى منكم] .

ففى هذا ، حَثٌّ وترغيب على الإخلاص فى النحر ، وأن يكون القصد وجه الله وحده ، لا فخراً ، ولا رياء ، ولا سمعة ، ولا مجرد عادة .

وهكذا سائر العبادات ، إن لم يقترن بها الإخلاص ، وتقوى الله ، كانت كالقشر الذى لا لُبَّ فيه ، والجسد ، الذى لا روح فيه .

[كذلك سخرها لكم لتكبروا الله] أى : تعظموه وتجلوه .

[على ما هداكم] أى : مقابلة لهدايته إياكم ، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد ، وأعلى التعظيم .

[وبشر المحسنين] بعبادة الله بأن يعبدوا الله ، كأنهم يرونه ، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة ، فليعبدوه ، معتقدين وقت عبادتهم ، اطِّلاعَه عليهم ، ورؤيته إياهم .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

والمحسنين لعباد الله ، بجميع وجوه الإحسان ، من نفع مال ، أو علم ، أو جاه . أو نصح ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو كلمة طيبة ونحو ذلك .

فالمحسنون ، لهم البشارة من الله ، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم ، كما أحسنوا فى عبادته ولعباده « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » « للذين أحسنو الحسنى وزيادة » .

* هذا إخبار ، ووعد ، وبشارة من الله ، للذين آمنوا ، أن الله يدفع عنهم كل مكروه .

ويدفع عنهم — بسبب إيمانهم — كل شر من شرور الكفار ، وشرور وسوسة الشيطان ، وشرور أنفسهم ، وسيئات أعمالهم ويحمل عنهم عند نزول المكاره ، ما لا يتحملون ، فيخفف عنهم غاية التخفيف .

كل مؤمن ، له من هذه المدافعة والفضيلة ، بحسب إيمانه ، فمستقل ، ومستكثر .

[إن الله لا يحب كل خوان] أى : خائن فى أمانته ، التى حمله الله إياها ، فيبخس حقوق الله عليه ، ويخونها ، ويخون الخلق .

[كفور] لنعم الله ، يوالى الله عليه الإحسان ، ويتوالى منه الكفر والعصيان .

فهذا لا يحبه الله ، بل يبغضه ويمقته ، وسيجازيه على كفره وخيانته .

ومفهوم الآية ، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته ، شكور لمولاه .

* أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ

---

* كان المسلمون فى أول الإسلام ، ممنوعين من قتال الكفار ، ومأمورين بالصبر عليهم ، لحكمة إلهية .

فلما هاجروا إلى المدينة ، وأوذوا ، وحصل لهم منعة وقوة ، أذن لهم بالقتال ، كما قال تعالى [أذن للذين يقاتلون] يفهم منه أنهم كانوا قبل ، ممنوعين ، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلونهم .

وإنما أذن لهم ، لأنهم ظلموا ، بمنعهم من دينهم ، وأذيتهم عليه ، وإخراجهم من ديارهم .

[وإن الله على نصرهم لقدير] فليستنصروه ، وليستعينوا به .

ثم ذكر صفة ظلمهم فقال : [الذين أخرجوا من ديارهم] أى : ألجئوا إلى الخروج ، بالأذية والفتنة [بغير حق إلا] أن ذنبهم الذى نقم منهم أعداؤهم [أن يقولوا ربنا الله] أى : إلا لأنهم وحدوا الله ، وعبدوه مخلصين له الدين .

فإن كان هذا ذنبا ، فهو ذنبهم كقوله تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

وهذا يدل على حكمة الجهاد ، فإن المقصود منه ، إقامة دين الله ، أو ذب الكفار المؤذين للمؤمنين ، البادئين لهم بالاعتداء ، عن ظلمهم ، واعتدائهم ، والتمكن من عبادة الله ، وإقامة الشرائع الظاهرة .

وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ

ولهذا قال : [ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض] فيدفع الله بالمجاهدين فى سبيله ، ضرر الكافرين .

[لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد] أى : لهدمت هذه المعابد الكبار ، لطوائف أهل الكتاب ، معابد اليهود ، والنصارى ، والمساجد للمسلمين

[يذكر فيها] أى : فى هذه المعابد [اسم الله كثيراً] تقام فيها الصلوات ، وتتلى فيها كتب الله ، ويذكر فيها ، اسم الله ، بأنواع الذكر .

فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لاستولى الكفار على المسلمين ، فخربوا معابدهم ، وفتنوهم عن دينهم .

فدل هذا ، أن الجهاد مشروع ، لأجل دفع الصائل والمؤذى ، ومقصود لغيره .

ودل ذلك ، على أن البلدان ، التى حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله ، وعمرت مساجدها ، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها ، من فضائل المجاهدين وبركتهم ، فبذلك دفع الله عنها الكافرين قال الله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

فإن قلت نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب ، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة ، وحكومة غير منظمة ، مع أنهم لا بد لهم بقتال من جاورهم من الأفرنج .

بل نرى المساجد التى تحت ولايتهم وسيطرتهم ، عامرة ، وأهلها آمنون

. . . .

مطمئنون ، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت هذه المعابد ، ونحن لا نشاهد دفعا .

أجيب ، بأن جواب هذا السؤال والاستشكال ، داخل فى عموم هذه الآية ، وفرد من أفرادها .

فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها ، وأنها تعتبر كل أمة وجنس ، تحت ولايتها ، وداخل فى حكمها ، تعتبره عضوا من أعضاء المملكة ، وجزءا من أجزاء الحكومة ، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بِعَدَدِها أو عُدَدِها ، أو مالها ، أو علمها ، أو خدمتها .

فتراعى الحكومات ، مصالح ذلك الشعب ، الدينية والدينوية ، وتخشى إن لم تفعل ذلك ، أن يختل نظامها ، وتفقد بعض أركانها ، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم ، خصوصا المساجد ، فإنها — ولله الحمد — فى غاية الانتظام ، حتى فى عواصم الدول الكبار .

وتراعى تلك الدول ، الحكومات المستقلة ، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى ، الذى أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة .

فتبقى الحكومة المسلمة ، التى لا تقدر على أن تدافع عن نفسها ، سالمة من كثير ضررهم ، لقيام الحسد عندهم ، وفيما بينهم .

فلا يقدر أحدهم ، أن يمد يده عليها ، خوفاً من احتمائها بالآخر مع أن الله تعالى ، لا بد أن يُرِىَ عباده من نصر الإسلام والمسلمين ، ما قد وعد به فى كتابه .

وقد ظهرت ولله الحمد ، أسبابه ، بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم ، والشعور مبدأ العمل فنحمده ، ونسأله أن يتم نعمته .

ولهذا قال فى وعده الصادق المطابق للواقع : [ولينصرن الله من ينصره] .

أى : يقوم بنصر دينه ، مخلصاً له فى ذلك ، يقاتل فى سبيله ، لتكون كلمة الله هى العليا .

[إن الله لقوى عزيز] أى : كامل القوة ، عزيز لا يرام ، قد قهر الخلائق ، وأخذ بنواصيهم .

فأبشروا ، يامعشر المسلمين ، فإنكم ، وإن ضعف عَددُكُمْ ، وعُدَدُكُمْ وقَوِىَ عدد عدوكم ، فإن ركنكم ، القوى العزيز ، ومعتمدكم على من خلقكم وخالق ما تعملون .

فاعملوا بالأسباب المأمور بها ، ثم اطلبوا منه نصركم ، فلا بد أن ينصركم .

« يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وقوموا ، أيها المسلمون ، بحق الإيمان والعمل الصالح فقد « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئا » .

ثم ذكر علامة من ينصره ، وبها يعرف ، أن من ادعى أنه ينصر الله ، وينصر دينه ، ولم يتصف بهذا الوصف ، فهو كاذب فقال :

[الذين إن مكناهم فى الأرض] أى ملكناهم إياها ، وجعلناهم المتسلطين

أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾

عليها ، من غير منازع ينازعهم ، ولا معارض .

[أقاموا الصلاة] فى أوقاتها ، وحدودها ، وأركانها ، وشروطها ، فى الجمعة والجماعات .

[وآتوا الزكاة] التى عليهم ، خصوصاً ، وعلى رعيتهم عموماً ، آتوها أهلها ، الذين هم أهلها .

[وأمروا بالمعروف] وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا ، من حقوق الله ، وحقوق الآدميين .

[ونهوا عن المنكر] كل منكر شرعا وعقلا ، معروف قبحه .

والأمر بالشىء والنهى عنه ، يدخل فيه ، ما لا يتم إلا به .

فإذا كان المعروف والمنكر ، يتوقف على تعلم وتعليم ، أجبروا الناس على التعلم والتعليم .

وإذا كان يتوقف ، على تأديب مقدر شرعا ، أو غير مقدر ، كأنواع التعزير ، قاموا بذلك .

وإذا كان يتوقف على جعل أناس ، متصدين له ، لزم ذلك ، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إلا به .

[ولله عاقبة الأمور] أى : جميع الأمور ، ترجع إلى الله ، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ

فمن سلطه أى : على العباد ، من الملوك ، وقام بأمر الله ، كانت له العاقبة الحميدة ، والحالة الرشيدة .

ومن تسلط عليهم ، بالجبروت ، وأقام فيهم هوى نفسه ، فإنه ، وإن حصل له ملك موقت ، فإن عاقبته غير حميدة ، فولايته مشئومة ، وعاقبته مذمومة .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب ، وليسوا بأول أمة ، كذبت رسولها .
[فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين] أى قوم شعيب .

[وكذب موسى فأمليت للكافرين] المكذبين ، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم ، حتى استمروا فى طغيانهم يعمهون ، وفى كفرهم وشرهم يزدادون .

[ثم أخذتهم] بالعذاب أخذ عزيز مقتدر [فكيف كان نكير] .
أى : إنكارى عليهم كفرهم ، وتكذيبهم كيف حاله ، كان أشد العقوبات ، وأفظع المثلات .

فنهم من أغرقه ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من أهلك بالريح العقيم .

نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا

ومنهم من خسف به الأرض ، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة .

فليعتبر بهم ، هؤلاء المكذبون ، أن يصيبهم ماأصابهم ، فإنهم ليسوا خيراً منهم ، ولا كتب لهم براءة فى الكتب المنزلة من الله .

وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير ، ولهذا قال :

[فكأين من قرية] أى : وكم[1] من قرية [أهلكناها] بالعذاب الشديد ، والخزى الدنيوى .

[وهى ظالمة] بكفرها بالله وتكذيبها لرسله ، لم يكن عقوبتنا لها ، ظلما منا .

[فهى خاويةعلىعروشها] أى : فديارهم متهدمة ، قصورها ،وجدرانها، قد سقطت على عروشها .

فأصبحت خراباً ، بعد أن كانت عامرة ، وموحشة بعد أن كانت آهلة بأهلها آنسة .

[وبئر معطلة وقصر مشيد] أى : وكم من بئر ، قد كان يزدحم عليها الخلق ، لشربهم ، وشرب مواشيهم .

ففقد أهلها ، وعدم منها الوارد والصادر .

---

(١) « كم » هنا ، خبرية بمعنى « كثير » والمعنى : كثير من القرى ، أهلكناها .

فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

وكم من قصر ، تعب عليه أهله ، فشيدوه ، ورفعوه ، وحصنوه ، وزخرفوه .

فحين جاءهم أمر الله ، لم يغن عنهم شيئا ، وأصبح خالياً من أهله ، قد صاروا عبرة لمن اعتبر ، ومثالا لمن فكر ونظر .

ولهذا دعا الله عباده إلى السير فى الأرض ، لينظروا ، ويعتبروا فقال :

[أفلم يسيروا فى الأرض] بأبدانهم وقلوبهم [فتكون لهم قلوب يعقلون بها] آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره .

[أو آذان يسمعون بها] أخبار الأمم الماضين ، وأنباء القرون المعذبين

وإلا فمجرد نظر العين ، وسماع الأذن ، وسير البدن الخالى من التفكر والاعتبار ، غير مفيد ، ولا موصل إلى المطلوب .

ولهذا قال : [فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور] .

أى : هذا العمى الضار فى الدين ، عمى القلب عن الحق ، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات ، وأما عمى البصر ، فغايته بلغة ، ومنفعة دنيوية .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ ﴾

* أي : يتعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب ، لجهلهم ، وظلمهم ، وعنادهم وتعجيزاً لله ، وتكذيبا لرسله ، ولن يخلف الله وعده .

فما وعدهم به من العذاب ، لابد من وقوعه ، ولا يمنعهم منه مانع .

وأما عجلته ، والمبادرة فيه ، فليس ذلك إليك يا محمد ، ولا يستفزنك عجلتهم وتعجيزهم إيانا .

فإن أمامهم ، يوم القيامة ، الذى يجمع فيه أولهم وآخرهم ، ويجازون بأعمالهم ، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم ، ولهذا قال : [وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون] من طوله ، وشدته ، وهوله .

فسواء أصابهم عذاب في الدنيا ، أم تأخر عنهم العذاب ، فإن هذا اليوم ، لا بد أن يدركهم .

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم ، ولو استعجلوا العذاب ، فإن يوماً عنده ، كألف سنة مما تعدون .

فالمدة ، وإن تطاولتموها ، واستبطأتم فيها نزول العذاب ، فإن الله يمهل المدد الطويلة ، ولا يهمل ، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه ، لم يفلتهم .

[وكأين من قرية أمليت لها] أى : أمهلتها مدة طويلة [وهى ظالمة] أى : مع ظلمهم ، فلم يكن مبادرتهم بالظلم ، موجبا لمبادرتنا بالعقوبة .

[ثم أخذتها] بالعذاب [وإلى المصير] أى : مع عذابها فى الدنيا ، سترجع إلى الله ، فيعذبها بذنوبها .

فَلْيَحْذَرْ هؤلاء الظالمون ، من حلول عقاب الله ، ولا يغتروا بالإمهال .

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾

---

* يأمر تعالى عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم أن يخاطب الناس جميعا ، بأنه رسول الله حقا ، مبشراً للمؤمنين بثواب الله ، منذرا للكافرين والظالمين ، من عقابه .

وقوله [مبين] أى : بين الإنذار ، وهو التخويف ، مع الإعلام بالخوف .

وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة ، على صدق ما أنذرهم به .

ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال :

[فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة] لما حصل منهم من الذنوب .

[ورزق كريم] هى الجنة . والكريم من كل نوع : ما يجمع فضائله ويحوز كمالاته .

وحاصل معنى الآية . فالذين آمنوا بالله ورسوله واستقر ذلك الإيمان بقلوبهم حتى أصبح إيمانا صادقاً وعملوا الأعمال الصالحة لهم مغفرة من الله لذنوبهم التى وقعوا فيها ، كما أن لهم رزقاً كريما فى الجنة ، جمع هذا الرزق جميع الفضائل والكمالات .

[والذين سعوا فى آياتنا معاجزين] أى : سابقين أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم للإسلام يتم لهم [أولئك] الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة [أصحاب الجحيم] أى : ملازمون للنار الموقدة

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ

المصاحبون لها فى كل أوقاتهم ، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يُفَتَّرُ عنهم لحظة من أليم عقابها .

وحاصل المعنى . والذين أجهدوا أنفسهم فى محاربة القرآن ، مسابقين المؤمنين فى زعمهم ، معارضين لهم ، شاقين ، زاعمين — خطأ — أنهم بذلك يبلغون ما يريدون ، أولئك يخلدون فى عذاب الجحيم .

* يخبر تعالى بحكمته البالغة ، واختياره لعباده ، وأن الله ما أرسل قبل محمد [من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى] أى : قرأ قراءته ، التى يذكر بها الناس ، ويأمرهم وينهاهم .

[ألقى الشيطان فى أمنيته] أى : فى قراءته ، من طرقه ، ومكايده ، ما هو مناقض لتلك القراءة .

مع أن الله تعالى ، قد عصم الرسل ، بما يبلغون عن الله ، وحفظ وحيه ، أن يشتبه ، أو يختلط بغيره .

ولكن هذا إلقاء من الشيطان ، غير مستقر ، ولا مستمر ، وإنما هو عارض ، يعرض ، ثم يزول ، وللعوارض أحكام ، ولهذا قال :

[فينسخ الله ما يلقى الشيطان] أى : يزيله ويذهبه ، ويبطله ، ويبين أنه ليس من آياته .

[ثم يحكم الله آياته] أى : يتقنها ، ويحررها ، ويحفظها ، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان .

فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

[والله عزيز] أى : كامل القوة والاقتدار .

فبكمال قوته ، يحفظ وحيه ، ويزيل ما تلقيه الشياطين .

[حكيم] يضع الأشياء مواضعها .

فمن كمال حكمته ، مكّن الشياطين من الإلقاء المذكور ، ليحصل ما ذكره بقوله :

[ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة] لطائفتين من الناس ، لا يبالى الله بهم .

[للذين فى قلوبهم مرض] أى : ضعف وعدم إيمان تام ، وتصديق جازم ، فيؤثر فى قلوبهم ، أدنى شبهة تطرأ عليها ، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان ، داخلهم الريب والشك ، فصار فتنة لهم .

[والقاسية قلوبهم] أى : الغليظة ، التى لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير ، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها .

فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان ، جعلوه حجة لهم على باطلهم ، وجادلوا به وشاقّوا الله ورسوله ، ولهذا قال :

[وإن الظالمين لفى شقاق بعيد] أى : مشاقة لله ، ومعاندة للحق ، ومخالفة له ، بعيد من الصواب .

فما يلقيه الشيطان ، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين ، فيظهر به ما فى قلوبهم ، من الخبث الكامن فيها .

وأما الطائفة الثالثة ، فإنه يكون رحمة فى حقها ، وهم المذكورون بقوله :

* [وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك] وأن الله منحهم من

فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

العلم ، ما به يعرفون الحق من الباطل ، والرشد من الغى .

فيفرقون بين الأمرين، الحق المستقر ، الذى يحكمه الله ، والباطل العارض الذى ينسخه الله ، بما على كل منهما من الشواهد ، وليعلموا أن الله حكيم ، يقيض بعض أنواع الابتلاء ، ليظهر بذلك كأمن النفوس الخيرة والشريرة .

[فيؤمنوا به] بسبب ذلك ، ويزداد إيمانهم ، عند دفع المعارض والشبهة .

[فتخبت له قلوبهم] أى : تخشع وتخضع ، وتسلم لحكمته ، وهذا من هدايته إياهم .

[وإن الله لهادى الذين آمنوا] بسبب إيمانهم [إلى صراط مستقيم] علم بالحق ، وعمل بمقتضاه ، فيثبت الله الذين آمنوا ، بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وهذا النوع ، من تثبيت الله لعبده .

وهذه الآيات ، فيها بيان أن للرسول صلى الله عليه وسلم ، أسوة بإخوانه المرسلين ، لما وقع منه[1] عند قراءته صلى الله عليه وسلم « والنجم » فلما بلغ

---

(١) قوله « لما وقع منه الخ » أقول إن حديث الغرانيق موضوع باطل قد بين بطلانه سنداً ومتنا ، محدث هذا العصر « الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى » فى رسالة خاصة بهذا الحديث أسماها « نصب المجانيق فى نسف حديث الغرانيق » ومن قبله أيضاً « الشيخ محمد عبده » والمقام هنا لا يتسع لبسط الكلام ، ومن أراد الوقوف على الحقيقة فليرجع إلى رسالة «الألبانى» فإنه لم يدع قولا لقائل .

﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ

« أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى » ألقى الشيطان فى قراءته « تلك الغرانيق العلى * وإن شفاعتهن لترتجى » فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة ، كما ذكر الله ، فأنزل الله هذه الآيات .

* يخبر تعالى عن حالة الكفار ، وأنهم لا يزالون فى شك ، مما جئتهم به ، يا محمد ، لعنادهم ، وإعراضهم ، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال [حتى تأتيهم الساعة بغتة] أى : مفاجأة [أو يأتيهم عذاب يوم عقيم] أي : لا خير فيه ، وهو يوم القيامة .

فإذا جاءتهم الساعة ، أو أتاهم ذلك اليوم ، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ، وندموا ، حيث لا ينفعهم الندم ، وأبلسوا ، وأيسوا من كل خير ، وودوا ، لو آمنوا بالرسول ، واتخذوا معه سبيلا .

ففى هذا ، تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم .

[الملك يومئذ] أى : يوم القيامة [لله] تعالى ، لا لغيره .

[يحكم بينهم] بحكمه العدل ، وقضائه الفصل .

[فالذين آمنوا] بالله ورسوله ، وما جاءوا به [وعملوا الصالحات] ليصدقوا بذلك إيمانهم [فى جنات النعيم] نعيم القلب ، والروح ، والبدن ، مما لا يصفه الواصفون ، ولا تدركه العقول .

ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾

[والذين كفروا] بالله ورسله [وكذبوا بآياتنا] الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها.

[فأولئك لهم عذاب مهين] لهم، من شدته، وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

* هذه بشارة كبرى، لمن هاجر فى سبيل الله.

فخرج من داره، ووطنه، وأولاده، وماله ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله.

فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً فى سبيل الله.

[ليرزقنهم الله رزقاً حسناً] فى البرزخ، وفى يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة، للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن.

أو يحتمل أن المراد: أن المهاجر فى سبيل الله، قد تكفل الله برزقه في الدنيا، رزقاً واسعا حسنا، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيداً، فكلهم مضمون له الرزق.

لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

فلا يتوهم أنه إذاخرج من دياره وأمواله ، سيفتقر ويحتاج ، فإن رازقه هو خير الرازقين .

وقد وقع كما أخبر ، فإن المهاجرين السابقين ، تركوا ديارهم ، وأبناءهم وأموالهم ، نصرة لدين الله .

فلم يلبثوا إلا يسيراً ، حتى فتح الله عليهم البلاد ، ومكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها ، ما كانوا به من أغنى الناس .

ويكون على هذا القول ، قوله : [ليدخلنهم مدخلا يرضونه] .

إما ما يفتح الله عليهم من البلدان ، خصوصا فتح مكة المشرفة ، فإنهم دخلوها فى حالة الرضا والسرور .

وإما المراد به ، رزق الآخرة ، وأن ذلك ، دخول الجنة .

فتكون الآية جمعت بين الرزقين ، رزق الدنيا ، ورزق الآخرة ، واللفظ صالح لذلك كله ، والمعنى صحيح ، فلا مانع من إرادة الجميع .

[وإن الله لعليم] بالأمور ، ظاهرها ، وباطنها ، متقدمها ، ومتأخرها .

[حليم] يعصيه الخلائق ، ويبارزونه بالعظائم ، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره ، بل يواصل لهم رزقه ، ويسدى إليهم ، فضله .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

* ذلك بأن من جُنِيَ عليه وظُلِمَ ، فإنه يجوز له مقابلة الجانى، بمثل جنايته.

فإن فعل ذلك ، فليس عليه سبيل ، وليس بملوم .

فإن بُغِيَ عليه بعد هذا ، فإن الله ينصره ، لأنه مظلوم .

فلا يجوز أن يُبْغَى عليه ، بسبب أنه استوفى حقه .

وإذا كان المجازى غيره ، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك ، نصره الله .

فالذي بالأصل لم يعاقب أحدا إذا ظلم ، وجنى عليه، فالنصر إليه أقرب .

[إن الله لعفو غفور] أى : يعفو عن المذنبين ، فلا يعاجلهم بالعقوبة ، ويغفر ذنوبهم ، فيزيلها ، ويزيل آثارها عنهم .

فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتى ، ومعاملته لعباده فى جميع الأوقات بالعفو ، والمغفرة .

فينبغى لكم أيها المظلومون المجنى عليهم ، أن تعفوا ، وتصفحوا ، وتغفروا ليعاملكم الله ، كما تعاملون عباده « فمن عفا وأصلح فأجره على الله » .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

* ذلك الذى شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة ، هو حسن التصرف ، فى تقديره ، وتدبيره ، الذى [يولج الليل فى النهار] أى : يدخل هذا على هذا ، وهذا على هذا .

فيأتى بالليل بعد النهار ، وبالنهار بعد الليل ، ويزيد فى أحدهما ، ما ينقصه من الآخر ، ثم بالعكس .

فيترتب على ذلك ، قيام الفصول ، ومصالح الليل والنهار ، والشمس والقمر ، التى هى من أجل نعمه على العباد ، وهى من الضروريات لهم .

[وإن الله سميع] يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

[بصير] يرى دبيب النملة السوداء ، تحت الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء « سواء منكم من أسر القول ، ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار » .

* [ذلك] صاحب الحكم والأحكام ، [بأن الله هو الحق] أى : الثابت ، الذى لا يزال ولا يزول ، الأول ، الذى ليس قبله شىء ، الآخر ، الذى ليس بعده شىء ، كامل الأسماء والصفات ، صادق الوعد ، الذى وعده حق ولقاؤه حق ، ودينه حق ، وعبادته هى الحق النافعة الباقية على الدوام .

ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

[وأن ما يدعون من دونه] من الأصنام والأنداد ، من الحيوانات والجمادات .

[هو الباطل] الذى ، هو باطل فى نفسه ، وعبادته باطلة ، لأنها متعلقة بمضمحل فانٍ ، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها .

[وإن الله هو العلى الكبير] العلى فى ذاته ، فهو عال على جميع المخلوقات وفى قدره ، فهو كامل الصفات ، وفى قهره لجميع المخلوقات ، الكبير فى ذاته، وفى أسمائه ، وفى صفاته ، الذى من عظمته وكبريائه ، أن الأرض قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه .

ومن كبريائه ، أن كرسيه ، وسع السموات والأرض .

ومن عظمته وكبريائه ، أن نواصى العباد بيده .

فلا يتصرفون إلا بمشيئته ، ولا يتحركون ويسكنون ، إلا بإرادته .

وحقيقة الكبرياء ، التى لا يعلمها إلا هو ، لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، أنها كل صفة كمال وجلال ، وكبرياء ، وعظمة ، فهى ثابتة له ، وله من تلك الصفة ، أجلها وأكملها .

ومن كبريائه ، أن العبادات كلها ، الصادرة من أهل السموات والأرض ، كلها المقصود منها ، تكبيره وتعظيمه ، وإجلاله وإكرامه .

ولهذا كان التكبير ، شعاراً للعبادات الكبار ، كالصلاة وغيرها .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ

---

* هذا ، حث منه تعالى ، وترغيب فى النظر بآياته الدالة على وحدانيته ، وكماله ، فقال :

[ألم تر] أى : ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك [أن الله أنزل من السماء ماء] وهو : المطر ، فينزل على أرض خاشعة مجدبة ، قد اغبرت أرجاؤها ، ويبس ما فيها ، من شجر ، ونبات .

[فتصبح الأرض مخضرة] قد اكتست من كل زوج كريم ، وصار لها بذلك ، منظر بهيج .

إن الذى أحياها بعد موتها وهمودها ، لمحي الموتى بعد أن كانوا رميما .

[إن الله لطيف خبير] اللطيف الذى يدرك بواطن الأشياء ، وخفياتها ، وسرائرها .

الذى يسوق إلى عباده الخير ، ويدفع عنهم الشر ، بطرق لطيفة تخفى على العباد .

ومن لطفه ، أنه يرى عبده ، عزته فى انتقامه وكمال اقتداره ، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك .

ومن لطفه ، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض ، وبذور الأرض فى بواطنها .

فيسوق ذلك الماء ، إلى ذلك البذر ، الذى خفى على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات .

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾

[خبير] بسرائر الأمور ، وخبايا الصدور ، وخفايا الأمور .

[له ما فى السموات والأرض] خلقا وعبيداً ، يتصرف فيهم بملكه وحكمته ، وكمال اقتداره ، ليس لأحد غيره من الأمر شيء .

[وإن الله لهو الغنى] بذاته الذى له الغنى المطلق التام ، من جميع الوجوه .

ومن غناه ، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، ولا يواليهم من ذلة ، ولا يتكثر بهم من قلة .

ومن غناه ، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدا .

ومن غناه ، أنه صمد ، لا يأكل ولا يشرب ، ولا يحتاج إلى مايحتاج إليه الخلق ، بوجه من الوجوه ، فهو يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ .

ومن غناه ، أن الخلق كلهم ، مفتقرون إليه ، فى إيجادهم ، وإعدادهم وإمدادهم ، وفى دينهم ودنياهم .

ومن غناه ، أنه لو اجتمع من فى السموات ومن فى الأرض ، الأحياء منهم والأموات ، فى صعيد واحد ، فسأل كل منهم مابلغت أمنيته ، فأعطاهم فوق أمانيهم ، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً .

ومن غناه أن يده سحّاء بالخير والبركات ، الليل والنهار ، لم يزل إفضاله على الأنفاس .

ومن غناه وكرمه ، ما أودعه فى دار كرامته ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[الحميد] أى : المحمود فى ذاته ، وفى أسمائه ، لكونها حسنى .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا

وفى صفاته ، لكونها كلها صفات كمال .

وفى أفعاله ، لكونها دائرة بين العدل والإحسان ، والرحمة ، والحكمة

وفى شرعه ، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة ، أو راجحة ، ولا ينهى إلا عما فيه ، مفسدة خالصة أو راجحة ، الذى له الحمد ، الذى يملأ ما فى السموات والأرض ، وما بينهما ، وما شاء بعدهما ، الذى لا يحصى العباد ثناء على حمده ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه ، وخذلان من يخذله ، وهو الغنى فى حمده ، الحميد فى غناه .

* أى: ألم تشاهد ببصرك وقلبك ، نعمة ربك السابغة ، وأياديه الواسعة .

[أن الله سخر لكم ما فى الأرض] من حيوانات ، ونبات، وجمادات.

فجميع ما فى الأرض ، مسخر لبنى آدم ، حيواناتها ، لركوبه ، وحمله ، وأعماله ، وأكله ، وأنواع انتفاعه ، وأشجارها ، وثمارها ، يقتاتها .

وقد سلط على غرسها واستغلالها ، ومعادنها ، يستخرجها ، وينتفع بها .

[والفلك] أى: وسخر لكم الفلك ، وهى السفن [تجرى فى البحر بأمره] تحملكم ، وتحمل تجاراتكم ، وتوصلكم من محل إلى محل .

وتستخرجون من البحر ، حلية تلبسونها .

ومن رحمته بكم أنه [يمسك السماء أن تقع على الأرض] فلولا رحمته وقدرته ، لسقطت السماء على الأرض ، فتلف ما عليها ، وهلك من فيها

بِإِذْنِهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إن الله كان حليما غفوراً » .

[إن الله بالناس لرؤف رحيم] أرحم بهم من والديهم ، ومن أنفسهم . ولهذا يريد لهم الخير ، ويريدون لها الشر والضر .

ومن رحمته ، أن سخر لهم ، ما سخر من هذه الأشياء .

[وهو الذى أحياكم] وأوجدكم من العدم [ثم يميتكم] بعد أن أحياكم .

[ثم يحييكم] بعد موتكم ، ليجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته.

[إن الإنسان] أى : جنسه ، إلا من عصمه الله [لكفور] لنعم الله ، كفور بالله ، لا يعترف بإحسانه ، بل ربما كفر بالبعث وقدرة ربه .

* يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة [منسكا] أى : معبدا وعبادة ، قد تختلف فى بعض الأمور ، مع اتفاقها على العدل والحكمة ، كما قال تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » الآية .

[هم ناسكوه] أى : عاملون عليه ، بحسب أحوالهم ، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع ، خصوصا من الأميين ، أهل الشرك ، والجهل المبين .

فِي ٱلْأَمْرِ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾

فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها ، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم ، وترك الاعتراض ، ولهذا قال :

[فلا ينازعنك فى الأمر] أى : لا ينازعك المكذبون لك ، ويعترضوا على بعض ما جئتهم به ، بعقولهم الفاسدة ، مثل منازعتهم فى حل الميتة ، بقياسهم الفاسد يقولون « تأكلون ما قتلتم ، ولا تأكلون ما قتل الله » .

وكقولهم « إنما البيع مثل الربا » ونحو ذلك من اعتراضاتهم ، التى لا يلزم الجواب عن أعيانها ، وهم منكرون لأصل الرسالة ، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها ، بل لكل مقام مقال .

فصاحب هذا الاعتراض ، المنكر لرسالة الرسول ، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد ، يقال له : الكلام معك فى إثبات الرسالة وعدمها ، وإلا ، فالاقتصار على هذه ، دليل على أن مقصوده ، العنت والتعجيز .

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويمضى على ذلك .

سواء اعترض المعترضون أم لا .

وأنه لا ينبغى أن يثنيك عن الدعوة شىء لأنك [على هدى مستقيم] أى : معتدل موصل للمقصود ، متضمن علم الحق والعمل به .

فأنت على ثقة من أمرك ، ويقين من دينك ، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضى لما أمرك به ربك .

ولست على أمر مشكوك فيه ، أو حديث مفترى ، فتقف مع الناس ، ومع أهوائهم ، وآرائهم ، ويوقفك اعتراضهم .

وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ

ونظير هذا قوله تعالى : « فتوكل على الله إنك على الحق المبين » .

مع أن فى قوله [إنك لعلى هدى مستقيم] إرشاداً لأجوبة المعترضين ، على جزئيات الشرع ، بالعقل الصحيح ، فإن الهدى ، وصف لكل ما جاء به الرسول .

والهدى : ما تحصل به الهداية ، فى مسائل الأصول والفروع ، وهى المسائل التى يعرف حسنها ، وعدلها ، وحكمتها ، بالعقل ، والفطرة السليمة ، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات .

ولهذه أمره الله بالعدول عن جدالهم فى هذه الحالة فقال : [وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون] أى : هو عالم بمقاصدكم ، ونياتكم ، فمجازيكم عليها وهو [يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون] .

فمن وافق الصراط المستقيم ، فهو من أهل النعيم ، ومن زاغ عنه ، فهو من أهل الجحيم .

ومن تمام حكمه ، أن يكون حكما بعلم ، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال :

[ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض] لا يخفى عليه منها خافية ، من ظواهر الأمور ، وبواطنها ، خفيها ، وجليها ، متقدمها ، ومتأخرها .

ذلك العلم المحيط بما فى السماء والأرض قد أثبته الله فى كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ، حين خلق الله القلم قال له « اكتب » قال : ما أكتب ؟

يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا

قال : « اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة » .

[إن ذلك على الله يسير] وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به ، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علما بجميع الأشياء ، وأن يكتب ذلك فى كتاب مطابق للواقع .

* يذكر تعالى حالة المشركين به ، العادلين به غيره ، وأن حالهم أقبح الحالات .

وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه ، فليس لهم به علم ، وإنما هو تقليد ، تلقوه عن آبائهم الضالين .

وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله ، وهو — فى نفس الأمر — له حجة ما علمها .

فأخبر هنا ، أن الله لم ينزل فى ذلك سلطاناً ، أى : حجة تدل عليه ، ويجوزه ، بل قد أنزل البراهين القاطعة ، على فساده ، وبطلانه .

ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال : [وما للظالمين من نصير] ينصرهم من عذاب الله ، إذا نزل بهم وحل .

وهل لهؤلاء ، الذين لا علم لهم بما هم عليه ، قَصْدٌ فى اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم ؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل ؟

وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾

ذكر ذلك بقوله : [وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات] التى هى آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل ، لم يلتفتوا إليها ، ولم يرفعوا بها رأساً .

بل [تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر] من بغضها وكراهتها ، ترى وجوههم مُعَبَّسة ، وأبشارهم مكفهرة .

[يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا] أى : يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ ، من شدة بغضهم ، وبغض الحق وعداوته .

فهذه الحالة من الكفار بئست الحالة ، وشرها بئس الشر .

ولكن ثَمَّ ما هو شر منها ، حالتهم التى يئولون إليها ، فلهذا قال : [قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ،النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير] فهذه شرها طويل عريض ، ومكروهها وآلامها ، تزداد على الدوام .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

---

* هذا مثل ضربه الله ، لقبح عبادة الأوثان ، وبيان نقصان عقول من عبدها ، وضعف الجميع فقال :

[ياأيها الناس] هذا خطاب للمؤمنين والـكفار ، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة ، والـكافرون ، تقوم عليهم الحجة .

[ضرب مثل فاستمعوا له] أى : ألقوا إليه أسماعكم ، وافهموا ما احتوى عليه ، ولا يصادف منكم قلوبا لاهية ، وأسماعا معرضة ، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع ، وهو هذا .

[إن الذين تدعون من دون الله] شمل ما يُدْعَى من دون الله .

[لن يخلقوا ذبابا] الذى هو من أحقر المخلوقات وأخسها .

فليس فى قدرتهم ، خلق هذا المخلوق الضعيف ، فما فوقه من باب أولى .

[ولو اجتمعوا له] بل أبلغ من ذلك [وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه] وهذا غاية ما يصير من العجز .

[ضعف الطالب] الذى هو المعبود من دون الله [والمطلوب] الذى هو الذباب ، فـكل منهما ضعيف .

وأضعف منهما ، من يتعلقون بهذا الضعيف ، وينزلونه منزلة رب العالمين .

مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

فهؤلاء [ما قدروا الله حق قدره] حيث سووا الفقير العاجز من جميع الوجوه ، بالغنى القوى من جميع الوجوه .

سووا من لا يملك لنفسه ، ولا لغيره نفعاً ولا ضراً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، بمن هو النافع الضار ، المعطى المانع ، مالك الملك ، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف .

[إن الله لقوى عزيز] أى : كامل القوة ، كامل العزة .

ومن كمال قوته وعزته ، أن نواصى الخلق بيديه ، وأنه لا يتحرك متحرك ، ولا يسكن ساكن ، إلا بإرادته ومشيئته ، فما شاء الله كان ، ومالم لم يشأ لم يكن .

ومن كمال قوته ، أن يمسك السموات والأرض أن تزولا .

ومن كمال قوته ، أنه يبعث الخلق كلهم ، أولهم وآخرهم ، بصيحة واحدة .

ومن كمال قوته ، أنه أهلك الجبابرة ، والأمم العاتية ، بشىء يسير ، وسوط من عذابه .

﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ ﴾

---

* لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام ، وأنه المعبود حقاً ، بين حالة الرسل ، وتميزهم عن الخلق ، بما تميزوا به ، من الفضائل فقال :

[الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس] أى : يختار ويجتبى من الملائكة رسلا ، ومن الناس رسلا ، يكونون أزكى ذلك النوع ، وأجمعه لصفات المجد ، وأحقه بالاصطفاء .

فالرسل ، لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق .

والذى اختارهم ، واجتباهم ، ليس جاهلا بحقائق الأشياء ، أو يعلم شيئاً دون شيء وأن المُصْطَفِي لهم ، السميع ، البصير ، الذى قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء .

فاختياره إياهم ، عن علم منه ، أنهم أهل لذلك ، وأن الوحى يصلح فيهم كما قال تعالى :

« الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

[وإلى الله ترجع الأمور] أى : هو يرسل الرسل ، يدعون الناس إلى الله .

فمنهم المجيب ، ومنهم الراد لدعوتهم ، ومنهم العامل ، ومنهم الناكل فهذا وظيفة الرسل .

وأما الجزاء على تلك الأعمال ، فمصيرها إلى الله ، فلا تعدم منه ، فضلا وعدلا .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ

---

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين بالصلاة ، وخص منها الركوع والسجود ، لفضلهما وركنيتهما ، وعبادته التى هى قرة العيون ، وسلوة القلب المحزون ، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد ، يقتضى منهم أن يخلصوا له العبادة ، ويأمرهم بفعل الخير عموما .

وعلق تعالى ، الفلاح على هذه الأمور فقال : [لعلكم تفلحون] .
أى : تفوزون بالمطلوب المرغوب ، وتنجون من المكروه المرهوب .

فلا طريق للفلاح ، سوى الإخلاص فى عبادة الخالق ، والسعى فى نفع عبيده .

فمن وفق لذلك ، فله القدح المُعَلَّى ، من السعادة ، والنجاح والفلاح .

[وجاهدوا فى الله حق جهاده] والجهاد بذل الوسع،فى حصول الغرض المطلوب .

فالجهاد فى الله حق جهاده ، هو القيام التام بأمر الله ، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك ، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ، ووعظ ، وغير ذلك .

[هو اجتباكم] أى : اختاركم — يامعشر المسلمين — من بين الناس، واختار لكم الدين ، ورضيه لكم ، واختار لكم أفضل الكتب ، وأفضل الرسل .

فقابلوا هذه المنحة العظيمة ، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام .

ولما كان قوله : [وجاهدوا فى الله حق جهاده] ربما توهم متوهم أن هذا ، من باب تكليف ما لا يطاق ، أو تكليف ما يشق ، احترز منه بقوله:

[وما جعل عليكم فى الدين من حرج] أى : مشقة وعسر ، بل يسره غاية التيسير ، وسهله بغاية السهولة .

فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس ، لا يثقلها ، ولا يؤودها .

ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف ، خفف ما أمر به .

إما بإسقاطه ، أو إسقاط بعضه .

ويؤخذ من هذه الآية ، قاعدة شرعية وهى أن «المشقة تجلب التيسير » و« الضرورات تبيح المحظورات » .

فيدخل فى ذلك من الأحكام الفروعية ، شىء كثير معروف فى كتب الأحكام .

[ملة أبيكم إبراهيم] أى : هذه الملة المذكورة ، والأوامر المزبورة ، ملة أبيكم إبراهيم ، التى مازال عليها ، فالزموها واستمسكوا بها .

[هو سماكم المسلمين من قبل] أى : فى الكتب السابقة ، أنتم مذكورون ومشهورون [أى : بأن إبراهيم سمّاكم : مسلمين] .

[وفى هذا] أى : هذا الكتاب ، وهذا الشرع أى : ما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثاً .

ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

[ليكون الرسول شهيدا عليكم] بأعمالكم خيرها وشرها [وتكونوا شهداء على الناس] لكونكم خير أمة أخرجت للناس ، أمة وسطا عدلا خيارا .

تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم ، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به فى كتابه .

[فأقيموا الصلاة] بأركانها وشروطها ، وحدودها ، وجميع لوازمها .

[وآتوا الزكاة] المفروضة لمستحقيها شكراً لله ، على ما أولاكم .

[واعتصموا بالله] أى: امتنعوا به وتوكلوا عليه فى ذلك ، ولا تتكلوا على حولكم وقوتكم .

[هو مولاكم] الذى يتولى أموركم ، فيدبركم بحسن تدبيره ، ويصرفكم على أحسن تقديره .

[فنعم المولى ونعم النصير] أى : نعم المولى لمن تولاه ، فحصل له مطلوبه (ونعم النصير) لمن استنصره فدفع عنه المكروه .

تم تفسير سورة الحج ، والحمد لله رب العالمين

سورة المؤمنون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ

---

* هذا تنويه من الله ، بذكر عباده المؤمنين ، وذكر فلاحهم وسعادتهم ، وبأى شىء وصلوا إلى ذلك .

وفى ضمن ذلك ، الحث على الاتصاف بصفاتهم ، والترغيب فيها .

فَلْيَزِنِ العبد نفسه وغيره ، على هذه الآيات ، يعرف بذلك ، ما معه ، وما مع غيره من الإيمان ، زيادة ونقصاً ، كثرة وقلة .

فقوله [قد أفلح المؤمنون] أى : قد فازوا وسعدوا ونجحوا ، وأدركوا كل ما يروم المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم [فى صلاتهم خاشعون] .

والخشوع فى الصلاة هو : حضور القلب بين يدى الله تعالى ، مستحضرا لقربه .

فيسكن لذلك قلبه ، وتطمئن نفسه ، وتسكن حركاته ويقل التفاته ، متأدبا

لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ

بين يدى ربه ، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله فى صلاته ، من أول صلاته إلى آخرها ، فتنتفى بذلك ، الوساوس والأفكار الردية .

وهذا روح الصلاة ، والمقصود منها ، وهو الذى يكتب للعبد .

فالصلاة التى لا خشوع فيها ولا حضور قلب ، وإن كانت مجزية مثابا عليها ، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها .

[والذين هم عن اللغو] وهو الكلام الذى لا خير فيه ، ولا فائدة .

[معرضون] رغبة عنه ، وتنزيها لأنفسهم ، وترفعاً عنه .

وإذا مروا باللغو ، مروا كراما ، وإذا كانوا معرضين عن اللغو ، فإعراضهم عن المحرم ، من باب أولى ، وأحرى .

وإذا ملك العبد لسانه وخزنه -- إلا فى الخير -- كان مالكا لأمره ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال :

« ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت: بلى يارسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال : كُفَّ عليك هذا » .

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة ، كَفُّ ألسنتهم عن اللغو والمحرمات .

[والذين هم للزكاة فاعلون] أى : مؤدون لزكاة أموالهم ، على اختلاف أجناس الأموال ، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوىء الأعمال التى تزكو النفوس بتركها وتَجَنُّبِهَا .

فأحسنوا فى عبادة الخالق ، فى الخشوع فى الصلاة ، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة .

[والذين هم لفروجهم حافظون] عن الزنا ، ومن تمام حفظها تَجَنُّبُ

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ

ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوها .

فحفظوا فروجهم عن كل أحد [إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم] من الإماء المملوكات [فإنهم غير ملومين] بقربهما ، لأن الله تعالى أحلهما .

[فمن ابتغى وراء ذلك] غير الزوجة والسرية [فأولئك هم العادون] الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه ، المتجرئون على محارم الله .

وعموم هذه الآية ، يدل على تحريم المتعة ، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودا بقاؤها ، ولا مملوكة ، وتحريم نكاح المحلل لذلك .

ويدل قوله [أو ما ملكت أيمانهم] أنه يشترط فى حل المملوكة ، أن تكون كلها فى ملكه ، فلو كان له بعضها لم تحل ، لأنها ليست مما ملكت يمينه ، بل هى ملك له ولغيره .

فكما أنه لا يجوز أن يشترك فى المرأة الحرة زوجان ، فلا يجوز أن يشترك[1] فى الأمة المملوكة سيدان .

[والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون] .

---

(١) قوله « فلا يجوز أن يشترك فى الأمة سيدان » يريد أنه لا يجوز أن يشترك فى التمتع بوطء الأمة سيدان ، وأما الاشتراك فى الملكية المجردة عن الوطء ، فلا مانع منه .

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

أى : مراعون لها ، ضابطون ، حافظون ، حريصون على القيام بها وتنفيذها .

وهذا عام فى جميع الأمانات ، التى هى حق لله ، والتى هى حق للعباد .

قال تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان »

فجميع ما أوجبه الله على عبده ، أمانة ، على العبد حفظها بالقيام التام بها .

وكذلك يدخل فى ذلك ، أمانات الآدميين ، كأمانات الأموال ، والأسرار ، ونحوهما .

فعلى العبد ، مراعاة الأمرين ، وأداء الأمانتين « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » .

وكذلك العهد ، يشمل العهد الذى بينهم وبين العباد ، وهى الالتزامات والعقود ، التى يعقدها العبد ، فعليه مراعاتها والوفاء بها ، ويحرم عليه ، التفريط فيها ، وإهمالها .

[والذين هم على صلواتهم يحافظون] أى : يداومون عليها فى أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها .

فمدحهم بالخشوع فى الصلاة ، وبالمحافظة عليها ، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين :

فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع ، أو على الخشوع من دون محافظة عليها ، فإنه مذموم ناقص .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

[أولئك] الموصوفون بتلك الصفات [هم الوارثون الذين يرثون الفردوس] الذى هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها ، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها .

أو المراد بذلك ، جميع الجنة ، ليدخل بذلك،عموم المؤمنين،على درجاتهم فى مراتبهم ، كل بحسب حاله .

[هم فيها خالدون] لا يظعنون عنها ، ولا يبغون عنها حولاً ، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله ، وأتمه ، من غير مكدر ولا منغص .

* ذكر الله فى هذه الآيات أطوار الآدمى وتنقلاته ، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه .

فذكر ابتداء خلق أبى النوع البشرى آدم عليه السلام ، وأنه [من سلالة من طين] أى : قد سلت ، وأخذت من جميع الأرض .

ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض : مهم الطيب والخبيث،وبين ذلك . والسهل ، والْحَزْنُ ، وبين ذلك .

[ثم جعلناه] أى : جنس الآدميين [نطفة] تخرج من بين الصلب والترائب ، فتستقر [فى قرار مكين] وهو : الرحم محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك .

ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ

[ثم خلقنا النطفة] التى قد استقرت قَبْلُ [علقة] أى : دما أحمر ، بعد مضى أربعين يوما من النطفة .

[ثم خلقنا العلقة] بعد أربعين يوما [مضغة] أى : قطعة لحم صغيرة ، بقدر ما يمضغ من صغرها .

[فخلقنا المضغة] اللينة [عظاما] صلبة ، قد تخللت اللحم ، بحسب حاجة البدن إليها .

[فكسونا العظام لحما] أى : جعلنا اللحم ، كسوة للعظام ، كما جعلنا العظام ، عمادا للحم ، وذلك فى الأربعين الثالثة .

[ثم أنشأناه خلقاً آخر] نفخ فيه الروح ، فانتقل من كونه جماداً ، إلى أن صار حيواناً .

[فتبارك الله] أى : تعالى ، وتعاظم ، وكثر خيره [أحسن الخالقين] الذى [أحسن كل شىء خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين وجعل نَسْله من سلالة من ماء مهين .

ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون] فَخَلْقُهُ كله حَسَنٌ ، والإنسان من أحسن مخلوقاته ، بل هو أحسنها على الإطلاق كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » ولهذا كان خواصه ، أفضل المخلوقات وأكملها .

[ثم إنكم بعد ذلك] الخلق ، ونفخ الروح [لميتون] فى أحد أطواركم وتنقلاتكم .

لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ

[ثم إنكم يوم القيامة تبعثون] فتجازون بأعمالكم ، حسنها وسيئها .

قال تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من منى يمنى * ثم كان علقة نخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » .

* لما ذكر تعالى خلق الآدمى ، ذكر مسكنه ، وتوفُّر النعم عليه ، من كل وجه فقال :

[ولقد خلقنا فوقكم] سقفاً للبلاد ، ومصلحة للعباد [سبع طرائق] أى : سبع سموات طباقا ، كل طبقة فوق الأخرى ، قد زينت بالنجوم ، والشمس ، والقمر ، وأودع فيها من مصالح الخلق ، ما أودع .

[وما كنا عن الخلق غافلين] فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق ، فعلمنا أيضا ، محيط بما خلقنا ، فلا نغفل مخلوقا ، ولا ننساه ، ولا نخلق خلقا فنضيعه ، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض ، ولا ننسى ذرة فى لجج البحار ، وجوانب الفلوات ، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقاً « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » .

وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير * بلى وهو الخلاق العليم » لأن خلق المخلوقات ، من أقوى الأدلة العقلية ، على علم خالقها وحكمته .

[وأنزلنا من السماء ماء] يكون رزقا لكم ولأنعامكم ، بقدر ما يكفيكم .

فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ

فلا ينقصه ، بحيث يتلف المساكن ، ولا تعيش منه النباتات والأشجار.

بل أنزله وقت الحاجة لنزوله ، ثم صرفه ، عند التضرر من دوامه .

[فأسكناه فى الأرض] أى : أنزلناه عليها ، فسكن واستقر ، وأخرج بقدرة منزله ، جميع الأزواج النباتية ، وأسكنه أيضاً معداً ، فى خزائن الأرض ، بحيث لم يذهب نازلا ، حتى لا يوصل إليه ، ولا يبلغ قعره .

[وإنا على ذهاب به لقادرون] إما بأن لا ننزله ، أو ننزله ، فيذهب نازلا ، لا يوصل إليه ، أو لا يوجد منه المقصود منه .

وهذا تنبيه منه لعباده ، أن يشكروه على نعمته ، ويقدروا عدمها ،ماذا يحصل به من الضرر ، كقوله تعالى : « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين » [فأنشأنا لكم به] أى : بذلك الماء [جنات] أى : بساتين [من نخيل وأعناب] .

خص تعالى ، هذين النوعين ، مع أنه ينشر منه غيرها من الأشجار ، لفضلهما ، ومنافعهما ، التى فاقت بها الأشجار ، ولهذا ذكر العام فى قوله :

[لكم] أى : فى تلك الجنات [فواكه كثيرة ومنها تأكلون] من تين ، وأترج ، ورمان ، وتفاح وغيرها .

[وشجرة تخرج من طور سيناء] وهى شجرة الزيتون ، أى : جنسها .

وَصِبْغٍ لِّلْأَكِلِينَ ﴿٢٠﴾

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

خصت بالذكر ، لأن مكانها خاص ، فى أرض الشام ، ولمنافعها ، التى ذكر بعضها فى قوله :

[تنبت بالدهن وصبغ للآكلين] أى : فيها الزيت ، الذى هو دهن ، يكثر استعماله من الاستصباح به ، واصطباغ للآكلين ، أى : يجعل إداما للآكلين ، وغير ذلك من المنافع .

* أى : ومن نعمه عليكم ، أن سخر لكم الأنعام من الإبل ، والبقر ، والغنم ، فيها عبرة للمعتبرين ، ومنافع للمنتفعين .

[نسقيكم مما فى بطونها] من لبن ، يخرج من بين فرث ودم ، لبن ، خالص ، سائغ للشاربين .

[ولكم فيها منافع كثيرة] من أصوافها ، وأوبارها ، وأشعارها ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ، تستخفونها يوم ظعنكم، ويوم إقامتكم

[ومنها تأكلون] أفضل المآكل من لحم وشحم .

[وعليها وعلى الفلك تحملون] أى : جعلها لكم فى البر ، تحملون عليها أثقالكم إلى بلد ، لم تكونوا بالغيه ، إلا بشق الأنفس .

كما جعل لكم السفن فى البحر ، تحملكم ، وتحمل متاعكم ، قليلا كان ، أو كثيرا .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ

فالذى أنعم بهذه النعم ، وصنف أنواع الإحسان ، وأدر علينا من خيره المدرار ، هو الذى يستحق كمال الشكر ، وكمال الثناء ، والاجتهاد فى عبوديته وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه .

* يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله ، نوح عليه السلام ، أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه ، وهم يعبدون الأصنام ، فأمرهم بعبادة الله وحده فقال :

[يا قوم اعبدوا الله] أى : أخلصوا له العبادة ، لأن العبادة ، لا تصح إلا بإخلاصها .

[ما لكم من إله غيره] فيه إبطال ألوهية غير الله ، وإثبات الإلهية لله تعالى ، لأنه الخالق الرازق ، الذى له الكمال كله ، وغيره بخلاف ذلك .

[أفلا تتقون] ما أنتم عليه من عبادة الأوثان ، والأصنام ، التى صورت على صور قوم صالحين ، فعبدوها مع الله .

فاستمر على ذلك ، يدعوهم سرا وجهارا ، وليلا ونهارا ، ألف سنة إلا خمسين عاما ، وهم لا يزدادون إلا عتوا ونفورا .

[فقال الملأ] من قومه الأشراف والسادة المتبوعون — على وجه المعارضة لنبيهم نوح ، والتحذير من اتباعه — :

[ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم] أى : ما هذا إلا بشر

مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة ، ليكون متبوعا ، وإلا فما الذى يفضله عليكم ، وهو من جنسكم ؟ .

وهذه المعارضة ، لا زالت موجودة ، فى مكذبى الرسل .

وقد أجاب الله عنها بجواب شاف ، على ألسنة رسله كما فى « قالوا » أى : لرسلهم إن إنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين* قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

فأخبروا أن هذا فضل الله ومنته ، فليس لكم أن تحجروا على الله ، وتمنعوه من إيصال فضله علينا .

وقالوا أيضاً : ولو شاء الله لأنزل ملائكة .

وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة باطلة ، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة ، فإنه حكيم رحيم ، حكمته ورحمته ، تقتضى أن يكون الرسول من جنس الآدميين لأن الملائكة ، لاقدرة لهم على مخاطبته ، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل ثم يعود اللبس عليهم كما كان .

وقولهم: [ما سمعنا بهذا] أى بإرسال الرسول [فى آبائنا الأولين] .

وأى حجة فى عدم سماعهم إرسال رسول فى آبائهم الأولين ؟ لأنهم لم يحيطوا علما ، بما تقدم ، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم .

وعلى تقدير أنه لم يرسل منهم رسولا ، فإما أن يكونوا على الهدى ، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك .

ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ

وإما أن يكونوا على غيره ، فليحمدوا ربهم ، ويشكروه أن خصهم بنعمة ، لم تأت آباءهم ، ولا شعروا بها .

ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم ، سببا لكفرهم للإحسان إليهم .

[إن هو إلا رجل به جنة] أى : مجنون [فتربصوا به] أى: انتظروا به [حتى حين] إلى أن يأتيه الموت .

وهذه الشُّبَهُ التى أوردوها ، معارضة لنبوة نبيهم ، دالة على شدة كفرهم وعنادهم ، وعلى أنهم فى غاية الجهل والضلال ، فإنها لا تصلح للمعارضة ، بوجه من الوجوه ، كما ذكرنا ، بل هى فى نفسها متناقضة متعارضة .

فقولهم : [ما هذا إلا رجل مثلكم ، يريد أن يتفضل عليكم] أثبتوا أن له عقلا يكيدهم به ، ليعلوهم ، ويسودهم ، ويحتاج — مع هذا — أن يحذر منه لئلا يغتر به .

فكيف يلتئم مع قولهم : [إن هو إلا رجل به جنة] وهل هذا إلا من مشبه ضال ، منقلب عليه الأمر ، قصده : الدفع بأى طريق اتفق له ، غير عالم بما يقول ؟ ! ! .

ويأبى الله إلا أن يظهر خزى من عاداه وعادى رسله .

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارا [قال رب انصرنى بما كذبون] فاستنصر ربه عليهم ، غضبا ، حيث ضيعوا أمره ، وكذبوا رسله وقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفاراً » .

ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ

قال تعالى : [ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون] .

[فأوحينا إليه] عند استجابتنا له ، سببا ، ووسيلة للنجاة ، قبل وقوع أسبابه .

[أن اصنع الفلك] أى : السفينة [بأعيننا ، ووحينا] أى : بأمرنا لك ، ومعونتنا ، وأنت فى حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك .

[فإذا جاء أمرنا] بإرسال الطوفان الذى عذبوا به [وفار التَّنُّور] .
أى : فارت الأرض ، وتفجرت عيونا ، حتى محل النار ، الذى لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء .

[فاسلك فيها من كل زوجين اثنين] أى : أدخل فى الفلك من كل جنس من الحيوانات ، ذكرا وأنثى ، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات ، التى اقتضت الحكمة الربانية إيجادها فى الأرض .

[وأهلك] أى : أدخلهم [إلا من سبق عليه القول] كابنه .

[ولا تخاطبني فى الذين ظلموا] أى : لا تدعني أن أنجيهم ، فإن القضاء والقدر ، قد حتم أنهم مغرقون .

[فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك] أي : علوتم عليها ، واستقلت بكم فى تيار الأمواج ، ولجج اليم ، فاحمدوا الله على النجاة والسلامة .

أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ، وهذا تعليم منه له ، ولمن معه ، أن يقولوا هذا شكراً له ، وحمداً على نجاتهم من القوم الظالمين فى ظلمهم وعذابهم .

[وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين] أى : وبقيت عليكم نعمة أخرى ، فادعوا الله فيها ، وهى أن ييسر الله لكم منزلا مباركا .

فاستجاب الله دعاءه ، قال الله : [وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين] إلى أن قال :

« قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » الآية .

[إن فى ذلك] أى : فى هذه القصة [لآيات] تدل على أن الله وحده المعبود ، وعلى أن رسوله نوحا ، صادق ، وأن قومه كاذبون ، وعلى رحمة الله بعباده ، حيث حملهم فى صلب أبيهم نوح ، فى الفلك لما غرق أهل الأرض .

والفلك أيضا من آيات الله قال تعالى : « ولقد تركناها آية ، فهل من مدكر » ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب .

[وإن كنا لمبتلين] .

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ

---

* لما ذكر نوحا وقومه ، وكيف أهلكهم قال : [ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين] .

الظاهر أنهم « ثمود » قوم صالح ، عليه السلام لأن هذه القصة ، تشبه قصتهم .

[فأرسلنا فيهم رسولا منهم] من جنسهم ، يعرفون نسبه وحسبه ، وصدقه ، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم ، إذا كان منهم ، وأبعد عن اشمئزازهم .

فدعا إلى مادعت إليه الرسل أممهم [أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره] .

فكلهم اتفقوا على هذه الدعوة ، وهى أول دعوة يدعون بها أممهم ، الأمر بعبادة الله ، والإخبار أنه المستحق لذلك ، والنهى عن عبادة ماسواه ، والإخبار ببطلان ذلك وفساده .

ولهذا قال : [أفلا تتقون] ربكم ، فتجتنبوا هذه الأوثان والأصنام .

[وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا] أى : قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة ، وإنكار البعث والجزاء ، وأطغاهم ترفهم فى الحياة الدنيا ، معارضة لنبيهم ، وتكذيبا ، وتحذيرا منه :

وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ

[ما هذا إلا بشر مثلكم] أى : من جنسكم [يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون] .

فما الذى يفضله عليكم ؟ فهلا كان ملكا ، لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

[ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون] أى : إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيسا ، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل ، نادمون على ما فعلتم .

وهذا من العجب ، فإن الخسارة والندامة حقيقة ، لمن لم يتابعه ، ولم ينقد له .

والجهل والسفه العظيم ، لمن تكبر عن الانقياد لبشر ، خصه الله بوحيه ، وفضله برسالته ، وابتلى بعبادة الشجر والحجر .

وهذا نظير قولهم : « قالوا أبشراً منا واحدا نتبعه ، إنا إذا لفى ضلال وسعر * أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر » .

فلما أنكروا رسالته وردوها ، أنكروا ماجاء به من البعث بعد الموت ، والمجازاة على الأعمال فقالوا :

[أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات

وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

هيهات لما توعدون] أى : بعيد بعيد ما يعدكم به ، من البعث ، بعد أن تمزقتم ، وكنتم ترابا وعظاما .

فنظروا نظرا قاصرا ، ورأوا هذا ، بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن .

فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم ، تعالى الله عن ذلك .

فأنكروا قدرته على إحياء الموتى وعجزوه غاية التعجيز ،ونسوا خلقهم أول مرة ، وأن الذى أنشأهم من العدم ، فإعادته لهم بعد البلى ، أهون عليه وكلاهما هين لديه .

فلم لا ينكرون أول خلقهم ،ويكابرون المحسوسات ، ويقولون : إننا ، لم نزل موجودين ، حتى يسلم لهم إنكارهم البعث ، وينتقلو معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم ؟ .

وهنا دليل آخر ، وهو : أن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيي لموتى ، إنه على كل شيء قدير .

وثَمّ دليل آخر ، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث فى قوله :

« بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » فقال فى جوابهم : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم » أى فى البلى .

« وعندنا كتاب حفيظ » .

[إن هى الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا] أى : يموت أناس ، ويحيا أناس [ومانحن بمبعوثين] .

بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً

[إن هو إلا رجل به جنة] فلهذا أتى بما أتى به ، من توحيد الله ، وإثبات المعاد « فتربصوا به حتى حين » أى : ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره ، احتراما له ، ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به .

أى : فلم يبق بزعمهم الباطل ، مجادلة معه ، لصحة ماجاء به ، فإنهم قد زعموا بطلانه .

وإنما بقى الكلام ، هل يوقعون به أم لا ؟ .

فبزعمهم أن عقولهم الرزينة ، اقتضت الإبقاء عليه ، وترك الإيقاع به ، مع قيام الموجب .

فهل فوق هذا العناد والكفر غاية ؟ ! ! .

ولهذا لما اشتد كفرهم ، ولم ينفع فيهم الإنذار ، دعا عليهم نبيهم فقال : [رب انصرنى بما كذبون] أى . بإهلاكهم ، وخزيهم الدنيوى ، قبل الآخرة .

فـ[قال] الله مجيبا لدعوته : [عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق] لا بالظلم والجور ، بل بالعدل وظلمهم ، أخذتهم الصيحة ، فأهلكتهم عن آخرهم .

[فجعلناهم غثاء] أى هشيما يبسا بمنزلة غثاء السيل الملقى فى جنبات

فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

الوادى ، وقال فى الآية الأخرى « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتضر » .

[فبعدا للقوم الظالمين] أى : أتبعوا مع عذابهم ، البعد واللعنة والذم من العالمين .

[فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين] .

هذا التعبير مجاز عن عدم الاكتراث بهلاكهم والاعتداد بوجودهم .

وفيه تهكم بهم ، وبحالهم المنافية لحال من يعظم فَقْدُه ، فيقال عنه : « بكت عليه السماء والأرض » .

ومنه ماروى « أن المؤمن إذا مات ، ليَبْكِى عليه مصلاه ، ومحل عبادته ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه ، وآثاره فى الأرض .

وعن الحسن يبكى عليه أهل السماء والأرض .

[وما كانوا] لما جاءهم وقت هلاكهم [منظرين] أى : ممهلين إلى وقت آخر ، بل عجل لهم العذاب فى الدنيا .

والمعنى الإجمالى : فما حزنت عليهم السماء والأرض عندما أخذهم العذاب،لهوان شأنهم ، لأنهم ماتوا كُفاراً ، ولم يُنْظَرُوا لتوبة ، ولم يُمْهَلُوا لتدارك تقصيرهم احتقاراً لهم .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

---

* أى : ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين، قرونا آخرين، كل أمة فى وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر .

وأرسلنا إليهم رسلا متتابعة، لعلهم يؤمنون ويبينون .

فلم يزل الكفر والتكذيب، دأب الأمم العصاة ، والكفرة البغاة كلما جاء أمة رسولها ، كذبوه ، مع أن كل رسول يأتى من الآيات ، ما يؤمن على مثله البشر .

بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقية ما جاءوا به .

[فأتبعنا بعضهم بعضا] بالهلاك، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم .

[وجعلناهم أحاديث] يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالا للمكذبين، وخزيا عليهم مقرونا بعذابهم .

[فبعداً لقوم لا يؤمنون] ما أشقاهم ! ! . وتعسا لهم ، ما أخسر صفقتهم ! ! .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

مر عَلَيَّ منذ زمان طويل، كلام لبعض العلماء لايحضرنى الآن اسمه، وهو أنه بعد موسى و نزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أى: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين بالجهاد، ولم أدر من أين أخذه.

فلما تدبرت هذه الآيات، مع الآيات التى فى سورة القصص، تبين لى وجهه.

أما هذه الآيات، فلأن الله، ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك.

ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة، فيها الهداية للناس.

ولا يرد على هذا، إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة.

وأما الآيات التى فى سورة القصص، فهى صريحة جدا.

فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال:

[ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون] فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية.

. . . .

وأخبر أنه أنزله بصائر للناس ، وهدى ورحمة .

ولعل من هذا ، ما ذكر الله فى سورة « يونس » من قوله « ثم بعثنا من بعده » أى من بعد نوح « رسلا إلى قومهم فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين * ثم بعثنا من بعدهم موسى وهرون » الآيات والله أعلم .

فقوله [ثم أرسلنا موسى] بن عمران ، كليم الرحمن [وأخاه هرون] حين سأل ربه أن يشركه فى أمره فأجاب سؤله .

[بآياتنا] الدالة على صدقهما وصحة ما جاءا به [وسلطان مبين] أي : حجة بينة .

من قوتها ، أن تقهر القلوب ، وتتسلط عليها لقوتها فتنقاد لها قلوب المؤمنين ، وتقوم الحجة البينة على المعاندين .

وهذا كقوله « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند « فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم » بتلك الآيات البينات [فقال] له [فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ، وإنى لأظنك يافرعون مثبورا] .

وقال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » .

وقال هنا [ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين ، إلى فرعون وملأه] كـ « هامان » وغيره من رؤسائهم .

. . . .

[فاستكبروا] أى: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه.

[وكانوا قوما عالين] أى: وصفهم العلو، والقهر، والفساد فى الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

[فقالوا] كبرا وتيها، وتحذيراً لضعفاء العقول، وتمويها: [أنؤمن لبشرين مثلنا] كما قاله من قبلهم سواء بسواء، وتشابهت قلوبهم فى الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة.

[وقومهما] أى: بنو إسرائيل [لنا عابدون] أى معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة كما قال تعالى « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ».

فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين ؟!!

وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا ؟!!

ونظير قولهم، قول قوم نوح: « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » « وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ».

من المعلوم أن هذا، لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة.

ولهذا قال: [فكذبوهما فكانوا من المهلكين] فى الغرق فى البحر، وبنو إسرائيل ينظرون.

[ولقد آتينا موسى] بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلى مع موسى، وتمكن حينئذ، من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة، أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ».

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا

ولهذا قال هنا : [لعلهم يهتدون] أى : بمعرفة تفاصيل الأمر والنهى، والثواب والعقاب ، ويعرفون ربهم ، بأسمائه وصفاته .

* أى : وامْتنَنَّا على عيسى بن مريم ، وجعلناه وأمه ، من آيات الله العجيبة ، حيث حملته ، وولدته ، من غير أب ، وتكلم فى المهد صبيا ، وأجرى الله على يديه من الآيات ، ما أجرى .

[وآويناهما إلى ربوة] أى : مكان مرتفع ، وهذا — والله أعلم — وقت وضعها .

[ذات قرار] أى مستقر وراحة [ومعين] أى : ماء جار .

بدليل قوله : « قد جعل ربك تحتك » أى : تحت المكان الذى أنت فيه ، لارتفاعه .

« سرياً » أى : نهراً وهو الماء المعين « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلى واشربى وقرى عينا » .

* هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات ، التى هى الرزق ، والطيب الحلال .

والشكر لله ، بالعمل الصالح ، الذى به يصلح القلب والبدن ، والدنيا والآخرة .

ويخبرهم أنه بما يعملون عليم ، فكل عمل عملوه ، وكل سعى اكتسبوه ، فإن الله يعلمه ، وسيجازيهم عليه ، أتم الجزاء وأفضله .

إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ

فدل هذا على أن الرسل كلهم ، متفقون على إباحة الطيبات ، من المآكل وتحريم الخبائث منها ، وأنهم متفقون على كل عمل صالح .

وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات ، واختلفت بها الشرائع ، فإنها كلها عمل صالح ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة .

ولهذا ، الأعمال الصالحة ، التى هى صلاح فى جميع الأزمنة ، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع ، كالأمر بتوحيد الله ، وإخلاص الدين له ، ومحبته ، وخوفه ، ورجائه ، والبر ، والصدق ، والوفاء بالعهد ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين والإحسان إلى الضعفاء والمساكين ، واليتامى ، والْحُنُوِّ والإحسان إلى الخلق ، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة .

ولهذا كان أهل العلم ، والكتب السابقة ، والعقل ، حين بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به ، وينهى عنه .

كما جرى لهرقل وغيره ، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء ، الذين من قبله ، ونهى عما نهوا عنه ، دل على أنه من جنسهم .

بخلاف الكذاب ، فلا بد أن يأمر بالشر ، وينهى عن الخير .

ولهذا قال تعالى للرسل : [وإن هذه أمتكم] أى : جماعتكم — يامعشر الرسل — [أمة واحدة] متفقة على دين واحد ، وربكم واحد .

[فاتقون] بامتثال أوامرى ، واجتناب زواجرى .

حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

وقد أمر الله المؤمنين ، بما أمر به المرسلين ، لأنهم بهم يقتدون ، وخلفهم يسلكون .

فقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون » فالواجب على كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم ، أن يمتثلوا هذا ، ويعملوا به .

ولكن أبى الظالمون الجاحدون ، إلا عصياناً ، ولهذا قال :

* [فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً] أى : تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء [أمرهم] أى : دينهم [بينهم زبراً] أى قطعا [كل حزب بما لديهم] أى : بما عندهم من العلم والدين .

[فرحون] يزعمون أنهم المحقون ، وغيرهم على غير الحق .

مع أن المحق منهم ، من كان على طريق الرسل ، من أكل الطيبات ، والعمل الصالح ، وما عداهم ، فإنهم مبطلون .

[فذرهم فى غمرتهم] أى : فى وسط جهلهم بالحق ، ودعواهم : أنهم ، هم المحقون .

[حتى حين] أى : إلى أن ينزل العذاب بهم ، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ ، ولا يفيدهم زجر .

فكيف يفيد بمن يزعم أنه على الحق ، ويطمع فى دعوة غيره إلى ما هو عليه ؟

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ

---

* [أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات] .

أى : أيظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد ، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة ، وأن لهم خير الدنيا والآخرة ؟

وهذا مقدم لهم ، ليس الأمر كذلك .

[بل لا يشعرون] أنما نملى لهم ، ونمهلهم ، ونمدهم بالنعم ، ليزدادوا إثما ، وليتوفر عقابهم فى الآخرة ، وليغتبطوا بما أوتوا « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة » .

* لما ذكر تعالى ، الذين جمعوا بين الإساءة والأمن ، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم فى الدنيا ، دليل على خيرهم وفضلهم ، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف فقال :

[إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون] أى : وجلون ، مشفقة قلوبهم كل ذلك ، من خشية ربهم ، خوفا أن يضع عليهم عدله ، فلا يبقى لهم حسنة ، وسوء ظن بأنفسهم أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى ، وخوفا على إيمانهم من الزوال ، ومعرفة منهم بربهم ، وما يستحقه من الإجلال والإكرام ، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب ، والتقصير فى الواجبات .

هُمْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾

[والذين هم بآيات ربهم يؤمنون] أى : إذا تليت عليهم آياته ، زادتهم إيماناً .

ويتفكرون أيضاً فى الآيات القرآنية ، ويتدبرونها ، فيبين لهم من معانى القرآن وجلالته واتفاقه ، وعدم اختلافه ، وتناقضه ، وما يدعو إليه من معرفة الله ، وخوفه ، ورجائه وأحوال الجزاء ، فيحدث لهم بذلك ، من تفاصيل الإيمان ، ما لا يعبر عنه اللسان .

ويتفكرون أيضا فى الآيات الأفقية ، كما فى قوله « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » إلى آخر الآيات .

* [والذين هم بربهم لا يشركون] أى : لا شركا جليا ، كاتخاذ غير الله معبوداً ، يدعونه ، ويرجونه ، ولا شركا خفيا كالرياء ونحوه .

بل هم مخلصون لله ، فى أقوالهم ، وأعمالهم ، وسائر أحوالهم .

* [والذين يؤتون ما آتوا] أى : يعطون من أنفسهم ، مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه ، من صلاة ، وزكاة ، وحج ، وصدقة ، وغير ذلك .

[و] مع هذا [قلوبهم وجلة] أى : خائفة [أنهم إلى ربهم راجعون].

أى : خائفة عند عرض أعمالها عليه ، والوقوف بين يديه ، أن تكون

أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾
وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ

أعمالهم غير منجية من عذاب الله ، لعلمهم بربهم ، وما يستحقه من أصناف العبادات .

* [أولئك يسارعون فى الخيرات] أى : فى ميدان التسارع فى أفعال الخير.

همهم ما يقربهم إلى الله ، وإرادتهم مصروفة فيما ينجى من عذابه .

فكل خير سمعوا به ، أو سنحت لهم الفرصة ، انتهزوه وبادروه .

قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه ، أمامهم ، ويمنة ، ويسرة ، يسارعون فى كل خير ، وينافسون فى الزلفى عند ربهم ، فنافسوهم .

ولما كان السابق لغيره المسارع ، قد يسبق لجده وتشميره ، وقد لايسبق لتقصيره ، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال :

[وهم لها] أى : للخيرات [سابقون] قد بلغوا ذروتها ، وتباروا ، هم والرعيل الأول .

ومع هذا ، قد سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة ، أنهم سابقون .

ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات ، وسبقهم إليها ، ربما وهم واهم ، أن المطلوب منهم ومن غيرهم ، أمر غير مقدور ، أو متعسر ، قال تعالى :

* [ولا نكلف نفسا إلا وسعها] أى : بقدر ما تسعه ، ويفضل من قوتها عنه .

ليس مما يستوعب قوتها ، رحمة منه وحكمة ، لتيسير طريق الوصول إليه ، ولتعمر جادة السالكين فى كل وقت إليه .

[ولدينا كتاب ينطق بالحق] وهو الكتاب الأول ، الذى فيه كل

لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ

شيء ، وهو يطابق كل واقع يكون ، فلذلك كان حقا .

[وهم لا يظلمون] أى لا ينقص من إحسانهم ، ولا يزداد فى عقوبتهم وعصيانهم .

* يخبر تعالى أن هؤلاء المكذبين ، فى غمرة من هذا ، أى : وسط غمرة من الجهل والظلم ، والغفلة والإعراض ، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن ، فلا يهتدون به ، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء .

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذنهم وقراً » .

فلما كانت قلوبهم فى غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال ، من الأعمال الكفرية ، والمعاندة للشرع ، ما هو موجب لعقابهم .

[و] لكن [لهم أعمال من دون ذلك] هذه الأعمال [هم لها عاملون] .

أى : فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم ، فإن الله يمهلهم ، ليعملوا هذه الأعمال ، التى بقيت عليهم ، مما كتب عليهم ، فإذا عملوها ، واستوفوها انتقلوا بشر حالة ، إلى غضب الله وعقابه .

[حتى إذا أخذنا مترفيهم] أى : متنعميهم ، الذين ما اعتادوا إلا الترف ، والرفاهية ، والنعيم ، ولم تحصل لهم المكاره .

إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟

فإذا أخذناهم [بالعذاب] ووجدوا مسّه [إذا هم يجأرون] يصرخون ، ويتوجعون ، لأنه أصابهم أمر ، خالف ما هم عليه .

ويستغيثون ، فيقال لهم : [لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون] .

وإذا لم تأتهم النصرة من الله ، وانقطع عنهم الغوث من جانبه ، لم يستطيعوا نصر أنفسهم ، ولم ينصرهم أحد .

فكأنه قيل : ما السبب الذى أوصلهم إلى هذه الحال ؟ قال : [قد كانت آياتى تتلى عليهم] لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها ، فلم تفعلوا ذلك ، بل [فكنتم على أعقابكم تنكصون] أى : راجعين القهقرى إلى الخلف .

وذلك لأن باتباعهم القرآن ، يتقدمون ، وبالإعراض عنه ، يستأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين .

[مستكبرين به سامرا تهجرون] قال المفسرون معناه : مستكبرين به .

الضمير يعود إلى البيت ، المعهود عند المخاطبين ، أو الحرم .

أى : متكبرين على الناس بسببه ، تقولون : نحن أهل الحرم ، فنحن أفضل من غيرنا ، وأعلى [سامرا] أى : جماعة يتحدثون بالليل حول البيت [تهجرون] أى : تقولون الكلام الهُجْرَ ، الذى هو القبيح فى هذا القرآن .

فالمكذبون كانت طريقتهم فى القرآن ، الاعراض عنه ، ويوصى بعضهم

ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ

بعضا بذلك « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القول والغوا فيه لعلكم تغلبون » وقال الله عنهم « أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون * أم يقولون تقوله » .

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل ، لا جرم حقت عليهم العقوبة .

ولما وقعوا فيها ، لم يكن لهم ناصر ينصرهم ، ولا مغيث ينقذهم ، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة [أفلم يدبروا القول] . أي : أفلا يتفكرن فى القرآن ، ويتأملونه ويتدبرونه .

أى : فإنهم لو تدبروه ، لأوجب لهم الإيمان ، ولمنعهم من الكفر ، ولكن المصيبة ، التى أصابتهم ، بسبب إعراضهم عنه .

ودل هذا ، على أن تدبر القرآن ، يدعو إلى كل خير ، ويعصم من كل شر .

والذى منعهم من تدبره أن على قلوبهم أقفالها .

[أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين] أى : أومنعهم من الإيمان ، أنه جاءهم رسول ، وكتاب ، ما جاء آباءهم الأولين .

فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين ، وعارضوا كل ما خالف ذلك . ولهذا قالوا ، هم ومن أشبههم من الكفار ، ما أخبر الله عنهم : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » .

فأجابهم بقوله : (قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) . فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق .

رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَآءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ

فأجابوا بحقيقة أمرهم (قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) .

* وقوله [أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون] أى : أو منعهم من اتباع الحق ، أن رسولهم محمداً صل الله عليه وسلم ، غير معروف عندهم ، فهم منكرون له ؟

يقولون : لا نعرفه ، ولا نعرف صدقه ، دعونا ننظر حاله ، ونسأل عنه ، مَنْ لديه خبره .

أى : لم يكن الأمر كذلك ، فإنهم يعرفون الرسول صلى الله عليه وسلم ، معرفة تامة ، صغيرهم ، وكبيرهم .

يعرفون منه كل خلق جميل ، ويعرفون صدقه ، وأمانته ، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة « الأمين » فلم لا يصدقونه ، حين جاءهم بالحق العظيم ، والصدق المبين ؟ .

[أم يقولون به جنة] أى : جنون ، فلهذا قال ما قال ، والمجنون ، غير مسموع منه ، ولا عبرة بكلامه ، لأنه يهذى بالباطل ، والكلام السخيف .

قال الله فى الرد عليهم فى هذه المقالة : [بل جاءهم بالحق] أي : بالأمر الثابت ، الذى هو صدق وعدل ، لا اختلاف فيه ، ولا تناقض ، فكيف يكون من جاء به ، به جنة ؟ ! وهلا يكون إلا فى أعلى درجات الكمال ، من العلم والعقل ، ومكارم الأخلاق .

وأيضاً ، فإن فى هذا ، الانتقال ، مما تقدم .

أى : بل الحقيقة التى منعتهم من الإيمان ، أنه [جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون] .

وأعظم الحق الذى جاءهم به ، إخلاص العبادة لله وحده ، وترك مايعبد من دون الله .

وقد علم كراهتهم لهذا الأمر ، وتعجبهم منه .

فكون الرسول أتى بالحق ، وكونهم كارهين للحق بالأصل ، هو الذى أوجب لهم التكذيب بالحق ، لا شكاً ولا تكذيبا للرسول ، كما قال تعالى :

« فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » .

فإن قيل : لِمَ لَمْ يكن الحق موافقا لأهوائهم لأجل أن يؤمنوا ، أو يسرعوا الانقياد ؟

أجاب تعالى بقوله : [ولو اتبع الحق أهواءهم ، لفسدت السموات والأرض] .

ووجه ذلك ، أن أهواءهم ، متعلقة بالظلم ، والكفر ، والفساد ، من الأخلاق ، والأعمال .

فلو اتبع الحق أهواءهم ، لفسدت السموات والأرض ، لفساد التصرف والتدبير ، المبنى على الظلم وعدم العدل .

فالسموات والأرض ، ما استقامتا إلا بالحق والعدل .

[بل أتيناهم] أى : بهذا القرآن المذكر لهم ، بكل خير ، الذى به فخرهم

عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾

وشرفهم ، حين يقومون به ، ويكونون به سادة الناس.

[فهم عن ذكرهم معرضون] شقاوة منهم ، وعدم توفيق « نسوا الله فنسيهم * نسوا الله فأنساهم أنفسهم » .

فالقرآن ومن جاء به ، أعظم نعمة ساقها الله إليهم ، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض ، فهل بعد هذا الإيمان حرمان ؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران ؟ .

* أى : أو منعهم من اتباعك يامحمد ، أنك تسألهم على الإجابة أجرا [فهم من مغرم مثقلون] يتكلفون من اتباعك ، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج .

ليس الأمر كذلك [فخراج ربك خير وهو خير الرازقين] .

وهذا كما قال الأنبياء لأممهم « ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الله » .

أى : ليسوا يدعون الخلق ، طمعا فيما يصيبهم منهم ، من الأموال .

وإنما يدعونهم ، نصحا لهم ، وتحصيلا لمصالحهم ، بل كان الرسل ، أنصح للخلق من أنفسهم .

فجزاهم الله عن أممهم ، خير الجزاء ، ورزقنا الاقتداء بهم ، فى جميع الأحوال .

﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَـٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الكريمات ، كل سبب موجب للإيمان ، وذكر الموانع ، وبين فسادها ، واحدا بعد واحد .

فذكر من الموانع أن قلوبهم فى غمرة ، وأنهم لم يدبروا القول ، وأنهم اقتدوا بآبائهم ، وأنهم قالوا : برسولهم جنة ، كما تقدم الكلام عليها .

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم ، تدبر القرآن ، وتَلَقِّى نعمة الله بالقبول ، ومعرفة حال محمد صلى الله عليه وسلم ، وكمال صدقه وأمانته ، وأنه لا يسألهم عليه أجرا ، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم ، وأن الذى يدعوهم إليه ، صراط مستقيم .

وسهل على العاملين لاستقامته ، موصل إلى المقصود ، من قرب ، حنيفية سمحة ، حنيفية فى التوحيد ، سمحة فى العمل .

فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم ، توجب لمن يريد الحق أن يتبعك .

لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه ، وموافقته للمصالح .

فأين يذهبون إن لم يتابعوك ؟ فإنهم ليس عندهم ، ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك ، لأنهم .

[عن الصراط لناكبون] متجنبون منحرفون ، عن الطريق الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته ، ليس فى أيديهم إلا ضلالات وجهالات .

وهكذا كل من خالف الحق ، لا بد أن يكون منحرفا فى جميع أموره .

قال تعالى : « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ».

۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ

---

* هذا بيان لشدة تمردهم ، وأنهم إذا أصابهم الضر ، دعوا الله أن يكشف عنهم ، ليؤمنوا ، أو ابتلاهم بذلك ، ليرجعوا إليه .

إن الله إذا كشف الضر عنهم ، لجّوا ، أى : استمروا فى طغيانهم يعمهون ، أى : يجولون فى كفرهم ، حائرين مترددين .

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك ، وأنهم يدعون مخلصين له الدين ، وينسون ما يشركون به .

فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بالشرك وغيره .

[ولقد أخذناهم بالعذاب] قال المفسرون : المراد بذلك : الجوع الذى أصابهم سبع سنين ، وأن الله ابتلاهم بذلك ، ليرجعوا إليه ، بالذل والاستسلام .

فلم ينجع فيهم ، ولا نجح منهم أحد .

[فما استكانوا لربهم] أى : خضعوا وذلوا [وما يتضرعون] إليه ويفتقرون ، بل مرّ عليهم ذلك ، ثم زال ، كأنه لم يصبهم ، لم يزالو فى غيهم وكفرهم .

ولكن وراءهم ، العذاب الذى لا يرد ، وهو قوله :

* [حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد] كالقتل يوم بدر وغيره .

إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَـكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْئِدَةَ

[إذا هم فيه مبلسون] آيسون من كل خير ، قد حضرهم الشر وأسبابه . فَلْيَحْذَرُوا قبل نزول عذاب الله الشديد ، الذى لا يرد .

بخلاف مجرد العذاب ، فإنه ربما أقلع عنهم ، كالعقوبات الدنيوية ، التى يؤدب الله بها عباده .

قال تعالى فيها : « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » .

* يخبر تعالى، بمنته على عباده الداعين[1] لهم إلى شكره،والقيام بحقه فقال:

[وهو الذي أنشأ لـكم السمع] لتدركوا به المسموعات ، فتنتفعوا فى دينـكم ودنيا كم .

[والأبصار] لتدركوا بها المبصرات ، فتنتفعوا بها فى مصالحـكم .

[والأفئدة] أى : العقول التى تدركون بها الأشياء ، وتتميزون بها عن البهائم .

فلو عدمتم السمع ، والأبصار ، والعقول ، بأن كنتم صما عميا بكما ماذا تـكون حالـكم ؟ وماذا تفقدون من ضرورياتـكم وكمالـكم ؟ .

أفلا تشكرون الذى مَنَّ عليكم بهذه النعم ، فتقومون بتوحيده وطاعته ؟ .

---

(١) قوله « الداعين الخ » هكذا فى الأصل ، وهو خطأ واضح والصواب أن يقال « الداعية لهم إلى شكره » .

قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

ولكنكم ، قليل شكركم ، مع توالى النعم عليكم .

[وهو] تعالى [الذى ذرأكم فى الأرض] أى : بثّكم فى أقطارها ، وجهاتها ، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها ، وجعلها كافية لمعايشكم ، ومساكنكم .

[وإليه تحشرون] بعد موتكم ، فيجاز يكم بما عملتم فى الأرض ، من خير وشر .

وتحدث الأرض التى كنتم فيها ، بأخبارها .

[وهو] تعالى وحده [الذى يحيي ويميت] أى : المتصرف فى الحياة والموت ، هو الله وحده .

[وله اختلاف الليل والنهار] أى : تعاقبهما وتناوبهما .

فلو شاء أن يجعل النهار سرمدا ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟

ولو شاء أن يجعل الليل سرمدا ، مَنْ إله غير الله ، يأتيكم بضياء أفلا تبصرون ؟ .

ومن رحمته ، جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون .

﴿ بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

ولهذا قال هنا : [أفلا تعقلون] فتعرفون أن الذى وهب لكم ، من النعم ، السمع ، والأبصار ، والأفئدة ، والذى نشركم فى الأرض ، وحده ، والذى يحيي ويميت وحده ، والذى يتصرف بالليل والنهار ، وحده ، أن ذلك موجب لكم ، أن تخلصوا له العبادة ، وحده لا شريك له ، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر ، ولا يتصرف بشىء ، بل هو عاجز من كل وجه ، فلو كان لكم عقل ، لم تفعلوا ذلك .

* أى : بل سلك هؤلاء المكذبون ، مسلك الأولين ، من المكذبين بالبعث ، واستبعدوه غاية الاستبعاد وقالوا : [أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعثون] أى : هذا لا يتصور ، ولا يدخل العقل ، بزعمهم .

[لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل] أى : مازلنا نوعد بأن البعث كائن ، نحن وآباؤنا ، ولم نره ، ولم يأت بعد .

[إن هذا إلا أساطير الأولين] أى : قصصهم وأسمارهم ، التى يتحدث بها وتلهى ، وإلا فليس لها حقيقة .

وكذبوا - قبحهم الله - فإن الله أراهم ، من آياته أكبر من البعث .

ومثله ، ما قاله الله تعالى « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس » .

« وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيي العظام وهى رميم » الآيات

« وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » الآيات .

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

---

* أى : قل لهؤلاء المكذبين بالبعث ، العادلين بالله غيره ، محتجا عليهم بما أثبتوه ، وأقروا به ، من توحيد الربوبية ، وانفراد الله بها — على ما أنكروه ، من توحيد الإلهية والعبادة ، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة ، على ما أنكروه من إعادة الموتى ، الذى هو أسهل من ذلك :

[لمن الأرض ومن فيها] أى : من هو الخالق للأرض ، ومن عليها ، من حيوان ، ونبات ، وجماد ، وبحار ، وأنهار ، وجبال ، ومن المالك لذلك ، المدبر له ؟ .

فإنك إذا سألتهم عن ذلك ، لا بد أن يقولوا : الله وحده .

فقل لهم إذا أقروا بذلك :

[أفلا تذكرون] أى : أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به ، مما هو معلوم عندكم ، مستقر فى فطركم ، قد يغيبه الإعراض فى بعض الأوقات .

الحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم ، بمجرد التأمل ، علمتم أن مالك ذلك ، هو المعبود وحده ، وأن إلهية من هو مملوك ، أبطل الباطل .

ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك ، فقال :

* [قل من رب السموات السبع] وما فيها من النيرات ، والكواكب السيارات ، والثوابت [ورب العرش العظيم] الذى هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها ؟ .

وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

فمن الذى خلق ذلك ، ودبره ، وصرفه بأنواع التدبير ؟ [سيقولون لله] أى : سيقرون بأن الله رب ذلك كله .

قل لهم حين يقرون بذلك : [أفلا تتقون] عبادة المخلوقات العاجزة ، وتتقون الرب العظيم ، كامل القدرة ، عظيم السلطان ؟ .

وفى هذا من لطف الخطاب ، من قوله « أفلا تتقون » والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب ، ما لا يخفى .

ثم انتقل إلى إقرارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال :

[قل من بيده ملكوت كل شيء] أى: ملك كل شى ، من العالم العلوى، والعالم السفلى ، ما نبصره ، وما لا نبصره ؟ .

و « الملكوت » صيغة مبالغة ، بمعنى الملك .

[وهو يجير] عباده من الشر ، ويدفع عنهم المكاره ، ويحفظهم مما يضرهم .

[ولا يجار عليه] أى : لايقدر أحد أن يجير على الله ، ولا يدفع الشر الذى قدره الله .

بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه .

تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ

---

* [سيقولون لله] أى : سيقرون أن الله المالك لكل شيء ، المجير ، الذى لا يجار عليه .

[قل] لهم حين يقرون بذلك ، ملزما لهم ، [فأنى تسحرون] أى : فأين تذهب عقولكم ، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم ، ولا قسط من الملك ، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه ، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدبر لجميع الأمور .

فالعقول التى دلتكم على هذا ، لا تكون إلا مسحورة .

وهى — بلا شك — قد سحرها الشيطان ، بما زين لهم ، وحسّن لهم ، وقلب الحقائق لهم ، فسحر عقولهم ، كما سحرت السحرة ، أعين الناس .

* يقول تعالى : بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق ، المتضمن للصدق فى الأخبار ، العدل فى الأمر والنهى .

فما بالهم لا يعترفون به ، وهو أحق أن يتبع ؟ وليس عندهم،ما يعوضهم عنه ، إلا الكذب والظلم ولهذا قال : [وإنهم لكاذبون] .

* [ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله] كذب يعرف بخبر الله ، وخبر رسله ، ويعرف بالعقل الصحيح .

ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلى ، على امتناع إلهين فقال :

[إذاً] أى لو كان معه آلهة كما يقولون [لذهب كل إله بما خلق]

وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ

أي : لانفرد كل واحد من الإلهين ، بمخلوقاته ، واستقل بها ، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبته .

[ولعلا بعضهم على بعض] فالغالب ، يكون هو الإله .

فمن التمانع ، لا يمكن وجود العالم ، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول .

واعتبر ذلك بالشمس والقمر ، والكواكب الثابتة ، والسيارة .

فإنها منذ خلقت ، وهى تجرى على نظام واحد ، وترتيب واحد ، كلها مسخرة بالقدرة ، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم ، ليست مقصورة على أحد دون أحد ، ولن ترى فيها خللا ، ولا تناقضاً ، ولا معارضة فى أدنى تصرف .

فهل يتصور أن يكون ذلك ، تقدير إلهين ربَّيْنِ ؟!!

[سبحان الله عما يصفون] قد نطقت بلسان حالها ، وأفهمت ببديع أشكالها ، أن المدبر لها ، إله واحد ، كامل الأسماء والصفات ، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات ، فى ربوبيته لها ، وفى إلهيته لها .

فكما لا وجود لها ولا دوام ، إلا بربوبيته ، كذلك ، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة .

ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك ، وهو علمه المحيط فقال :

[عالم الغيب] أى : الذى غاب عن أبصارنا ، وعلمنا ، من الواجبات ، والمستحيلات ، والممكنات .

وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾

[والشهادة] وهو ما نشاهد من ذلك [فتعالى] أى : ارتفع وعظم .

[عما يشركون] به ، ولا علم عندهم ، إلا ما علمه الله .

* لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة ، فلم يلتفتوا إليها ، ولم يذعنوا لها ، حق عليهم العذاب ، ووعدوا بنزوله ، وأرشد الله رسوله أن يقول :

[قل رب إما ترينى ما يوعدون] أى : أىّ وقت أريتنى عذابهم ، وأحضرتنى ذلك .

[رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين] أى: اعصمنى وارحمنى، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنعم ، وارحمنى أيضا من العذاب الذى ينزل بهم ، لأن العقوبة العامة ، تعم ـ عند نزولها ـ العاصى وغيره .

قال الله في تقريب عذابهم : [وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون]

ولكن إن أخرناه فلحكمة ، وإلا ، فقدرتنا صالحة لإيقاعه .

﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾

---

* هذا من مكارم الأخلاق ، التى أمر الله رسوله بها فقال :

[ادفع بالتى هى أحسن السيئة] أى : إذا أساء إليك أعداؤك ، بالقول والفعل ، فلا تقابلهم بالإساءة ، مع أنه يجوز معاقبة المسىء بمثل إساءته .

ولكن ادفع إساءتهم إليك، بالإحسان منك إليهم ، فإن ذلك فضل منك على المسىء .

ومن مصالح ذلك ، أنه تخف الإساءة عنك ، فى الحال ، وفى المستقبل ، وأنه أدعى لجلب المسىء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه ، ورجوعه بالتوبة عما فعل .

ويتصف العافى بصفة الإحسان ، ويقهر بذلك عدوه الشيطان ، ويستوجب الثواب من الرب قال تعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» وقال تعالى « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة ، كأنه ولى حميم * وما يلقاها » أى ما يوفق لهذا الخلق الجميل « إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

وقوله [نحن أعلم بما يصفون] أى : بما يقولون من الأقوال المتضمنة ، للكفر ، والتكذيب بالحق .

قد أحاط علمنا بذلك ، وقد حلمنا عنهم ، وأمهلناهم ، وصبرنا عليهم ، والحق لنا ، وتكذيبهم لنا .

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

فأنت — يامحمد — ينبغى لك أن تصبر على ما يقولون ، وتقابلهم بالإحسان : هذه وظيفة العبد فى مقابلة المسىء من البشر .

وأما المسىء من الشياطين ، فإنه لا يفيد فيه الإحسان . ولا يدعو حزبه ، إلا ليكونوا من أصحاب السعير .

فالوظيفة فى مقابلته ، أن يسترشد بما أرشد الله إليه رسوله فقال :
[وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون] .

أى : أعوذ بك من الشر ، الذى يصيبنى بسبب مباشرتهم ، وهمزهم ومسِّهم .

ومن الشر ، الذى بسبب حضورهم ، ووسوستهم .

وهذه استعاذة من مادة الشر كله وأصله .

ويدخل فيها ، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ، ومن مسِّه ووسوسته .

فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر ، وأجاب دعاءه ، سلم من كل شر ، ووفق لكل خير .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى عن حال من حضره الموت ، من المفرطين الظالمين ، أنه يندم فى تلك الحال ، إذا رأى مآله ، وشاهد قبح أعماله .

فيطلب الرجعة إلى الدنيا ، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك ليقول :

[لعلى أعمل صالحا فيما تركت] من العمل ، وفرطت فى جنب الله .

[كلا] أى : لا رجعة له ولا إمهال ، قدقضى الله أنهم إليها لا يرجعون

[إنها] أى مقالته التى تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا [كلمة هو قائلها] أى : مجرد قول اللسان ، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم .

وهو أيضا غير صادق فى ذلك ، فإنه لو رُدَّ لعَادَ لما نُهِيَ عنه .

[ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون] أى : من أمامهم وبين أيديهم ، برزخ ، وهو الحاجز بين الشيئين ، فهو هنا : الحاجز بين الدنيا والآخرة .

وفى هذا البرزخ ، يتنعم المطيعون ، ويعذب العاصون ، من ابتداء موتهم ، واستقرارهم فى قبورهم ، إلى يوم يبعثون .

أى : فَلْيُعِدوا له عُدَّتَه ، وليأخذوا له أُهْبَتَهُ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟

---

* يخبر تعالى عن هول يوم القيامة ، وما فى ذلك ، من المزعجات ، والمقلقات .

وأنه إذا نفخ فى الصور ، نفخة البعث ، فحشر الناس أجمعون ، لميقات يوم معلوم ، أنه يصيبهم من الهول ، ما ينسيهم أنسابهم ، التى هى أقوى الأسباب ، فغير الأنساب ، من باب أولى .

وأنه لا يسأل أحد أحداً ، عن حاله ، لاشتغاله بنفسه .

فلا يدرى هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها ؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها ؟ قال تعالى « يومئذ يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وفصيلته التى تؤويه » .

« فإذا جاءت الصاخة*يوم يفر المرء من أبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وفى القيامة مواضع ، يشتد كربها ، ويعظم وقعها ، كالميزان الذى يميز به أعمال العبد ،وينظر فيه بالعدل ، ماله ، وما عليه،وتبين فيه مثاقيل الذر ، من الخير والشر .

[فمن ثقلت موازينه] بأن رجحت حسناته على سيئاته [فأولئك هم المفلحون] لنجاتهم من النار ، واستحقاقهم الجنة ، وفوزهم بالثناء الجميل .

[ومن خفت موازينه] بأن رجحت سيئاته على حسناته ، وأحاطت بها خطيئاته .

أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا

[فأولئك الذين خسروا أنفسهم] كل خسارة ، غير هذه الخسار ، فإنها — بالنسبة إليها — سهلة .

ولكن هذه خسارة صعبة ، لا يجبر مصابها ، ولا يستدرك فائتها .

خسارة أبدية ، وشقاوة سرمدية ، قد خسر نفسه الشريفة ، التى يتمكن بها من السعادة الأبدية ، ففوّتها هذا النعيم المقيم ، فى جوار الرب الكريم.

[فى جهنم خالدون] لا يخرجون منها أبد الآبدين .

وهذا الوعيد ، إنما هو كما ذكرنا ، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته ، ولا يكون ذلك ، إلا كافرا .

فعلى هذا ، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته ، فإنهم لا حسنات لهم .

ولكن تُعَدُّ أعمالهم ، وتحصى ، فيوقفون عليها ، ويقررون بها ، ويخزون بها .

وأما من معه أصل الإيمان ، ولكن عظمت سيئاته ، فرجحت على حسناته ، فإنه ، وإن دخل النار ، لا يخلد فيها ، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة .

ثم ذكر تعالى ، سوء مصير الكافرين فقال : [تلفح وجوههم النار] أى : تغشاهم من جميع جوانبهم ، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة ، ويتقطع لهبها عن وجوههم .

كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

[وهم فيها كالحون] قد عبست وجوههم ، وقلصت شفاههم ، من شدة ماهم فيه ، وعظيم ما يلقونه .

فيقال لهم — توبيخا ولوماً : ـ [ألم تكن آياتى تتلى عليكم] تدعون بها ، لتؤمنوا ، وتعرض عليكم لتنظروا .

[فكنتم بها تكذبون] ظلما منكم ، وعناداً ، وهى آيات بينات ، دالات على الحق والباطل ، مبينات للمحق والمبطل .

فحينئذ أقروا بظلمهم ، حيث لا ينفع الإقرار و[قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا] أى : غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق ، والإقبال على ما يضر ، وترك ما ينفع .

[وكنا قوما ضالين] فى عملهم ، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون . أى فعلنا فى الدنيا ، فعل التائه ، الضال السفيه ، كما قالوا فى الآية الأخرى .

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » .

[ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون] وهم كاذبون فى وعدهم هذا ، فإنهم كما قال تعالى « لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه] .

ولم يُبْقِ الله لهم حجة ، بل قطع أعذارهم ، وعَمَّرَهُمْ فى الدنيا ، ما يتذكر فيه من تذكر ، ويرتدع فيه المجرم ، فقال الله جوابا لسؤالهم .

قَالَ ٱخْسَئُوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ

[اخسأوا فيها ولا تكلمون] وهذا القول — نسأله تعالى العافية — أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون فى التخييب ، والتوبيخ ، والذل ، والخسار ، والتأبيس من كل خير ، والبشرى بكل شر .

وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم ، أشدعليهم وأبلغ فى نكايتهم من عذاب الجحيم .

ثم ذكر الحال التى أوصلتهم إلى العذاب ، وقطعت عنهم الرحمة فقال :

[إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين] فجمعوا بين الإيمان المقتضى لأعماله الصالحة ، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة ، والتوسل إليه بربوبيته ، ومنته عليهم بالإيمان ، والإخبار بسعة رحمته ، وعموم إحسانه .

وفى ضمنه ، ما يدل على خضوعهم ، وخشوعهم ، وانكسارهم لربهم ، وخوفهم ورجائهم .

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم [فاتخذتموهم] أيها الكفرة الأنذال ناقصو العقول والأحلام [سخريا] تهزءون بهم ، وتحتقرونهم ، حتى اشتغلتم بذكر السفه .

[حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون] وهذا الذى أوجب لهم نسيان الذكر ، اشتغالهم بالاستهزاء بهم ، كما أن نسيانهم للذكر ، يحثهم على الاستهزاء .

تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾

فكل من الأمرين يمد الآخر ، فهل فوق هذه الجرأة جرأة ؟!

[إنى جزيتهم اليوم بما صبروا] على طاعتي ، وعلى أذاكم ، حتى وصلوا إلى .

[أنهم هم الفائزون] بالنعيم المقيم ، والنجاة من الجحيم ، كما قال فى الآية الأخرى « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » الآيات .

[قال] لهم على وجه اللوم ، وأنهم سفهاء الأحلام ، حيث اكتسبوا فى هذه المدة اليسيرة ، كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته ، ولم يكتسبوا ، ما اكتسبه المؤمنون من الخير ، الذى يوصلهم إلى السعادة الدائمة ، ورضوان ربهم .

[كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم] .

كلامهم هذا ، مبنىٌّ على استقصارهم جداً ، لمدة مكثهم فى الدنيا وأفاد ذلك ، لكنه لا يفيد مقداره ، ولا يعينه ، فلهذا قالوا : [فاسأل العادين] أى : الضابطين لعدده .

وأما هم ، فنى شغل شاغل ، وعذاب مذهل عن معرفة عدده ، فقال لهم [إن لبثتم إلا قليلا] سواء عينتم عدده ، أم لا [لو أنكم كنتم تعلمون]

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾

---

* أى [أفحسبتم] أيها الخلق [أنما خلقناكم عبثا] أى : سدى وباطلا ، تأكلون وتشربون ، وتمرحون ، وتتمتعون بلذات الدنيا ، ونترككم ، لا نأمركم ، ولا ننهاكم ، ولا نثيبكم ، ولا نعاقبكم ؟ ولهذا قال :

[وأنكم إلينا لا ترجعون] لا يخطر هذا ببالكم .

[فتعالى الله] أى : تعاظم ، وا تفع عن هذا الظن الباطل ، الذى يرجع إلى القدح فى حكمته .

[الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش العظيم] فكونه مَلِكاً للخلق كلهم حقًّا ، فى صدقه، ووعده ، ووعيده ، مألوفا معبوداً ، لما له من الكمال [رب العرش العظيم] فما دونه من باب أولى ، يمنع أن يخلقكم عبثاً .

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

---

* أى : ومن دعا مع الله آلهة غيره ، بلا بينة من أمره ، ولا برهان على ذلك ، يدل على ما ذهب إليه ، وهذا قيد ملازم .

فكل من دعا غير الله ، فليس له برهان على ذلك ، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه ، فأعرض عنها ظلما وعناداً .

فهذا سيقدم على ربه ، فيجازيه بأعماله ، ولا ينيله من الفلاح شيئاً ، لأنه كافر .

[إنه لا يفلح الكافرون] فكفرهم ، منعهم من الفلاح .

[وقل] داعياً لربك مخلصاً له الدين [رب اغفر] لنا حتى تنجينا من المكروه ، وارحمنا ، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير .

[وأنت خير الراحمين] فكل راحم للعبد ، فالله خير له منه ، أرحم بعبده من الوالدة بولدها ، وأرحم به من نفسه .

تم تفسير سورة المؤمنين ، بفضل الله وإحسانه

تفسير

سورة النور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ﴾

---

* أى : هذه [سورة] عظيمة القدر [أنزلناها] رحمة منا بالعباد . وحفظناها من كل شيطان [وفرضناها] أى : قدرنا فيها ما قدرنا ، من الحدود والشهادات وغيرها .

[وأنزلنا فيها آيات بينات] أى : أحكاما جليلة ، وأوامر ، وزواجر وحكما عظيمة [لعلكم تذكرون] حين نبين لكم ، ونعلمكم مالم تكونوا تعلمون .

ثم شرع فى بيان تلك الأحكام ، المشار إليها ، فقال : [الزانية والزانى] إلى [من المؤمنين] .

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾

---

* هذا الحكم ، فى الزانى والزانية البكرين ، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة .

وأما الثيب ، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة ، أن حده الرجم .

ونهانا تعالى أن تأخذنا رأفة بهما ، فى دين الله ، تمنعنا من إقامة الحد عليهما ، سواء رأفة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك ، وأن الإيمان ، موجب لانتفاء هذه الرأفة المانعة ، من إقامة أمر الله .

فرحمته حقيقة ، بإقامة الحد عليه .

فنحن وإن رحمناه ، لجريان القدر عليه ، فلا نرحمه من هذا الجانب .

وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين ، طائفة ، أو جماعة من المؤمنين ليشتهر ، ويحصل بذلك ، الخزى والارتداع ، وليشاهدوا الحد فعلا ، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل ، مما يقوى به العلم ، ويستقر به الفهم ، ويكون أقرب لإصابة الصواب ، فلا يزاد فيه ، ولا ينقص . والله أعلم .

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

---

* هذا بيان لرذيلة الزنا ، وأنه يدنس عرض صاحبه ، وعرض من قارنه ومازجه ، مالا يفعله بقية الذنوب .

فأخبر أن الزانى لا يقدم على نكاحه من النساء ، إلا أنثى زانية ، تناسب حاله حالها ، أو مشركة بالله ، لا تؤمن ببعث ولا جزاء ، ولا تلتزم أمر الله .

والزانية كذلك ، لا ينكحها إلا زان أو مشرك [وحرم ذلك على المؤمنين] أى : حرم عليهم أن ينكحوا زانيا ، أو ينكحوا زانية .

ومعنى الآية : أن من اتصف بالزنا ، من رجل أو امرأة ، ولم يتب من ذلك ، أن المقدم على نكاحه ، مع تحريم الله لذلك ، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزما لحكم الله ورسوله ، فذاك لا يكون إلا مشركا .

وإما أن يكون ملتزما لحكم الله ورسوله ، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه ، فإن هذا النكاح زنا ، والناكح زان مسافح .

فلو كان مؤمنا بالله حقا ، لم يقدم على ذلك .

وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية ، حتى تتوب ، وكذلك نكاح الزانى حتى يتوب .

فإن مقارنة الزوج لزوجته ، والزوجة لزوجها ، أشد الاقترانات ، والازدواجات .

وقد قال تعالى : « أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم » أى : قرناءهم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ

فحرم الله ذلك ، لما فيه من الشر العظيم .

وفيه من قلة الغيرة ، وإلحاق الأولاد ، الذين ليسوا من الزوج ، وكون الزانى لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها ، مما بعضه كاف فى التحريم .

وفى هذا دليل،على أن الزانى ليس مؤمنا ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » فهو وإن لم يكن مشركا ، فلا يطلق عليه اسم المدح ، الذى هو الإيمان المطلق .

* لما عظم تعالى أمر الزانى بوجوب جلده وكذا رجمه ، إن كان محصنا ، وأنه لا تجوز مقارنته ، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر ، بين تعالى ، تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمى بالزنا فقال :

[والذين يرمون المحصنات] أى : النساء الحرائر العفائف ، وكذلك الرجال ، لا فرق بين الأمرين .

والمراد بالرَّمْيِ الرَّمْيُ بالزنا ، بدليل السياق .

[ثم لم يأتوا] على ما رموا به [بأربعة شهداء] أى : رجال عدول ، يشهدون بذلك صريحاً .

[فاجلدوهم ثمانين جلدة] بسوط متوسط ، يؤلم فيه ، ولا يبالغ بذلك ، حتى يتلفه ، لأن القصد ، التأديب ، لا الإتلاف .

وفى هذا تقرير حد القذف .

ولكن بشرط ، أن يكون المقذوف كما قال تعالى محصنا مؤمنا .

هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

وأما قذف غير المحصن ، فإنه يوجب التعزير .

[ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً] أى : لهم عقوبة أخرى ، وهو أن شهادة القاذف ، غير مقبولة ، ولو حُدَّ على القذف ، حتى يتوب كما يأتى .

[وأولئك هم الفاسقون] أى : الخارجون عن طاعة الله ، الذين قد كثر شرهم .

وذلك لانتهاك ما حرم الله ، وانتهاك عرض أخيه ، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به وإزالة الأخوة التى عقدها الله بين أهل الإيمان ، ومحبة أن تشيع الفاحشة ، فى الذين آمنوا .

وهذا دليل ، على أن القذف من كبائر الذنوب .

وقوله [إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم] فالتوبة فى هذا الموضع ، أن يكذب القاذف نفسه ، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه ، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه ، حيث لم يأت بأربعة شهداء .

فإذا تاب القاذف وأصلح عمله ، وبدل إساءته إحسانا ، زال عنه الفسق ، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح .

فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب جميعاً ، لمن تاب وأناب .

وإنما يجلد القاذف ، إذا لم يأت بأربعة شهداء إذا لم يكن زوجاً .

فإن كان زوجاً ، فقد ذكر بقوله : [والذين يرمون أزواجهم] إلى [تواب حكيم] .

۞ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُاْ

---

* وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته ، دارئة عنه الحد ، لأن الغالب ، أن الزوج لا يقدم على رَمْيِ زوجته ، التى يدنسه مايدنسها إلا إذا كان صادقا .

ولأن له فى ذلك حقا ، وخوفا من إلحاق أولاد ، ليسوا منه به ، ولغير ذلك من الحكم المفقودة فى غيره فقال :

[والذين يرمون أزواجهم] أى الحرائر لا المملوكات .

[ولم يكن لهم] على رميهم بذلك [شهداء إلا أنفسهم] بأن لم يقيموا شهداء ، على ما رموهن به [فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين] .

سماها شهادة ، لأنها نائبة مناب الشهود ، بأن يقول « أشهد بالله ، إنى لمن الصادقين ، فيما رميتها به » .

[والخامسة أن لعنة الله عليه ، إن كان من الكاذبين] أى : يزيد فى الخامسة مع الشهادة المذكورة ، مؤكداً تلك الشهادات ، بأن يدعو على نفسه ، باللعنة إن كان كاذباً .

فإذا تم لعانه ، سقط عنه حد القذف .

وظاهر الآيات ، ولو سمى الرجل الذى رماها به ، فإنه يسقط حقه ، تبعاً لها .

عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

وهل يقام عليها الحد ، بمجرد لعان الرجل ونكولها أم تحبس ؟ فيه قولان للعلماء .

الذى يدل عليه الدليل ، أنه يقام عليه الحد بدليل قوله [ويدرأ عنها العذاب أن تشهد] إلى آخره .

فلولا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه ، لم يكن لعانها دارئا له .

ويدرأ عنها ، أى : يدفع عنها العذاب ، إذا قابلت شهادات الزوج ، بشهادات من جنسها .

[أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين] وتزيد فى الخامسة ، مؤكدة لذلك ، أن تدعو على نفسها بالغضب .

فإذا تم اللعان بينهما ، فرق بينهما إلى الأبد ، وانتفى الولد الملاعن عنه .

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان ، منه ومنها .

واشتراط الترتيب فيها ، وأن لا ينقص منها شىء ، ولا يبدل شىء بشىء .

وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته ، لا بالعكس وأن الشبه فى الولد مع اللعان لا عبرة به ، كما لا يعتبر مع الفراش .

وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح ، إلا هو .

[ولو لا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم] وجواب

الشرط محذوف ، يدل عليه سياق الكلام أى : لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما ، ما دعا به على نفسه .

ومن رحمته وفضله ، ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين ، لشدة الحاجة إليه ، وأن بين لكم شدة الزنا وفظاعته ، وفظاعة القذف به ، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها .

* لما ذكر فيما تقدم تعظيم ، الرّمْى بالزنا عموما ، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة ، التى وقعت على أشرف النساء ، أم المؤمنين رضى الله عنها .

وهذه الآيات ، نزلت فى قصة الإفك المشهورة ، الثابتة فى الصحاح والسنن والمسانيد .

وحاصلها أن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى بعض غزواته ، ومعه زوجته عائشة الصديقة ، بنت الصديق .

فانقطع عقدها فانحبست فى طلبه ورحلوا جملها وهودجها ، فلم يفقدوها ثم استقل الجيش راحلا ، وجاءت مكانهم ، وعلمت أنهم إذا فقدوها ، رجعوا إليها فاستمروا فى مسيرهم .

وكان صفوان بن المعطل السلمى ، من أفاضل الصحابة رضى الله عنه ، قد عرّس فى أخريات القوم ، ونام .

فرأى عائشة رضى الله عنها ، فعرفها ، فأناخ راحلته ، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه ، ثم جاء يقود بها ، بعد ما نزل الجيش فى الظهيرة .

فلما رأى بعض المنافقين ، الذين فى صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك السفر ، مجىء صفوان بها فى هذه الحال أشاع ما أشاع ، وفشا

الحديث ، وتلقفته الألسن ، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين ، وصاروا يتناقلون هذا الكلام ، وانحبس الوحى مدة طويلة عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة ، فحزنت حزنا شديدا .

فأنزل الله براءتها فى هذه الآيات .

ووعظ الله المؤمنين ، وأعظم ذلك ، ووصاهم بالوصايا النافعة

فقوله تعالى : [إن الذين جاءوا بالإفك] أى : الكذب الشنيع ، وهو رَمْىُ أم المؤمنين [عصبة منكم] أى : جماعة منتسبون إليكم يامعشر المؤمنين ، منهم المؤمن الصادق فى إيمانه ، لكنه اغتر بترويج المنافقين ، ومنهم المنافق .

[لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم] لما تضمن ذلك من تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها ، والتنويه بذكرها ، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم .

ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد ، التى ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم ، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك .

وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً ، ولذلك جعل الخطاب عاما مع المؤمنين كلهم .

وأخبر أن قدح بعضهم ببعض ، كقدح فى أنفسهم .

مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ

ففيه أن المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، واجتماعهم على مصالحهم ، كالجسد الواحد ، والمؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

فكما أنه يكره أن يقدح أحد فى عرضه ، فليكره من كل أحد ، أن يقدح فى أخيه المؤمن ، الذى بمنزلة نفسه ، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة ، فإنه من نقص إيمانه ، وعدم نصحه .

[لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم] وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك ، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك ، وقد حد النبى صلى الله عليه وسلم منهم جماعة .

[والذى تولى كبره] أى : معظم الإفك ، وهو المنافق الخبيث ، عبدالله بن أُبَىٍّ ، ابن سلول ، لعنه الله [له عذاب عظيم] ألا وهو الخلود فى الدرك الأسفل من النار .

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال :

[لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً] أى : ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً ، وهو السلام مما رموا به ، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم ، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل .

[وقالوا] بسبب ذلك الظن [سبحانك] أى : تنزيها لك من كل سوء ، وعن أن تبتلى أصفياءك بالأمور الشنيعة .

إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِالشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم

[هذا إفك مبين] أى : كذب وبهت ، من أعظم الأشياء ، وأبينها.

فهذا من الظن الواجب ، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن ، مثل هذا الكلام ، أن يبرئه بلسانه ، ويكذب القائل لذلك .

[لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء] أى : هلا جاء الرامون على ما رموا به ، بأربعة شهداء أى : عدول مرضيين .

[فإذ لم يؤتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون] وإن كانوا فى أنفسهم قد تيقنوا ذلك ، فإنهم كاذبون فى حكم الله ، لأنه حرم عليهم التكلم بذلك ، من دون أربعة شهود .

ولهذا قال : [فأولئك عندالله هم الكاذبون] ، ولم يقل « فأولئك هم الكاذبون » .

وهذا كله ، من تعظيم حرمة عرض المسلم ، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه ، من دون نصاب الشهادة بالصدق .

[ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة] بحيث شملكم إحسانه فيهما ، فى أمر دينكم ودنياكم .

[لمسكم فيما أفضتم] أى : خضتم [فيه] من شأن الإفك [عذاب عظيم] لاستحقاقكم ذلك بما قلتم .

مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ

ولكن من فضل الله عليكم ورحمته ، أن شرع لكم التوبة ، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب .

[إذ تلقونه بألسنتكم] أي : تتلقفونه ، ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه ، وهو قول باطل .

[وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم] والأمران محظوران ، التكلم بالباطل ، والقول بلا علم .

[وتحسبونه هينا] فلذلك أقدم عليه ، من أقدم ، من المؤمنين ، الذين تابوا منه ، وتطهروا بعد ذلك .

[وهو عند الله عظيم] وهذا فيه الزجر البليغ ، عن تعاطى بعض الذنوب على وجه التهاون بها .

فإن العبد لا يفيده حسبانه شيئا ، ولا يخفف من عقوبته ، الذنب .

بل يضاعف الذنب ، ويسهل عليه مواقعته ، مرة أخرى .

[لولا إذ سمعتموه] أي : وهلا إذ سمعتم — أيها المؤمنون — كلام أهل الإفك .

[قلتم] منكرين لذلك ، معظمين لأمره : [ما يكون لنا أن نتكلم بهذا] أي : ما ينبغى لنا ، وما يليق بنا الكلام ، بهذا الإفك المبين ،

هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح [هذا بهتان] أي كذب عظيم [1] .

[يعظكم الله أن تعودوا لمثله] أى : لنظيره ، من رَمْيِ المؤمنين بالفجور .

فالله يعظكم ، وينصحكم عن ذلك ، ونعم المواعظ والنصائح ، من ربنا فيجب علينا مقابلتها ، بالقبول والإذعان ، والتسليم والشكر له ، على ما بيَّن لنا « إن الله نعما يعظكم به » .

[إن كنتم مؤمنين] دل ذلك على أن الإيمان الصادق ، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات .

[ويبين الله لكم الآيات] المشتملة ، على بيان الأحكام ، والوعظ ،

---

(١) أى لما يترتب عليه من إلحاق الأذى بالناس ، الذى يفضى إلى إفساد المجتمع .

والله نهى المؤمنين أن يؤذوا ، بعضهم بعضاً .

فإذا عمد المرء فى إلحاق الأذى بالناس ، يكون قد خالف ربه ، وهذه المخالفة عليها عقاب مخالفة الأمر الإلهى ، وعقاب آخر وهو أذى الناس .

فيكون عذابه مزدوجا ، ولذلك وصف الله هذه الجريمة بأنها عظيمة فى قوله (وهو عند الله عظيم) وحذرنا من ارتكابها بقوله [يعظكم الله أن تعودوا لمثله إن كنتم مؤمنين] ومفهوم هذا الكلام أن مخالفه ، خرج من الإيمان

حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ

والزجر ، والترغيب ، والترهيب ، يوضحها لكم توضيحا جليا .

[والله عليم] أى : كامل العلم [حكيم] عام الحكمة .

فمن علمه وحكمته ، أن علمكم من علمه ، وإن كان ذلك ، راجعاً لمصالحكم فى كل وقت .

[إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة] أى : الأمور الشنيعة المستقبحة ،فيحبون أن تشتهر الفاحشة [فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم] أى : موجع للقلب والبدن ، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين ، ومحبة الشر لهم ، وجراءته على أعراضهم .

فإذا كان هذا الوعيد ،لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة ،واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك ، من إظهاره ، ونقله ؟!! وسواء كانت الفاحشة ، صادرة ، أو غير صادرة .

وكل هذا ، من رحمة الله لعباده المؤمنين ، وصيانة أعراضهم ، كما صان دماءهم وأموالهم ، وأمرهم بما يقتضى المصافاة ، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ، ما يكره لنفسه .

[والله يعلم وأنتم لا تعلمون] فلذلك علمكم ، وبيّن لكم ما تجهلونه .

[ولولا فضل الله عليكم] قد أحاط بكم من كل جانب [ورحمته

رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَوْلَا

وأن الله رءوف رحيم] لَمَا بيَّن لكم هذه الأحكام والمواعظ ، والحكم الجليلة ، ولما أمهل من خالف أمره .

ولكن فضله ورحمته ، وأن ذلك وصفه اللازم آثر لكم من الخير الدنيوى والأخروى ، ما لن تحصوه ، أو تعدوه .

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه ، نهى عن الذنوب عموما فقال :

[يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان] أى طرقه ووساوسه .

وخطوات الشيطان ، يدخل فيها سائر المعاصى المتعلقة بالقلب ، واللسان والبدن .

ومن حكمته تعالى ، أن بيَّن الحكم ، وهو : النَّهْىُ عن اتباع خطوات الشيطان .

والحكمة وهو بيان ما فى المنهى عنه ، من الشر المقتضى ، والداعى لتركه فقال : [ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه] أى : الشيطان [يأمر بالفحشاء] أى : ما تستفحشه العقول والشرائع ، من الذنوب العظيمة ، مع ميل بعض النفوس إليه .

[والمنكر] وهو : ما تنكره العقول ولا تعرفه .

فالمعاصى التى هى خطوات الشيطان ، لا تخرج عن ذلك .

فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ

فنهى الله عنها العباد ، نعمة منه عليهم ، أن يشكروه ويذكروه ، لأن ذلك ، صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح .

فمن إحسانه عليهم ، أن نهاهم عنها ، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها .

[ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا] أى : ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان ، لأن الشيطان يسعى ، هو وجنده ، فى الدعوة إليها وتحسينها ، والنفس ميالة إلى السوء ، أمارة به ، والنقص مُسْتَوْلٍ على العبد ، من جميع جهاته ، والإيمان غير قوى .

فلو خُلِّيَ وهذه الدواعى ، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب ، والسيئات ، والنماء بفعل الحسنات ، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء .

ولكن فضله ورحمته أوجبا ، أن يتزكى منكم ، من تزكى .

وكان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » ولهذا قال :

[ولكن الله يزكى من يشاء] من يعلم منه أن يتزكى بالتزكية ، ولهذا قال : [والله سميع عليم] .

[ولا يأتل] أى : لا يحلف [أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا] .

كان من جملة الخائضين فى الإفك « مِسْطح بن أثاثة » وهو قريب

أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ

لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان مسطح فقيرا من المهاجرين فى سبيل الله .

فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ، لقوله الذى قال .

فنزلت هذه الآية ، ينهاهم عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه ، ويحثه على العفو والصفح ، ويعده بمغفرة الله ، إن غفر له فقال :

[ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم] إذا عاملتم عبيده ، بالعفو والصفح ، عاملكم بذلك ، فقال أبو بكر — لما سمع هذه الآية — : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع النفقة إلى مسطح .

وفى هذه الآية دليل على النفقة على القريب ، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان ، والحث على العفو والصفح ، ولو جرى منه ما جرى من أهل الجرائم .

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمى المحصنات فقال :

[إن الذين يرمون المحصنات] أى : العفائف عن الفجور [الغافلات] اللاتى لم يخطر ذلك بقلوبهن [المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة] واللعنة ، لا تكون إلا على ذنب كبير.

ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ

وأكد[1] اللعنة بأنها متواصلة عليهم فى الدارين .

[ولهم عذاب عظيم] وهذا زيادة على اللعنة ، أبعدهم عن رحمته ، وأحل بهم شدة نقمته .

وذلك العذاب يوم القيامة [يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون] فكل جارحة تشهد عليه بما عملته ، ينطقها الذى أنطق كل شيء ، فلا يمكنه الإنكار .

ولقد عدل فى العباد ، من جعل شهودهم من أنفسهم .

[يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق] أى : جزاءهم على أعمالهم ، الجزاء الحق ، الذي بالعدل والقسط ، يجدون جزاءها موفراً ، لم يفقدوا منها شيئاً .

« ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

ويعلمون فى ذلك الموقف العظيم ، أن الله هو الحق المبين فيعلمون انحصار الحق المبين فى الله تعالى .

---

(١) قوله « وأكد . إلخ » توضيحه أن يقال : إن اللعنة من الناس متواصلة على القاذفين للمحصنات الموصوفات بالآية . وبإقامة الحد عليهم فى الدنيا ، وبالعذاب العظيم فى الآخرة .

أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ

فأوصافه العظيمة حق ، وأفعاله هى الحق ، وعبادته هى الحق ، ولقاؤه حق ،ووعيده حق ، وحكمه الدينى والجزائى حق ، ورسله حق ،فلا ثَمَّ حق، إلا فى الله ، وما من الله .

[الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات] أى : كل خبيث من الرجال والنساء ، والكلمات والأفعال ، مناسب للخبيث ، وموافق له ، ومقترن به ، ومشاكل له .

وكل طيب من الرجال والنساء ، والكلمات ، والأفعال ، مناسب للطيب ، وموافق له ، ومقترن به ، ومشاكل له .

فهذه كلمة عامة وحصر ، لا يخرج منه شيء ، من أعظم مفرداته ، أن الأنبياء ، خصوصا أولى العزم منهم ، خصوصا سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى هو أفضل الطيبين من الخلق ، على الإطلاق ،لايناسبهم إلا كل طيب من النساء .

فالقدح فى عائشة رضى الله عنها بهذا الأمر ، قدح فى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو المقصود بهذا الإفك ، من قصد المنافقين .

فمجرد كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة ، من هذا الأمر القبيح .

فكيف وهى ما هى ؟ ! ! صِدِّيقَةُ النساء ، وأفضلهن ، وأعلمهن ، وأطيبهن ، حبيبة رسول رب العالمين ، التى لم ينزل الوحى عليه ، وهو فى لحاف زوجة من زوجاته ، غيرها ؟!! .

مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ

ثم صرح بذلك ، بحيث لا يبقى لمبطل مقالا ، ولا لشك وشبهة مجالا فقال :

[أولئك مبرءون مما يقولون] والإشارة إلى عائشة رضى الله عنها أصلا ، وللمؤمنات المحصنات الغافلات ، تبعاً لها .

[لهم مغفرة] تستغرق الذنوب [ورزق كريم] فى الجنة صادر من الرب الكريم .

* يرشد البارى عباده المؤمنين ، أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم بغير استئذان .

فإن فى ذلك عدة مفاسد :

منها ما ذكره الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث قال « إنما جعل الاستئذان من أجل البصر » .

فبسبب الإخلال به ، يقع البصر على العورات ، التى داخل البيوت . فإن البيت للإنسان ، فى ستر عورة ما وراءه بمنزلة الثوب فى ستر عورة جسده .

ومنها : أن ذلك ، يوجب الريبة من الداخل ، ويتهم بالشر ، سرقة أو غيرها ، لأن الدخول خفية ، يدل على الشر .

ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم [حتى تستأنسوا] أى تستأذنوا .

تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟

سمى الاستئذان استئناساً ، لأن به يحصل الاستئناس ، وبعدمه تحصل الوحشة .

[وتسلموا على أهلها] .

وصفة ذلك ، ما جاء فى الحديث « السلام عليكم ، أأدخل » ؟ .

[ذلكم] أى الاستئذان المذكور [خير لكم لعلكم تذكرون » لاشتماله على عدة مصالح ، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة ، فإن أذن ، دخل المستأذن .

[فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا] أى : فلا تمتنعوا من الرجوع ، ولا تغضبوا منه .

فإن صاحب المنزل ، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم ، وإنما هو متبرع ، فإن شاء أذن ، أو منع .

فأنتم لا يأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز ، من هذه الحال .

[هو أزكى لكم] أى : أشد لتطهيركم من السيئات ، وتنميتكم بالحسنات .

[والله بما تعملون عليم] فيجازى كل عامل بعمله ، من كثرة وقلة ، وحسن ، وعدمه .

هذا الحكم ، فى البيوت المسكونة ، سواء كان فيها متاع للإنسان ،

بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

أم لا ، وفى البيوت غير المسكونة ، التى لا متاع فيها للإنسان .

وأما البيوت التى ليس فيها أهلها ، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه ، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه ، وذلك كبيوت الكراء وغيرها ، فقد ذكرها بقوله :

[ليس عليكم جناح] أى : حرج وإثم ، دل على أن الدخول من غير استئذان فى البيوت السابقة ، أنه محرم ، وفيه حرج [أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم] وهذا من احترازات القرآن العجيبة ، فإن قوله [لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم] لفظ عام فى كل بيت ليس ملكا للإنسان، أخرج منه تعالى البيوت التى ليست ملكه ، وفيها متاعه ، وليس فيها ساكن ، فأسقط الحرج فى الدخول إليها .

[والله يعلم ما تبدون وما تكتمون] أحوالكم الظاهرة والخفية ، وعلم مصالحكم ، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه وتضطرون، من الأحكام الشرعية .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

* أى: أَرْشِدِ المؤمنين، وقل لهم، الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل بالإيمان: [يغضوا من أبصارهم] عن النظر إلى العورات وإلى النساء الأجنبيات، وإلى المردان، الذين يخاف بالنظر إليهم الفتنة، وإلى زينة الدنيا التى تفتن، وتوقع فى المحذور.

[ويحفظوا فروجهم] عن الوطء الحرام، فى قُبُلٍ أو دُبُرٍ، أو ما دون ذلك، وعن التمكين من مسها، والنظر إليها.

[ذلك] الحفظ للأبصار والفروج [أزكى لهم] أطهر، وأطيب، وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذى يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم، الذى تطمع إليه النفس وتدعو إليه.

فمن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيرا منه، ومن غض بصره، أنار الله بصيرته

ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته، مع دواعى الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظا.

فالشىء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه فى مراقبته وحفظه، وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ.

كذلك البصر والفرج، إن لم يجتهد العبد فى حفظهما، أوقعاه فى بلايا ومحن.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقا ، لأنه لا يباح فى حالة من الأحوال وأما البصر فقال : [يغضوا من أبصارهم] بأداة « من » الدالة على التبعيض .

فإنه يجوز النظر فى بعض الأحوال ، لحاجة كنظر الشاهد والعامل والخاطب ، ونحو ذلك .

ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم ، ليجتهدوا فى حفظ أنفسهم من المحرمات .

* لما أمر المؤمنين بغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، أمر المؤمنات بذلك فقال :

[وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن] عن النظر إلى العورات والرجال ، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع .

[ويحفظن فروجهن] من التمكين من جماعهن ، أو مسهن ، أو النظر المحرم إليهن .

[ولا يبدين زينتهن] كالثياب الجميلة والحلى ، وجميع البدن كله من الزينة .

ولما كانت الثياب الظاهرة ، لا بد لها منها قال : [إلا ما ظهر منها] أى الثياب الظاهرة ، التى جرت العادة بلبسها إذا لم يكن فى ذلك ، مايدعو إلى الفتنة بها .

بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ

[وليضربن بخمرهن على جيوبهن] وهذا لكمال الاستتار .

ويدل ذلك ، على أن الزينة التي يحرم إبداؤها ، يدخل فيها جميع البدن ، كما ذكرنا .

ثم كرر النهى عن إبداء زينتهن ، ليستثنى منه قوله : [إلا لبعولتهن] أى : أزواجهن [أو آبائهن أو آباء بعولتهن] يشمل الأب بنفسه ، والجد، وإن علا .

[أو إخوانهن أو بنى إخوانهن] أشقاء ، أو لأب ، أو لأم .

[أو بنى أخواتهن أو نسائهن] أى : يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقا .

ويحتمل أن الإضافة ، تقتضى الجنسية ، أى : النساء المسلمات ، اللاتى من جنسكن .

ففيه دليل لمن قال : إن المسلمة ، لا يجوز أن تنظر إليها الذمية .

[أو ما ملكت أيمانهن] فيجوز للملوك ، إذا كان كله للأنثى ، أن ينظر لسيدته ، ما دامت مالكة له كله ، فإذا زال الملك أو بعضه ، لم يجز النظر .

[أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال] أى : والذين يتبعونكم ، ويتعلقون بكم ، من الرجال ، الذين لا إربة لهم ، فى هذه الشهوة

عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ

كالمعتوه[١] الذى لا يدرى ما هنالك ، كالعِنِّين [٢] الذى لم يبق له شهوة ، لا فى فرجه ، ولا فى قلبه ، فإن هذا ، لا محذور من نظره .

[أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء] أى : الأطفال الذين دون التميز ، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب .

وعلل تعالى ذلك ، بأنهم لم يظهروا على عورات النساء ، أى : ليس لهم علم بذلك ، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد .

ودل هذا ، أن المميز تستتر منه المرأة ، لأنه يظهر على عورات النساء .

[ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن] أى : لا يضربن الأرض بأرجلهن ، لِيُصوِّت ما عليهن من حُلِيٍّ ، كخلاخل وغيرها ، فتعلم زينتها بسببه ، فيكون وسيلة إلى الفتنة .

---

(١) المعتوه : الناقص العقل . اهـ . من المختار من الصحاح .
وقال فى المصباح : عَتِهَ عَتهاً من باب « تعب » نقص عقله من غير جنون وفى التهذيب « المعتوه : المدهوش من غير مس أو جنون . ا هـ » .

(٢) العنّين : هو الذى لا يقدر على إتيان النساء ، أو لا يشتهى النساء ، وامرأة عنينة : لا تشتهى الرجال اهـ مصباح .

وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

ويؤخذ من هذا ونحوه ، قاعدة سد الوسائل[1] وأن الأمر إذا كان مباحاً ، ولكنه يفضى إلى محرم ، أو يخاف من وقوعه ، فإنه يمنع منه .

فالضرب بالرجل فى الأرض ، الأصل أنه مباح ، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة ، منع منه .

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة ، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك — أمر الله تعالى بالتوبة فقال :

[وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون] ثم علق على ذلك،الفلاح فقال :

[لعلكم تفلحون] فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة ، وهى الرجوع مما يكرهه الله ، ظاهراً وباطنا ، إلى : ما يحبه ظاهراً وباطنا .

ودل هذا ، أن كل مؤمن ، محتاج إلى التوبة ، لأن الله خاطب المؤمنين جميعا .

وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة ، فى قوله [وتوبوا إلى الله] .

أى : لا لمقصد غير وجهه ، من سلامة ، من آفات الدنيا ، أو رياء ، وسمعة ، أو نحو ذلك ، من المقاصد الفاسدة .

---

(١) قوله : « سد الوسائل » الصواب أن يقال « سد الذرائع » كما هو المشهور على ألسنة العلماء .

﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ

* يأمر تعالى الأولياء والأسياد ، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى وهم : من لا أزواج لهم ، من رجال ، ونساء ثيبات ، وأبكار .

فيجب على القريب ، وولى اليتيم ، أن يزوج من يحتاج للزواج ، ممن تجب نفقته عليه .

وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم ، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم ، من باب أولى .

[والصالحين من عبادكم وإمائكم] يحتمل أن المراد بالصالحين ، صلاح الدين ، وأن الصالح من العبيد والإماء ، وهو الذى لا يكون فاجراً زانيا ، مأمور سيده بإنكاحه ، جزاء له على صلاحه ، وترغيبا له فيه .

ولأن الفاسد بالزنا ، منهىٌّ عن تزوجه ، فيكون مؤيدا للمذكور فى أول السورة ، أن نكاح الزانى والزانية ، محرم ، حتى يتوب .

ويكون التخصيص بالصلاح فى العبيد والإماء ، دون الأحرار ،لكثرة وجود ذلك فى العبيد عادة .

ويحتمل أن المراد بالصالحين ، الصالحون للتزوج المحتاجون إليه ، من العبيد والإماء .

يؤيد هذا المعنى ، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه ، قبل حاجته إلى الزواج .

ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما ، والله أعلم .

وقوله : [إن يكونوا فقراء] أى : الأزواج والمتزوجين [يغنهم الله

عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ

من فضله] فلا يمنعكم ما تتوهمون ، من أنه إذا تزوج ، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه .

وفيه حث على التزوج ، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر .

[والله واسع] كثير الخير عظيم الفضل [عليم] بمن يستحق فضله الديني والدنيوي ، أو أحدهما ، ممن لا يستحق ، فيعطي كُلاً ، ما علمه واقتضاه حكمه .

[وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله] هذا حكم العاجز عن النكاح ، أمره الله أن يستعفف ، أي : أن يكف عن المحرم ، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه ، من صرف دواعي قلبه، بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه .

ويفعل أيضا ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» .

وقوله [الذين لا يجدون نكاحا] أي : لا يقدرون نكاحا[1] إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم ، أو امتناعهم من تزويجهم ، وليس لهم قدرة على إجبارهم على ذلك .

وهذا التقدير ، أحسن من تقدير من قد « لا يجدون مهر نكاح » .

---

(١) قوله « لا يقدرون نكاحا » الصواب أن يقال « لا يقدرون على النكاح لأن فعل « قدر » لا يتعدى بنفسه بل بحرف الجر « على » فيقال « قدر عليه » ولا يقال « قدره » .

مِن فَضْلِهِ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ

وجعلوا المضاف إليه نائبا مناب المضاف ، فإن في ذلك محذورين .

أحدهما : الحذف فى الكلام ، والأصل ، عدم الحذف .

والثانى كون المعنى قاصراً على من له حالتان ، حالة غنى بماله ، وحالة عدم .

فيخرج العبيد والإماء ، ومن إنكاحه على وليه ، كما ذكرنا .

[حتى يغنيهم الله من فضله] وعد للمستعفف أن الله سيغنيه ، وييسر له أمره ، وأمر له بانتظار الفرج ، لئلا يشق عليه ما هو فيه .

وقوله [والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً] .

أى : من ابتغى وطلب منكم الكتابة ، وأن يشترى نفسه ، من عبيد وإماء ، فأجيبوه إلى ما طلب ، وكاتبوه .

[إن علمتم فيهم] أى فى الطالبين للكتابة [خيرا] أى : قدرة على التكسب ، وصلاحا فى دينه .

لأن فى الكتابة ، تحصيل المصلحتين ، مصلحة العتق والحرية ، ومصلحة العوض ، الذى يبذله فى فداء نفسه .

وربما جد واجتهد ، وأدرك لسيده فى مدة الكتابة من المال ، ما لا يحصل عليه فى رقه .

ءَاتَىٰكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

فلا يكون ضرر على السيد فى كتابته ، مع حصول عظيم المنفعة للعبد .

فلذلك أمر الله بالكتابة ، على هذا الوجه ، أمر إيجاب ، كما هو الظاهر ، أو أمر استحباب على القول الآخر .

وأمر بمعاونتهم على كتابتهم ، لكونهم محتاجين لذلك ، بسبب أنهم لا مال لهم فقال :

[وآتوهم من مال الله الذى آتاكم] يدخل فى ذلك أمر سيده ، الذى كاتبه ، أن يعطيه من كتابته ، أو يسقط عنه منها ، وأمر الناس بمعونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطا من الزكاة ، ورغب فى إعطائه بقوله :

[من مال الله الذى آتاكم] أى : فكما أن المال مال الله ، وإنما الذى بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منه ، فأحسنوا لعباد الله ، كما أحسن الله إليكم .

ومفهوم الآية الكريمة ، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة ، لا يؤمر سيده ، أن يبتدىء بكتابته ، وأنه إذا لم يعلم منه خيرا ، بأن علم منه عكسه ، إما أنه يعلم أنه لا كسب له ، فيكون بسبب ذلك كلاًّ على الناس ، ضائعا .

وإما أن يخاف إذا أعتق ، وصار فى حرية نفسه ، أن يتمكن من الفساد ، فهذا لا يؤمر بكتابته ، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور .

ثم قال تعالى : [ولا تكرهوا فتياتكم] أى : إماءكم [على البغاء] أى : أن تكون زانية [إن أردن تحصنا] لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال .

لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

وأما إذا لم ترد تحصنا فإنها تكون بغياً ، يجب على سيدها ، منعها من ذلك .

وإنما نهى عن هذا لما كانوا يستعملونه فى الجاهلية ، من كون السيد يجبر أمته على البغاء ، ليأخذ منها أجرة ذلك ، ولهذا قال :

[لتبتغوا عرض الحياة الدنيا] فلا يليق بكم أن تكون إماؤكم ، خيراً منكم ، وأعف عن الزنا ، وأنتم تفعلون بهن ذلك ، لأجل عرض الحياة ، متاع قليل يعرض ، ثم يزول .

فكسبكم النزاهة ، والنظافة ، والمروءة — بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها — أفضل من كسبكم العرض القليل ، الذى يكسبكم الرذالة والخسة .

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة فقال : [ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم] فَلْيَتُبْ إلى الله ولْيُقْلِعْ عما صدر منه ، مما يغضبه .

فإذا فعل ذلك ، غفر الله ذنوبه ، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب ، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها .

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ

هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات ، تلاها على عباده ، ليعرفوا قدرها ، ويقوموا بحقها فقال : [ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات] .

أى : واضحات الدلالة ، على كل أمر تحتاجون إليه ، من الأصول والفروع ، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة .

[و] أنزلنا إليكم أيضاً [مثلا من الذين خلوا من قبلكم] من أخبار الأولين ، الصالح منهم والطالح ، وصفة أعمالهم ، وماجرى لهم ، وجرى عليهم تعتبرونه مثالا ومعتبرا ، لمن فعل مثل أعمالهم أن يجازى مثل ما جوزوا .

[وموعظة للمتقين] أى : وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين ، من الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، يتعظ بها المتقون ، فيكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله .

* [الله نور السموات والأرض] الحسى والمعنوى .

وذلك أنه تعالى بذاته ، نور ، وحجابه نور ، الذى لو كشفه ، لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

وبه استنار العرش ، والكرسى ، والشمس ، والقمر والنور ، وبه استنارت الجنة .

وكذلك المعنوى ، يرجع إلى الله ، فكتابه نور ، وشرعه نور ، والإيمان

فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَـكَادُ

والمعرفة فى قلوب رسله وعباده المؤمنين ، نور .

فلولا نوره تعالى ، لتراكمت الظلمات ، ولهذا ، كل محل ، يفقد نوره فَثَمَّ الظلمة والحصر

[مثل نوره] الذى يهدى إليه ، وهو نور الإيمان والقرآن فى قلوب المؤمنين .

[كمشكاة] أى : كوة [فيها مصباح] لأن الـكوة ، تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق .

ذلك [المصباح فى زجاجة الزجاجة] من صفائها وبهائها [كأنها كوكب دري] أى : مضىء إضاءة الدر .

[يوقد] ذلك المصباح ، الذى فى تلك الزجاجة الدرية [من شجرة مباركة زيتونة] أى : بوقد من زيت الزيتون الذى ناره ، من أنور ما يكون .

[لاشرقية] فقط ، فلا تصيبها الشمس ، آخر النهار .

[ولا غربية] فقط ، فلا تصيبها الشمس ، أول النهار .

وإذا انتفى عنها الأمران ، كانت متوسطة من الأرض .

كزيتون الشام ، تصيبه الشمس أول النهار وآخره ، فيحسن ويطيب ، ويكون أصفى لزيتها ، ولهذا قال :

زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ

[يكاد زيتها] من صفائه [يضيء ولو لم تمسسه نار] فإذا مسته النار ، أضاء إضاءة بليغة [نور على نور] أي : نور النار ، ونور الزيت .

ووجه هذا المثل ، الذى ضربه الله ، وتطبيقه على حالة المؤمن ، ونور الله فى قلبه ، أن فطرته التى فطر عليها ، بمنزلة الزيت الصافى .

ففطرته صافية ، مستعدة للتعاليم الإلهية ، والعمل المشروع .

فإذا وصل إليه العلم والإيمان ، اشتعل ذلك النور فى قلبه ، بمنزلة إشعال النار ، فتيلة ذلك المصباح ، وهو صافى القلب ، من سوء القصد ، وسوء الفهم عن الله .

إذا وصل إليه الإيمان ، أضاء إضاءة عظيمة ، لصفائه من الكدورات .

وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية ، فيجتمع له ، نور الفطرة ، ونور الإيمان ، ونور العلم ، وصفاء المعرفة ، نور على نوره .

ولما كان هذا من نور الله تعالى ، وليس كل أحد يصلح له ذلك قال :

[يهدى الله لنوره من يشاء] ممن يعلم زكاءه وطهارته ، وأنه يزكى معه ، وينمى .

[ويضرب الله الأمثال للناس] ليعقلوا عنه ، ويفهموا ، لطفا منه

عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ

بهم ، وإحسانا إليهم وليتضح الحق من الباطل ، فإن الأمثال تقرب المعانى المعقولة من المحسوسة ، فيعلمها العباد علما واضحا .

[والله بكل شىء عليم] فعلمه محيط بجميع الأشياء .

فَلْتَعْلَمُوا أن ضَرْبَه الأمثال، ضَرْبُ من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها وأنها مصلحة للعباد .

فَلْيَكُنِ اشتغالكم بِتَدبُّرِها وتعقُّلها ، لابالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها فإنه يعلم ، وأنتم لا تعلمون .

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه فى المساجد ، ذكرها منوها بها فقال : [فى بيوت أذن الله] إلى [بغير حساب] .

* أى : يتعبد لله [في بيوت] عظيمة فاضلة ، هى أحب البقاع إليه ، وهى : المساجد .

[أذن الله] أى : أمر ووصى [أن ترفع ويذكر فيها اسمه] هذان مجموع أحكام المساجد .

فيدخل فى رفعها ، بناؤها ، وكنسها وتنظيفها من النجاسات والأذى وصونها من المجانين والصبيان ، الذين لا يتحرزون عن النجاسات ، وعن الكافر ، وأن تصان عن اللغو فيها ، ورفع الأصوات بغير ذكر الله .

[ويذكر فيها اسمه] يدخل فى ذلك ، الصلاة كلها ، فرضها ، ونفلها ، وقراءة القرآن ، والتسبيح، والتهليل ، وغيره من أنواع الذكر ، وتعلُّم العلم

يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ

وتعليمه ، والمذاكرة فيها ، والاعتكاف ، وغير ذلك من العبادات ، التى تفعل فى المساجد ، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين :

عمارة بنيان ، وصيانة لها ، وعمارة بذكر اسم الله ، من الصلاة وغيرها وهذا أشرف القسمين .

ولهذا شرعت الصلوات الخمس ، والجمعة ، فى المساجد ، وجوباً عند أكثر العلماء ، واستحبابا عند آخرين .

ثم مدح تعالى، عُمَّارَهَا بالعبادة فقال : [يسبح له فيها] إخلاصاً [بالغدو] أول النهار [والآصال] آخره [رجال] .

خص هذين الوقتين ، لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله ، وسهولته .

ويدخل فى ذلك ، التسبيح فى الصلاة وغيرها ، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء ، وأورادهما عند الصباح والمساء .

أى : يسبح فيها الله ، رجال ، وأى رجال ، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ، ذات لذات ، ولا تجارة ومكاسب ، مشغلة عنه .

[لا تلهيهم تجارة] وهذا يشمل كل تكسُّب يقصده به العوض ، فيكون قوله :

أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ

[ولا بيع] من باب عطف الخاص على العام ، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره .

فهؤلاء الرجال ، وإن اتجروا ، وباعوا ، واشتروا ، فإن ذلك ، لا محذور فيه .

لكنه لاتلهيم تلك ، بأن يقدموها ويؤثروها على [ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة] بل جعلوا طاعة الله وعبادته ، غاية مرادهم ، ونهاية مقصدهم .

فما حال بينهم وبينها ، رفضوه .

ولما كان ترك الدنيا ، شديداً على أكثر النفوس ، وحب المكاسب بأنواع التجارات ، محبوباً لها ، ويشق عليها تركه فى الغالب ، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك ، ذكر مايدعوها إلى ذلك ، ترغيبا وترهيبا — فقال :

[يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار] من شدة هوله وإزعاجه القلوب والأبدان ، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل ، وترك ما يشغل عنه .

[ليجزيهم الله أحسن ما عملوا] والمراد بأحسن ما عملوا : أعمالهم الحسنة الصالحة ، لأنها أحسن ما عملوا ، لأنهم يعملون المباحات وغيرها .

فالثواب لايكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى : « ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ

[ويزيدهم من فضله] زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم .

[والله يرزق من يشاء بغير حساب] بل يعطيه من الأجر ، مالا يبلغه عمله ، بل ولا تبلغه أمنيته .

ويعطيه من الأجر ، بلا عدٍّ ؛ ولا كيل ؛ وهذا كناية عن كثرته جداً .

* هذان مثلان ، ضربهما الله لأعمال الكفار ؛ فى بطلانها وذهابها سدى ؛ وتحسر عامليها منها فقال :

[والذين كفروا] بربهم وكذبوا رسله [أعمالهم كسراب بقيعة] أى : بقاع ؛ لا شجر فيه ولا نبات .

[يحسبه الظمآن ماء] شديد العطش ، الذى يتوهم ، مالا يتوهم غيره ، بسبب ما معه من العطش ، وهذا حسبان باطل ، فيقصده ليزيل ظمأه .

[حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً] فندم ندما شديدا ، وازداد ما به من الظمأ ، بسبب انقطاع رجائه .

كذلك أعمال الكفار ، بمنزلة السراب ، ترَى ويظنها الجاهل الذى لا يدرى الأمور ، أعمالا نافعة ، فتغره صورتها ، ويخلبه خيالها ، ويحسبها هو أيضاً أعمالا نافعة لهواه ، وهو أيضاً محتاج إليها ، كاحتياج الظمآن للماء .

فَوَفَّٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا

حتى إذ قدم على أعماله ، يوم الجزاء ، وجدها ضائعة ، ولم يجدها شيئاً .

والحال إنه لم يذهب ، لا له ولا عليه .

بل [وجد الله عنده فوفاه حسابه] .

لم يَخْفَ عليه من عمله ، نقير[1] ولا قطمير[2] ولن يعدم منه قليلا ولا كثيراً .

[والله سريع الحساب] فلا يستبطىء الجاهلون ذلك الوعد ، فإنه لا بد من إتيانه .

ومَثَّلها الله بالسراب ، الذى بقيعة ، أى : لاشجر فيه ولا نبات ، وهذا مثال لقلوبهم ، لا خير فيها ولا بر ، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع ، وهو الكفر .

والمثل الثانى ، لبطلان أعمال الكفار [كظلمات فى بحر لجى] بعيد قعره ، طويل مداه [يغشاه موج من فوقه موج ، من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض] ظلمة البحر اللجى ، ثم فوقه ظلمة الأمواج المتراكمة ، ثم فوق ذلك ،ظلمة السحب المدلهمة،ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم .

---

(١) النقير : النقرة التى فى ظهر نواة التمر . اهـ . من المختار من الصحاح وفى المصباح « النقير » النكتة فى ظهر النواة .

(٢) قال الراغب فى معجم مفردات ألفاظ القرآن : « قطمير » أي : الأثر فى ظهر النواة وذلك مَثَلٌ للشىء الطفيف [أى : القليل] جداً .

فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

فاشتدت الظلمة جدا ، بحيث أن الكائن فى تلك الحال [إذا أخرج يده لم يكد يراها] مع قربها إليه ، فكيف بغيرها .

كذلك الكفار ، تراكمت على قلوبهم الظلمات ، ظلمة الطبيعة ، التى لاخير فيها ، وفوقها ظلمة الكفر ، وفوق ذلك ، ظلمة الجهل ، وفوق ذلك ، ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر .

فبقوا فى الظلمة متحيرين ، وفى غمرتهم يعمهون ، وعن الصراط المستقيم مدبرون ، وفى طرق الغى والضلال ، يترددون

وهذا لأن الله خذلهم ، فلم يعطهم من نوره .

« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » لأن نفسه ظالمة جاهلة ، فليس فيها من الخير والنور ، إلا ما أعطاها مولاها ، ومنحها ربها .

يحتمل أن هذين المثالين ، لأعمال جميع الكفار ، كل منهما ، منطبق عليها ، وعدّدهما لتعدد الأوصاف .

ويحتمل أن كل مثال ، لطائفة وفرقة .

فالأول . للمتبوعين ، والثانى ، للتابعين . والله أعلم .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ

---

* نبه تعالى عباده على عظمته ، وكمال سلطانه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه ، فى ربوبيتها ، وعبادتها فقال : [ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض] من حيوان وجماد [والطير صافات] أى : صافات أجنحتها ، فى السماء ، تسبح ربها .

[كل] من هذه المخلوقات [قد علم صلاته وتسبيحه] أى : كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به .

وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح ، إما بواسطة الرسل ، كالجن والإنس ، والملائكة .

وإما بإلهام منه تعالى ، كسائر المخلوقات غير ذلك .

وهذا الاحتمال ، أرجح ، بدليل قوله [والله عليم بما يفعلون] .

أى : علم جميع أفعالهم ، فلم يخف عليه منها شىء ، وسيجازيهم بذلك .

فيكون على هذا ، قد جمع بين علمه بأعمالهم ، وذلك بتعليمه ، وبين علمه بمقاصدهم المتضمن للجزاء .

ويحتمل أن الضمير فى قوله : « قد علم صلاته وتسبيحه » يعود إلى الله ، وأن الله تعالى ، قد علم عبادتهم ، وإن لم تعلموا — أيها العباد — منها ، إلا ما أطلعكم الله عليه .

وهذه الآية كقوله تعالى « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولـكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا » .

بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ

فلما بيّن عبوديتهم وافتقارهم إليه — من جهة العبادة والتوحيد — بيّن افتقارهم إليه ، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال :

[ولله ملك السموات والأرض] خالقهما ورازقهما ، والمتصرف فيهما ، فى حكمه الشرعى والقدرى ، فى هذه الدار ، وفى حكمه الجزائى ، بدار ، القرار بدليل قوله [وإلى الله المصير] أى : مرجع : الخلق ومآلهم ، ليجازيهم بأعمالهم .

* أى : ألم تشاهد ببصرك ، عظيم قدرة الله ، وكيف [يزجى] .

أى : يسوق [سحابا] قطعاً متفرقة [ثم يؤلف] بين تلك القطع ، فيجعله سحابا متراكا ، مثل الجبال .

[فترى الودق] أى : الوابل والمطر ، يخرج من خلال السحابة ، نقطا متفرقة ، ليحصل بها الانتفاع ، من دون ضرر ، فتمتلىء بذلك ، الغدران ، وتتدفق الخلجان ، وتسيل الأودية ، وتنبت الأرض من كل زوج كريم .

وتارة ينزل الله من ذلك السحاب ، بَرَداً يُتْلِفُ ما يصيبه .

[فيصيب به من يشاء . ويصرفه عن من يشاء] أى : بحسب اقتضاء حكمه القدرى ، وحكمته التى يحمد عليها .

سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾

وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ

[يكاد سنا برقه] أى : يكاد ضوء برق ذلك السحاب ، من شدته [يذهب بالأبصار] .

أليس الذى أنشأها وساقها لعباده المفتقرين ، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفى به الضرر ، كامل القدرة ، نافذ المشيئة ، واسع الرحمة ؟ .

[يقلب الله الليل والنهار] من حر إلى برد ، ومن برد إلى حر ، ومن ليل إلى نهار ، ومن نهار إلى ليل ، ويُدِيلُ الأيام بين عباده .

[إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار] أى : لذوى البصائر ، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها ، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية .

فالبصير ، ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكير ، وتَدبُّر لما أريد بها ومنها .

والمعرض الجاهل ، نظره إليها نظر غفلة ، بمنزلة نظر البهائم .

* ينبه عباده على ما يشاهدونه ، أنه خلق جميع الدواب ، التى على وجه الأرض .

[من ماء] أى : مادتها كلها ، الماء ، كما قال تعالى: « وجعلنا من ا ء كل شىء حى ».

فالحيوانات التى تتوالد ، مادتها ، ماء النطفة ، حين يلقح الذكر الأنثى .

بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ
يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

والحيوانات التى تتولد من الأرض، لاتتولد إلا من الرطوبات المائية ، كالحشرات لا يوجد منها شىء ، يتولد من غير ماء أبدا .

فالمادة واحدة ، ولكن الخلقة مختلفة ، من وجوه كثيرة .

[فمنهم من يمشى على بطنه] كالحية ونحوها .

[ومنهم من يمشى على رجلين] كالآدميين ، وكثير من الطيور .

[ومنهم من يمشى على أربع] كبهيمة الأنعام ونحوها .

فاختلافها — مع أن الأصل واحد — يدل على نفوذ مشيئة الله ، وعموم قدرته ، ولهذا قال :

[يخلق الله ما يشاء] أى : من المخلوقات ، على ما يشاؤه من الصفات .

[إن الله على كل شىء قدير] كما أنزل المطر على الأرض ، وهو لقاح واحد ، والأم واحدة ، وهى الأرض ، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف « وفى والأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

أى : لقد رحمنا عبادنا ، وأنزلنا إليهم آيات بينات ، أى : واضحات الدلالة ، على جميع المقاصد الشرعية ، والآداب المحمودة ، والمعارف الرشيدة .

فاتضحت بذلك السبيل ، وتبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال .

فلم يبق أدنى شبهة لمبطل ، يتعلق بها ، ولا أدنى إشكال ، لمريد الصواب، لأنها تنزيل مَنْ كَمُلَ علمه، وكملت رحمته ، وكمل بيانه ، فليس بعد بيانه بيان « ليهلك » بعد ذلك « من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة » .

[والله يهدى من يشاء] ممن سبقت لهم سابقة الحسنى ، وقدم الصدق.

[إلى صراط مستقيم] أى : طريق واضح مختصر ، موصل إليه ، وإلى دار كرامته ، متضمن العلم بالحق وإيثاره ، والعمل به .

عمم البيان التام لجميع الخلق ، وخصص بالهداية من يشاء ، فهذا فضله وإحسانه .

وما فضل الكريم بممنون[1] وذاك عدله ، وقطع الحجة للمحتج والله أعلم حيث يجعل مع مواقع إحسانه .

---

(١) ممنون . أى : مقطوع . والمراد : أن إكرم الله لعباده فى الجنة وما يتمتعون من أنواع النعيم مستمر دائم لا ينقطع عنهم أبداً .

﴿ وَيَقُولُونَ ءامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾

---

* يخبر تعالى عن حالة الظالمين ، ممن فى قلبه مرض وضعف إيمان ، أو نفاق ، وريب ، وضعف علم ، أنهم يقولون بألسنتهم ، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة ، ثم لا يقومون بما قالوا ، ويتولى فريق منهم عن الطاعة ، تَوَلِّياً عظيما ، بدليل قوله :

[وهم معرضون] فإن المتولِّى ، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولَّى عنه .

وهذا المتولى ، معرض ، لا التفات له ، ولا نظر لما تولى عنه .

وتجد هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدَّعِى الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان .

وتجده لا يقوم بكثير من العبادات ، خصوصا : العبادات ، التى تشق على كثير من النفوس ، كالزكاة ، والنفقات الواجبة والمستحبة ، والجهاد فى سبيل الله ونحو ذلك .

* [وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم] أى : إذا صار بينهم ، وبين أحد ، حكومة ، ودعوا إلى الله ورسوله [إذا فريق منهم معرضون] يريدون أحكام الجاهلية ، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية ، لعلمهم أن الحق عليهم ، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع .

وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾

---

* [وإن يكن لهم الحق،يأتوا إليه] أى : إلى حكم الشرع [مذعنين[1]] وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعى ،وإنما ذلك ، لأجل موافقة أهوائهم .

فليسوا ممدوحين فى هذه الحال ، ولو أتوا إليه مذعنين ، لأن العبد حقيقة ، من يتبع الحق ، فيما يحب ويكره ، وفيما يسره ويحزنه .

وأما الذى يتبع الشرع ، عند موافقة هواه ، وينبذه عند مخالفته ، ويقدم الهوى على الشرع ، فليس بعبد لله على الحقيقة .

قال الله فى لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعى : [أفى قلوبهم مرض] أى : علة ، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته ، فصار بمنزلة المريض ، الذى يعرض عما ينفعه ، ويقبل على ما يضره .

[أم ارتابوا] أى : شكوا ، أو قلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله ، واتهموه أنه لا يحكم بالحق .

[أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله] أى : يحكم عليهم حكما ظالما جائراً ، وإنما هذا وصفهم [بل أولئك هم الظالمون] .

---

(١) مذعنين . أى:خاضعين ذليلين ، كما يستفاد من المختار من الصحاح . وفى المصباح « أذعن إذعاناً » انقاد ولم يستعص ، وناقة مذعانة : منقادة . ا هـ .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

وأما حكم الله ورسوله ، فنى غاية العدالة والقسط ، وموافقة الحكمة .

« ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن الإيمان ، ليس هو مجرد القول ، حتى يقترن به العمل .

ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة ، ووجوب الانقياد لحكم الله ، ورسوله فى كل حال .

وإن لم ينقَدْ له ، دل على مرض فى قلبه . وريب فى إيمانه .

وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام ، الشريعة ، وأن يظن بها ، خلاف العدل والحكمة .

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعى ، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين . فقال :

[إنما كان قول المؤمنين] إلى [الفائزون] .

* أى : [إنما كان قول المؤمنين] حقيقة الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم [إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم] سواء وافق أهواءهم ، أو خالفها .

[أن يقولوا سمعنا وأطعنا] أى : سمعنا حكم الله ورسوله ، وأجبنا من دعانا إليه وأطعنا طاعة تامة ، سالمة من الحرج .

[وأولئك هم المفلحون] .

حصر الفلاح فيهم ،لأن الفلاح : الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المكروه .

ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

ولا يفلح إلا من حكّم الله ورسوله ، وأطاع الله ورسوله .

ولما ذكر فضل الطاعة فى الحكم خصوصا ، ذكر فضلها عموما ، فى جميع الأحوال . فقال :

[ومن يطع الله ورسوله] فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما .

[ويخش الله] أى : يخافه ، خوفا مقرونا بمعرفة ، فيترك ما نهى عنه ، ويكف نفسه عما تهوى .

ولهذا قال : [ويتقه] بترك المحظور ، لأن التقوى — عند الإطلاق — يدخل فيها ، فعل المأمور به ، وترك المنهى عنه .

وعند اقترانها بالبر أو الطاعة — كما فى هذا الموضع — تفسر بتوقِّى عذاب الله ، بترك معاصيه .

[فأولئك] الذين جمعوا ، بين طاعة الله ، وطاعة رسوله ، وخشية الله وتقواه ، [هم الفائزون] بنجاتهم من العذاب ، لتركهم أسبابه ، ووصولهم إلى الثواب ، لفعلهم أسبابه ، فالفوز محصور فيهم .

وأما من لم يتصف بوصفهم ، فإنه يفوته من الفوز ، بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة .

واشتملت هذه الآية ، على الحق المشترك ، بين الله وبين رسوله ، وهو : الطاعة المستلزمة للإيمان ، والحق المختص بالله ، وهو : الخشية والتقوى .

۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ

وبقى الحق الثالث المختص بالرسول ، وهو التعزير والتوقير .

كما جمع بين الحقوق الثلاثة فى سورة الفتح فى قوله : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » .

* يخبر تعالى ، عن حالة المتخلفين عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى الجهاد من المنافقين ، ومن فى قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله .

[لئن أمرتهم] فيما يستقبل ، أو لئن نصصت عليهم ، حين خرجت [ليخرجن] والمعنى الأول ، أولى .

قال الله — رادًا عليهم — : [قل لا تقسموا] أى : لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعذاركم ، فإن الله قد نبأنا من أخباركم .

وطاعتكم معروفة ، لا تخفى علينا ، قد كنا نعرف منكم التثاقل والكسل ، من غير عذر ، فلا وجه لعذركم وقسمكم .

إنما يحتاج إلى ذلك ، من كان أمره محتملا ، وحاله مشتبهة ، فهذا ربما يفيده العذر براءة .

وأما أنتم ، فكلا ولما .

وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم ، حلول بأس الله ونقمته ، ولهذا توعدهم بقوله :

[إن الله خبير بما تعملون] فيجازيكم عليها أتم الجزاء .

هذه حالهم فى نفس الأمر .

أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام ، فوظيفته ، أن يأمركم وينهاكم ، ولهذا قال :

[قل أطيعوا الله والرسول فإن] امتثلوا ، كان حظهم وسعادتهم، وإن [تولوا فإنما عليه ما حمل] من الرسالة ، وقد أداها .

[وعليكم ما حملتم] من الطاعة ، وقد بانت حالكم ، وظهرت .

فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب .

[وإن تطيعوه تهتدوا] إلى الصراط المستقيم ، قولا وعملا .

فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته ، وبدون ذلك ، لايمكن ، بل هو محال .

[وما على الرسول إلا البلاغ المبين] أى : تبليغكم البين الذى لا يُبقِي لأحد ، شكا ولاشبهة ، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ، بلغ البلاغ المبين .

وإنما الذى يحاسبكم ، ويجازيكم ، هو الله تعالى .

فالرسول ، ليس له من الأمر شيء ، وقد قام بوظيفته .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

* هذا من وعوده الصادقة ، التى شوهد تأويلها ومخبرها .

فإنه وعد من قام ، بالإيمان والعمل الصالح ، من هذه الأمة ، أن يستخلفهم فى الأرض ، فيكونون هم الخلفاء فيها ، المتصرفين فى تدبيرها .

وأن يُمكِّنَ لهم دينهم ، الذى ارتضى لهم، وهو دين الإسلام ، الذى فاق الأديان كلها .

ارتضاه لهذه الأمة ، لفضلها وشرفها ونعمته عليها ، بأن يتمكنوا من إقامته ، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة ، فى أنفسهم وفى غيرهم ، لكون غيرهم من أهل الأديان ، وسائر الكفار ، مغلوبين ذليلين .

وأنه يبدلهم أمنا من بعد خوفهم ، حيث كان الواحد منهم ، لا يتمكن من إظهار دينه ، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار ، وكون جماعة المسلمين قليلين جدا ، بالنسبة إلى غيرهم ، وقد رماهم أهل الأرض ، عن قوس واحدة ، وبغوا لهم الغوائل .

فوعدهم الله هذه الأمور ، وقت نزول الآية ، وهى لم تشاهد الاستخلاف فى الأرض ، والتمكين فيها ، والتمكين من إقامة الدين الإسلامى ، والأمن التام ، بحيث يعبدون الله ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يخافون أحداً إلا الله .

فقام صدر هذه الأمة ، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوق على غيرهم .

فمكنهم من البلاد والعباد ، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها ، وحصل الأمن التام ، والتمكين التام ، فهذا من آيات الله العجيبة الباهرة .

ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة ، مهما قاموا بالإيمان ، والعمل الصالح

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾

فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله .

وإنما يسلط الله عليهم الكفار والمنافقين ، ويُدِيلُهُمْ فى بعض الأحيان ، بسبب إخلال المسلمين ، بالإيمان والعمل الصالح .

(ومن كفر بعد ذلك) التمكين والسلطنة التامة لكم ، يامعشر المسلمين .

[فأولئك هم الفاسقون] الذين خرجوا عن طاعة الله ، وفسدوا ، فلم يصلحوا لصالح ، ولم يكن فيهم أهلية للخير ، لأن الذى يترك الإيمان فى حال عزه وقهره ، وعدم وجود الأسباب المانعة منه ، يدل على فساد نيته، وخبث طويته ، لأنه لا داعى له لترك الدين ، إلا ذلك .

ودلت هذه الآية ، أن الله قد مكن من قبلنا ، واستخلفهم فى الأرض .

كما قال موسى لقومه « ليستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون »

وقال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض » .

« ونمكن لهم فى الأرض » .

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

---

* يأمر تعالى بإقامة الصلاة ، بأركانها ، وشروطها ، وآدابها ، ظاهرا وباطناً .

وبإيتاء الزكاة من الأموال ، التى استخلف الله عليها العباد ،وأعطاهم إياها ، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم ، ممن ذكرهم الله ، لمصرف الزكاة .

فهذان أكبر الطاعات وأجلها ، جامعتان لحقه ، وحق خلقه للإخلاص للمعبود ، وللإحسان إلى العبيد .

ثم عطف عليهما الأمر العام ، **فقال** :

[وأطيعوا الرسول] وذلك بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه « من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

[لعلكم] حين تقومون بذلك [ترحمون] فمن أراد الرحمة ، فهذا طريقها ، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإطاعة الرسول ، فهو مُتَمَنٍّ كاذب .

وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة .

* [لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض] فلا يغررك ما مُتِّعُوا به فى الحياة الدنيا ، فإن الله ، وإن أمهلهم ، فإنه لا يهملهم « نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » .

ولهذا قال هنا : [ومأواهم النار ولبئس المصير] أى : بئس المآل ، مآل الكافرين ، مآل الشر والحسرة ، والعقوبة الأبدية .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ

---

* أمر المؤمنين أن يستأذنهم مماليكهم ، والذين لم يبلغوا الحلم منهم .

قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم ، وقت نومهم بالليل بعد العشاء ، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر .

فهذا — فى الغالب — أن النائم يستعمل للنوم فى الليل ، ثوبا غير ثوبه المعتاد .

وأما نوم النهار ، فلو كان فى الغالب قليلا ، قد ينام فيه العبد بثيابه المعتادة .

قيده بقوله : [وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة] أى : للقائلة ، وسط النهار .

ففى هذه الأحوال الثلاثة ، يكون المماليك والأولاد الصغار ، كغيرهم ، لا يُمَكَّنُونَ من الدخول إلا بإذن .

وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: [ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن] .

أى : ليسوا كغيرهم : فإنهم يحتاج إليهم دائماً ، فيشق الاستئذان منهم فى كل وقت .

ولهذا قال : [طوافون عليكم بعضكم على بعض] أى : يترددون عليكم فى قضاء أشغالكم وحوائجكم .

طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ

[كذلك يبين الله لكم الآيات] بيانا مقرونا بحكمته ، ليتأكد و يتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته .

ولهذا قال : [والله عليم حكيم] له العلم المحيط بالواجبات، والمستحبات، والممكنات ، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه .

فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به . وأعطى كل حكم شرعى حكمه اللائق به ومنه هذه الأحكام ، التي بيّنها و بيّن مآخذها وحسنها .

[وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم] وهو إنزال المنى يقظة أو مناما .

[فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم] أى : فى سائر الأوقات .

والذين من قبلهم ، هم الذين ذكرهم الله بقوله : « ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا » الآية .

[كذلك يبين الله لكم آياته] ويوضحها ، ويفصل أحكامها [والله عليم حكيم] .

وفى هاتين الآيتين فوائد .

منها : أن السيد ، وولى الصغير ، مخاطبان بتعليم عبيدهم ، ومن تحت ولايتهم من الأولاد ، العلم والآداب الشرعية ، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله : [يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين لم يبلغوا الحلم] الآية .

فلا يمكن ذلك ، إلا بالتعليم والتأديب .

ولقوله : [ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن] .

ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

ومنها : الأمر بحفظ العورات ، والاحتياط لذلك من كل وجه ، وأن المحل والمكان ، الذى هو مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهيٌّ عن الاغتسال فيه ، والاستنجاء ، ونحو ذلك .

ومنها : جواز كشف العورة لحاجة ، كالحاجة عندالنوم ، وعندالبول والغائط ، ونحو ذلك .

ومنها : أن المسلمين كانوا معتادين القيلولة وسط النهار ، كما اعتادوا نوم الليل ، لأن الله خاطبهم ، ببيان حالهم الموجودة .

ومنها : أن الصغير الذى دون البلوغ ، لا يجوز أن يُمكَّن من رؤية العورة ، ولا يجوز أن تُرَى عورته ، لأن الله لم يأمر باستئذانهم ، إلا عن أمر ما يجوز .

ومنها : أن المملوك أيضا ، لا يجوز أن يرى عورة سيده ، كما أن سيده، لا يجوز أن يرى عورته ، كما ذكرنا فى الصغير .

ومنها أنه ينبغى للواعظ والمعلم ونحوهما ، ممن يتكلم فى مسائل العلم الشرعى ، أن يقرن بالحكم ، بيان مأخذه ووجهه ، ولا يلقيه مجرداً عن الدليل والتعليل ، لأن الله — لما بيَّن الحكم المذكور — علله بقوله : [ثلاث عورات لكم] .

ومنها : أن الصغير والعبد ، مخاطبان ، كما أن وليهما مخاطب لقوله : [ليس عليكم ولا عليهن جناح بعدهن] .

ومنها : أن ريق الصبى طاهر ، ولو كان بعد نجاسة ، كالقئ لقوله تعالى : [طوافون عليكم] مع قول النبى صلى الله عليه وسلم ، حين سئل

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّـٰتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن

عن الهرة « إنها ليست بنجس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات ».

ومنها : جواز استخدام الإنسان مَنْ تحت يده ، من الأطفال على وجه معتاد ، لا يشق على الطفل لقوله : [طوافون عليكم] .

ومنها : أن الحكم المذكور المفصل ، إنما هو لما دون البلوغ ، وأما ما بعد البلوغ ، فليس إلا الاستئذان .

ومنها : أن البلوغ يحصل بالإنزال ، فكل حكم شرعى رتب على البلوغ ، حصل بالإنزال ، وهذا مجمع عليه .

وإنما الخلاف ، هل يحصل البلوغ بالسن ، أو الإنبات للعانة ، والله أعلم .

* [والقواعد من النساء] اللاتى قعدن عن الاستمتاع والشهوة [اللاتى لا يرجون نكاحاً] أى : لا يطمعن فى النكاح ، ولا يُطْمَعُ فيهن ، وذلك ، لكونها عجوزا لا تُشْتَهَى ولا تَشْتَهِي ، أو دميمة الخلقة ، لا تُشْتَهَى

[فليس عليهن جناح] أى : حرج وإثم [أن يضعن ثيابهن] .

أى : الثياب الظاهرة ، كالخمار ونحوه ، الذى قال الله فيه للنساء : « وليضربن بخمرهن على جيوبهن » .

فهؤلاء ، يجوز لهن ، أن يكشفن وجوههن ، لِأَمْنِ المحذور منها وعليها .

ولما كان نَفْىُ الحرج عنهن ، فى وضع الثياب ، ربما توهم منه جواز

يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ

استعمالها لكل شيء ، دفع هذا الاحتراز بقوله : [غير متبرجات بزينة] أي : غير مظهرات للناس ، زينة من تجمل بثياب ظاهرة ، وتستر وجهها ، ومن ضرب الأرض ، ليعلم ما تخفى من زينتها ، لأن مجرد الزينة على الأنثى ، ولو مع تسترها ، ولو كانت لا تشتهى — يُفْتَتَنُ فيها ، ويوقع الناظر إليها فى الحرج [وأن يستعففن خير لهن] .

والاستعفاف : طلب العفة ، بفعل الأسباب المقتضية لذلك ، من تزوج وتَرْكٍ لما يُخْشَى منه الفتنة .

[والله سميع] لجميع الأصوات [عليم] بالنيات والمقاصد .

فَلْيَحْذَرْنَ من كل قول وقصد فاسد ولَيَعْلَمْنَ أن الله يجازى على ذلك .

* يخبر تعالى ، عن مِنَّتِهِ على عباده ، وأنه لم يجعل عليهم فى الدين من حرج بل يسَّره غاية التيسير فقال :

[ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج] .

أى : ليس على هؤلاء جناح ، فى ترك الأمور الواجبة ، التى تتوقف على واحد منها .

وذلك كالجهاد ونحوه ، مما يتوقف على بصر الأعمى ، أو سلامة الأعرج أو صحة المريض ، ولهذا المعنى العام ، الذى ذكرناه ، أطلق الكلام فى ذلك ، ولم يقيد ، كما قيد قوله .

أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ

[ولا على أنفسكم] أى : حرج [أن تأكلوا من بيوتكم] أى : بيوت أولادكم .

وهذا موافق للحديث الثابت « أنت ومالك لأبيك » والحديث الآخر « إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم » .

وليس المراد من قوله : [من بيوتكم] بيت الإنسان نفسه ، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل ، الذى ينزه عنه كلام الله .

ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم ، من هؤلاء المذكورين .

وأما بيت الإنسان نفسه ، فليس فيه أدنى توهم .

[أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت إخوانكم ، أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم ، أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم ، أو بيوت خالاتكم] وهؤلاء معروفون .

[أو ما ملكتم مفاتحه] أي : البيوت التى أنتم متصرفون فيها بوكالة ، أو ولاية ونحو ذلك .

وأما تفسيرها بالمملوك ، فليس بوجيه ، لوجهين :

أحدهما : أن المملوك ، لا يقال فيه « ملكت مفاتحه » .

أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُواْ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ

بل يقال : « ما ملكتموه » أو « ما ملكت أيمانكم » لأنهم مالكون له جملة ، لا لمفاتحه فقط .

والثانى : أن بيوت المماليك ، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه ، لأن المملوك ، وما ملكه ، لسيده ، فلا وجه لنفى الحرج عنه .

[أو صديقكم] وهذا الحرج المنفى من الأكل ، من هذه البيوت كل ذلك ، إذا كان بدون إذن ، والحكمة فيه ، معلومة من السياق .

فبيوت هؤلاء المسمين ، قد جرت العادة والعرف ، بالمسامحة فى الأكل منها ، لأجل القرابة القريبة ، أو التصرف التام ، أو الصداقة .

فلو قُدِّر فى أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح فى الأكل المذكور ، لم يجز الأكل ، ولم يرتفع الحرج ، نظراً للحكمة والمعنى .

وقوله [ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتا] فكل ذلك جائز .

أكل أهل البيت الواحد جميعاً ، أو أكل كل واحد منهم وحده .

وهذا نَفْىٌ للحرج ، لا نَفْىٌ للفضيلة ، وإلا ، فالأفضل ، الاجتماع على الطعام .

[فإذا دخلتم بيوتا] نكرة فى سياق الشرط ، يشمل بيت الإنسان ، وبيت غيره ، سواء كان فى البيت ، ساكن أم لا .

فإذا دخلها الإنسان[1] [فسلموا على أنفسكم] أى : فَلْيُسَلِّم بعضكم على

---

(١) قوله « فإذا دخلها الإنسان » هكذا فى الأصل وهو خطأ والصواب أن يقال « فإذا دخلتموها » ليتناسب مع مابعده .

مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

بعض ، لأن المسلمين ، كأنهم شخص واحد ، من توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم .

فالسلام مشروع ، لدخول سائر البيوت ، من غير فرق ، بين بيت وبيت .

والاستئذان ، تقدم أن فيه تفصيلا فى أحكامه .

ثم مدح هذا السلام فقال : [تحية من عند الله مباركة طيبة] .

أى : سلامكم بقولكم « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » أو « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » إذ تدخلون البيوت .

[تحية من عند الله] أى : قد شرعها لكم ، وجعلها تحيتكم .

[مباركة] لاشتمالها على السلامة من النقص ، وحصول الرحمة ، والبركة ، والنماء ، والزيادة .

[طيبة] لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله ، الذى فيه طيب نفس للمحيا ، ومحبة ، وجلب مودة .

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال :

[كذلك يبين الله لكم آياته] الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها .

[لعلكم تعقلون] عنه ، فتفهمونها ، وتعقلونها بقلوبكم ، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة .

فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها ، يزيد فى العقل ، وينمو به اللب .

. . . .

لـكون معانيها ، أجل المعانى ، وآدابها أجل الآداب،ولأن الجزاء ، من جنس العمل .

فـكما استعمل عقله ، للعقل عن ربه ، وللتفـكر فى آياته ، التى دعاه إليها ، زاده من ذلك .

وفى هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهى : أن « العرف والعادة مخصص للألفاظ ، كتخصيص اللفظ للفظ » .

فإن الأصل ، أن الإنسان ، ممنوع من تناول طعام غيره ، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء ، للعرف والعادة .

فـكل مسألة ، تتوقف على الإذن من مالك الشىء ، إذا علم إذنه بالقول ، أو العرف ، جاز الإقدام عليه .

وفيها دليل ، على أن الأب ، يجوز له أن يأخذ ويتملك ، من مال ولده ، مالا يضره ، لأن الله سمى بيته ، بيتا للإنسان .

وفيها دليل على أن المتصرف فى بيت الإنسان ، كزوجته ، وأخته ونحوها ، يجوز لها ، الأكل عادة ، وإطعام السائل المعتاد .

وفيها دليل ، على جواز المشاركة فى الطعام ، سواء أكانوا مجتمعين ، أو متفرقين ، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض .

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ

---

* هذا إرشاد من الله ، لعباده المؤمنين ، أنهم إذا كانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أمر جامع ، أي : من ضرورته أو مصلحته ، أن يكونوا فيه جميعا ، كالجهاد ، والمشاورة ، ونحو ذلك من الأمور ، التى يشترك فيها المؤمنون ، فإن المصلحة ، تقتضى اجتماعهم عليه ، وعدم تفرقهم .

فالمؤمن بالله ورسوله حقاً ، لا يذهب لأمر من الأمور ، لا يرجع لأهله ، ولا يذهب لبعض الحوائج ، التى يشذ بها عنهم ، إلا بإذن من الرسول ، أو نائبه من بعده .

فجعل موجب الإيمان ، عدم الذهاب إلا بإذن ، ومدحهم على فعلهم هذا ، وأدبهم مع رسوله ، وولى الأمر منهم فقال : [إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله] .

ولكن هل يأذن لهم أم لا ؟ ذكر لإذنه شرطين :

أحدهما : أن يكون لشأن من شئونهم ، وشغل من أشغالهم .

فأما من يستأذن من غير عذر ، فلا يؤذن له .

والثانى : أن يشاء الإذن فتقتضيه المصلحة ، من دون مضرة بالآذن فلذلك قال :

[فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم] .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا

فإذا كان له عذر واستأذن ، فإن كان فى قعوده وعدم ذهابه ، مصلحة برأيه ، أو شجاعته ، ونحو ذلك ، لم يأذن له .

ومع هذا إذا استأذن ، وأذن له بشرطيه ، أمر الله رسوله ، أن يستغفر له ، لما عسى أن يكون مقصراً فى الاستئذان ، ولهذا قال :

[فاستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم] يغفر لهم الذنوب ، ويرحمهم ، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر .

* [لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا] فإذا دعاكم فأجيبوه وجوبا .

حتى إنه تجب إجابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حال الصلاة .

وليس أحد إذا قال قولا ، يجب على الأمة قبول قوله ، والعمل به ، إلا الرسول ، لعصمته ، وكونتا مخاطبين باتباعه ، قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » .

وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضا .

فلا تقولوا « يا محمد » عند ندائكم ، أو « يا محمد بن عبد الله » كما يقول ذلك بعضكم لبعض .

بل من شرفه وفضله وتميزه صلى الله عليه وسلم عن غيره ، أن يقال : يا رسول الله ، يا نبى الله .

فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ

[قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً] لما مدح المؤمنين بالله ورسوله ، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع ، لم يذهبوا حتى يستأذنوه ، توعد من لم يفعل ذلك ، وذهب من غير استئذان .

فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي وهو المراد بقوله [يتسللون منكم لواذاً] أي : يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم . بشيء يحجبهم عن العيون .

فالله يعلمهم[1] وسيجازيهم على ذلك ، أتم الجزاء ، ولهذا توعدهم بقوله:

[فليحذر الذين يخالفون عن أمره] أى : يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله ، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه ؟ ! ! وإنما ترك أمر الله ، من دون شغل له .

[أن تصيبهم فتنة] أى : شرك وشر [أو يصيبهم عذاب أليم] .

☆ [ألا إن لله ما فى السموات والأرض] ملكا وعبيداً ، يتصرف فيهم بحكمه القدرى ، وحكمه الشرعى .

[قد يعلم ما أنتم عليه] أى : قد أحاط علمه ، بما أنتم عليه ، من خير ، وشر ، وعلم جميع أعمالكم ، أحصاها علمه ، وجرى بها قلمه ، وكتبتها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون .

---

(١) قوله « فالله يعلمهم » جواب شرط لقوله « وإن خفى الخ » .

مآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْـهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

[ويوم يرجعون إليه] أى : يوم القيامة [فينبئهم بما عملوا] يخبرهم بجميع أعمالهم ، دقيقها ، وجليلها ، إخباراً مطابقاً ، لما وقع منهم ويستشهد عليهم ، أعضاءهم ، فلا يعدمون منه فضلا ، أو عدلا .

ولما قيد علمه بأعمالهم ، ذكر العموم بعد الخصوص ، فقال : [والله بكل شيء عليم] .

تم تفسير سورة النور ولله الحمد والشكر

تفسير

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ

هذا بيان لعظمته الكاملة ، وتفرده بالوحدانية من كل وجه ، وكثرة خيراته وإحسانه ،فقال : [تبارك] أى : تعاظم ، وكملت أوصافه ،وكثرت خيراته ، الذى من أعظم خيراته ونعمه ، أن [نزل هذا القرآن] الفارق بين الحلال والحرام ، والهدى والضلال ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة .

[على عبده] محمد صلى الله عليه وسلم الذى كمل مراتب العبودية ، وفاق جميع المرسلين .

[ليكون] ذلك الإنزال للفرقان على عبده [للعالمين نذيراً] .

ينذرهم بأس الله ونقمه ، ويبين لهم ، مواقع رضا الله من سخطه .

حتى إن من قبل نذارته ، وعمل بها ، كان من الناجين فى الدنيا والآخرة ، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية ، والملك السرمدى .

لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾

فهل فوق هذه النعمة ، وهذا الفضل والإحسان ، شيء ؟

فتبارك الذى هذا بعض إحسانه وبركاته .

[الذى له ملك السموات والأرض] أى : له التصرف فيهما وحده ، وجميع من فيهما، مماليك وعبيد له ، مذعنون لعظمته ، خاضعون لربوبيته ، فقراء إلى رحمته ، الذى [لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك] .

وكيف يكون له ولد ، أو شريك ، وهو المالك ، وغيره مملوك ، وهو القاهر ، وغيره مقهور ، وهو الغنى بذاته ، من جميع الوجوه ، والمخلوقون ، مفتقرون إليه ، فقراء من جميع الوجوه ؟ ! !

وكيف يكون له شريك فى الملك ، ونواصى العباد كلهم بيديه ، فلا يتحركون أو يسكنون ، ولا يتصرفون ، إلا بإذنه ، فتعالى الله عن ذلك ، علواً كبيراً .

فلم يقدره حق قدره ، من قال فيه ذلك ، ولهذا قال :

[وخلق كل شيء] شمل العالم العلوى ، والعالم السفلى ، من حيواناته ، ونباتاته ، وجماداته .

[فقدره تقديراً] أى : أعطى كل مخلوق منها ، ما يليق به ، ويناسبه من الخلق ، وما تقتضيه حكمته من ذلك ، بحيث صار كل مخلوق ، لا يتصور العقل الصحيح ، أن يكون بخلاف شكله ، وصورته المشاهدة .

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾

بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد ، لا يناسبه غير محله ، الذى هو فيه .

قال تعالى : « سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى » .

وقال تعالى : « ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » .

ولما بين كماله وعظمته ، وكثرة إحسانه ، كان ذلك مقتضيا لأن يكون وحده ، المحبوب المألوه ، المعظم ، المفرد بالإخلاص وحده ، لا شريك له — ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه فقال : [واتخذوا] إلى قوله [ولا نشوراً] .

* أى : من أعجب العجائب ، وأول الدليل على سفههم ، ونقص عقولهم . بل أدل على ظلمهم ، وجراءتهم على ربهم ، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة وبلغ من عجزها ، أنها لا تقدر على خلق شيء ، بل هم مخلوقون ، بل بعضهم مما عملته أيديهم .

[ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً] أى : لا قليلا ولا كثيراً ، لأنه نكرة فى سياق النفى فتعم .

[ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشوراً] أى : بعثا بعد الموت .

فأعظم أحكام العقل ، بطلان إلهيتها ، وفسادها ، وفساد عقل من

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ

اتخذها آلهة ، وشركاء للخالق لسائر المخلوقات ، من غير مشاركة له، فى ذلك الذي بيده النفع والضر ، والعطاء والمنع ، الذى يحيي ويميت ، ويبعث من فى القبور ، ويجمعهم يوم النشور .

وقد جعل لهم دارين ، دار الشقاء ، والخزى ، والنكال ، لمن اتخذ معه آلهة أخرى .

ودار الفوز والسعادة ، والنعيم المقيم ، لمن اتخذه وحده ، معبوداً .

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح ، صحة التوحيد وبطلان ضده ، قرر صحة الرسالة ، وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال : [والذين كفروا] إلى [إنه كان غفوراً رحيما] .

* أى : وقال الكافرون بالله ، الذى أوجب لهم كفرهم ، أن قالوا فى القرآن والرسول : إن هذا القرآن كذب ، كذبه محمد ، وإفك ، افتراه على الله ، وأعانه على ذلك قوم آخرون .

فرد الله عليهم ذلك ، بأن هذا مكابرة منهم ، وإقدام على الظلم والزور، الذى لا يمكن ، أن يدخل عقل أحد ، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكمال صدقه ، وأمانته ، وبره التام ، وأنه لا يمكنه ، لا هو ، ولا سائر الخلق ، أن يأتوا بهذا القرآن ، الذى هو أجل الكلام وأعلاه ، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه ، على ذلك ، فقد جاءوا بهذا القول ظلماً وزوراً .

ومن جملة أقاويلهم فيه ، أن قالوا : هذا الذى جاء به محمد [أساطير الأولين اكتتبها] أي : هذا قصص الأولين وأساطيرهم ، التى تتلقاها

وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا

الأفواه ، وينقلها كل أحد ، استنسخها محمد [فهى تملى عليه بكرة وأصيلا]

وهذا القول منهم ، فيه عدة عظائم :

منها : رميهم الرسول ، الذى هو أبر الناس وأصدقهم ، بالكذب ، والجرأة العظيمة .

ومنها : إخبارهم عن هذا القرآن ، الذى هو أصدق الكلام وأعظمه ، وأجله ، بأنه كذب وافتراء .

ومنها : أن فى ضمن ذلك ، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله ، وأن يضاهى المخلوق الناقص من كل وجه ، للخالق الكامل من كل وجه ، بصفة من صفاته ، وهى الكلام .

ومنها : أن الرسول ، قد علمت حاله ، وهم أشد الناس علماً بها ، أنه لا يكتب ، ولا يجتمع بمن يكتب له ، وهم قد زعموا ذلك .

* فلذلك رد عليهم ذلك بقوله [قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض] أى : أنزله من أحاط علمه بما فى السموات ، وما فى الأرض ، من الغيب والشهادة ، والجهر والسر ، لقوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين » .

ووجه إقامة الحجة عليهم ، أن الذى أنزله ، هو المحيط علمه بكل شىء

رَّحِيمًا ﴿٦﴾

فيستحيل ويمتنع ، أن يقول مخلوق ، ويتقول عليه ، هذا القرآن ، ويقول : هو من عند الله ، وما هو من عنده ، ويستحل دماء من خالفه ، وأموالهم ، ويزعم أن الله قال له ذلك .

والله يعلم كل شيء ، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه ، ويمكنه من رقابهم وبلادهم ، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن ، إلا بعد إنكار علم الله .

وهذا لا تقول به طائفة من بنى آدم ، سوى الفلاسفة الدهرية .

وأيضاً ، فإن ذكر علمه تعالى العام ، ينبههم ، ويحضهم على تدبر القرآن ، وأنهم لو تدبروا ، لرأوا فيه ، من علمه وأحكامه ، ما يدل دلالة قاطعة ، على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة .

ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم ، أنه لم يَدَعْهُمْ وظلمهم ، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه ، ووعدهم بالمغفرة والرحمة ، إن هم تابوا ، ورجعوا فقال :

[إنه كان غفوراً] أى : وصفه المغفرة ، لأهل الجرائم والذنوب ، إذا فعلوا أسباب المغفرة ، وهى : الرجوع عن معاصيه ، والتوبة منها .

[رحيما] بهم ، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ، وقد فعلوا مقتضاها .

وحيث قبل توبتهم بعد المعاصى ، وحيث محا ، ما سلف من سيئاتهم ، وحيث قبل حسناتهم ، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده ، والمقبل عليه بعد إعراضه ، إلى حالة المطيعين المنيبين إليه .

﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٞ يَأۡكُلُ مِنۡهَاۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ

---

* هذا من مقالة المكذبين للرسول ، الذين قدحوا فى رسالته .

وهو : أنهم اعترضوا بأنه ، هلا كان مَلَكاً أو مَلِكاً ، أو يساعده مَلَكٌ ، فقالوا :

[ما لهذا الرسول] أى : ما لهذا الذى ادعى الرسالة ؟ تهكما منهم واستهزاء .

[يأكل الطعام] وهذا من خصائص البشر ، فهلا كان مَلَكاً ، لا يأكل الطعام ، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر .

[ويمشى فى الأسواق] للبيع والشراء ، وهذا — بزعمهم — لا يليق بمن يكون رسولا .

مع أن الله قال : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » .

[لولا أنزل إليه ملك] أى : هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه .

[فيكون معه نذيراً] وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة ، ولا بطوقه[1] وقدرته القيام بها .

---

(١) قوله « ولا بطوقه » أى : لا بوسعه ولا بقدرته .

قال فى المختار من الصحاح : أطاق الشيء إطاقة وهو فى طوقه ، أى : فى وسعه . اهـ .

إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا

[أو يلقى إليه كنز] أى : مال مجموع من غير تعب .

[أو تكون له جنة يأكل منها] فيستغنى بذلك عن مشيه فى الأسواق لطلب الرزق .

[وقال الظالمون] حملهم على القول ، ظلمهم لا اشتباه منهم .

[إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً] هذا ، وقد علموا كمال عقله ، وحسن حديثه ، وسلامته من جميع المطاعن .

ولما كانت هذه الأقوال منهم ، عجيبة جداً ، قال تعالى :

[انظر كيف ضربوا لك الأمثال] وهى : هل كان مَلَكاً ، وزالت عنه خصائص البشر ؟

أو معه ملك ، لأنه غير قادر على ما قال ، أو أنزل عليه كنز ، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشى فى الأسواق ، أو أنه كان مسحوراً .

[فضلوا فلا يستطيعون سبيلا] قالوا : أقوالا متناقضة ، كلها جهل ، وضلال ، وسفه ، ليس فى شىء منها هداية ، بل ولا فى شىء منها أدنى شبهة ، تقدح فى الرسالة .

فبمجرد النظر إليها وتصورها ، يجزم العاقل ببطلانها ، ويكفيه عن ردها .

ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها ، وتدبرها ، والنظر : هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق ؟

مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا

ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيه خيراً كثيراً فى الدنيا فقال :

* [تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك] أى : خيراً مما قالوا .

ثم فسره بقوله : [جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً] مرتفعة مزخرفة .

فقدرته ومشيئته ، لا تقصر عن ذلك ، ولكنه تعالى — لما كانت الدنيا عنده فى غاية البعد والحقارة — أعطى منها أولياءه ورسله ،ما اقتضته حكمته منها .

واقتراح أعدائهم بأنهم ، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً ، ظلم وجراءة .

ولما كانت تلك الأقوال ، التى قالوها ، معلومة الفساد ، وأخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق ، ولا لاتباع البرهان ، وإنما صدرت منهم تعنتا وظلما ، وتكذيباً بالحق ، قالوا ما في قلوبهم من ذلك ، ولهذا قال : [بل كذبوا بالساعة] .

والمكذب المتعنت ، الذى ليس له قصد فى اتباع الحق ، لا سبيل إلى هدايته ، ولا حيلة فى مجادلته وإنما له حيلة واحدة ، وهى نزول العذاب به ، فلهذا قال :

[وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً] أى : ناراً عظيمة ، قد اشتد سعيرها ، وتغيظت على أهلها ، واشتد زفيرها .

رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

---

* [إذا رأتهم من مكان بعيد] أى : قبل وصولهم ، ووصولها إليهم [سمعوا لها تغيظا] عليهم [وزفيراً] تقلق منهم الأفئدة ، وتتصدع القلوب ، ويكاد الواحد منهم ، يموت خوفاً منها ، وذعراً ، قدغضبت عليهم ،لغضب خالقها ، وقد زاد لهبها ، لزيادة كفرهم وشرهم .

* [وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين] أى : وقت عذابهم ، وهم فى وسطها ، جمع فى مكان بين ضيق المكان ، وتزاحم السكان وتقرينهم بالسلاسل والأغلال .

فإذا وصلوا لذلك المكان النحس ، وحبسوا فى أشر حبس [دعوا هنالك ثبوراً [(١)]] دعوا على أنفسهم بالثبور، والخزى والفضيحة ، وعلموا أنهم ظالمون معتدون ، قد عدل فيهم الخالق ، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل ، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم ، ولا مغنية من عذاب الله .

بل يقال لهم : [لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً وادعوا ثبورا كثيراً] أى : لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه ، ما أفادكم إلا الهم ، والغم ، والحزن .

لما بين جزاء الظالمين ، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال : [قل أذلك خير] إلى [وعدا مسئولا] .

---

(١) الثبور : الهلاك والخسران اهـ . من المختار من الصحاح .

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولاً ﴿١٦﴾﴾

---

* أى : قل لهم — مبيناً لسفاهة رأيهم ، واختيارهم الضار على النافع — [أذلك] الذى وضعت لكم من العذاب [خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون] التى زادها تقوى الله ، فمن قام بالتقوى ، فالله قد وعده إياها .

[كانت لهم جزاء] على تقواهم [ومصيراً] موئلا يرجعون إليها ، ويستقرون فيها ، ويخلدون دائما أبداً .

[لهم فيها ما يشاءون] أى ما يطلبون وتتعلق به أمانيهم ومشيئتهم ، من المطاعم ، والمشارب اللذيذة ، والملابس الفاخرة ، والنساء الجميلات ، والقصور العاليات ، والجنات ، والحدائق المرجحنة[1] والفواكه ، التى تسر ناظريها وآكليها ، من حسنها ، وتنوعها ، وكثرة أصنافها ، والأنهار التى تجرى فى رياض الجنة ، وبساتينها ، حيث شاءوا يصرفونها ، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن ، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين وأنهاراً من عسل مصفى ، وروائح طيبة ، ومساكن مزخرفة ، وأصوات شجية ، تأخذ من حسنها ، بالقلوب ، ومزاورة الإخوان ، والتمتع بلقاء الأحباب .

---

(١) المرجحنة : المتمايلة الأشجار المثقلة بالفواكه والثمار المتنوعة المتدلية تكاد من ثقلها تلامس الأرض .

. . . .

وأعلى من ذلك كله ، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم ، وسماع كلامه ، والحظوة بقربه ، والسعادة برضاه ، والأمن من سخطه ، واستمرار هذا النعيم ودوامه ، وزيادته على ممر الأوقات ، وتعاقب الآنات[1] [كان] دخولها والوصول إليها [على ربك وعدا مسئولا] يسأله إياها ، عباده المتقون بلسان حالهم ، ولسان مقالهم .

فأى الدارين المذكورتين ، خير وأولى بالإيثار ؟

وأى العاملين ، عمال دار الشقاء ، أو عمال دار السعادة ، أولى بالفضل والعقل ، والفخر ، يا أولى الألباب ؟

لقد وضح الحق ، واستنار السبيل ، فلم يبق للمفرط عذر، فى تركه الدليل.

فنرجوك يامن قضيت على أقوام بالشقاء ، وأقوام بالسعادة ، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة .

ونستعيذ بك اللهم ، من حالة الأشقياء ، ونسألك المعافاة منها .

---

(١) الآنات ، أى : الأوقات والأزمان .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ

---

* يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة ، وتبرّيهم منهم ، وبطلان سعيهم فقال :

[ويوم يحشرهم] أى : المكذبين المشركين [وما يعبدون من دون الله فيقول] الله مخاطبا للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم :

[أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل] هل أمرتموهم بعبادتكم ، وزينتم لهم ذلك ، أم ذلك من تلقاء أنفسهم ؟

[قالوا سبحانك] نزهوا الله عن شرك المشركين به ، وبرأوا أنفسهم من ذلك .

[ما كان ينبغى لنا] أى : لا يليق بنا ، ولا يحسن منا ، أن نتخذ من دونك من أولياء ، نتولاهم ، ونعبدهم ، وندعوهم .

فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك ، ومُتَبرِّين من عبادة غيرك ، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا ؟ هذا لا يكون .

أو ، سبحانك [أن نتخذ من دونك من أولياء] وهذا كقول المسيح عيسى بن مريم عليه السلام « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى

ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم » الآية .

وقال تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » .

فلما نزهوا أنفسهم ، أن يدعوا لعبادة غير الله ، أو يكونوا أضلوهم ، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا :

[ولكن متعتهم وآباءهم] فى لذات الدنيا وشهواتها ، ومطالبها النفسية.

[حتى نسوا الذكر] اشتغالا فى لذات الدنيا ، وانكبابا على شهواتها ، فحافظوا على دنياهم ، وضيعوا دينهم [وكانوا قوما بورا] أى : بائرين[1] لا خير فيهم ، ولا يصلحون لصالح ، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار .

فذكروا المانع من اتباعهم الهدى ، وهو التمتع فى الدنيا ، الذى صرفهم عن الهدى .

وعَدَمَ المقتضى[2] للهدى ، وهو : أنهم لا خير فيهم .

فإذا عدموا المقتضى ، ووجد المانع ، فلا تشاء من شر وهلاك ، إلا وجدته فيهم .

---

(١) بائرين . أى : هالكين ، قال فى المختار من الصحاح : وقوم بور : هلكى قال الله تعالى : « وكنتم قوما بوراً » وهو جمع « بائر » مثل «حائل» و«حول» اهـ . (٢) قوله « وعدم » معطوف على قوله « المانع » .

بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ

فلما تبرأوا منهم ، قال الله توبيخا وتقريعا للمعاندين :

[فقد كذبوكم بما تقولون] إنهم أمروكم بعبادتهم ، ورضوا فعلكم وأنهم شفعاء لكم عند ربكم .

كذبوكم فى ذلك الزعم ، وصاروا من أكبر أعدائكم ، فحق عليكم العذاب .

[فما تستطيعون صرفاً] للعذاب عنكم بفعلكم ، أو بفداء ، أو غير ذلك .

[ولا نصراً] لعجزكم ، وعدم ناصركم .

هـذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين ، كما رأيت ، أسوأ حكم ، وشر مصير .

وأما المعاند منهم ، الذي عرف الحق وصدف عنه ، فقال فى حقه :

[ومن يظلم منكم] بترك الحق ظلما وعناداً [نذقه عذاباً كبيراً] لا يقادر قدره ، ولا يبلغ أمره .

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين : « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » .

فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، وما جعلناهم ملائكة ، فلك فيهم أسوة .

فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا

وأما الغنى والفقر ، فهو فتنة ، وحكمة من الله تعالى ، كما قال : [وجعلنا بعضكم لبعض فتنة] الرسول فتنة للمرسل إليهم ، واختبار للمطيعين من العاصين ، والرسل فتناهم بدعوة الخلق ، والغنى فتنة للفقير ، والفقر فتنة للغنى .

وهكذا سائر أصناف الخلق فى هذه الدار ، دار الفتن والابتلاء والاختبار .

والقصد من تلك الفتنة [أتصبرون] فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة ، فيثيبكم مولاكم ، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة ؟

[وكان ربك بصيراً] يرى ويعلم أحوالكم ويصطفى من يعلمه يصلح لرسالته ، ويختصه بتفضيله ، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* أى : قال المكذبون للرسول ، المكذبون بوعد الله ووعيده ، الذين ليس فى قلوبهم خوف الوعيد ، ولا رجاء لقاء الخالق .

[لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا] أى : هلا نزلت الملائكة ، تشهد لك بالرسالة ، وتؤيدك عليها ، أو تنزل رسلا مستقلين ، أو نرى ربنا ، فيكلمنا ، ويقول : هذا رسولى فاتبعوه ؟

ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ

وهذا معارضة للرسول ، بما ليس بمعارض ، بل بالتكبر والعلو والعتو .

[لقد استكبروا فى أنفسهم] حيث اقترحوا هذا الاقتراح ، وتجرأوا هذه الجرأة .

فمن أنتم يافقراء ، ويامساكين ، حتى تطلبوا رؤية الله ، وتزعموا أن الرسالة ، متوقف ثبوتها على ذلك ؟ وأى كبر أعظم من هذا ؟ .

[وعتوا عتوا كبيراً] أى : قسوا[1] وصلبوا عن الحق ، قساوة عظيمة .

فقلوبهم أشد من الأحجار ، وأصلب من الحديد ، لا تلين للحق ، ولا تصغى للناصحين . فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير ، ولا اتبعوا الحق ، حين جاءهم النذير .

بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم ، وآيات الله البينات ، بالإعراض والتكذيب .

فأى عتو أكبر من هذا العتو ؟ ! ! ولذلك ، بطلت أعمالهم ، واضمحلت ، وخسروا أشد الخسران .

* [يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين] وذلك أنهم لا يرونها ، مع استمرارهم ، على جرمهم وعنادهم ، إلا لعقوبتهم ، وحلول البأس بهم .

فأول ذلك عند الموت ، إذا تنزلت عليهم الملائكة ، قال الله تعالى : « ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ، والملائكة باسطو أيديهم ، أخرجوا

---

(١) قوله « أى : قسوا وصلبوا » تعبير كلماته مفككة غير مترابطة ولو قال « أى : قسوا قساوة عظيمة وصلبوا فى عنادهم وإعراضهم عن الحق » لظهر التناسق والارتباط بين الكلمات ، وحصل التناسب مع ما بعده

وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾

أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون » .

ثم فى القبر ، حيث يأتيهم منكر ونكير ، فيسألانهم ، عن ربهم ، ونبيهم ، ودينهم ، فلا يجيبون جواباً ينجيهم ، فيحلون بهم النقمة ، وتزول عنهم بهم الرحمة .

ثم يوم القيامة ، حين تسوقهم الملائكة إلى النار ، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم ، الذين يتولون عذابهم ، ويباشرون عقابهم .

فهذا الذى اقترحوه ، وهذا الذى طلبوه ، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه .

وحينئذ يتعوذون من الملائكة ، ويفرون ، ولكن لا مفر لهم .

[ويقولون حجرا محجورا] « يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض ، فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » .

* [وقدمنا إلى ما عملوا من عمل] أى : أعمالهم التى رجوا أن تكون خيراً لهم ، وتعبوا فيها .

[فجعلناه هباء منثوراً] أى : باطلا مضمحلا ، قد خسروه ، وحرموا أجره ، وعوقبوا عليه ، وذلك لفقده الإيمان ، وصدوره عن مكذب لله ورسله .

فالعمل الذى يقبله الله ، هو ماصدر من المؤمن المخلص ، المصدق للرسل ، المتبع لهم فيه .

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

* أى : فى ذلك اليوم الهائل ، كثير البلابل [أصحاب الجنة] الذين آمنوا بالله ، وعملوا صالحاً ، واتقوا ربهم [خير مستقراً] من أهل النار [وأحسن مقيلا(١)] أى : مستقرهم فى الجنة ، وراحتهم التى هى القيلولة ، هو المستقر النافع ، والراحة التامة ، لاشتمال ذلك ، على تمام النعيم ، الذى لا يشوبه كدر .

بخلاف أصحاب النار ، فإن جهنم مستقرهم « ساءت مستقراً ومقيلا » وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل ، فيما ليس فى الطرف الآخر منه شىء ، لأنه لاخير فى مقيل أهل النار ومستقرهم ، كقوله «الله خير أما يشركون» .

* يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة ، وما فيه من الشدة والكروب ، ومزعجات القلوب فقال : [ويوم تشقق السماء بالغمام] وذلك الغمام الذى ينزل الله فيه ، من فوق السموات ، فتنفطر له السموات ، وتشقق ، وتنزل الملائكة كل سماء ، فيقفون صفاً صفا ، إما صفا واحداً محيطا بالخلائق ، وإما كل سماء ، يكونون صفا ، ثم السماء التى تليها صفا وهكذا .

القصد أن الملائكة — على كثرتهم وقوتهم — ينزلون محيطين بالخلق ، مذعنين لأمر ربهم ، لا يتكلم منهم أحد ، إلا بإذن من الله .

فما ظنك بالآدمى الضعيف ، خصوصاً ، الذى بارز مالكه بالعظائم ، وأقدم على مساخطه ، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا ، لم يتب منها ، فيحكم

---

(١) مقيلا . أى : موضع استراحة .

تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ

فيه الملك الخلاق ، بالحكم الذى لا يجور ، ولا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال:

[وكان يوما على الكافرين عسيراً] لصعوبته الشديدة ، وتعسر أموره عليه .

بخلاف المؤمن ، فإنه يسير عليه ، خفيف الحمل .

« يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً » .

وقوله [الملك يومئذ] أى : يوم القيامة [الحق للرحمن] لا يبقى لأحد من المخلوقين ، مَلِكٌ ولا صورة مَلِكٍ ، كما كانوا فى الدنيا .

بل قد تساوت الملوك ورعاياهم ، والأحرار ، والعبيد ، والأشراف وغيرهم .

ومما يرتاح له القلب ، وتطمئن به النفس ، وينشرح له الصدر ، أنه أضاف الملك فى يوم القيامة ، لاسمه« الرحمن »الذىوسعت رحمته كلشىء ، وعمت كل حى ، وملأت الكائنات ، وعمرت بها الدنيا والآخرة ، وتم بها كل ناقص ، وزال بها كل نقص .

وغلبت الأسماء الدالة عليه ، الأسماء الدالة على الغضب ، وسبقت رحمته غضبه وغلبته ، فلها السبق والغلبة .

وخلق هذا الآدمى الضعيف ، وشرفه ، وكرمه ، ليتم عليه نعمته ، وليتغمده برحمته .

وقد حضروا فى موقف الذل ، والخضوع ، والاستكانة بين يديه ، ينتظرون ما يحكم فيهم ، وما يجرى عليهم ، وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم ، فما ظنك بما يعاملهم به .

عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾

ولا يهلك على الله ، إلا هالك ، ولا يخرج من رحمته ، إلا من غلبت عليه الشقاوة ، وحقت عليه كلمة العذاب .

* [ويوم يعض الظالم] بشركه وكفره ، وتكذيبه للرسل [على يديه] تأسفا ، وتحسرا ، وحزنا ، وأسفا .

[يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا] أى طريقا بالإيمان به ، وتصديقه واتباعه .

* [يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا] وهو الشيطان الإنسى ، أو الجنى .

[خليلا] أى ، حبيبا مصافيا ، عاديت أنصح الناس لى ، وأبرهم بى ، وأرفقهم بى .

[وواليت أعدى عدو لى ، الذى لم تفدنى ولايته ، إلا الشقاء والخسار والخزى ، والبوار .

* [لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى] حيث زين له ، ما هو عليه من الضلال ، بخدعه وتسويله .

[وكان الشيطان للانسان خذولا] يزين له الباطل ، ويقبح له الحق ، ويعده الأمانى ، ثم يتخلى عنه ، ويتبرأ منه ، كما قال لجميع أتباعه ، حين قضى الأمر ، وفرغ الله من حساب الخلق « وقال الشيطان إن الله وعدكم وعد

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ

الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل » الآية .

فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان ، وَلْيَتَدَارَكِ الممكن قبل أن لا يمكن .

وَلْيُوَالِ مَنْ ولايته ، فيها سعادته ، وَلْيُعَادِ مَنْ تنفعه عداوته ، وتضره صداقته . والله الموفق .

* [وقال الرسول] مناديا لربه ، وشاكيا له إعراض قومه عما جاء به ، ومتأسفا على ذلك منهم : [يا رب إن قومى] الذى أرسلتنى لهدايتهم وتبليغهم .

[اتخذوا هذا القرآن مهجورا] أى قد أعرضوا عنه ، وهجروه ، وتركوه ، مع أن الواجب عليهم ، الانقياد لحكمه ، والإقبال على أحكامه ، والمشى خلفه .

قال الله مسليا لرسوله ، ومخبرا ، أن هؤلاء الخلق ، لهم سلف ، صنعوا كصنيعهم ، فقال :

* [وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين] أى من الذين لا يصلحون للخير ، ولا يزكون عليه ، يعارضونهم ، ويردون عليهم ، ويجادلونهم بالباطل .

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾

من بعض فوائد ذلك ، أن يعلو الحق على الباطل ، وأن يتبين الحق ، ويتضح اتضاحا عظيما لأن معارضة الباطل للحق ، مما تزيده وضوحا وبيانا ، وكمال استدلال ، وأن نتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة ، وبأهل الباطل من العقوبة . فلا تحزن عليهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

[وكفى بربك هاديا] يهديك ، فيحصل لك المطلوب ، ومصالح دينك ودنياك .

[ونصيرا] ينصرك على أعدائك ، ويدفع عنك كل مكروه ، فى أمر الدين والدنيا ، فاكتف به ، وتوكل عليه .

*هذا من جملة مقترحات الكفار ، الذى توحيه إليهم أنفسهم فقالوا :

[لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة] وأى محذور من نزوله على هذا الوجه ؟ ، بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن .

ولهذا قال : [كذلك] أنزلناه متفرقا [لنثبت به فؤادك] لأنه كلما نزل عليه شىء من القرآن ، ازداد طمأنينة وثباتا ، وخصوصا عند ورود أسباب القلق ، فإن نزول القرآن عند حدوث السبب ، يكون له موقع عظيم ، وتثبيت كثير ، أبلغ مما لو كان نازلا قبل ذلك ، ثم تذكره عند حلول سببه .

[ورتلناه[1] ترتيلا] أى مهلناه ، ودرجناك فيه تدريجا .

---

(١) رتلناه . أى : أنزلناه وفرقناه ، آية بعد آية .

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن ، وبرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل إنزال كتابه ، جاريا على أحوال الرسول ومصالحه الدينية .

ولهذا قال : [ولا يأتونك بمثل] يعارضون به الحق ، ويدفعون به رسالتك .

[إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا] أى : أنزلنا عليك قرآنا جامعا للحق فى معانيه ، والوضوح ، والبيان التام فى ألفاظه .

فمعانيه كلها ، حق وصدق ، لا يشوبها باطل ولا شبهة ، بوجه من الوجوه .

وألفاظه وحدوده للأشياء ، أوضح ألفاظا ، وأحسن تفسيرا ، مبين للمعانى بيانا كاملا .

وفى هذه الآية ، دليل على أنه ينبغى للمتكلم فى العلم ، من محدث، ومعلم، وواعظ ، أن يقتدى بربه ، فى تدبيره ، حال رسوله .

كذلك العالم ، يدبر أمر الخلق ، وكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك ، من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والمواعظ الموافقة لذلك .

وفيه رد على المتكلفين ، من الجهمية ونحوهم ، ممن يرى أن كثيرا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ، ولها معان غير ما يفهم منها .

فإذاً ـ على قولهم ـ لا يكون القرآن أحسن تفسيرا من غيره .

وإنما التفسير الأحسن ـ على زعمهم ـ تفسيرهم الذى حرفوا له المعانى تحريفا .

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ

---

* يخبر تعالى ، عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله ، وسوء مآلهم وأنهم [يحشرون على وجوههم] فى أشنع مرأى ، وأفظع منظر ، تسحبهم ملائكة العذاب ، ويجرونهم [إلى جهنم] الجامعة لكل عذاب وعقوبة .

[أولئك] الذين بهذه الحال [شر مكانا] ممن آمن بالله وصدق رسله .

[وأضل سبيلا] وهذا من باب استعمال أفضل التفضيل ، فيما ليس فى الطرف الآخر منه شيء ، فإن المؤمنين ، حسن مكانهم ، ومستقرهم ، واهتدوا فى الدنيا إلى الصراط المستقيم ، وفى الآخرة إلى الوصول ، إلى جنات النعيم .

* أشار تعالى إلى هذه القصص ، وقد بسطها فى آيات أخر ، لِيُحَذِّرَ المخاطبين ، من استمرارهم على تكذيب رسولهم ، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم ، الذين كانوا قريبا منهم ، ويعرفون قصصهم ، بما استفاض واشتهر عنهم .

ومنهم من يرون آثارهم ، عيانا ، كقوم صالح فى الْحِجْرِ ، وكالقرية التى أُمْطِرَتْ مطر السَّوْء ، بحجارة من سجيل ، يمرون عليهم ، مصبحين ، وبالليل فى أسفارهم .

فإن أولئك الأمم ، ليسوا شرا منهم ، ورسلهم ، ليسوا خيرا من

وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

رسول هؤلاء[1] .

« أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » .

ولكن الذى منع هؤلاء من الإيمان ـ مع ما شاهدوا من الآيات ـ أنهم كانوا لا يرجون بعثا ولا نشورا .

فلا يرجون لقاء ربهم ، ولا يخشون نكاله ، فلذلك استمروا على عنادهم .

وإلا ، فقد جاءهم من الآيات، مالا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب .

---

(١) قوله « فإن أولئك الأمم الخ » تعبير يشعر أن لا تفاضل بين الرسل مع أن الله تعالى أثبت التفاضل بينهم بقوله « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » فلو قال (فإن دعوة رسلكم أيها المكذبون للنبي ليست خيراً من دعوة رسل الأمم التى قبلكم كما أن شرارهم ليسوا شراً منكم) لانتظم الكلام وحصل التناسب مع ما بعده .

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا

---

* [وإذا رأوك] يا محمد ، أى : هؤلاء المكذبون لك ، المعاندون لآيات الله ، المستكبرون فى الأرض ، استهزءوا بك ، واحتقروك ، وقالوا ـ على وجه الاحتقار والاستصغار ـ : [أهذا الذى بعث الله رسولا] أى غير مناسب ، ولا لائق ، أن يبعث الله هذا الرجل .

وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم ، وقلبهم الحقائق ، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول ـ حاشاه ـ فى غاية الخسة والحقارة ، وأنه لو كانت الرسالة لغيره ، لكان أنسب .

« وقالوا لو لا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

فهذا الكلام ، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم ، أو من أعظمهم عنادا ، وهو متجاهل .

قصده ، ترويج ما معه من الباطل ، بالقدح بالحق ، وبمن جاء به .

وإلا ، فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وجده رجل العالم ، وهمامهم ، ومقدمهم فى العقل ، والعلم ، واللب ، والرزانة ، ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، والعفة ، والشجاعة ، وكل خُلُقٍ فاضل .

وأن المحتقر له ، والشانىء له ، قد جمع من السفه والجهل ، والضلال ، والتناقض ، والظلم ، والعدوان ، ما لا يجمعه غيره .

وحسبه جهلا وضلالا ، أن يقدح بهذا الرسول العظيم ، والهمام الكريم .

عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به ، تَصلُّبُهُمْ على باطلهم ، وتغرير ضعفاء العقول .

ولهذا قالوا : [إن كاد ليضلنا عن آلهتنا] بأن يجعل الآلهة إلها واحدا [لولا أن صبرنا عليها] لأضلنا » .

فزعموا ـ قبحهم الله ـ أن الضلال هو التوحيد ، وأن الهدى ، ما هم عليه من الشرك ، فلهذا تواصوا بالصبر عليه .

« وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم »

وهنا قالوا : [لو لا أن صبرنا عليها] والصبر يحمد فى المواضع كلها ، إلا فى هذا الموضع ، فإنه صبر على أسباب الغضب ، وعلى الاستكثار من حطب جهنم .

وأما المؤمنون ، فهم كما قال الله عنهم « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

ولما كان هذا ، حكما منهم ، بأنهم المهتدون ، والرسول ضال، وقدتقرر أنهم لا حيلة فيهم ، توعدهم بالعذاب ، وأخبر أنهم فى ذلك الوقت [حين يرون العذاب] يعلمون علما حقيقياً [من أضل سبيلا] « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » الآيات .

وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده ، فما هويه ، فعله ، فلهذا قال : [أرأيت من اتخذ إلهه هواه] ألا تعجب من حاله ، وتنظر ما هو فيه من الضلال ؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة ؟ .

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ

[أفأنت تكون عليه وكيلا] أى : لست عليه بمسيطر مسلط ، بل إنما أنت منذر .

قد قمت بوظيفتك ، وحسابه على الله .

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ ، بأن سلبهم العقول والأسماع،وشبههم فى ضلالهم بالأنعام السائمة ، التى لا تسمع ، إلا دعاء ونداء ، صم ، بكم ، عمى فهم لا يعقلون ، بل هم أضل من الأنعام ، فإن الأنعام يهديها راعيها فتهتدى ، وتعرف طريق هلاكها ، فتجتنبه ، وهى أيضا أسلم عاقبة من هؤلاء .

فتبين بهذا ، أن الرامى للرسول بالضلال ، أحق بهذا الوصف ، وأن كل حيوان بهيم ، فهو أهدى منه .

* أى : ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ، كمال قدرة ربك ، وسعة رحمته ، أنه مدّ على العباد ، الظل ، وذلك قبل طلوع الشمس [ثم جعلنا الشمس عليه] أى : على الظل [دليلا] .

فلولا وجود الشمس ، لما عرف الظل ، فإن الضد يعرف بضده .

[ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا] فكلما ارتفعت الشمس ، تقلص الظل ، شيئا فشيئا ، حتى يذهب بالكلية .

فتوالى الظل والشمس على الخلق ، الذى يشاهدونه عيانا ، وما يترتب

سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾

على ذلك، من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما ، وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة ، بسبب ذلك - من أدل دليل ، على قدرة الله وعظمته ، وكمال رحمته ، وعنايته بعباده ، وأنه وحده ، المعبود المحمود ، المحبوب المعظم ، ذو الجلال والإكرام .

☆ أى : من رحمته بكم ولطفه ، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس ، الذى يغشاكم ، حتى تستقروا فيه ، وتهدأوا بالنوم ، وتسبت حركاتكم ، أى : تنقطع عند النوم .

فلولا الليل ، لما سكن العباد ، ولا استمروا فى تصرفهم ، فضرهم ذلك غاية الضرر .

ولو استمر أيضا الظلام لتعطلت عليهم ، معايشهم ، ومصالحهم .

ولكنه جعل النهار نشورا ينتشرون فيه ، لتجاراتهم ، وأسفارهم ، وأعمالهم ، فيقوم بذلك ، ما يقوم من المصالح .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

---

* أى : هو وحده ، الذى رحم عباده ، وأدرّ عليهم رزقه ، بأن أرسل الرياح مبشرات ، بين يدى رحمته ، وهو : المطر .

فثار بها السحاب ، وتألف ، وصار كسفا ، وألقحته ، وأدرته بإذن ربها ، والمتصرف فيها ، ليقع استبشار العباد بالمطر ، قبل نزوله ، وليستعدوا له ، قبل أن يفجأهم دفعة واحدة .

[وأنزلنا من السماء ماء طهورا] يطهر من الحدث ، والخبث ، ويطهر من الغش والأدناس .

وفيه بركة من بركته ، أنه أنزله ليحيي به ، بلدة ميتا ، فتختلف أصناف النباتات ، والأشجار فيها ، مما يأكل الناس والأنعام .

[ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا] أى : نسقيكموه ، أنتم وأنعامكم .

أليس الذى أرسل الرياح المبشرات ، وجعلها ، فى عملها متنوعات ، وأنزل من السماء ، ماء طهورا مباركا ، فيه رزق العباد ، ورزق بهائمهم ، هو الذى يستحق أن يعبد ، وحده ، ولا يشرك معه غيره ؟

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة ، وصرفها للعباد ، ليعرفوه ، ويشكروه ، ويذكروه مع ذلك [فأبى أكثر الخلق إلا كفورا] لفساد أخلاقهم وطبائعهم .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى ، عن نفوذ مشيئته ، وأنه لو شاء ، لبعث فى كل قرية نذيرا ، أى : رسولا ، ينذرهم ، ويحذرهم فمشيئته ، غير قاصرة عن ذلك .

ولكن اقتضت حكمته ، ورحمته بك ، وبالعباد ، يا محمد ـ أن أرسلك إلى جميعهم ، أحمرهم ، وأسودهم ، عربيهم ، وعجميهم ، إنسهم وجنهم .

[فلا تطع الكافرين] فى ترك شىء مما أرسلت به ، بل ابذل جهدك ، فى تبليغ ما أرسلت به .

[وجاهدهم] بالقرآن [جهادا كبيرا] أى : لا تبق من مجهودك فى نصر الحق ، وقمع الباطل ، إلا بذلته ، ولو رأيت منهم ، من التكذيب والجراءة ، ما رأيت ، فابذل جهدك ، واستفرغ وسعك ، ولا تيأس من هدايتهم ، ولا تترك إبلاغهم ، لأهوائهم .

* أى : وهو وحده الذى مرج البحرين يلتقيان ، البحر العذب ، وهى الأنهار السارحة على وجه الأرض ، والبحر الملح ، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد .

[وجعل بينهما برزخا] أى : حاجزا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر ، فيذهب المنفعة المقصودة منها [وحجرا محجورا] أى : حاجزا حصينا .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

---

* أى : وهو الله وحده لا شريك له ، الذى خلق الآدمى ، من ماء مهين ثم نشر منه ذرية كثيرة ، وجعلهم أنسابا وأصهارا ، متفرقين ومجتمعين ، والمادة كلها من ذلك الماء المهين ، .

فهذا يدل على كمال اقتداره ، لقوله : [وكان ربك قديرا] ويدل على أن عبادته ، هى الحق ، وعبادة غيره ، باطلة لقوله : [ويعبدون من دون الله] إلى [ظهيراً] .

* أى : يعبدون أصناما وأمواتا ، لا تضر ولا تنفع ، ويجعلونها أندادا لمالك النفع والضرر ، والعطاء والمنع مع أن الواجب عليهم ، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم ، ذابين[1] عن دينه .

ولكنهم عكسوا القضية .

[وكان الكافر على ربه ظهيراً] فالباطل الذى هو الأوثان والأنداد ، أعداء لله .

فالكافر عاونها ، وظاهرها على ربها ، وصار عدوا لربه ، مبارزاً له فى العداوة والحرب .

وهذا ، وهو الذى خلقه ورزقه ، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة ،

---

(١) ذابين . أى : ناصرين دين الله ومدافعين عنه .

۞ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ

وليس يخرج عن ملكه ،وسلطانه ، وقبضته والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو — بجهله — مستمر على هذه المعاداة والمبارزة .

* يخبر تعالى : أنه ما أرسل رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، مسيطراً على الخلق ، ولا جعله ملكا ، ولا عنده خزائن الأشياء .

وإنما أرسله [مبشرا] يبشر من أطاع الله ، بالثواب العاجل ، والآجل .

[ونذيرا] ينذر من عصى الله ، بالعقاب العاجل ، والآجل ، وذلك مستلزم ، لتبيين ما به البشارة ، وما تحصل به النذارة ، من الأوامر والنواهى .

وإنك ، يا محمد ، لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى ، أجرا ، حتى يمنعهم ذلك ، من اتباعك ، ويتكلفون من الغرامة .

[إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا] أى : إلا من شاء ، أن ينفق نفقة فى مرضاة ربه وسبيله ، فهذا وإن رغبتكم فيه ، فلست أجبركم عليه ، وليس أيضاً أجراً لى عليكم ، وإنما هو راجع لمصلحتكم ، وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم .

ثم أمره أن يتوكل عليه ، ويستعين به فقال :

[وتوكل على الحى] الذى له الحياة الكاملة المطلقة [الذى لا يموت

خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ

وسبح بحمده] أى : اعبده ، وتوكل عليه فى الأمور المتعلقة بك ، والمتعلقة بالخلق .

[وكفى به بذنوب عباده خبيرا] يعلمها ، ويجازى عليها .

فأنت ، ليس عليك من هداهم شيء ، وليس عليك حفظ أعمالهم .

وإنما ذلك كله ، بيد الله [الذى خلق السموات والأرض ، وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى] بعد ذلك [على العرش] الذى هو سقف المخلوقات ، وأعلاها ، وأوسعها ، وأجملها [الرحمن] استوى على عرشه ، الذى وسع السموات والأرض ، باسمه الرحمن ، الذى وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات ، بأوسع الصفات .

وأثبت بهذه الآية ، خلقه للمخلوقات ، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم ، وعلوه فوق العرش ، ومباينته إياهم .

[فاسأل به خبيرا] يعنى بذلك،نفسه الكريمة ، فهو الذى يعلم أوصافه، وعظمته ، وجلاله .

وقد أخبركم بذلك ، وأبان لكم من عظمته ، ما تستعدون به من معرفته ، فعرفه العارفون ، وخضعوا لجلاله .

واستكبر عن عبادته الكافرون ، واستنكفوا عن ذلك ، ولهذا قال:

[وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن] أى : وحده ، الذى أنعم عليكم بسائر النعم ، ودفع عنكم جميع النقم .

لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾

[قالوا] جحدا وكفرا [وما الرحمن] بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن .

وجعلوا من جملة قوادحهم فى الرسول ، أن قالوا : ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله ، وهو يدعو معه إلها آخر ، يقول « يا رحمن » ونحو ذلك ، كما قال تعالى .

« قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى » .

فأسماؤه تعالى كثيرة ، لكثرة أوصافه ، وتعدد كماله ، فكل واحد منها ، دل على صفة كمال .

[أنسجد لما تأمرنا] أى : لمجرد أمرك إيانا ، .

وهذا مبنى منهم على التكذيب بالرسول ، واستكبارهم عن طاعته .

[وزادهم] دعوتهم إلى السجود للرحمن [نفورا] هربا من الحق إلى الباطل ، وزيادة كفر وشقاء .

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ

---

* كرر تعالى فى هذه السورة الكريمة قوله [تبارك] ثلاث مرات ، لأن معناها كما تقدم ، أنها تدل على عظمة البارى ، وكثرة أوصافه ، وكثرة خيراته وإحسانه .

وهذه السورة ، فيها من الاستدلال على عظمته ، وسعة سلطانه ، ونفوذ مشيئته ، وعموم علمه وقدرته ، وإحاطة ملكه فى الأحكام الأمرية الجزائية وكمال حكمته .

وفيها ، ما يدل على سعة رحمته ، وواسع جوده ، وكثرة خيراته ، الدينية والدنيوية ، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال :

[تبارك الذى جعل فى السماء بروجا] وهى : النجوم،عمومها أومنازل الشمس والقمر التى تنزل منزلة منزلة ، وهى بمنزلة البروج ، والقلاع للمدن فى حفظها .

كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين .

[وجعل فيها سراجا] فيه النور والحرارة ، وهى : الشمس .

[وقمرا منيرا] فيه النور ، لا الحرارة ، وهذا من أدلة عظمته ، وكثرة إحسانه .

فإن ما فيها من الخلق الباهر ، والتدبير المنتظم ، والجمال العظيم ، دال على عظمة خالقها فى أوصافه كلها .

وما فيها من المصالح للخلق ، والمنافع ، دليل على كثرة خيراته .

أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾

[وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة] أى : يذهب أحدهما ، فيخلفه الآخر .

وهكذا أبدا ، لا يجتمعان ، ولا يرتفعان .

[لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا] أى : لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ، ويشكر الله على ذلك .

ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره ، وِرْدٌ من الليل أو النهار .

فمن فاته وِرْدُهُ من أحدهما ، أدركه فى الآخر .

وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل ، فى ساعات الليل والنهار ، فيحدث لها النشاط والكسل ، والذكر والغفلة ، والقبض والبسط ، والإقبال والإعراض .

فجعل الله الليل والنهار ، يتوالى كل منهما على العباد ، ويتكرران ، ليحدث لهم الذكر والنشاط ، والشكر لله فى وقت آخر .

ولأن أوقات العبادات ، تتكرر بتكرر الليل والنهار .

فكلما تكررت الأوقات ، أحدث للعبد همة غير همته ، التى كسلت عنه ، فى الوقت المتقدم ، فزاد فى تذكرها وشكرها .

فوظائف الطاعات ، بمنزلة سَقْيِ الإيمان ، الذى يمده ، فلولا ذلك ، لذوى[1] غرس الإيمان ، ويبس .

فلله أتم حمد ، وأجمله على ذلك .

---

(١) ذوى . أى : ذبل .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا

ثم ذكر من جملة كثرة خيره ، منته على عباده الصالحين ، وتوفيقهم للأعمال الصالحات ، التى أكسبتهم المنازل العاليات ، فى غرف الجنات فقال : [وعباد الرحمن] إلى [فسوف يكون لزاماً] .

* العبودية لله نوعان :

عبودية لربوبيته ، فهذه يشترك فيها سائر الخلق ، مسلمهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم .

فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا » .

وعبودية لألوهيته ، وعبادته ، ورحمته ، وهى : عبودية أنبيائه ، وأوليائه ، وهى المراد هنا ، ولهذا أضافها إلى اسمه « الرحمن » إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال ، بسبب رحمته .

فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ، ونعوتهم أفضل النعوت .

فوصفهم بأنهم [يمشون على الأرض هونا] أى : ساكنين متواضعين لله ، وللخلق ، فهذا وصف لهم ، بالوقار ، والسكينة ، والتواضع لله ، ولعباده .

[وإذا خاطبهم الجاهلون] أى : خطاب جهل ، بدليل إضافة الفعل ، وإسناده لهذا الوصف .

[قالوا سلاما] أى : خاطبوهم خطابا يسلمون فيه ، من الإثم ، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله .

وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ

وهذا مدح لهم ، بالحلم الكثير ، ومقابلة المسىء بالإحسان ، والعفو عن الجاهل ، ورزانة العقل الذى أوصلهم إلى هذه الحال .

[والذى يبيتون لربهم سجدا وقياما] أى : يكثرون من صلاة الليل ، مخلصين فيها لربهم ، متذللين له ، كما قال تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » .

[والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم] أى : ادفعه عنا ، بالعصمة من أسبابه ، ومغفرة ما وقع منا ، مما هو مقتض للعذاب .

[إن عذابها كان غراما] أى : ملازما لأهلها ، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه[1] .

[إنها ساءت مستقرا ومقاما] وهذا منهم ، على وجه التضرع لربهم ، وبيان شدة حاجتهم إليه ، وأنهم ليس فى طاقتهم احتمال هذا العذاب .

وليتذكروا مِنَّةَ الله عليهم .

فإن صرف الشدة ، بحسب شدتها وفظاعتها ، يعظم وَقْعُهَا ويشتد الفرح بصرفها .

---

(١) قوله « ملازمة الغريم لغريمه » أى : ملازمة الدائن للمديون حيث لا يفارقه بإلحاحه فى مطالبته بأداء ما استدانه حتى يؤديه حقه .

إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾
وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي
حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾

[والذين إذا أنفقوا] النفقات الواجبة والمستحبة [لم يسرفوا] بأن يزيدوا على الحد ، فيدخلوا فى قسم التبذير ، وإهمال الحقوق الواجبة .

[ولم يقتروا] فيدخلوا فى باب البخل والشح [وكان] إنفاقهم [بين ذلك] بين الإسراف والتقتير [قواما] يبذلون فى الواجبات من الزكوات، والكفارات ، والنفقات الواجبة ، وفيما ينبغى ، على الوجه الذى ينبغى ، من غير ضرر ولا ضرار ، وهذا من عدلهم واقتصادهم .

[والذين لا يدعون مع الله إلها آخر] بل يعبدونه وحده ، مخلصين له الدين ، حنفاء ، مقبلين عليه ، معرضين عما سواه .

[ولا يقتلون النفس التى حرم الله] وهو نفس المسلم ، والكافر المُعَاهَد .

[إلا بالحق] كقتل النفس بالنفس ، وقتل الزانى المحصن ، والكافر الذى يحل قتله .

[ولا يزنون] بل يحفظون فروجهم « إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم » .

[ومن يفعل ذلك] أى : الشرك بالله ، أو قتل النفس ، التى حرم الله بغير حق ، أو الزنا .

فسوف [يلق أثاما] ثم فسره بقوله [يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه] أي : فى العذاب [مهانا] .

يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ

فالوعيد بالخلود ، لمن فعلها كلها ، ثابت لا شك فيه ، وكذا لمن أشرك بالله .

وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد ، على كل واحد من هذه الثلاثة ، لكونها ، إما شرك ، وإما من أكبر الكبائر .

وأما خلود القاتل والزانى فى العذاب ، فإنه لا يتناوله الخلود ، لأنه قد دلت النصوص القرآنية ، والسنة النبوية ، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار ، ولا يخلد فيها مؤمن ، ولو فعل من المعاصى ما فعل .

ونص تعالى على هذه الثلاثة ، لأنها أكبر الكبائر :

فالشرك ، فيه فساد الأديان .

والقتل ، فيه فساد الأبدان ، والزنا ، فيه فساد الأعراض .

[إلا من تاب] عن هذه المعاصى وغيرها ، بأن أقلع عنها فى الحال ، وندم على ما مضى له من فعلها ، وعزم عزما حازما أن لا يعود .

[وآمن] بالله إيمانا صحيحا ، يقتضى ترك المعاصى ، وفعل الطاعات .

[وعمل عملا صالحا] مما أمر به الشارع ، إذا قصد به وجه الله .

[فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات] أى: تتبدل أفعالهم ، التى كانت مستعدة لعمل السيئات ، تتبدل حسنات .

فيتبدل شركهم إيمانا ، ومعصيتهم طاعة ، وتتبدل نفس السيئات ،

حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا

التى عملوها ، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة ، وإنابة ، وطاعة ، تبدل حسنات ، كما هو ظاهر الآية .

وورد فى ذلك، حديث الرجل الذى حاسبه الله ببعض ذنوبه ، فَعَدَّدَها عليه ، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال : « يارب إن لى سيئات لا أراها ههنا » والله أعلم .

[وكان الله غفورا] لمن تاب ، يغفر الذنوب العظيمة [رحيما] بعباده ، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ، ثم وفقهم لها ، ثم قبلها منهم .

[ومن تاب وعمل صالحا ، فإنه يتوب إلى الله متابا] أى : فَلْيَعْلَمْ أن توبته ، فى غاية الكمال ، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذى هو عين سعادة العبد وفلاحه ، فَلْيُخْلِصْ فيها ، ولْيُخَلِّصْهَا من شوائب الأغراض الفاسدة .

فالمقصود من هذا ، الحث على تكميل التوبة ، واتباعها على أفضل الوجوه وأجلها ، ليقدم على من تاب إليه ، فيوفيه أجره ، بحسب كمالها .

[والذين لا يشهدون الزور] أى : لا يحضرون الزور ، أى : القول والفعل المحرم .

فيجتنبون جميع المجالس ، المشتملة على الأقوال المحرمة ، أو الأفعال المحرمة .

بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

كالخوض فى آيات الله ، والجدال الباطل ، والغيبة ، والنميمة ، والسب، والقذف ، والاستهزاء ، والغناء المحرم ، وشرب الخمر ، وفرش الحرير ، والصور ، ونحو ذلك .

وإذا كانوا لا يشهدون الزور ، فمن باب أولى وأحرى ، أن لا يقولوه ويفعلوه .

وشهادة الزور داخلة فى قول الزور ، تدخل فى هذه الآية بالأولوية .

[وإذا مروا باللغو] وهو الكلام الذى لا خير فيه ، ولا فيه فائدة دينية ، ولا دنيوية ، ككلام السفهاء ونحوهم [مروا كراما] أى : نزهوا أنفسهم ، وأكرموها عن الخوض فيه ، ورأوا أن الخوض فيه ، وإن كان لا إثم فيه ، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة ، فربأوا بأنفسهم عنه .

وفى قوله [وإذا مروا باللغو] إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ، ولا سماعه .

ولكن عند المصادفة ، التى من غير قصد ، يكرمون أنفسهم عنه .

[والذين إذا ذكروا بآيات ربهم] التى أمرهم باستماعها ، والاهتداء بها .

[لم يخروا عليها صما وعميانا] أى لم يقابلوها بالإعراض عنها ، والصمم عن سماعها ، وصرف النظر والقلوب عنها ، كما يفعله من لم يؤمن بها ولم يصدق .

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ

وإنما حالهم فيها ، وعند سماعها ، كما قال تعالى : « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون » .

يقابلونها بالقبول والافتقار إليها ، والانقياد ، والتسليم لها .

وتجد عندهم آذانا سامعة ، وقلوبا واعية ، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها، إيقانهم ، وتحدث لهم نشاطا ، ويفرحون بها سرورا واغتباطا .

[والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا] أى:قرنائنا من أصحاب وأقران ، وزوجات .

[وذرياتنا قرة أعين] أى : تَقَرُّبهم أعيننا .

[وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم ، عرفنا من هممهم ، وعلو مرتبتهم ، أن دعاءهم لذرياتهم ، فى صلاحهم ، فإنه دعاء لأنفسهم ، لأن نفعه يعود عليهم ، ولهذا جعلوا ذلك ، هبة لهم فقالوا : [هب لنا] بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين ، لأن صلاح من ذكر ، يكون سببا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم ، وينتفع بهم .

[واجعلنا للمتقين إماما] أى : أوصلنا ياربنا ، إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين ، والكمل من عباد الله الصالحين ، وهى درجة الإمامة فى الدين ، وأن يكونوا قدوة للمتقين ، فى أقوالهم وأفعالهم ، يقتدى بأفعالهم ويطمئن لأقوالهم ، ويسير أهل الخير خلفهم ، فيهدون ، ويهتدون .

ومن المعلوم ، أن الدعاء ببلوغ شيء ، دعاء بما لا يتم إلا به .

وهذه الدرجة ـ درجة الإمامة فى الدين ـ لا تتم إلا بالصبر واليقين ، كما قال تعالى :

يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

فهذا الدعاء ، يستلزم من الأعمال ، والصبر على طاعة الله ، وعن معصيته ، وأقداره المؤلمة ، ومن العلم التام ، الذى يوصل صاحبه إلى درجة اليقين - خيراً كثيراً ، وعطاء جزيلا ، وأن يكونوا فى أعلى ، مايمكن من درجات الخلق بعد الرسل .

ولهذا - لما كانت هممهم ومطالبهم عالية - كان الجزاء من جنس العمل ، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال :

[أولئك يجزون الغرفة بما صبروا] أى : المنازل الرفيعة ، والمساكن الأنيقة الجامعة لكل مايشتهى ، وتلذه الأعين ، وذلك بسبب صبرهم ، نالوا ما نالوا ، كما قال تعالى :

« والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ولهذا قال هنا : [ويلقون فيها تحية وسلاما] من ربهم ، ومن ملائكته الكرام ، ومن بعض على بعض ، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات .

والحاصل : أن الله وصفهم بالوقار والسكينة ، والتواضع له ولعباده ، وحسن الأدب ، والحلم ، وسعة الخلق ، والعفو عن الجاهلين ، والإعراض عنهم ، ومقابلة إساءتهم بالإحسان ، وقيام الليل ، والإخلاص فيه ، والخوف من النار ، والتضرع لربهم ، أن ينجيهم منها ، وإخراج الواجب والمستحب فى النفقات ، والاقتصاد فى ذلك .

. . . .

وإذا كانوا مقتصدين فى الإنفاق ، الذى جرت العادة ، بالتفريط فيه ، أو الإفراط .

فاقتصادهم ، وتوسطهم فى غيره ، من باب أولى .

والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله فى عبادته ، والعفة عن الدماء والأعراض ، والتوبة عند صدور شىء من ذلك ، وأنهم لايحضرون مجالس المنكر ، والفسوق القولية والفعلية ، ولا يفعلونها بأنفسهم ، وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية ، التى لا خير فيها ، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم ، وكالهم ، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس ، قولى وفعلى .

وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها ، والتفهم لمعانيها ، والعمل بها ، والاجتهاد فى تنفيذ أحكامها .

وأنهم يدعون الله تعالى ، بأكمل الدعاء فى الدعاء ، الذى ينتفعون به وينتفع به من يتعلق بهم ، وينتفع به المسلمون ، من صلاح أزواجهم ، وذريتهم .

ومن لوازم ذلك، سعيهم فى تعليمهم ، ووعظهم ، ونصحهم ، لأن من حرص على شىء ودعا الله فيه ، لا بد أن يكون متسببا فيه .

وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم ، وهى : درجة الإمامة والصديقية .

فلله ، ما أعلى هذه الصفات ، وأرفع هذه الهمم ، وأجل هذه المطالب ، وأزكى تلك النفوس ، وأطهر تيك القلوب ، وأصفى هؤلاء الصفوة وأتقى هؤلاء السادة ! !

. . . .

ولله ، فضل الله عليهم ، و نعمته ، ورحمته ، التى جللتهم ولطفه الذى أوصلهم إلى هذه المنازل .

ولله ، مِنَّة الله على عباده ، أن بين لهم أوصافهم ، ونعت لهم هيئاتهم ، وبين لهم هممهم ، وأوضح لهم أجورهم ، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم ، ويبذلوا جهدهم فى ذلك ، ويسألوا الذى مَنَّ عليهم ، وأكرمهم ، الذى فضله فى كل زمان ومكان ، وفى كل وقت وأوان ، أن يهديهم كما هداهم ، ويتولاهم بتربيته الخاصة ، كما تولاهم .

فاللهم ، لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، ولا حول ولا قوة ، إلا بك .

لا نملك لأنفسنا ، نفعا ولا ضرا ، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير ، إن لم تيسر ذلك لنا .

فإنا ضعفاء ، عاجزون من كل وجه .

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين ، وكلتنا إلى ضعف ، وعجز وخطية .

فلا نثق ، ياربنا ، إلا برحمتك التى بها خلقتنا ورزقتنا ، وأنعمت علينا ، بما أنعمت ، من النعم الظاهرة والباطنة ، وصرفت عنا من النقم .

فارحمنا رحمة ، تغنينا بها عن رحمة من سواك ، فلا خاب من سألك ورجاك .

ولما كان الله تعالى ، قد أضاف هؤلاء العباد ، إلى رحمته ، واختصهم

فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

بعبوديته ، لشرفهم وفضلهم ، ربما توهم متوهم ، أنه ، وأيضا غيرهم ، فلم لا يدخل فى العبودية ؟ .

فأخبر تعالى ، أنه لا يبالى ، ولا يعبأ بغير هؤلاء ، وأنه لولا دعاؤكم إياه ، دعاء العبادة ، ودعاء المسئلة ، ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال :

[قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما] أى : عذاباً يلزمكم ، لزوم الغريم لغريمه ، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين .

تم تفسير سورة الفرقان ، فلله الحمد والثناء والشكر أبدا .

تفســـــير

سورة الشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

* طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم

---

* يشير البارى تعالى إشارة ، تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح ، الدال على جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية ، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه ، شك ولا شبهة فيما أخبر به ، أو حكم به ، لوضوحه ، ودلالته على أشرف المعانى ، وارتباط الأحكام بحكمها ، وتعليقها بمناسبها .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينذر به الناس ، ويهدى به الصراط المستقيم .

فيهتدى بذلك عباد الله المتقون ، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء .

فكان يحزن حزناً شديداً ، على عدم إيمانهم ، حرصاً منه على الخير ، ونصحا لهم .

فلهذا قال تعالى لنبيه [لعلك باخع نفسك] أى : مهلكها وشاقاً عليها .

[أن لا يكونوا مؤمنين] أى : فلا تفعل ، ولا تذهب نفسك عليهم

مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ

حسرات ، فإن الهداية بيد الله ، وقد أديت ما عليك من التبليغ .

وليس فوق هذا القرآن المبين ، آية ، حتى ننزلها ، ليؤمنوا بها ، فإنه كاف شاف ، لمن يريد الهداية ، ولهذا قال :

[إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية] أى : من آيات الاقتراح .

[فظلت أعناقهم] أى : أعناق المكذبين [لها خاضعين] ولكن لا حاجة إلى ذلك ، ولا مصلحة فيه ، فإنه إذ ذاك الوقت ، يكون الإيمان غير نافع .

وإنما الإيمان النافع ، هو الإيمان بالغيب ، كما قال تعالى : « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها » الآية .

[وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث] يأمرهم وينهاهم ، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم .

[إلا كانوا عنه معرضين] بقلوبهم وأبدانهم .

هذا إعراضهم عن الذكر المحدث ، الذى جرت العادة ، أنه يكون موقعه ، أبلغ من غيره ، فكيف بإعراضهم عن غيره .

وهذا ، لأنهم لا خير فيهم ، ولا تنجع فيهم المواعظ ، ولهذا قال :

كَذَّبُواْ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

[فقد كذبوا] أى : بالحق ، وصار التكذيب لهم سجية ، لا تتغير ولا تتبدل .

[فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون] أى : سيقع بهم العذاب ، ويحل بهم ، ما كذبوا به ، فإنهم قد حقت عليهم ، كلمة العذاب .

قال الله منبها على التفكر ، الذى ينفع صاحبه :

[أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم] من جميع أصناف النباتات ، حسنة المنظر ، كريمة فى نفعها .

[إن فى ذلك لآية] على إحياء الله الموتى بعد موتهم ، كما أحيا الأرض بعد موتها [وما كان أكثرهم مؤمنين] كما قال تعالى « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

[وإن ربك لهو العزيز] الذى قد قهر كل مخلوق ، ودان له العالم العلوى والسفلى .

[الرحيم] الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووصل جوده إلى كل حى ، العزيز الذى أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات ، الرحيم بالسعداء ، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء .

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾

---

* أعاد البارى تعالى ، قصة موسى وثناها فى القرآن ، ما لم يثن غيرها ، لكونها مشتملة على حكم عظيمة ، وعبر ،وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين .

وهو صاحب الشريعة الكبرى ، وصاحب التوراة ، أفضل الكتب بعد القرآن فقال :

واذكر حالة موسى الفاضلة ، وقت نداء الله إياه ، حين كلمه ، ونبأه وأرسله فقال :

[أن ائت القوم الظالمين] الذين تكبروا فى الأرض ، وعلوا على أهلها وادعى كبيرهم الربوبية .

[قوم فرعون ألا يتقون] أى : قل لهم ، بلين قول ، ولطف عبارة [ألا تتقون] الله الذى خلقكم ورزقكم ، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر .

فقال موسى عليه السلام ، معتذراً من ربه ، ومبينا لعذره ، وسائلا له المعونة على هذا الحمل الثقيل : [قال رب إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدري ولا ينطلق لسانى] .

وقال [« رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى » .

[فأرسل إلى هرون] .

فأجاب الله طلبته ، ونبأ أخاه ، كما نبأه [فأرسله معى رداء] .
أى : معاونا لى على أمرى .

وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ

[ولهم على ذنب] أى : فى قتل القبطى [فأخاف أن يقتلون] .

[قال كلا] أى : لا يتمكنون من قتلك ، فإنا سنجعل لكما سلطانا ، فلا يصلون إليكما أنتما ، ومن اتبعكما الغالبون .

ولهذا لم يتمكن فرعون ، من قتل موسى ، مع منابذته له غاية المنابذ ، وتسفيه رأيه ، وتضليله وقومه .

[فاذهبا بآياتنا] الدالة على صدقكما ، وصحة ما جئتما به .

[إنا معكم مستمعون] أحفظكما وأكلؤكما .

[فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين] أى : أرسلنا إليك ، لتؤمن به وبنا ، وتنقاد لعبادته ، وتذعن لتوحيده .

[أن أرسل معنا بنى إسرائيل] فكف عنهم عذابك ، وارفع عنهم يدك ليعبدوا ربهم ، ويقيموا أمر دينهم .

فلما جاء فرعون ، وقالا له ، ما قال الله لهما ، لم يؤمن فرعون ، ولم يلن ، وجعل يعارض موسى بقوله [قال ألم نربك فينا وليدا] أى : ألم ننعم عليك ، ونقم بتربيتك ، منذ كنت وليدا فى مهدك ، ولم تزل كذلك .

فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا مِنَ

[وابثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت] وهى قتل موسى للقبطى ، حين استغاثه الذى من شيعته ، على الذى من عدوه « فوكزه موسى فقضى عليه » الآية .

[وأنت من الكافرين] أى : وأنت ، إذ ذاك طريقك طريقنا[1] ، وسبيلك سبيلنا ، فى الكفر ، فأقر على نفسه بالكفر ، من حيث لا يدرى .

فقال : موسى [فعلتها إذا وأنا من الضالين] أى : عن غير كفر ،

---

(١) « وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا الخ » .

هذا القول يوهم أن موسى كان على ملة فرعون قبل الرسالة .

وهذا غير صحيح ، لأن الأنبياء معصومون من الكفر ووسائله .

والصواب ـ كما قاله أبو السعود فى تفسيره ، وكذا الجلالين ـ أن معنى « وأنت من الكافرين » أى الجاحدين لنعمتى عليك بالتربية وعدم الاستعباد .

ولأن موسى كان يعايشهم بالتقية ، لا أنه كان يشاركهم فى الدين .

وكيف يكون ذلك والأنبياء معصومون ويعلم مما قررناه أن فى تعبير المؤلف قصوراً وإيهاماً للقارىء بأن موسى كان مشاركاً لهم فى الدين .

ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا

وإنما كان عن ضلال وسفه[1] ، فاستغفرت ربى فغفر لى .

[ففررت منكم لما خفتكم] حين تراجعتم بقتلى ، فهربت إلى مدين ، ومكثت سنين ، ثم جئتكم .

[فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين] .

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى ، اعتراض جاهل أو متجاهل .

فإنه جعل المانع من كونه رسولا ، أن جرى منه القتل .

فبين له موسى ، أن قتله كان على وجه الضلال والخطأ[2] ، الذى لم يقصد نفس القتل .

وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد ، فلم منعتم ما منحنى الله ، من الحكم والرسالة ؟ .

---

(١) قوله : « عن ضلال وسفه » إطلاق « السفه » و « الضلال » على الأنبياء غير جائز ولا لائق بمراتبهم العلية فهم معصومون عن ذلك .

والصواب ـ كما قال أبو السعود فى تفسيره ـ الضالين . أى الجاهلين ، وقد قرىء كذلك ، أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله ، بل أراد تأديبه ، أو الناسين عما يؤدى إليه الوكز .

(٢) قوله : « على وجه الضلال الخ » الأولى أن يقال إن موسى لم يعلم أن وكزه يؤدى إلى الموت ، ولم يتعمد قتل القبطى ، بل حصل القتل خطأ فقط

وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ

بقى عليك يافرعون ، إدلاؤك بقولك : [ألم نربك فينا وليدا] وعند التحقيق ، يتبين أن لامنة لك فيها ، ولهذا قال موسى :

[وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل] أى : تدلى علىَّ بهذه المنة لأنك سخرت بنى إسرائيل ، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد .

وأنا قد أسلمتنى من تعبيدك وتسخيرك ، وجعلتها علىَّ نعمة .

فعند التصور ، يتبين أن الحقيقة ، أنك ظلمت هذا الشعب الفاضل ، وعذبتهم ، وسخرتهم بأعمالك .

وأنا ، قد سلمنى الله من أذاك ، مع وصول أذاك لقومى .

فما هذه المنة ، التى تمن بها ، وتدلى بها . ؟

[قال فرعون ومارب العالمين] وهذا إنكار منه لربه ، ظلما وعلوا مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى فقال : [رب السموات والأرض وما بينهما] أى : الذى خلق العالم العلوى والسفلى ، ودبره بأنواع التدبير ، ورباه بأنواع التربية .

ومن جملة ذلك ، أنتم أيها المخاطبون ، فكيف تنكرون خالق المخلوقات ، وفاطر الأرض والسموات [إن كنتم موقنين] .

فقال فرعون متجرئا ، ومعجبا بقوله : [ألا تستمعون] ما يقول هذا الرجل .

حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ

فقال موسى [ربكم ورب آبائكم الأولين] تعجبتم أم لا ، استكبرتم ، أم أذعنتم .

فقال فرعون معاندا للحق ، قادحا بمن جاء به : [إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون] حيث قال خلاف ما نحن عليه ، وخالفنا فيما ذهبنا إليه .

فالعقل عنده وأهل العقل ، من زعموا أنهم لم يخلقوا ، أو أن السموات والأرض ، ما زالتا موجودتين من غير موجد وأنهم ، بأنفسهم ، خلقوا من غير خالق .

والعقل عنده ، أن يعبد المخلوق الناقص ، من جميع الوجوه .

والجنون عنده ، أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوى والسفلى ، للنعم بالنعم الظاهرة والباطنة ، ويدعى إلى عبادته .

وزين لقومه هذا القول ، وكانوا سفهاء الأحلام ، خفيفى العقول « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .

فقال موسى عليه السلام ، مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين : [رب المشرق والمغرب وما بينهما] من سائر المخلوقات [إن كنتم تعقلون] .

ٱتَّخَذتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾

فقد أديت لكم من البيان والتبيين ، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل .

فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به ؟ .

وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذى رميتم به موسى من الجنون ، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلا ، وأكملهم علماً .

والحال أنكم ، أنتم المجانين ، حيث ذهبت عقولكم إلى إنكار أظهر الموجودات ، خالق الأرض والسموات وما بينهما ، فإذا جحدتموه ، فأى شىء تثبتون ؟ .

وإذا جهلتموه ، فأى شىء تعلمون ؟ .

وإذا لم تؤمنوا به وبآياته ، فبأى شىء ـ بعد الله وآياته ـ تؤمنون ؟ .

تالله ، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم ، أعقل منكم ، وإن الأنعام السارحة ، أهدى منكم .

فلما خنقت فرعون الحجة ، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة [قال] متوعداً لموسى بسلطانه [لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين] .

زعم ـ قبحه الله ـ أنه قد طمع فى إضلال موسى ، وأن لا يتخذ إلها غيره ، وإلا فقد تقرر أنه ، هو ومن معه ، على بصيرة من أمرهم .

فقال له موسى : [أو لو جئتك بشىء مبين] أى : آية ظاهرة جلية ، على صحة ما جئت به ، من خوارق العادات .

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ

[قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان] أى : ذكر الحيات .

[مبين] ظاهر لكل أحد ، لا خيال ، ولا تشبيه .

[ونزع يده] من جيبه [فإذا هى بيضاء للناظرين] أى : لها نور عظيم ، لا نقص فيه لمن نظر إليها .

[قال] فرعون [للملأ حوله] معارضاً للحق ، ومن جاء به .

[إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم] موّه عليهم لعامه بضعف عقولهم ، أن هذا من جنس ما يأتى به السحرة ، لأنه من المتقرر عندهم ، أن السحرة يأتون من العجائب ، بما لا يقدر عليه الناس ، وخوّفهم أن قصده بهذا السحر ، التوصل إلى إخراجهم من وطنهم ، ليجدوا ويجتهدوا فى معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم .

[فماذا تأمرون] أن نفعل به ؟

[قالوا أرجه وأخاه] أى : أخرهما [وابعث فى المدائن حاشرين] جامعين للناس [يأتوك بكل سحار عليم] أى : ابعث فى جميع مدنك ، التى هى مقر العلم ، ومعدن السحر ، من يجمع لك كل ساحر ماهر ، عليم فى سحره فإن الساحر يُقَاتَلُ بسحرٍ من جنس سحره .

وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ

وهذا من لطف الله أن يرى العباد ، بطلان ما موه به فرعون الجاهل ، الضال ، المضل أن ما جاء به موسى سحر ، قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر ، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق العظيم ، فيظهر الحق على الباطل ، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة ، بصحة ما جاء به موسى ، وأنه ليس بسحر .

فعمل فرعون برأيهم ، فأرسل فى المدائن ، من يجمع السحرة ، واجتهد فى ذلك ، وجد .

[فجمع السحرة لميقات يوم معلوم] قد واعدهم إياه موسى ، وهو يوم الزينة ، الذى يتفرغون فيه من أشغالهم .

[وقيل للناس هل أنتم مجتمعون] أى : نودى بعموم الناس بالاجتماع فى ذلك اليوم الموعود .

[لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين] أى : قالوا للناس : اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة لموسى ، وأنهم ماهرون فى صناعتهم ، فنتبعهم ، ونعظمهم ، ونعرف فضيلة علم السحر .

فلو وفقوا للحق ، لقالوا ، لعلنا نتبع المحق منهم ، ولنعرف الصواب .

فلذلك ما أفاد فيهم ذلك ، إلا قيام الحجة عليهم .

ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴿٤١﴾قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ

[فلما جاء السحرة] ووصلوا لفرعون قالوا له : [أإن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين] لموسى ؟

[قال نعم] حكم أجر ، وثواب [وإنكم إذن لمن المقربين] عندى .

وعدهم الأجر والقربة منه ، ليزداد نشاطهم ، ويأتوا بكل مقدورهم ، فى معارضة ما جاء به موسى .

فلما اجتمعوا للوعد ، هم وموسى ، وأهل مصر ، وعظهم موسى وذكرهم وقال :

[ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم[1] بعذاب وقد خاب من افترى] فتنازعوا وتخاصموا ثم شجعهم فرعون ، وشجع بعضهم بعضا .

[قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون] أى : ألقوا كل ما فى خواطركم إلقاؤه . ولم يقيدهم بشىء دون شىء ، لجزمه ببطلان ما جاءوا به من معارضة الحق .

[فألقوا حبالهم وعصيهم] فإذا هى حيات تسعى ، وسحروا بذلك أعين الناس .

---

(١) فيسحتكم . أى : يهلككم ، ويستأصلكم . قال الراغب فى « معجم مفردات ألفاظ القرآن » : فَيُسحِتكم ، وقرىء فَيَسْحَتُكُمْ ، يقال « سحته وأسحته » ، ومنه : السحت للمحظور الذى يلزم صاحبَه العارُ . كأنه يُسْحِتُ دينه ومروءته ، أكالون للسحت . أى : يسحت دينهم . ا هـ . أى : يستأصل دينهم . وفى القاموس « أسحت الشىءَ وسحَّته » اكتسبه واستأصله . ا هـ .

وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿٤٨﴾

[وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون] فاستعانوا بعزة عبد ضعيف، عاجز من كل وجه ، إلا أنه قد تجبر ، وحصل له صورة ملك وجنود .

فغرتهم تلك الأبهة ، ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر .

أو أن هذا قسم منهم بعزة فرعون والمقسم عليه ، أنهم غالبون .

[فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف] تبتلع وتأخذ [ما يأفكون] فالتقفت ، جميع ما ألقوا ، من الحبال والعصى ، لأنها إفك ، وكذب ،وزور وذلك كله ، باطل لا يقوم للحق ، ولا يقاومه .

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة ، تيقنوا — لعلمهم — أن هذا ليس بسحر ، وإنما هو آية من آيات الله ، ومعجزة تنبىء بصدق موسى ، وصحة ما جاء به .

[فألقى السحرة ساجدين] لربهم [قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون] .

وانقمع الباطل ، فى ذلك المجمع ، وأقر رؤساؤه ، ببطلانه ، ووضح الحق ، وظهر حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم .

ولـكن أبى فرعون ، إلا عتوا وضلالا ، وتمادياً فى غيه وعناداً .

فقال للسحرة : [أآمنتم له قبل أن آذن لـكم] يتعجب ، ويعجب قومه من جراءتهم عليه ، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامرته .

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾

[إنه لكبيركم الذى علمكم السحر] .

هذا ، وهو الذى جمع السحرة ، وملأه ، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم .

وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى، ولا رأوه قبل ذلك ، وأنهم جاءوا من السحر ، بما يحير الناظرين ، ويهيلهم ، ومع ذلك ، فراج عليهم هذا القول ، الذى هم بأنفسهم ، وقفوا على بطلانه .

فلا يستنكر على أهل هذه العقول ، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح ، والآيات الباهرة ، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أى شىء كان ، إنه على خلاف حقيقته ، صدقوه .

ثم توعد السحرة فقال : [لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف] أى : اليد اليمنى ، والرجل اليسرى ، كما يفعل بالمفسد فى الأرض .

[ولأصلبنكم أجمعين] لتخنزوا ، وتذلوا .

فقال السحرة — حين وجدوا حلاوة الإيمان ، وذاقو لذته — :

[لا ضير] أى : لا نبالى بما توعدتنا به [إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا] من الكفر والسحر ، وغيرها [أن كنا أول المؤمنين] بموسى ، من هؤلاء الجنود .

فثبتهم الله وصبَّرهم .

إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾

فيحتمل أن فرعون ، فعل ما توعدهم به ، لسلطانه ، واقتداره إذ ذاك ويحتمل ، أن الله منعه منهم .

ثم لم يزل فرعون وقومه ، مستمرين على كفرهم ، يأتيهم موسى بالآيات البينات .

وكلما جاءتهم آية ، وبلغت منهم كل مبلغ ، وعدوا موسى ، وعاهدوه لئن كشف الله عنهم ، ليؤمنن به ، وليرسلن معه بنى إسرائيل ، فيكشفه الله ، ثم ينكثون .

فلما يئس موسى من إيمانهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وآن لبنى إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم ، ويمكن لهم فى الأرض ، أوحى الله إلى موسى :

[أن أسر بعبادى] أى : اخرج ببنى إسرائيل أول الليل ، ليتمادوا ، ويتمهلوا فى ذهابهم .

[إنكم متبعون] أى : سيتبعكم فرعون وجنوده .

ووقع كما أخبر ، فإنهم لما أصبحوا ، إذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى .

[فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين] يجمعون الناس ، ليوقع ببنى إسرائيل ، ويقول مشجعا لقومه [إن هؤلاء] أى : بنى إسرائيل [لشرذمة قليلون] .

وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا

[وإنهم لنا لغائظون] فلا بد أن ننفذ غيظنا فى هؤلاء العبيد ، الذين أَبِقُوا منا .

[وإنا لجميع حاذرون] أى : الحذر على الجميع منهم ، وهم أعداء للجميع ، والمصلحة مشتركة .

نخرج فرعون وجنوده ، فى جيش عظيم ، ونفير عام ، لم يتخلف منهم ، سوى أهل الأعذار ، الذين منعهم العجز .

قال الله تعالى : [فأخرجناهم من جنات وعيون] أى : بساتين مصر وجناتها الفائقة ، وعيونها المتدفقة ، وزروع ، قد ملأت أراضيهم ، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم .

[وكنوز ومقام كريم] يعجب الناظرين ، ويلهى المتأملين .

تمتعوا به دهراً طويلا ، وقضوا بلذته وشهواته ، عمراً مديداً ، على الكفر والفساد ، والتكبر على العباد والتيه العظيم .

[كذلك وأورثناها] أى : هذه البساتين والعيون ، والزروع ، والمقام الكريم .

[بنى إسرائيل] الذين جعلوهم من قبل عبيدهم ، وسخروا فى أعمالهم الشاقة .

ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْأَخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا

فسبحان من يؤتى الملك من يشاء ، وينزعه عمن يشاء ، ويعز من يشاء بطاعته ، ويذل من يشاء بمعصيته .

[فأتبعوهم مشرقين] أى : اتبع قوم فرعون ، قوم موسى ، وقت شروق الشمس ، وساقوا خلفهم محثين ، على غيظ وحنق قادرين .

[فلما تراءى الجمعان] أى رأى كل منهما صاحبه .

[قال أصحاب موسى] شاكين لموسى وحزنين [إنا لمدركون] .

ف [قال] موسى ، مثبتاً لهم ، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق : [كلا] أى : ليس الأمر كما ذكرتم ، أنكم مدركون .

[إن معى ربى سيهدين] لما فيه نجاتى ونجاتكم .

[فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر] فضربه [فانفلق] اثنى عشر طريقاً [فكان كل فرق كالطود] أى : الجبل [العظيم] فدخله موسى وقومه .

[وأزلفنا ثم] فى ذلك المكان [الآخرين] أى فرعون وقومه ، وقربناهم ، وأدخلناهم فى ذلك الطريق ، الذى سلك منه موسى وقومه .

[وأنجينا موسى ومن معه أجمعين] استكملوا خارجين ، لم يتخلف منهم أحد .

ٱلْأَخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ

[ثم أغرقنا الآخرين] لم يتخلف منهم عن الغرق أحد .

[إن فى ذلك لآية] عظيمة ، على صدق ما جاء به موسى عليه السلام ، وبطلان ما عليه فرعون وقومه .

[وما كان أكثرهم مؤمنين] مع هذه الآيات ، المقتضية للإيمان ، لفساد قلوبهم .

[وإن ربك لهو العزيز الرحيم] بعزته أهلك الكافرين المكذبين . وبرحمته نجى موسى ، ومن معه أجمعين .

* أى : واتل يا محمد على الناس ، نبأ إبراهيم الخليل ، وخبره الجليل ، فى هذه الحالة بخصوصها ، وإلا ، فله أنباء كثيرة .

ولكن من أعجب أنبائه ، وأفضلها ، هذا النبأ المتضمن لرسالته ، ودعوته قومه ، ومحاجته إياهم ، وإبطاله ما هم عليه ، ولذلك قيده بالظرف فقال :

[إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا] متبجحين بعبادتهم .

[نعبد أصناماً] ننحتها ونعملها بأيدينا .

[فنظل لها عاكفين] أى : مقيمين على عبادتها فى كثير من أوقاتنا .

يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ

فقال لهم إبراهيم ، مبيناً عدم استحقاقها للعبادة : [هل يسمعونكم إذ تدعون] .

فيستجيبون دعاءكم ، ويفرجون كربكم ، ويزيلون عنكم كل مكروه ؟

[أو ينفعونكم أو يضرون] فأقروا أن ذلك كله ، غير موجود فيها ، فلا تسمع دعاء ، ولا تنفع ، ولا تضر .

ولهذا لما كسرها قال : « بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون » .

قالوا له : [لقد علمت ما هؤلاء ينطقون] أى : هذا أمر متقرر من حالها ، لا يقبل الإشكال والشك .

فلجأوا إلى تقليد آبائهم الضالين ، فقالوا : [بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون] .

فتبعناهم على ذلك ، وسلكنا سبيلهم ، وحافظنا على عاداتهم .

فقال لهم إبراهيم : أنتم وآباءكم ، كلكم خصوم فى الأمر ، والكلام مع الجميع واحد .

[أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى] فليضرونى بأدنى شىء من الضرر ، وليكيدونى ، فلا يقدرون .

عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾

[إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين] هو المتفرد بنعمة الخلق ، ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية .

ثم خصص منها بعض الضروريات فقال :

[والذى هو يطعمني ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتني ثم يحيين * والذي أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين] .

فهذا هو وحده المنفرد بذلك ، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة ، وتترك هذه الأصنام ، التى لا تخلق ، ولا تهدى ، ولا تمرض ، ولا تشفى ، ولا تطعم ولا تسقى ، ولا تميت ، ولا تحيي ، ولا تنفع عابديها ، بكشف الكروب ، ولا مغفرة الذنوب .

فهذا دليل قاطع ، وحجة باهرة ، لا تقدرون أنتم وآباؤكم على معارضتها .

فدل على اشتراككم فى الضلال ، وترككم طريق الهدى والرشد .

قال الله تعالى : « وحاجه قومه قال : أتحاجونى فى الله وقد هدانى » الآيات .

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: [رب هب لى حكما] أى : علماً كثيراً ، أعرف به الأحكام ، والحلال والحرام ، وأحكم به بين الأنام .

[وألحقني بالصالحين] من إخوانه الأنبياء والمرسلين .

وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْأَخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾

[واجعل لى لسان صدق فى الآخرين] أى : اجعل لى ثناء صدق ، مستمر إلى آخر الدهر .

فاستجاب الله دعاءه ، فوهب له من العلم والحكم ، ما كان به من أفضل المرسلين ، وألحق بإخوانه المرسلين ، وجعله محبوباً مقبولا ، معظما مثنيا عليه ، فى جميع الملل ، فى كل الأوقات .

قال تعالى : « وتركنا عليه فى الآخرين * سلام على إبراهيم * إنا كذلك نجزى المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين » .

[واجعلنى من ورثة جنة النعيم] أي : من أهل الجنة ، التى يورثهم الله إياها .

فأجاب الله دعاءه ، فرفع منزلته فى جنات النعيم .

[واغفر لأبى إنه كان من الضالين] وهذا الدعاء ، بسبب الوعد الذى قال لأبيه « لأستغفرن لك ربى إنه كان بى حفيا » .

قال تعالى : « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه إن إبراهيم لحليم أواه منيب » .

[ولا تخزنى يوم يبعثون] أى : بالتوبيخ على بعض الذنوب ، والعقوبة عليها ، والفضيحة .

بل أسعدنى فى ذلك اليوم الذى فيه [لا ينفع مال ولا بنون إلا من

إِلاَّ مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾

أتى الله بقلب سليم] فهذا الذى ينفعه عندك ، وهذا الذى ينجو به من العقاب ، ويستحق جزيل الثواب .

والقلب السليم ، معناه : الذى سلم من الشرك والشك ، ومحبة الشر ، والإصرار على البدعة والذنوب .

ويلزم من سلامته مما ذكر ، اتصافه بأضدادها ، من الإخلاص ، والعلم ، واليقين ، ومحبة الخير ، وتزيينه فى قلبه .

وأن تكون إرادته ومحبته ، تابعة لمحبة الله ، وهواه ، تابعاً لما جاء عن الله .

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم ، وما فيه من الثواب والعقاب فقال :

[وأزلفت الجنة] أى قربت [للمتقين] ربهم ، الذى امتثلو أوامره، واجتنبوا زواجره ، واتقوا سخطه وعقابه .

[وبرزت الجحيم] أى : برزت ، واستعدت بجميع مافيها من العذاب .

[للغاوين] الذين أوضعوا فى معاصى الله ، وتجرأوا على محارمه ، وكذبوا رسله ، وردوا ما جاءوهم به من الحق [وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون] بأنفسهم أى : فلم يكن

فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾
قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾

من ذلك من شيء .

وظهر كذبهم وخزيهم ، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم ، وبان ندمهم، وضل سعيهم .

[فكبكبوا فيها] أى : ألقوا فى النار [هم] أى : ما كانوا يعبدون .

[والغاوون] العابدون لها .

[وجنود إبليس أجمعون] من الإنس والجن ، الذين أزّهم إلى المعاصى أزًّا ، وتسلط عليهم بشركهم وعدم إيمانهم ، فصاروا من دعاته ، والساعين فى مرضاته .

وهم ما بين داع لطاعته ، ومجيب لهم ، ومقلد لهم على شركهم .

[قالوا] أى : جنود إبليس الغاوون ، لأصنامهم ، وأوثانهم التى عبدوها : [تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين] فى العبادة والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، وندعوكم كما ندعوه .

فتبين لهم حينئذ ، ضلالهم ، وأقروا بعدل الله فى عقوبتهم ، وأنها فى محلها .

وهم لم يسووهم برب العالمين ، إلا فى العبادة ، لا فى الخلق بدليل قولهم « برب العالمين » إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم ، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم .

إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

[وما أضلنا] عن طريق الهدى والرشد ، ودعانا إلى طريق الغى والفسق ، [إلا المجرمون] وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار .

[فمالنا] حينئذ [من شافعين] يشفعون لنا ، لينقذونا من عذابه .

[ولا صديق حميم] أى : قريب مصاف ، ينفعنا بأدنى نفع ، كما جرت العادة بذلك فى الدنيا .

فأيسوا من كل خير ، وأبلوا بما كسبوا ، وتمنوا العودة إلى الدنيا ، ليعملوا صالحاً .

[فلو أن لنا كرة] أى : رجعة إلى الدنيا ، وإعادة إليها [فنكون من المؤمنين] لنسلم من العقاب ، ونستحق الثواب .

هيهات هيهات ، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون ، وقد غلقت منهم الرهون .

[إن فى ذلك] الذى ذكرنا لكم ووصفنا [لآية] لكم [وما كان أكثرهم مؤمنين] مع نزول الآيات .

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾

---

* يذكر تعالى ، تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح ، وما رد عليهم وردوا عليه ، وعاقبة الجميع فقال :

[كذبت قوم نوح المرسلين] جميعهم ، لأن تكذيب نوح، كتكذيب جميع المرسلين .

لأنهم كلهم ، اتفقوا على دعوة واحدة ، وأخبار واحدة .

فتكذيب أحدهم ، كتكذيب ، بجميع ما جاءوا به من الحق .

كذبوه [إذ قال لهم أخوهم] فى النسب [نوح] .

وإنما ابتعث الله الرسل ، من نسب من أرسل إليهم ، لئلا يشمئزوا من الانقياد له ، ولأنهم يعرفون حقيقته ، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه .

فقال لهم مخاطبا ، بألطف خطاب ، كما هى طريقة الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم .

[ألا تتقون] الله تعالى ، فتتركون ما أنتم مقيمون عليه ، من عبادة الأوثان ، وتخلصون العبادة لله وحده .

[إنى لكم رسول أمين] فكونه رسولا إليهم بالخصوص ، يوجب لهم تلقى ما أرسل به إليهم ، والإيمان به ، وأن يشكروا الله تعالى ، على أن خصهم بهذا الرسول الكريم .

وكونه أميناً ، يقتضى أنه لا يقول على الله ، ولا يزيد فى وحيه ، ولا ينقص .

فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا

وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره .

[فاتقوا الله وأطيعون] فيما أمركم به ، ونهاكم عنه ، فإن هذا ، هو الذى يترتب على كونه رسولا إليهم ، أمينا ، فلذلك رتبه بالفاء ، الدالة على السبب .

فذكر السبب الموجب ، ثم ذكر انتفاء المانع فقال :

[وما أسألكم عليه من أجر] فتتكلفون من المغرم الثقيل .

[إن أجرى إلا على رب العالمين] أرجو بذلك ، القرب منه ، والثواب الجزيل .

وأما أنتم فمنيتى ، ومنتهى إرادتى منكم ، النصح لكم ، وسلوككم الصراط المستقيم .

[فاتقوا الله وأطيعون] كرر ذلك عليه السلام ، لتكريره دعوة قومه ، وطول مكثه فى ذلك ، كما قال تعالى « فلبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما » .

وقال « رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » الآيات .

فقالوا ردًّا لدعوته ، ومعارضةً له بما ليس يصلح للمعارضة .

[أنؤمن لك واتبعك الأرذلون] أى : كيف نتبعك ونحن لا نرى

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾

أتباعك إلا أسافل الناس ، وأراذلهم ، وسقطهم .

بهذا يعرف عن تكبرهم عن الحق ، وجهلهم بالحقائق ، فإنهم لو كان قصدهم الحق ، لقالوا — إن كان عندهم إشكال وشك فى دعوته — بَيِّنْ لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك .

ولو تأملوا حق التأمل ، لعلموا أن أتباعه ، هم الأعلون ، خيار الخلق ، أهل العقول الرزينة ، والأخلاق الفاضلة ، وأن الأرذل ، من سلب خاصية عقله ، فاستحسن عبادة الأحجار ، ورضى أن يسجد لها ، ويدعوها ، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل .

وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين فى الكلام الباطل ، يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه .

فقوم نوح ، لما سمعنا عنهم ، أنهم قالوا فى ردهم دعوة نوح : [أنؤمن لك واتبعك الأرذلون] فبنوا على هذا الأصل ، الذى كل أحد يعرف فساده ، رد دعوته — عرفنا[١] أنهم ضالون مخطئون ، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ، ما يفيد الجزم واليقين ، بصدقه وصحة ما جاء به .

فقال نوح عليه السلام : [وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون] أى : أعمالهم وحسابهم على الله ، إنما عَلَىَّ التبليغ ، وأنتم دعوهم عنكم ، إن كان ما جئتكم به الحق ، فانقادوا له ، وكُلٌّ له عمله .

---

(١) قوله « عرفنا » جواب « لما » فى قوله المتقدم « لما سمعنا » .

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ

[وما أنا بطارد المؤمنين] كأنهم — قبحهم الله — طلبوا منه أن يطردهم عنه ، تكبراً ، وتجبراً ، ليؤمنوا . فقال « وما أنا بطارد المؤمنين » فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة ، وإنما يستحقون الإكرام القولى ، والفعلىّ ، كما قال تعالى « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

[إن أنا إلا نذير مبين] أى : ما أنا إلا منذر ، ومبلغ عن الله ، ومجتهد فى نصح العباد ، وليس لى من الأمر شىء ، إن الأمر إلا لله .

فاستمر نوح ، عليه الصلاة والسلام ، على دعوتهم ليلا ونهاراً ، سراً وجهاراً ، فلم يزدادوا إلا نفورا ، و[قالوا لئن لم تنته يانوح] من دعوتك إيانا ، إلى الله وحده [لتكونن من المرجومين] أى لنقتلك شر قتلة ، بالرمى بالحجارة ، كما يقتل الكلب .

فتباً لهم ، ما أقبح هذه المقابلة ، يقابلون الناصح الأمين الذى هو أشفق عليهم من أنفسهم ، بشر مقابلة .

لا جرم لما انتهى ظلمهم ، واشتد كفرهم ، دعا عليهم نبيهم ، بدعوة أحاطت بهم فقال :

« رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » الآيات .

وهنا [قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحاً] .

أى : أهلك الباغى منا ، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة ، ولهذا قال : [ونجنى ومن معى من المؤمنين] .

إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

فأنجيناه ومن معه فى الفلك] أى : السفينة [المشحون] من الخلق والحيوانات .

[ثم أغرقنا بعد] أى : بعد نوح ؛ ومن معه من المؤمنين [الباقين] أى : جميع قومه .

[إن فى ذلك] أى : نجاة نوح وأتباعه ، وإهلاك من كذبه [لآية] دالة على صدق رسلنا ، وصحة ما جاءوا به ، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم .

[وإن ربك لهو العزيز] الذى قهر بعزه أعداءه ، فأغرقهم بالطوفان .

[الرحيم] بأوليائه ، حيث نجى نوحاً ومن معه ، من أهل الإيمان .

۞ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾

---

* أى : كذبت القبيلة المسماة عادا ، رسولهم هودا .

وتكذيبهم له ، تكذيب لغيره ، لاتفاق الدعوة .

[إذ قال لهم أخوهم] فى النسب [هود] بلطف وحسن خطاب :

[ألا تتقون] الله ، فتتركون الشرك وعبادة غيره .

[إنى لكم رسول أمين] أى : أرسلنى الله إليكم ، رحمة بكم ، واعتناء بكم .

وأنا أمين ، تعرفون ذلك منى ، رتب على ذلك قوله : [فاتقوا الله وأطيعون] أى : أدوا حق الله تعالى ، وهو : التقوى ، وأدوا حقى ، بطاعتى فيما آمركم به ، وأنهاكم عنه ، فهذا موجب ، لأن تتبعونى وتطيعونى وليس ثمَّ مانع يمنعكم من الإيمان .

فلست أسألكم على تبليغى إياكم ، ونصحى لكم ، أجراً ، حتى تستثقلوا ذلك المغرم .

[إن أجرى إلا على رب العالمين] الذى رباهم بنعمه ، وأدرَّ عليهم فضله وكرمه ، خصوصاً ما ربَّى به أولياءه وأنبياءه .

[أتبنون بكل ريع] أى : مدخل بين الجبال [آية] أى : علامة [تعبثون] أى : تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم .

وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾

[وتتخذون مصانع] أى : بركا ومجابى للحياة [لعلكم تخلدون] والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد .

[وإذا بطشتم] بالخلق [بطشتم جبارين] قتلا وضرباً ،وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة ، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله ، ولكنهم نخروا ، واستكبروا ، وقالوا « من أشد منا قوة » واستعملوا قوتهم فى معاصى الله ، وفى العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك .

[فاتقوا الله] واتركوا شرككم وبطركم [وأطيعون] حيث علمتم أنى رسول الله إليكم ، أمين ناصح .

[واتقوا الذى أمدكم] أى : أعطاكم [بما تعلمون] أى : أمدكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإنعام .

[أمدكم بأنعام] من إبل ، وبقر ، وغنم [وبنين] أى :وكثرة نسل. كثَّر أموالكم ، وكثَّر أولادكم ، خصوصاً الذكور ، أفضل القسمين .

هذا تذكيرهم بالنعم ، ثم ذكرهم حلول عذاب الله فقال :

[إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] أى : أى إنى ـ من شفقتى عليكم

قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾
إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾

وبرى بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب يوم عظيم ، إذا نزل لا يرد ، إن استمررتم على كفركم وبغيكم .

فقالوا معاندين للحق مكذبين لنبيهم : [سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين] أى : الجميع على حد سواء .

وهذا غاية العتو ، فإن أقواماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله ، التى تذيب الجبال الصم الصلاب ، وتتصدع لها أفئدة أولى الألباب ، وجودها وعدمها — عندهم — على حد سواء — لقوم انتهى ظلمهم ، واشتد شقاؤهم ، وانقطع الرجاء من هدايتهم .

ولهذا قالوا [إن هذا إلا خلق الأولين] أى : هذه الأحوال والنعم ، ونحو ذلك ، عادة الأولين ، تارة يستغنون ، وتارة يفتقرون .

وهذه أحوال الدهر ، لأن هذه محن ومنح من الله تعالى ، وابتلاء لعباده .

[وما نحن بمعذبين] وهذا إنكار منهم للبعث أو تنزل مع نبيهم وتهكم به .

إننا على فرض أننا نبعث ، فإننا كما أدرَّت علينا النعم فى الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا .

فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾

[فكذبوه] أى : صار التكذيب سجية لهم وخلقاً ، لا يردعهم عنه رادع .

[فأهلكناهم] « بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى * كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

[إن فى ذلك لآية] على صدق نبينا ، هود عليه السلام ، وصحة ما جاء به ، وبطلان ما عليه قومه ، من الشرك والجبروت .

[وما كان أكثرهم مؤمنين] مع وجود الآيات المقتضية للإيمان .

[وإن ربك لهو العزيز] الذى أهلك بقدرته قوم هود ، على قوتهم وبطشهم .

[الرحيم] بنبيه هود ، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين .

* [كذبت ثمود] القبيلة المعروفة فى مدائن الحجر [المرسلين] كذبوا صالحاً عليه السلام ، الذى جاء بالتوحيد، الذى دعت إليه المرسلون ، فكان تكذيبهم له ، تكذيباً للجميع .

[إذ قال لهم أخوهم صالح] فى النسب ، برفق ولين : [ألا تتقون] الله تعالى ، وتدعون الشرك والمعاصى .

[إنى لكم رسول] من الله ربكم ، أرسلنى إليكم ، لطفاً بكم ورحمة ،

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

فتلقوا رحمته بالقبول ، وقابلوها بالإذعان .

[أمين] تعرفون ذلك منى ، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بى ، وبما جئت به .

[وما أسألكم عليه من أجر] فتقولون : يمنعنا من اتباعك ، أنك تريد أخذ أموالنا .

[إن أجرى إلا على رب العالمين] أى : لا أطلب الثواب إلا منه .

[أتتركون فى ما ههنا آمنين ، فى جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم] أى : نضيد كثير .

أى : أتحسبون أنكم تتركون فى هذه الخيرات والنعم سُدًى ، تنعمون وتتمتعون ، كما تتمتع الأنعام ، وتتركون سدى ، لا تؤمرون ، ولا تنهون وتستعينون بهذه النعم على معاصى الله .

[وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين] أى : بلغت بكم الفراهة والحذق إلى أن اتخذتم بيوتاً من الجبال الصم الصلاب .

[فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين] الذين تجاوزوا الحد .

وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ

[الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون] أى: الذين وصفهم وداؤهم، الإفساد فى الأرض ، بعمل المعاصى ، والدعوة إليها ، إفسادا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون لأنه شر محض .

وكان أناساً عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم ، موضعون فى الدعوة لسبيل الغى . فنهاهم صالح ، عن الاغترار بهم .

ولعلهم الذين قال الله فيهم : « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

فلم يفد فيهم هذا النهى والوعظ شيئا ، فقالوا لصالح : [إنما أنت من المسحرين] .

أى : قد سحرت ، فأنت تهذى ، بما لا معنى له .

[ما أنت إلا بشر مثلنا] فأى : فضيلة فقتنا بها ، حتى تدعونا إلى اتباعك ؟

[فأت بآية إن كنت من الصادقين] هذا ، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه ، من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه ، ولكنهم من قسوتهم ، سألوا آيات الاقتراح ، التى فى الغالب ، لا يفلح من طلبها ، لكون طلبه مبنيا على التعنت ، لا على الاسترشاد .

يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

فقال صالح : [هذه ناقة] تخرج من صخرة صماء ملساء — تابعنافى هذا كثيراً من المفسرين ، ولا مانع فى ذلك — ترونها وتشاهدونها بأجمعكم .

[لها شرب ولكم شرب يوم معلوم] أى : تشرب ماء البئر يوماً ، وأنتم تشربون لبنها ، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر،وتشربون أنتم ماء البئر.

[ولا تمسوها بسوء] بعقر أو غيره [فيأخذكم عذاب يوم عظيم] .

فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال ، فلم يؤمنوا ، واستمروا على طغيانهم .

[فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب] وهى صيحة نزلت عليهم ، فدمرتهم أجمعين .

[إن فى ذلك لآية] على صدق ما جاءت به رسلنا ، وبطلان قول معارضيهم .

[وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم] .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾

---

* قال لهم وقالوا ، كما قال من قبلهم ، تشابهت قلوبهم في الكفر ، فتشابهت أقوالهم .

وكانوا — مع شركهم — يأتون فاحشة ، لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

يختارون نكاح الذكران ، المستقذر الخبيث ، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم لإسرافهم وعدوانهم فلم يزل ينهاهم حتى [قالوا لئن لم تنته يالوط لتكونن من المخرجين] أى : من البلد .

فلما رأى استمرارهم عليه [قال إنى لعملكم من القالين] أى : المبغضين الناهين عنه المحذرين منه .

قال [رب نجنى وأهلى مما يعملون] من فعله وعقوبته فاستجاب الله له .

إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْئَيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ

[فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزاً فى الغابرين] أى : الباقين فى العذاب ، وهى امرأته .

[ثم دمرنا الآخرين * وأمطرنا عليهم مطراً] أى : حجارة من سجيل [فساء مطر المنذرين] أهلكهم الله عن آخرهم .

[إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم] .

* أصحاب الأيكة : أى : البساتين الملتفة الأشجار ، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيبا ، الذى جاء بما جاء به المرسلون .

[إذ قال لهم شعيب ألا تتقون] الله تعالى ، فتتركون ما يسخطه ويغضبه ، من الكفر والمعاصى .

[إنى لكم رسول أمين] يترتب على ذلك ، أن تتقوا الله وتطيعونى . وكانوا — مع شركهم — يبخسون المكاييل والموازين ، فلذلك قال لهم :

وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ

[أوفوا الكيل] أى : أتموه وأكملوه [ولا تكونوا من المخسرين] الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ، ببخس المكيال والميزان .

[وزنوا بالقسطاس المستقيم] أى : بالميزان العادل ، الذى لا يميل [واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين] أى : الخليقة الأولين .

فكما انفرد بخلقكم ، وخلق من قبلكم من غير مشاركة له فى ذلك ، فأفردوه بالعبادة والتوحيد .

وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم ، فقابلوه بشكره .

قالوا له ، مكذبين له ، رادّين لقوله : [إنما أنت من المسحرين] فأنت تهذى وتتكلم كلام المسحور ، الذى غايته ، أن لا يؤاخذ به .

[وما أنت إلا بشر مثلنا] فليس فيك فضيلة ، اختصصت بها علينا ، حتى تدعونا إلى اتباعك .

وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم ، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة

ٱلْـكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَـكَذَّبُوهُ

التى لم يزالوا ، يدلون بها ويصولون ، ويتفقون عليها ، لاتفاقهم على الـكفر، وتشابه قلوبهم .

وقد أجابت عنها الرسل بقولهم : « إن نحن إلا بشر مثلـكم ولـكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

[وإن نظنك لمن الـكاذبين] وهذا جراءة منهم وظلم ، وقول زور ، قد انطووا على خلافه .

فإنه ما من رسول من الرسل ، واجه قومه ودعاهم ، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات ، ما به يتيقنون صدقه وأمانته ، خصوصاً شعيباً عليه السلام ، الذى يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه ، ومجادلتهم بالتى هى أحسن .

فإن قومه قد تيقنوا صدقه ، وأن ما جاء به حق ، ولـكن إخبارهم عن ظن كذبه ، كذب منهم .

[فأسقط علينا كسفاً من السماء] أى : قطع عذاب تستأصلنا .

[إن كنت من الصادقين] كقول إخوانهم « وإذ قالوا اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح ، التى لا يلزم تتميم مطلوب من سألها .

فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ

[قال] شعيب عليه السلام : [ربى أعلم بما تعملون] أى : نزول العذاب ، ووقوع آيات الاقتراح ، لست أنا الذى آتى بها وأنزلها بكم ، وليس علىّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت .

وإنما الذى يأتى بها ، ربِّى العالم بأعمالكم وأحوالكم ، الذى يجازيكم ويحاسبكم .

[فكذبوه] أى : صار التكذيب لهم ، وصفاً والكفر لهم ديدنا ، بحيث لا تفيدهم الآيات ، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب .

[فأخذهم عذاب يوم الظلة] أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين ، لظلها غير الظليل ، فأحرقهم بالعذاب ، فظلوا تحتها خامدين ، ولديارهم مفارقين ، وبدار الشقاء والعذاب نازلين .

[إنه كان عذاب يوم عظيم] لا كرة لهم إلى الدنيا ، فيستأنفوا العمل ولا يُفتَّر عنهم العذاب ساعة ، ولاهم ينظرون .

[إن فى ذلك لآية] دالةعلى صدق شعيب ، وصحة ما دعا إليه ، وبطلان رد قومه عليه .

[وما كان أكثرهم مؤمنين] مع رؤيتهم الآيات ، لأنهم لا زكاء فيهم ، ولا خير لديهم « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

[وإن ربك لهو العزيز] الذى امتنع بقدرته ، عن إدراك أحد ، وقهر كل مخلوق .

لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ

[الرحيم] الذى ، الرحمة وصفه ومن آثارها ، جميع الخيرات فى الدنيا والآخرة ، من حين أوجد الله العالم إلى ما لا نهايه له .

ومن عزته ، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله .

ومن رحمته ، أن نجّى أولياءه ومن معهم من المؤمنين .

* لما ذكر قصص الأنبياء مع أممهم ، وكيف دعوهم ، وما ردوا عليهم به ؛ وكيف أهلك الله أعداءهم ، وصارت لهم العاقبة .

ذكر هذا الرسول الكريم ، والنبى المصطفى العظيم وما جاء به من الكتاب ، الذى فيه هداية لأولى الألباب فقال :

[وإنه لتنزيل رب العالمين] فالذى أنزله ، فاطر الأرض والسموات ، المُرَبِّى جميع العالم ، العلوى والسفلى .

وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم ، فإنه يربيهم أيضاً ، بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم .

ومن أعظم مارباهم به ، إنزال هذا الكتاب الكريم ، الذى اشتمل على الخير الكثير ، والبر الغزير .

وفيه من الهداية ، لمصالح الدارين ، والأخلاق الفاضلة ، ما ليس فى غيره فى قوله : [وإنه لتنزيل رب العالمين] من تعظيمه وشدة الاهتمام به ، من كونه نزل من الله ، لا من غيره ، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم .

ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ

[نزل به الروح الأمين] وهو : جبريل عليه السلام ، الذى هو أفضل الملائكة وأقواهم ، [الأمين] الذى قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص .

[على قلبك] يامحمد [لتكون من المنذرين] تهدى به إلى طريق الرشاد ، وتنذر به عن طريق الغى .

[بلسان عربى] وهو أفضل الألسنة ، بلغة من بُعِثَ إليهم ، وباشر دعوتهم أصلا ، اللسان البَيِّن الواضح .

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة فى هذا الكتاب الكريم .

فإنه أفضل الكتب ، نزل به أفضل الملائكة ، على أفضل الخلق ، على أفضل أمة أخرجت للناس ، بأفضل الألسنة وأفصحها ، وأوسعها ، وهو : اللسان العربى المبين .

[وإنه لفى زبر الأولين] أى : قد بشرت به كتب الأولين وصدقته .

وهو لما نزل ، طِبْقَ ما أخبرت به ، صدقها ، بل جاء بالحق ، وصدق المرسلين .

[أو لم يكن لهم آية] على صحته ، وأنه من الله [أن يعلمه علماء بنى إسرائيل] الذين قد انتهى إليهم العلم ، وصاروا أعلم الناس ، وهم أهل الصنف[1] .

---

(١) قوله « وهم أهل الصنف » لعل الصواب « وهم أهل النصف » أى : الإنصاف ، كما يدل عليه سياق الكلام وسباقه .

بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ

فإن كل شيء يحصل به اشتباه ، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية ، فيكون قولهم حجة على غيرهم .

كما عرف السحرة الذين مهروا فى علم السحر ، صدق معجزة موسى ، وأنه ليس بسحر .

فقول الجاهلين بعد هذا ، لا يؤبه به .

[ولو نزلناه على بعض الأعجمين] الذين لا يفقهون لسانهم ، ولا يقدرون على التعبير كما ينبغى [فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين] يقولون : ما نفقه ما يقول ، ولا ندرى ما يدعو إليه .

فَلْيَحْمَدُوا ربهم ، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق ، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد ، بالعبارات الواضحة ، وأنصحهم .

وَلْيُبَادِرُوا إلى التصديق به ، وتَلَقِّيه بالتسليم والقبول .

ولكن تكذيبهم له من غير شبهة ، إن هو إلا محض الكفر والعناد ، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة ، فلهذا قال :

[كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين] أى : أدخلنا التكذيب ، ونظمناه فى قلوب أهل الإجرام ، كما يدخل السلك فى الإبرة ، فتشربته ، وصار وصفا لها .

وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم ، فلذلك [لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم] على تكذيبهم .

يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾
فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ

[فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون] أى : يأتيهم على حين غفلة ، وعدم إحساس منهم ، ولا استشعار بنزوله ، ليكون أبلغ فى عقوبتهم والنكال بهم .

[فيقولوا] إذ ذاك : [هل نحن منظرون] أى : يطلبون أن يُنظَرُوا ويمهلوا .

والحال إنه قد فات الوقت ، وحل بهم العذاب ، الذى لا يرفع عنهم ، ولا يُفَتَّر ساعة .

* يقول تعالى : [أفبعذابنا] وهو العذاب الأليم العظيم ، الذى لا يستهان به ، ولا يحتقر .

[يستعجلون] فما الذى غرهم ؟ هل فيهم قوة وطاقة ، للصبر عليه ؟.

أم عندهم قوة يقدرون بها على دفعه ، أو رفعه ، إذا نزل ؟ .

أم يُعْجِزُوننا ، ويظنون أننا ، لا نقدر على ذلك ؟ .

[أفرأيت إن متعناهم سنين] .

أى : أفرأيت إذا لم نستعجلْ عليهم ، بإنزال العذاب ، وأمهلناهم عدة سنين ، يتمتعون فى الدنيا [ثم جاءهم ما كانوا يوعدون] من العذاب .

سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾

[ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون] من اللذات، والشهوات.

أى : أى شىء يغنى عنهم ، ويفيدهم ، وقد مضت اللذات وبطلت ، واضمحلت ، وأعقبت تبعاً لها ، وضوعف لهم العذاب عند طول المدة.

القصد أن الحذر ، من وقوع العذاب ، واستحقاقهم له .

وأما تعجيله وتأخيره ، فلا أهمية تحته ، ولا جدوى عنده .

* يخبر تعالى عن كمال عدله ، فى إهلاك المكذبين ، وأنه ما أوقع بقرية ، هلاكا وعذاباً ، إلا بعد أن يعذر منهم ، ويبعث فيهم النُّذُرَ بالآيات البينات ، فيدعونهم إلى الهدى ، وينهونهم عن الردى ، ويذكرونهم بآيات الله ، وينبهونهم على أيامه فى نعمه ونقمه .

[ذكرى] لهم وإقامة حجة عليهم .

[وما كنا ظالمين] فنهلك القرى ، قبل أن ننذرهم ، ونأخذهم ، وهم غافلون عن النذر ، كما قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ولما بين تعالى ، كمال القرآن وجلالته ، نزهه عن كل صفة نقص ، وحماه — وقت نزوله ، وبعد نزوله — من شياطين الجن والإنس فقال :

[وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم] أى : لا يليق بحالهم

وَمَا يَنبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ

ولا يناسبهم [وما يستطيعون] ذلك .

[إنهم عن السمع لمعزولون] قد : أُبْعِدُوا عنه ، وأعدت لهم الرجوم لحفظه ، ونزل به جبريل ، أقوى الملائكة ، الذى لا يقدر شيطان أن يقربه ، أو يحوم حول ساحته .

وهذا كقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

* ينهى تعالى رسوله أصلا ، وأمته أسوة له فى ذلك ، عن دعاء غير الله ، من جميع المخلوقين ، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم ، والعقاب السرمدى ، لكونه شركا .

« ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار » .

والنَّهْىُ عن الشىء ، أَمْرٌ بضده .

فالنهى عن الشرك ، أمر بإخلاص العبادة وحده لا شريك له ، محبة ، وخوفاً ، ورجاء ، وذلا ، وإنابة إليه فى جميع الأوقات .

ولما أمره بما فيه كمال نفسه ، أمره بتكميل غيره فقال :

[وأنذر عشيرتك الأقربين] الذين هم أقرب الناس إليك ، وأحقهم بإحسانك الدينى والدنيوى ، وهذا لاينافى أمره بإنذار جميع الناس .

جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾

كما إذا أُمِرَ الإنسان بعموم الإحسان ، ثم قيل له « أحسن إلى قرابتك » . فيكون هذا الخصوص ، دالا على التأكيد ، وزيادة الحث .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، هذا الأمر الإلهى ، فدعا سائر بطون قريش ، فعمم وخصص ، وذكرهم ووعظهم ، ولم يُبْقِ صلى الله عليه وسلم ، من مقدوره شيئا ، من نصحهم ، وهدايتهم ، إلا فعله ، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض .

[واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين] بلين جانبك ، ولطف خطابك لهم ، وتوددك ، وتحببك إليهم ، وحسن خلقك والإحسان التام بهم .

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ، ذلك كما قال تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » .

فهذه أخلاقه صلى الله عليه وسلم ، أكمل الأخلاق ، التى يحصل بها من المصالح العظيمة ، ودفع المضار ، ماهو مشاهد .

فهل يليق بمؤمن بالله روسوله ، ويدَّعِى اتباعه والاقتداء به ، أن يكون كَلاًّ على المسلمين ، شَرِسَ الأخلاق ، شديد الشكيمة ، غليظ القلب ، فَظَّ القول ، فظيعه ؟ .

. . . .

وإن رأى منهم معصية ، أو سوء أدب ، هجرهم ، ومقتهم ، وأبغضهم .

لا لين عنده ، ولا أدب لديه ، ولا توفيق .

قد حصل من هذه المعاملة ، من المفاسد ، وتعطيل ، المصالح ، ما حصل ،

ومع ذلك تجده محتقرا ، لمن انصف بصفات الرسول الكريم ، وقد رماه بالنفاق والمداهنة ، وذكر نفسه ورفعها ، وأُعْجِبَ بعمله .

فهل يُعَدُّ هذا ، إلا من جهله ، وتزيين الشيطان ، وخدعه له .

ولهذا قال الله لرسوله : [فإن عصوك] فى أمر من الأمور ، فلا تتبرأ منهم ، ولا تترك معاملتهم ، بخفض الجناح ، ولين الجانب .

بل تبرأ من عملهم ، فعظهم عليه ، وانصحهم ، وابذل قدرتك فى ردهم عنه ، وتوبتهم منه .

وهذا الدفع ، احتراز وهم من يتوهم ، أن قوله [واخفض جناحك] للمؤمنين ، يقتضى الرضاء بجميع ما يصدر منهم ، ما داموا مؤمنين ، فدفع هذا ، والله أعلم .

وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

---

* أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به ، **الاعتماد** على ربه ، والاستعانة بمولاه ، على توفيقه للقيام بالمأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه فقال:

[وتوكل على العزيز الرحيم] **والتوكل هو** : اعتماد القلب على الله تعالى ، فى جلب المنافع ، ودفع المضار ، مع ثقته به ، وحسن ظنه بحصول مطلوبه ، فإنه عزيز رحيم ، بعزته يقدر على إيصال الخير ، ودفع الشر عن عبده ، وبرحمته به ، يفعل ذلك .

ثم نبهه على الاستعانة ، باستحضار قرب الله ، والنزول فى منزل الإحسان فقال :

[الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين] أى : يراك فى هذه العبادة العظيمة ، التى هى الصلاة ، وقت قيامك ، وتقلبك راكعاً وساجداً .

خصها بالذكر ، لفضلها وشرفها ، ولأن من استحضر فيها قرب ربه ، خشع وذل ، وأكملها ، وبتكميلها ، يكمل سائر عمله ، ويستعين بها على جميع أموره .

[إنه هو السميع] لسائر الأصوات ، على اختلافها ، وتشتتها ، وتنوعها.

[العليم] الذى] أحاط بالظواهر والبواطن ، والغيب والشهادة .

فاستحضار العبد رؤية الله له فى جميع أحواله ، وسمعه لكل ما ينطق به ، وعلمه بما ينطوى عليه قلبه ، من الهم ، والعزم ، والنيات ، يعينه على منزلة الإحسان .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ

---

* هذا جواب لمن قال من مكذبى الرسول : إن محمدا ينزل عليه شيطان .

وقول من قال : إنه شاعر فقال : [هل أنبئكم] أى : أخبركم الخبر الحقيق ، الذى لا شك فيه ، ولا شبهة ، عن من تنزل الشياطين عليه ، أى: بصفة الأشخاص ، الذين تنزل عليهم الشياطين .

[تنزل على كل أفاك] أى : كذاب ، كثير القول للزور ، والإفك بالباطل .

[أثيم] فى فعله ، كثير المعاصى . هذا الذى تنزل عليه الشياطين ، وتناسب حاله حالهم .

[يلقون] عليه [السمع] الذى يسترقونه من السماء .

[وأكثرهم كاذبون] أى : أكثر ما يلقون إليه ، كذب ، فيصدق واحدة ، ويكذب معها مائة ، فيختلط الحق بالباطل ، ويضمحل الحق بسبب قلته ، وعدم علمه .

فهذه صفة الأشخاص . الذين تنزل عليهم الشياطين ، وهذه صفة وحيهم له .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فحاله مباينة لهذه الأحوال ، أعظم مباينة ، لأنه الصادق الأمين ، البار ، الراشد ، الذى جمع بين برِّ القلب ، وصدق اللهجة ، ونزاهة الأفعال ، من المحرم .

فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾

والوحى الذى ينزل عليه من عند الله ، ينزل محروسا محفوظا ، مشتملا على الصدق العظيم ، الذى لا شك فيه ولا ريب .

فهل يستوى — يا أهل العقول — هديه وإفكهم ؟ .

وهل يشتبهان ، إلا على مجنون ، لا يميز ، ولا يفرق بين الأشياء ؟ .

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه ، برّأه أيضاً من الشعر فقال :

[والشعراء] أى : هل أنبئكم أيضاً عن حالة الشعراء ، ووصفهم الثابت .

فإنهم [يتبعهم الغاوون] عن طريق الهدى ، المقبلون على طريق الغى والردى .

فهم فى أنفسهم غاوون ، وتجد أتباعهم كل غاو ، ضال فاسد .

[ألم تر] غوايتهم وشدة ضلالهم [أنهم فى كل واد] من أودية الشعر . [يهيمون] فتارة ، فى مدح ، وتارة ، فى قدح ، وتارة ، يتغزلون ، وأخرى يسخرون ، ومرة يمرحون ، وآونة يحزنون ، فلايستقر لهم قرار ، ولا يثبتون على حال من الأحوال .

[وأنهم يقولون مالا يفعلون] أى : هذا وصف الشعراء ، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم .

فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق ، قلت هذا أشد الناس غراما ، وقلبه فارغ من ذاك ، .

وإذا سمعته يمدح أو يذم ، قلت : هذا صدق ، وهو كذب .

. . . .

وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها ، وتروك لم يتركها ، وكرم لم يحم حول ساحته ، وشجاعة يعلو بها على الفرسان ، وتراه أَجْبَنَ من كل جبان . هذا وصفهم .

فانظر ، هل يطابق حالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، الراشد البار ، الذى يتبعه كل راشد ومهتد ، الذى قد استقام على الهدى ، وجانب الردى ، ولم تتناقض أفعاله ؟ .

فهو لا يأمر إلا بالخير ، ولا ينهى إلا عن الشر .

ولا أخبر بشيء إلا صدق ، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له ، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له .

فهل تناسب حاله ، حالة الشعراء ، ويقاربهم ؟ .

أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه ؟

فصلوات الله وسلامه ، على هذا الرسول الأكمل ، والهمام الأفضل ، أبد الأبدين ، ودهر الداهرين ، الذي ليس بشاعر ، ولا ساحر ، ولا مجنون ، لا يليق به إلا كمال .

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به ، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله ، وعمل صالحا ، وأكثر من ذكر الله ، وانتصر من أعدائه المشركين ، من بعد ما ظلموهم .

فصار شعرهم ، من أعمالهم الصالحة ، وآثار إيمانهم ، لاشتماله على مدح أهل الإيمان ، والانتصار من أهل الشرك والكفر ، والذَّبِّ عن دين الله ، وتبيين العلوم النافعة ، والحث على الأخلاق الفاضلة فقال .

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

[إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون] إلى موقف وحساب ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ، إلا أحصاها ، ولا حقا إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين .

تم تفسير سورة الشعراء

تفسـير

سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى

---

* ينبه تعالى عباده على عظمة القرآن ، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم فقال :

[تلك آيات القرآن وكتاب مبين] أى هى أعلى الآيات ، وأقوى البينات ، وأوضح الدلالات ، وأبينها على أجل المطالب ، وأفضل المقاصد ، وخير الأعمال ، وأزكى الأخلاق .

آيات تدل على الأخبار الصادقة ، والأوامر الحسنة ، والنهى عن كل عمل وخيم ، وخلق ذميم .

آيات بلغت فى وضوحها وبيانها للبصائر النيرة ، مبلغ الشمس للأبصار .

آيات دلت على الإيمان ، ودعت للوصول إلى الإيمان ، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، طِبْقَ ما كان ويكون .

وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم ، بأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، وأفعاله الكاملة .

آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا.

ولكن مع هذا لم ينتفع بها كثير من العالمين ، ولم يهتد بها جميع المعاندين ، صونا لها ، عن من لا خير فيه ولا صلاح ، ولا زكاء فى قلبه .

وإنما اهتدى بها ، من خصهم الله بالإيمان ، واستنارت بذلك قلوبهم ، وصفت سرائرهم .

فلهذا قال : [هدى وبشرى للمؤمنين] أى: تهديهم إلى سلوك الصراط المستقيم ، وتبين لهم ، ما ينبغى أن يسلكوه أو يتركوه .

وتبشرهم بثواب الله ، المرتب على الهداية لهذا الطريق .

ربما قيل : لعله يكثر مدعو الإيمان فهل يقبل من كل أحد ادّعى أنه مؤمن ذلك ؟ أم لابد لذلك من دليل ؟ وهو الحق ، فلذلك بيّن تعالى صفة المؤمنين فقال :

[الذين يقيمون الصلاة] فرضها ، ونفلها ، فيأتون بأفعالها الظاهرة ، من أركانها ، وشروطها ، وواجباتها ، ومستحباتها .

وأفعالها الباطنة ، وهو : الخشوع الذى روحها ولبها ، باستحضار قرب الله ، وتدبر ما يقوله المصلى ويفعله .

[ويؤتون الزكاة] المفروضة لمستحقيها .

وَهُم بِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

[وهم بالآخرة هم يوقنون] أى : قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة اليقين ، وهو : العلم التام ، والواصل إلى القلب ، الداعى إلى العمل .

ويقينهم بالآخرة ، يقتضى كمال سعيهم لها ، وحذرهم من أسباب العذاب وموجبات العقاب ، وهذا أصل كل خير .

[إن الذين لا يؤمنون بالآخرة] ويكذبون بها ، ويكذبون من جاء بإثباتها .

[زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون] حائرين مترددين ، مؤثرين سخط الله على رضاه .

قد انقلبت عليهم الحقائق ، فرأوا الباطل حقا ، والحق باطلا .

[أولئك الذين لهم سوء العذاب] أى : أشده ، وأسوأه ، وأعظمه .

[وهم فى الآخرة هم الأخسرون] حصر الخسار فيهم ، بكونهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وخسروا الإيمان الذى دعتهم إليه الرسل .

[وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم] أى : وإن هذا القرآن الذى ينزل عليك ،وتتلقفه ، ينزل من عند [حكيم] يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها .

۞ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَن بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ

[عليم] بأسرار الأحوال ، وبواطنها كظواهرها .

وإذا كان من عند [حكيم عليم] علم كله حكمة ومصالح للعباد ، من الذى هو أعلم بمصالحهم منهم ؟

* [إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا] إلى آخر قصته .

يعنى : اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن عمران ، وابتداء الوحى إليه واصطفاءه برسالته ، وتكليم الله إياه .

وذلك أنه لما مكث فى مدين عدة سنين ، وسار بأهله من مدين ، متوجها إلى مصر .

فلما كان فى أثناء الطريق ، ضل ، وكان فى ليلة مظلمة باردة ، فقال لهم :

[إنى آنست نارا] أى : أبصرت نارا من بعيد [سآتيكم منها بخبر] عن الطريق .

[أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون] أى : تستدفئون .

وهذا دليل على أنه تائه ، ومشتد برده ، هو وأهله .

[فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها] أى : ناداه الله تعالى وأخبره ، أن هذا محل مقدس مبارك .

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ

ومن بركته ، أن جعله الله موضعا لتكليم الله لموسى وإرساله .

[وسبحان الله رب العالمين] على أن يظن به نقص ، أو سوء ، بل هو الكامل ، فى وصفه ، وفعله .

[يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم] أى: أخبره الله أنه الله المستحق للعبادة ، وحده لا شريك له ، كما فى الآية الأخرى « إنى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » .

[العزيز] الذى قهر جميع الأشياء ، وأذعنت له كل المخلوقات .

[الحكيم] فى أمره وخلقه .

ومن حكمته ، أن أرسل عبده ، موسى بن عمران ، الذى علم الله منه ، أنه أهل لرسالته ووحيه وتكليمه

ومن عزته ، أن تعتمد عليه ، ولا تستوحش من انفرادك ، وكثرة أعدائك ، وجبروتهم .

فإن نواصيهم ، بيد الله ، وحركاتهم وسكونهم ، بتدبيره .

[وألق عصاك] فألقاها [فلما رآها تهتز كأنها جان] وهو ذكر الحيات ، سريع الحركة .

[ولى مدبرا ولم يعقب] ذعرا من الحية ، التى رأى على مقتضى الطبائع البشرية .

يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ

فقال الله له : [يا موسى لا تخف] وقال فى الآية الأخرى « أقبل ولا تخف إنك من الآمنين » .

[إنى لا يخاف لدى المرسلون] لأن جميع المخاوف مندرجة فى قضائه وقدره ، وتصريفه ، وأمره .

فالذين اختصهم الله برسالته ، واصطفاهم لوحيه ، لا ينبغى لهم أن يخافوا غير الله ، خصوصا عند زيادة القرب منه ، والحظوة بتكليمه .

[إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء] أى : فهذا الذى هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم ، وما تقدم له من الجرم .

وأما المرسلون ، فما لهم وللوحشة ، والخوف ؟

ومع هذا ، من ظلم نفسه بمعاصى الله ، وتاب وأناب ، فبدل سيئاته حسنات ، ومعاصيه طاعات ، فإن الله غفور رحيم .

فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته ، فإنه يغفر الذنوب جميعا ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

[وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء] لا برص ولا نقص ، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه .

[فى تسع آيات إلى فرعون وقومه] أى : هاتان الآيتان ، انقلاب

وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا

العصا حية تسعى ، وإخراج اليد من الجيب ، فتخرج بيضاء فى جملة تسع آيات ، تذهب بها ، وتدعو فرعون وقومه [إنهم كانوا قوما فاسقين] .

فسقوا بشركهم ، وعتوهم ، وعلوهم على عباد الله ، واستكبارهم فى الأرض ، بغير الحق .

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملأه ، ودعاهم إلى الله تعالى ، وأراهم الآيات .

[فلما جاءتهم آياتنا مبصرة] مضيئة ، تدل على الحق ، ويبصر بها كما تبصر الأبصار بالشمس .

[قالوا هذا سحر مبين] لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر ، بل قالوا : « مبين » ظاهر لكل أحد .

وهذا من أعجب العجائب ، الآيات المبصرات ، والأنوار الساطعات تجعل من بين الخزعبلات ، وأظهر السحر .

هل هذا ، إلا من أعظم المكابرة ، وأوقح السفسطة .

[وجحدوا بها] أى كفروا بآيات الله ، جاحدين لها .

[واستيقنتها أنفسهم] أى : ليس جحدهم ، مستندا إلى الشك والريب .

وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ

وإنما جحدهم مع علمهم وتيقنهم بصحتها [ظلما] منهم لحق ربهم ولأنفسهم .

[وعلوا] على الحق وعلى العباد ، وعلى الانقياد للرسل .

[فانظر كيف كان عاقبة المفسدين] أسوأ عاقبة ، دمرهم الله وأغرقهم فى البحر ، وأخزاهم ، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده .

* يذكر فى هذا القرآن،وينوه بمنته على داود وسليمان ابنه ، بالعلم الواسع الكثير ، بدليل التنكير ، كما قال تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما » الآية .

[وقالا] شاكرين لربهما منته ، الكبرى بتعليمهما : [الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين] .

فحمدا الله على جعلهما من المؤمنين ، أهل السعادة ، وأنهما كانا من خواصهم .

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات :

الصالحون ، ثم فوقهم : الشهداء ، ثم فوقهم : الصديقون ، ثم فوقهم : الأنبياء .

وداود وسليمان ، من خواص الرسل ، وإن كانا دون درجة أولى العزم الخمسة .

لكنهما من جملة الرسل الفضلاء الكرام ، الذين نوه الله بذكرهم ، ومدحهم فى كتابه ، مدحاً عظيما ، فحمدا الله على بلوغ هذه المنزلة .

وهذا عنوان سعادة العبد ، أن يكون شاكراً لله على نعمه ، الدينية والدنيوية ، وأن يرى جميع النعم من ربه .

فلا يفخر بها ولا يعجب بها ، بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا .

فلما مدحهما مشتركين ، خص سليمان ، بما خصه به ، لكون الله أعطاه ملكا عظيما ، وصار له من المجريات ، ما لم يكن لأبيه ، صلى الله عليهما وسلم ، فقال :

[وورث سليمان داود] أى : ورث علمه ونبوته ، فانضم علم أبيه إلى علمه ، فلعله تعلم من أبيه ما عنده ، من العلم ، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه ، كما تقدم من قوله ففهمناها سليمان .

وقال شكرا لله ، وتبجحا بإحسانه ، وتحدثا بنعمته :

[يا أيها الناس علمنا منطق الطير] .

فكان عليه الصلاة والسلام ، يفقه ما تقول ، وتتكلم به ، كما راجع الهدهد ، وراجعه ، وكما فهم قول النملة للنمل ، كما يأتى ، وهذا ، لم يكن لأحد غير سليمان عليه السلام .

[وأوتينا من كل شىء] أى : أعطانا الله من النعم ، ومن أسباب الملك ، ومن السلطنة والقهر ، ما لم يؤت أحداً من الآدميين .

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ

ولهذا دعا ربه فقال : [رب هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى] فسخر الله له الشياطين ، يعملون له كل ما شاء ، من الأعمال ، التى يعجز عنها غيرهم ، وسخر له الريح ، غدوها شهر ، ورواحها شهر .

[إن هذا] الذى أعطانا الله ، وفضلنا ، واختصنا به [لهو الفضل المبين] الواضح الجلى ، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى .

[وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون] أى : جمع له جنوده الكثيرة ، الهائلة ، المتنوعة ، من بنى آدم ، ومن الجن ، والشياطين ، ومن الطيور فهم يوزعون ، يدبرون ، ويرد أولهم على آخرهم ، وينظمون غاية التنظيم ، فى سيرهم ونزولهم ، وحلهم ، وترحالهم قد استعد لذلك ، وأعد له عدته .

وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره ، لا تقدر على عصيانه ، ولا تتمرد عليه ، كما قال تعالى :

« هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك » أى : أعط بغير حساب .

فسار بهذه الجنود الضخمة فى بعض أسفاره .

[حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة] منبهة لرفقتها، وبنى جنسها : [يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون] .

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا

فنصحت هذه النملة ، وأسمعت النمل ، إما بنفسها ، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة ، لأن التنبيه للنمل ، الذى قد ملأ الوادى بصوت نملة واحدة ، من أعجب العجائب .

وإما بأنها أخبرت مَنْ حولها من النمل ، ثم سري الخبر من بعضهن لبعض ، حتى بلغ الجميع ، وأمرتهن بالحذر ، والطريق فى ذلك ، وهو دخول مسا كنهن .

وعرفت حالة سليمان وجنوده ، وعظمة سلطانه،واعتذرت عنهم ، أنهم إن حطموكم ، فليس عن قصد منهم ، ولا شعور .

فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها ، وفهمه .

[فتبسم ضاحكا من قولها] إعجابا منه ، بنصح أمتها ، ونصحها ، وحسن تعبيرها .

وهذا حال الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، الأدب الكامل ، والتعجب فى موضعه ، وأن لا يبلغ بهم الضحك ، إلا إلى التبسم .

كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ، جُلُّ ضحكه ، التبسم .

فإن القهقهة ، تدل على خفة العقل ، وسوء الأدب .

وعدم التبسم والعجب ، مما يتعجب منه ، يدل على شراسة الخلق ، والجبروت .

والرسل منزهون عن ذلك .

وقال شاكراً لله ، الذى أوصله إلى هذه الحال : [رب أوزعنى]

وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ

أى : ألهمنى ووفقنى [أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدي] .

فإن النعمة على الوالدين ، نعمة على الولد .

فسأل ربه ، التوفيق للقيام بشكر نعمته ، الدينية ، والدنيوية ، عليه وعلى والديه .

[وأن أعمل صالحا ترضاه] أى : ووفقنى أن أعمل صالحا ترضاه ، لكونه موافقا لأمرك ، مخلصا فيه ، سالما من المفسدات والمنقصات .

[وأدخلنى برحمتك] التى منها الجنة [فى] جملة [عبادك الصالحين] .

فإن الرحمة مجعولة للصالحين ، على اختلاف درجاتهم ومنازلهم .

فهذا نموذج ، ذكره الله من حالة سليمان ، عند سماعه خطاب النملة ونداءها .

ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير فقال :

[وتفقد الطير] دل هذا ، على كمال عزمه وحزمه ، وحسن تنظيمه لجنوده ، وتدبيره بنفسه ، للأمور الصغار والكبار .

حتى إنه لم يهمل هذا الأمر ، وهو : تفقد الطيور ، والنظر ، هل هى موجودة كلها ، أم مفقود منها شيء ؟ وهذا هو المعنى للآية .

. . . .

ولم يصنع شيئاً من قال : إنه تفقد الطير ، لينظر أين الهدهد منه ، ليدله على بعد الماء وقربه

كما زعموا عن الهدهد ، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة .

فإن هذا القول ، لا يدل عليه دليل ، بل الدليل العقلى واللفظى ، دال على بطلانه .

أما العقلى ، فإنه قد عرف بالعادة ، والتجارب ، والمشاهدات ، أن هذه الحيوانات كلها ، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة ، وينظر الماء تحت الأرض الكثيفة .

ولو كان كذلك ، لذكره الله ، لأنه من أكبر الآيات .

وأما الدليل اللفظى ، فلو أريد هذا المعنى ، لقال « وطلب الهدهد لينظر له الماء ، فلما فقده قال ما قال » أو « فتش عن الهدهد ، أو بحث عنه » ونحو ذلك من العبارات .

وإنما تفقد الطير ، لينظر الحاضر منها والغائب ، ولزومها للمراكز والمواضع ، التى عينها لها .

وأيضاً فإن سليمان عليه السلام ، لا يحتاج ، ولا يضطر إلى الماء ، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد .

فإن عنده من الشياطين ، والعفاريت ، ما يحفرون له الماء ، ولو بلغ فى العمق ما بلغ .

وسخر الله له الريح ، غدوها شهر ، ورواحها شهر .

فكيف — مع ذلك — يحتاج إلى الهدهد ؟!! .

. . . .

وهذه التفاسير ، التى توجد ، وتشتهر بها أقوال ، لا يعرف غيرها ، تنقل هذه الأقوال عن بنى إسرائيل ، مجردة ، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعانى الصحيحة ، وتطبيقها على الأقوال .

ثم لا تزال تتناقل ، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم ، حتى يظن أنها الحق.

فيقع من الأقوال الردية فى التفاسير ، ما يقع .

واللبيب الفطن ، يعرف أن هذا القرآن الكريم ، العربى المبين ، الذى خاطب الله به الخلق كلهم ، عالمهم ، وجاهلهم ، وأمرهم بالتفكر فى معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعانى ، التي لا تجهلها العرب العرباء .

وإذا وجد أقوالا منقولة عن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ردها إلى هذا الأصل .

فإن وافقه ، قبلها ، لكون اللفظ دالا عليها .

وإن خالفته لفظاً ومعنى ، أو لفظاً أو معنى ، ردها ، وجزم ببطلانها ، لأن عنده أصلا معلوماً ، مناقضاً لها ، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته .

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير ، وفقده الهدهد ، يدل على كمال حزمه وتدبيره للملك بنفسه ، وكمال فطنته ، حتى تفقد هذا الطائر الصغير [فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين] أى : هل عدم رؤيتي إياه ، لقلة فطنتي به ، لكونه خفيا بين هذه الأمم الكثيرة ؟ .

أم على بابها ، بأن كان غائباً من غير إذنى ، ولا أمرى ؟ .

مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ

فحينئذ تغيظ عليه ، وتوعده فقال [لأعذبنه عذابا شديداً] دون القتل .

[أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين] أى : حجة واضحة على تخلفه .

وهذا من كمال ورعه وإنصافه ، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته ،بالعذاب أو القتل ، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب .

وغيبته ، قد تحتمل أنها لعذر واضح ، فلذلك استثناه ، لورعه وفطنته .

[فمكث غير بعيد] ثم جاء ، وهذا يدل على هيبة جنوده منه ، وشدة ائتمارهم لأمره .

حتى إن هذا الهدهد ، الذى خلفه العذر الواضح ، لم يقدر على التخلف زمنا كثيرا .

[فقال] لسليمان : [أحطت بما لم تحط به] عندى من العلم ، علم ما ما أحطت به ، على علمك الواسع ، وعلو درجتك فيه .

[وجئتك من سبأ] القبيلة ، المعروفة فى اليمن [بنبأ يقين] أى : خبر متيقن .

ثم فسر هذا النبأ فقال : [إنى وجدت امرأة تملكهم] أى : تملك قبيلة سبأ ، وهى امرأة [وأوتيت من كل شىء] يؤتاه الملوك ، من الأموال ، والسلاح ، والجنود ، والحصون ، والقلاع ونحو ذلك .

وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى

[ولها عرش عظيم] أى : كرسى ملكها ، الذى تجلس عليه ، عرش هائل .

وعظم العروش ، تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى .

[وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله] أى : هم مشركون يعبدون الشمس .

[وزين لهم الشيطان أعمالهم] فرأوا ما هم عليه هو الحق .

[فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون] لأن الذى يرى أن الذى عليه حق ، لا مطمع فى هدايته حتى تتغير عقيدته .

ثم قال : [ألا] أى هلا [يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض] أى : يعلم الخفى الخبيء ، فى أقطار السموات ، وأنحاء الأرض ، من صغار المخلوقات ، وبذور النباتات ، وخفايا الصدور .

ويخرج خبء الأرض والسماء ، بإنزال المطر ، وإنبات النباتات .

ويخرج خبء الأرض عند النفخ فى الصور وإخراج الأموات من الأرض ، ليجازيهم بأعمالهم [ويعلم ما تخفون وما تعلنون] .

يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب

[الله لا إله إلا هو] أى : لا تنبغى العبادة ، والإنابة ، والذل ، والحب ، إلا له ، لأنه المألوه ، لما له من الصفات الكاملة ، والنعم الموجبة لذلك .

[رب العرش العظيم] الذى هو سقف المخلوقات ووسع الأرض والسموات .

فهذا الملك ، عظيم السلطان ، كبير الشأن ، هو الذى يذل له ، ويخضع ، ويسجد له ، ويركع .

فسلم الهدهد ، حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم ، وتعجب سليمان كيف خفى عليه .

وقال مثبتا لكمال عقله ورزانته : [سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . إذهب بكتابى هذا] وسيأتى نصه [فألقه إليهم ثم تول عنهم] أى : استأخر غير بعيد [فانظر ماذا يرجعون] إليك ومايتراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها ، فقالت لقومها : [إنى ألقى إلى كتاب كريم] . أى : جليل المقدار ، من أكبر ملوك الأرض .

ثم بينت مضمونه فقالت : [إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين] أى : لا تكونوا فوقى ، بل اخضعوا تحت سلطانى ، وانقادوا لأوامرى ، وأقبلوا إلىّ مسلمين .

بِكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ

وهذا فى غاية الوجازة ، مع البيان التام ، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه ، والبقاء على حالهم ، التى هم عليها والانقياد لأمره ، والدخول تحت طاعته ، ومجيئهم إليه ، ودعوتهم إلى الإسلام .

وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة ، وتقديم الاسم فى أول عنوان الكتاب .

فمن حزمها وعقلها ، أن جمعت كبار دولتها ، ورجال مملكتها وقالت :

[يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى] أى : أخبرونى ، ماذا نجيبه به ؟ وهل ندخل تحت طاعته ، وننقاد ؟ أم ماذا نفعل ؟

[ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون] أى : ما كنت مستبدة بأمر ، دون رأيكم ومشورتكم .

[قالوا نحن أولوا قوة وأولو بأس شديد] أى : إن رددت عليه قوله ، ولم تدخلى فى طاعته ، فإنا أقوياء على القتال .

فكأنهم مالوا إلى هذا الرأى ، الذى لو تم ، لكان فيه دمارهم .

وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ

ولـكنهم أيضاً ، لم يستقروا عليه ،بل قالوا : [الأمر إليك] أى : الرأى ما رأيت ، لعلمهم بعقلها ، وحزمها ، ونصحها لهم [فانظرى] نظر فكر وتدبر [ماذا تأمرين] .

فقالت لهم — مقنعة لهم بالعدول عن رأيهم ، ومبينة سوء مغبة القتال — [إن الملوك إذا دخلو قرية أفسدوها] قتلا ، وأسراً ، ونهبا لأموالها ، وتخريباً لديارها .

[وجعلوا أعزة أهلها أذلة] أى : جعل الرؤساء السادة ، أشراف الناس من الأرذلين .

أى : فهذا رأى غير سديد .

وأيضا فلست بمطيعة له ، قبل الاحتيال ، وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها .

وحينئذ نـكون على بصيرة من أمرنا .

فقالت : [وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون] منه .

هل يستمر على رأيه وقوله ؟ أم تخدعه الهدية ،وتتبدل فـكرته، وكيف أحواله وجنوده ؟

فأرسلت إليه بهدية ، مع رسل من عقلاء قومها ، وذوى الرأى منهم .

بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ

[فلما جاء سليمان] أى : جاءه الرسل بالهدية [قال] منكراً عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم :

[أتمدونن بمال فما آتانىَ الله خير مما آتاكم] فليست تقع عندى موقعاً، ولا أفرح بها ، قد أغنانى الله عنها ، وأكثر علىَّ النعم .

[بل أنتم بهديتكم تفرحون] لحبكم للدنيا ، وقلة ما بأيديكم ، بالنسبة لما أعطانى الله .

ثم أوصى الرسول من غير كتاب ، لما رأى من عقله ، وأنه سينقل كلامه على وجهه فقال :

[ارجع اليهم] أى : بهديتك [فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم] .

أى : لاطاقة لهم [بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون] .

فرجع إليهم ، وأبلغهم ما قال سليمان ، وتجهزوا للمسير إلى سليمان .

وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه ، فقال لمن حضره من الجن والإنس :

[أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين] أى : لأجل أن نتصرف

فيه ، قبل أن يسلموا ، فتكون أموالهم محترمة [قال عفريت من الجن] والعفريت هو : القوى النشيط جدا :

[أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين] .

والظاهر أن سليمان إذ ذاك ، فى الشام ، فيكون بينه وبين سبأ ، نحو مسيرة أربعة أشهر ، شهران ذهابا ، وشهران إيابا .

ومع ذلك ، يقول هذا العفريت : أنا ألتزم بالمجىء به ، على كِبَرِه وثقله . وبُعْدِه ، قبل أن تقوم من مجلسك ، الذى أنت فيه .

والمعتاد من المجالس الطويلة ، أن تكون معظم الضحى ، نحو ثلث يوم ، هذا نهاية المعتاد .

وقد يكون دون ذلك ، أو أكثر

وهذا الملك العظيم ، الذى عند آحاد رعيته ، هذه القوة ، والقدرة ، وأبلغ من ذلك أن [قال الذى عنده علم من الكتاب] :

قال المفسرون : هو رجل عالم ، صالح ، عند سليمان يقال له « آصف بن برخيا » كان يعرف اسم الله الأعظم ، الذى إذا دعا الله به أجاب ، وإذا سأل به أعطى[1] .

---

(١) نقل الصاوى فى حاشيته على تفسير الجلالين بعد أن استعرض الأقوال فى الذى عنده علم من الكتاب ، أنه سليمان عليه السلام نفسه .

فتكون هذه الرواية هى الراجحة على غيرها ، وذلك ليبين سليمان للملأ أن معجزة الأنبياء فوق خوارق العادات التى تظهر على أيدى الرجال الصالحين ، فلذلك عول المحققون على هذه الرواية .

أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

[أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك] بأن يدعو الله بذلك الاسم ، فيحضر حالا ، وأنه دعا الله فحضر .

فالله أعلم ، هل هذا هو المراد ، أم أن عنده علما من الكتاب ، يقتدر به على جلب البعيد ، وتحصيل الشديد ؟ .

[فلما رآه مستقرا عنده] حمد الله تعالى على إقداره وملكه ، وتيسير الأمور له ، و[قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر] أى : ليختبرنى بذلك .

فلم يغتر عليه السلام ، بملكه ، وسلطانه ، وقدرته ، كما هو دأب الملوك الجاهلين .

بل علم أن ذلك اختبار من ربه ، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة .

ثم بيّن أن هذا الشكر ، لا ينتفع الله به ، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه ، فقال :

[ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم] غنى عن أعماله ، كريم ، كثير الخير ، يعم به الشاكر والكافر .

إلا أن شكر نعمه ، داع للمزيد منها ، وكفرها ، داع لزوالها .

ثم قال لمن عنده [نكروا لها عرشها] أى : غيروه بزيادة ونقص .

ونحن فى ذلك [ننظر] مختبرين لعقلها [أتهتدى] للصواب ، ويكون

لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ

عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها [أم تكون من الذين لا يهتدون].

[فلما جاءت] قادمة على سليمان ، عرض عليها عرشها ، وكان عهدها به ، قد خلفته فى بلدها .

و[قيل لها أهكذا عرشك] أى : أنه استقر عندنا ، أن لك عرشاً عظيما ، فهل هو كهذا العرش ، الذى أحضرناه لك ؟

[قالت كأنه هو] وهذا من ذكائها وفطنتها ، لم تقل « هو » لوجود التغيير فيه والتنكير ، ولم تنف أنه هو ، لأنها عرفته .

فأتت بلفظ محتمل للأمرين ، صادق على الحالين .

فقال سليمن متعجبا من هدايتها وعقلها ، وشاكراً لله ، أن أعطاه أعظم منها .

[وأوتينا العلم من قبلها] أى : الهداية ، والعقل ، والحزم ، من قبل هذه الملكة .

[وكنا مسلمين] وهى الهداية النافعة الأصلية .

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ « وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه ، فزيادة اقتداره ، من قبل هذه الحالة ، التى رأينا فيها قدرته ، على

إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِي ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن

إحضار العرش ، من المسافة البعيدة ، فأذعنا له ، وجئنا مسلمين له خاضعين لسلطانه » .

قال الله تعالى: [وصدها ما كانت تعبد من دون الله] أى عن الإسلام وإلا فلها من الذكاء والفطنة ، ما به تعرف الحق من الباطل ، ولكن العقائد الباطلة ، تذهب بصيرة القلب [إنها كانت من قوم كافرين] فاستمرت على دينهم .

وانفراد الواحد عن أهل الدين ، والعادة المستمرة بأمر ، يراه بعقله من ضلالهم وخطأهم ، من أندر ما يكون ، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر .

ثم إن سليمان أراد ، أن ترى من سلطانه ، ما يبهر العقول ، فأمرها أن تدخل الصرح ، وهو المجلس المرتفع المتسع ، وكان مجلساً من قوارير ، تجرى تحته الأنهار .

[قيل لها ادخلى الصرح ، فلما رأته حسبته لجة] ماء ، لأن القوارير شفافة ، يرى الماء الذى تحتها ، كأنه بذاته ، يجرى ، ليس دونه شيء .

[وكشفت عن ساقيها] لتخوضه ، وهذا أيضاً من عقلها ، وأدبها .

فإنها لم تمتنع من الدخول للمحل ، الذى أمرت بدخوله ، لعلمها أنها لم تستدع إلا للإكرام وأن ملك سليمان وتنظيمه ، قد بناه على الحكمة ، ولم يكن فى قلبها أدنى شك ، من حالة السوء بعد ما رأت ، ما رأت .

قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ

فلما استعدت للخوض قيل لها [إنه صرح ممرد] أى : مجلس [من قوارير] فلا حاجة منك لكشف الساقين .

فحينئذ لما وصلت إلى سليمان ، وشاهدت ما شاهدت ، وعلمت نبوته ورسالته ، ثابت ورجعت عن كفرها ، و [قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين] .

فهذا ما قصه الله علينا ، من قصة ملكة سبأ ، وما جرى لها مع سليمان .

وما عدا ذلك من الفروع المولدة ، والقصص الإسرائيلية ، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله ، وهو من الأمور ، التى يتوقف الجزم بها ، على الدليل المعلوم عن المعصوم .

والمنقولات فى هذا الباب كلها ، أو أكثرها ، ليس كذلك .

فالحزم كل الحزم ، الإعراض عنها ، وعدم إدخالها فى التفاسير . والله أعلم .

* يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود ، القبيلة المعروفة ، أخاهم فى النسب ، صالحا ، وأنه أمرهم ، أن يعبدوا الله وحده ، ويتركوا الأنداد والأوثان .

[فإذا هم فريقان ، يختصمون] منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، وهم معظمهم .

[قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة] أى : لم تبادرون فعل

قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

السيئات ، وتحرصون عليها ، قبل فعل الحسنات ، التى بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية ؟ والحال أنه لا موجب لكم ، إلى الذهاب لفعل السيئات ؟ .

[لولا تستغفرون الله] بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم ، وتدعوا أن يغفر لكم .

[لعلكم تُرْحمون] فإن رحمة الله قريب من المحسنين ، والتائب من الذنوب ، هو من المحسنين .

[قالوا] لنبيهم صالح ، مكذبين ومعارضين : [اطيرنا بك وبمن معك] .

زعموا — قبحهم الله — أنهم لم يروا على وجه صالح خيراً ، وأنه ، هو ومن معه ، من المؤمنين ، صاروا سببا لمنع مطالبهم الدنيوية .

فقال لهم صالح : [طائركم عندالله] أى : ما أصابكم الله ، بذنوبكم .

[بل أنتم قوم تفتنون] بالسراء والضراء ، والخير والشر ، لينظر هل تقلعون وتتوبون ، أم لا ؟

فهذا دأبهم فى تكذيب نبيهم ، وما قابلوه به .

[وكان فى المدينة] التى فيها صالح ، الجامعة لمعظم قومه [تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون] أى : وصفهم الإفساد فى الأرض ،

وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

ولا لهم قصد ، ولا فعل بالإصلاح ، قد استعدوا لمعاداة صالح ، والطعن فى دينه ، ودعوة قومهم إلى ذلك ، كما قال تعالى :

« فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » .

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة ، حتى إنهم من عداوتهم [تقاسموا] فيما بينهم ، كل واحد ، أقسم للآخر [لنبيتنه وأهله] أى : لنأتينهم ليلا ، هو وأهله ، فلنقتلنهم .

[ثم لنقولن لوليه] إذا قام علينا ، وادّعى علينا ، أنا قتلناهم ، ننكر ذلك ، وننفيه ونحلف .

[ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون] فتواطئوا على ذلك .

[ومكروا مكراً] دبروا أمرهم ، على قتل صالح وأهله ، على وجه الخفية ، حتى من قومهم ، خوفاً من أوليائه .

[ومكرنا مكرا] بنصر نبينا صالح ، عليه السلام ، وتيسير أمره ، وإهلاك قومه المكذبين [وهم لا يشعرون] .

[فانظر كيف كان عاقبة مكرهم] هل حصل مقصودهم ؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم ، أم انتقض عليهم الأمر .

مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

ولهذا قال : [أنا دمرناهم وقومهم أجمعين] أهلكناهم ، واستأصلنا شأفتهم .

فجاءتهم صيحة عذاب ، فأهلكوا عن آخرهم .

[فتلك بيوتهم خاوية] قد تهدمت جدرانها على سقوفها ، وأوحشت من ساكنيها ، وعطلت من نازليها .

[بما ظلموا] أى : هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله ، وبغيهم فى الأرض .

[إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون] الحقائق ، ويتدبرون وقائع الله ، فى أوليائه وأعدائه فيعتبرون بذلك ، ويعلمون أن عاقبة الظلم ، الدمار والهلاك ، وأن عاقبة الإيمان والعدل ، النجاة والفوز .

ولهذا قال : [وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون] أى : أنجينا المؤمنين بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره ، وشره ، وكانوا يتقون الشرك بالله ، والمعاصى ، ويعملون بطاعته ، وطاعة رسله .

۞ وَلُوطًا إِذ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟

---

* أى : واذكر عبدنا ، ورسولنا ، لوطا ، ونبأه الفاضل ، حين قال لقومه ـ داعيا إلى الله ، وناصحاً — :

[أتأتون الفاحشة] أى : الفعلة الشنعاء ، التى تستفحشها العقول والفطر ، وتستقبحها الشرائع [وأنتم تبصرون] ذلك ، وتعلمون قبحه ، فعاندتم ، وارتكبتم ذلك ، ظلماً منكم ، وجرأة على الله .

ثم فسر تلك الفاحشة فقال : [أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء] .

أى : كيف توصلتم إلى هذه الحال ، فصارت شهوتكم للرجال ، وأدبارهم ، محل الغائط والنَّجْو ، والخبث ، وتركتم ما خلق الله لكم ، من النساء ، من المحال الطيبة ، التى جبلت النفوس على الميل إليها .

وأنتم انقلب عليكم الأمر ، فاستحسنتم القبيح ، واستقبحتم الحسن .

[بل أنتم قوم تجهلون] متجاوزون لحدود الله ، متجرئون على محارمه .

[فما كان جواب قومه] قبول ولا انزجار ، ولا تذكر ، وادكار .

إنما كان جوابهم ، المعارضة ، والمناقضة ، والتوعد لنبيهم الناصح ، ورسولهم الأمين ، بالإجلاء عن وطنه ، والتشريد عن بلده .

أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا

فما كان جواب قومه [إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم] .

فكأنه قيل : مانقمتم منهم ، وما ذنبهم الذى أوجب لهم الإخراج .

فقالوا : [إنهم أناس يتطهرون] أى : يتنزهون عن اللواط ، وأدبار الذكور .

فقبحهم الله ، جعلوا أفضل الحسنات ، بمنزلة أقبح السيئات .

ولم يكتفوا بمعصيتهم نبيهم ، وفيما وعظهم به ، حتى وصلوا إلى إخراجه والبلاء موكل بالمنطق ، فهم قالوا : « أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » .

ومفهوم هذا الكلام « وأنتم متلوثون بالخبث والقذارة ، المقتضى لنزول العقوبة بقريتكم ، ونجاة من خرج منها » .

ولهذا قال تعالى : [فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين].

وذلك لما جاءته الملائكة فى صورة أضياف ، وسمع بهم قومه ، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر ، وأغلق الباب دونهم ، واشتد الأمر عليه .

ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال ، وأنهم جاءوا لاستنقاذه ، من بين أظهرهم ، وأنهم يريدون إهلاكهم ، وأن موعدهم الصبح .

وأمروه أن يسرى بأهله ليلا ، إلا امرأته ، فإنه سيصيبها ما أصابهم فخرج بأهله ليلا ، فنجوا ، وصبَّحهم العذاب .

عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

فقلب الله عليهم ديارهم ، وجعل أعلاها أسفلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك .

ولهذا قال هنا : [وأمطرنا عليهم مطرا فساد مطر المنذرين] .

أى : بئس المطر مطرهم ، وبئس العذاب عذابهم ، لأنهم أنذروا وخوفوا ، فلم ينزجروا ، ولم يرتدعوا ، فأحل الله بهم ، عقابه الشديد .

* أى : قل « الحمد لله الذى يستحق كمال الحمد ، والمدح والثناء ، لكمال أوصافه ، وجميل معروفه ، وهباته ، وعدله ، وحكمته فى عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين .

وسلمٌ أيضا على عباده ، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين ، من الأنبياء والمرسلين ، وصفوة الله رب العالمين .

وذلك لرفع ذكرهم ، وتنويها بقدرهم ، وسلامتهم من الشر والأدناس وسلامة ما قالوه فى ربهم ، من النقائص والعيوب .

[والله خير أ ما يشركون] وهذا استفهام قد تقرر وعرف .

أى : الله الرب العظيم ، كامل الأوصاف ، عظيم الألطاف ، خير أم الأصنام والأوثان ، التي عبدوها معه ، وهى ناقصة من وجه كل ، لاتنفع ولا تضر ، ولاتملك لأنفسها ، ولا لعابديها ، مثقال ذرة من الخير فالله خير مما يشركون .

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ، ويتبين أنه الإله المعبود ، وأن عبادته هى الحق ، وعبادة ما سواه ، هى الباطل فقال : [أم من خلق السموات] إلى [يعدلون] .

* أى : أمن خلق السموات ، وما فيها ، من الشمس والقمر ، والنجوم ، والملائكة ، والأرض ، وما فيها من جبال ، وبحار ، وأنهار ، وأشجار ، وغير ذلك .

[وأنزل لكم] أى : لأجلكم [من السماء ماء فأنبتنا به حدائق] أى : بساتين [ذات بهجة] أى : حسن منظر ، من كثرة أشجارها ، وتنوعها ، وحسن ثمارها .

[ما كان لكم أن تنبتوا شجرها] لولا مِنَّة الله عليكم ، بإنزال المطر .

[أإله مع الله] فعل هذا الأفعال ، حتى يعبد معه ويشرك به ؟ .

[بل هم قوم يعدلون] به غيره ، ويسوون به سواه ، مع علمهم أنه وحده ، خالق العالم العلوى والسفلى ، ومنزل الرزق .

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

---

* أى : هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه ، التى لا فعل منها ولا رزق ولا نفع ، خير ؟ أم الله الذى [جعل الأرض قرارا] يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى ، والحرث ، والبناء ، والذهاب ، والأياب .

[وجعل خلالها أنهارا] أى : جعل فى خلال الأرض ، أنهارا ينتفع بها العباد ، فى زروعهم وأشجارهم ، وشربهم ، وشرب مواشيهم .

[وجعل لها رواسى] أى : جبالا ترسيها وتثبتها ، لئلا تميد ، وتكون أوتادا لها ، لئلا تضطرب .

[وجعل بين البحرين] البحر المالح والبحر العذب [حاجزا] يمنع من اختلاطهما ، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما ، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض .

جعل مجرى الأنهار فى الأرض ، مبعدة عن البحار ، فتحصل منها مقاصدها ومصالحها .

[أإله مع الله] فعل ذلك ، حتى يعدل به الله [1] ويشرك به معه .

[بل أكثرهم لا يعلمون] فيشركون بالله ، تقليدا لرؤسائهم وإلا ، فلو علموا حق العلم ، لم يشركوا به شيئا .

---

(١) قوله « حتى يعدل به الله » يريد « حتى يسوى بالله غيره » أو « حتى يسوى الله بغيره » ولو قال : « حتى يعدل بالله غيره » لكان هو الصواب .

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

---

* أى : هل يجيب المضطرب ، الذى أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلوب ، واضطر للخلاص ، مما هو فيه ، إلا الله وحده ؟ .

ومن يكشف السوء ، أى : البلاء ، والشر ، والنقمة ، إلا الله وحده ؟ .

ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها ، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه ، وتكونون خلفاء من قبلكم كما أنه سيميتكم ، ويأتى بقوم بعدكم ، أإله مع الله ، يفعل هذه الأفعال ؟ .

لا أحد يفعل مع الله شيئا من ذلك ، حتى بإقراركم أيها المشركون . ولهذا كانوا إذا مسهم الضر ، دعوا الله مخلصين له الدين لعلمهم أنه وحده ، المقتدر على دفعه وإزالته .

[قليلا ما تذكرون] أى : قليل تذكركم وتدبركم للأمور ، التى إذا تذكرتموها ، ادكرتم ، ورجعتم إلى الهدى .

ولكن الغفلة والإعراض ، شامل لكم ، فلذلك ما أرعويتم ، ولا اهتديتم .

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾

---

* أى : من هو الذى يهديكم ، حين تكونون فى ظلمات البر والبحر ، حيث لا دليل ، ولا معلم يرى ، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم ، وتيسيره الطريق ، وجعل ما جعل لكم من الأسباب ، التى تهتدون بها .

[ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته] أى : بين يدى المطر .

فيرسلها ، فتثير السحاب ، ثم تؤلفه ، ثم تجمعه ، ثم تلقحه ، ثم تدره ، فيستبشر بذلك العباد ، قبل نزول المطر .

[أإله مع الله] فعل ذلك ؟ أم هو وحده ، الذى انفرد به ؟ فلم أشركتم معه غيره ، وعبدتم سواه ؟ .

[تعالى الله عما يشركون] تعاظم ، وتنزه وتقدس عن شركهم وتسويتهم به غيره .

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ

---

* أى : من هو الذى يبدأ الخلق ، وينشىء المخلوقات ، ويبتدى خلقها ، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ، بالمطر والنبات ؟ .

[أإله مع الله] يفعل ذلك ، ويقدر عليه ؟ .

[قل هاتوا برهانكم] أى : حجتكم ودليلكم على ما قلتم [إن كنتم صادقين] وإلا ، فبتقدير أنكم تقولون : إن الأصنام لها مشاركة له ، فى شىء من ذلك ، فذلك مجرد دعوى ، صدقتموها بلا برهان .

وإلا ، فاعرفوا أنكم مبطلون ، لا حجة لكم .

فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله ، هو المتفرد بجميع التصرفات وأنه المستحق أن يصرف له جميع أنواع العبادات .

* يخبر تعالى أنه المنفرد بعلم غيب السموات والأرض ، كقوله تعالى :

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » وكقوله « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام » إلى آخر السورة .

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا

فهذه الغيوب ونحوها ، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب ، ولا نبي مرسل .

وإذا كان هو المنفرد بعلم ذلك ، المحيط علمه بالسرائر ، والبواطن ، والخفايا ، فهو الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة ، منتقلا من شيء إلى ما هو أبلغ منه فقال :

[وما يشعرون] أى ومايدرون [أيان يبعثون] أى : متى البعث والنشور ، والقيام من القبور ، أى : فلذلك لم يستعدوا .

[بل ادّارك علمهم فى الآخرة] أى : بل ضعف ، ولم يكن يقينا ، ولاعلما واصلا إلى القلب ، وهذا أقل ، وأدنى درجة للعلم ، ضعفه ووهاؤه .

بل ليس عندهم علم قوى ، ولا ضعيف ، وإنما [هم فى شك منها] . أى : من الأخرة .

والشك زال به العلم ، لأن العلم بجميع مراتبه ، لا يجامع الشك .

[بل هم منها] أى من الآخرة [عمون] قد عميت عنها بصائرهم .

ولم يكن فى قلوبهم علم من وقوعها ، ولا احتمال ، بل أنكروها واستبعدوها .

ولهذا قال : [وقال الذين كفروا أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإننا لمخرجون]

نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٦٩﴾

أى : هذا بعيد ، غير ممكن ، قاسوا قدرة كامل القدرة ، بقدرهم الضعيفة .

[لقد وعدنا هذا] أى : البعث [نحن وآباؤنا من قبل] أى : فلم يجئنا ، ولا رأينا منه شيئا .

[إن هذا إلا أساطير الأولين] أى : قصصهم وأخبارهم ، التى تقطع بها الأوقات ، وليس لها أصل ، ولا صدق فيها .

فانتقل فى الإخبار عن أحوال المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة ، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها ، ثم الإخبار بأنه شك ، ثم الإخبار بأنهم عُمْىٌ ، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك ، واستبعادهم وقوعه .

أى : وبسبب هذه الأحوال ترحَّل خوف الآخرة من قلوبهم ، فأقدموا على معاصى الله ، وسهل عليهم تكذيب الحق ، والتصديق بالباطل ، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات ، فخسروا دنياهم وأخرهم .

نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل فقال : [قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين] فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه . إلا وعاقبته شرُّ عاقبة ، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ، ما يليق بحاله .

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾

---

* أى : لا تحزن يا محمد ، على هؤلاء المكذبين ، وعدم إيمانهم .

فإنك لو علمت ما فيهم من الشر ، وأنهم لا يصلحون للخير ، لم تأس ولم تحزن .

ولا يضق صدرك ، ولا تقلق نفسك بمكرهم ، فإن مكرهم ستعود عاقبته عليهم .

« ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ويقول المكذبون بالمعاد ، وبالحق الذى جاء به الرسول ، مستعجلين للعذاب :

[متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم ، فإن وقوعه ووقته ، قد أجله الله بأجله ، وقدره بقدره .

فلا يدل عدم استعجاله ، على بعض مطلوبهم .

ولكن — مع هذا — قال تعالى ، محذراً لهم وقوع ما يستعجلون : [قل عسى أن يكون ردف لكم] أى : قرب منكم ، وأوشك أن يقع بكم [بعض الذى تستعجلون] من العذاب .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾

---

* ينبه عباده ، على سعة جوده ، وكثرة أفضاله ، ويحثهم على شكرها .

ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر ، واشتغلوا بالنعم عن المنعم .

[وإن ربك ليعلم ما تكن] أى : تنطوى عليه [صدورهم وما يعلنون] .

فليحذروا من عالم السرائر والظواهر ، وليراقبوه .

[وما من غائبة فى السماء والأرض] أى : خفية ، وسر من أسرار العالم ، العلوى والسفلى .

[إلا فى كتاب مبين] قد أحاط ذلك الكتاب ، بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة .

فكل حادث جلىٍّ أو خفىٍّ إلا وهو مطابق ، لما كتب فى اللوح المحفوظ .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

---

* وهذا خبر عن هيمنة القرآن ، على الكتب السابقة ، وتفصيله ، وتوضيحه :

لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بنى إسرائيل ، قصّه هذا القرآن قصا ، زال به الإشكال واستبان به الصواب من المسائل المختلف فيها .

وإذا كان بهذه المثابة ، من الجلالة والوضوح ، وإزالة كل خلاف ، وفصل كل مشكل ، كان أعظم نعم الله على العباد ، ولكن ما كل أحد ، يقابل النعمة بالشكر .

ولهذا بيّن أن نفعه ، ونوره ، وهداه ، مختص بالمؤمنين فقال :

[وإنه لهدى] من الضلالة والغيّ والشُّبَه [ورحمة] تثلج له صدورهم ، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية [للمؤمنين] به المصدقين له ، المتلقين له بالقبول ، المقبلين على تدبره ، المتفكرين فى معانيه .

فهؤلاء ، تحصل لهم به ، الهداية إلى الصراط المستقيم ، والرحمة المتضمنة للسعادة ، والفوز والفلاح .

إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ

---

* أى إن الله تعالى سيفصل بين المختصمين ، وسيحكم بين المختلفين ، بحكمه العدل ، وقضائه القسط .

فالأمور وإن حصل فيها اشتباه فى الدنيا بين المختلفين ، لخفاء الدليل ، ولبعض المقاصد ، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع ، حين يحكم الله فيها .

[وهو العزيز] الذى قهر الخلائق ، فأذعنوا له .

[العليم] بجميع الأشياء [العليم] بأقوال المختلفين ، وعما ذا صدرت ، وعن غاياتها ومقاصدها ، وسيجازى كلاً بما علمه فيه .

* أى : اعتمد على ربك ، فى جلب المصالح ، ودفع المضار ، وفى تبليغ الرسالة ، وإقامة الدين ، وجهاد الأعداء .

[إنك على الحق المبين] الواضح ، والذى على الحق ، يدعو إليه ، ويقوم بنصرته ، أحق من غيره بالتوكل ، فإنه يسعى إلى أمر مجزوم به ، معلوم صدقه ، لا شك فيه ، ولا مرية .

وأيضاً ، فهو حق ، فى غاية البيان ، لا خفاء به ، ولا اشتباه .

وإذا قمت بما حملت ، وتوكلت على الله فى ذلك ، فلا يضرك ضلال من ضل ، وليس عليك هداهم ، فلهذا قال :

لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾
وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ
بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾
وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

[إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء] أى ، حين تدعوهم وتناديهم ، وخصوصا [إذا ولوا مدبرين] فإنه يكون أبلغ فى عدم إسماعهم .

[وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم] كما قال تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

[إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون] أى : هؤلاء الذين ينقادون لك ، هم الذين يؤمنون بآيات الله ، وينقادون لها بأعمالهم ، واستسلامهم كما قال تعالى : « إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » .

* أى : إذا وقع على الناس ، القول الذى حتّمه الله ، وفرض وقته .

[أخرجنا لهم دابة] خارجة [من الأرض] أو دابة من دواب الأرض ، ليست من السماء .

وهذه الدابة [تكلمهم] أى : تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون] أى : لأجل أن الناس ، ضعف علمهم ويقينهم بآيات الله .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ

فإظهار الله هذه الدابة ، من آيات الله العجيبة ، ليبين للناس ، ما كانوا فيه يمترون .

وهذه الدابة ، هى الدابة المشهورة ، التى تخرج فى آخر الزمان ، وتكون من أشراط الساعة ، كما تكاثرت بذلك الأحاديث ، لم يذكر الله ورسوله ، كيفية هذه الدابة.

وإنما ذكر أثرها والمقصود منها وأنها من آيات الله ، تكلم الناس كلاما خارقا للعادة ، حين يقع القول على الناس ، وحين يمترون بآيات الله .

فتكون حجة وبرهانا للمؤمنين ، وحجة على المعاندين .

* يخبر تعالى عن حالة المكذبين فى موقف القيامة ، وأن الله يجمعهم ، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجا وطائفة [ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون] .

يجمع أولهم على آخرهم ، وآخرهم على أولهم ، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم .

[حتى إذا جاءوا] وحضروا ، قال لهم ، موبخا ومقرعا :

أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها] العلم ، أى : الواجب عليكم التوقف ، حتى ينكشف لكم الحق ، وأن لا تتكلموا إلا بعلم .

فكيف كذبتم بأمر لم تحيطوا به علماً ؟[أم ماذا كنتم تعملون].

تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

أى : يسألهم عن علمهم ، وعن عملهم ، فيجد علمهم ، تكذيبا بالحق ، وعملهم لغير الله ، أو على غير سنة رسولهم .

[ووقع القول عليهم بما ظلموا] أى : حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم ، الذى استمروا عليه ، وتوجهت عليهم الحجة .

[فهم لا ينطقون] لأنه لا حجة لهم .

* أى : ألم يشاهدوا الآية العظيمة ، والنعمة الجسيمة ، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار .

هذا بظلمته ، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب ، ويستعدوا للعمل .

وهذا بضيائه ، لينتشروا فيه فى معاشهم وتصرفاتهم .

[إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون] بكمال وحدانية الله وسبوغ نعمته .

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ

---

* يخوف الله عباده ، ما أمامهم من يوم القيامة ، وما فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب ، فقال :

[ويوم ينفخ فى الصور ففزع] بسبب النفخ فيه [من فى السموات ومن فى الأرض] أى : انزعجوا وارتاعوا ، وماج بعضهم ببعض ، خوفا مما هو مقدمة له .

[إلا من شاء الله] ممن أكرمه الله ، وثبته ، وحفظه من الفزع .

[وكل] من الخلق عند النفخ فى الصور [أتوه داخرين] صاغرين ذليلين .

كما قال تعالى « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » .

فى ذلك اليوم ، يتساوى الرؤساء والمرءوسون ، فى الذل والخضوع ، لمالك الملك .

ومن هَوْلِه أنك [ترى الجبال تحسبها جامدة] لا تفقد شيئاً منها ، وتظنها باقية على الحال المعهودة ، وهى قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ ، وقد تفتتت ، ثم تضمحل ، وتكون هباء منبثاً . ولهذا قال :

[وهى تمر مر السحاب] من خفتها ، وشدة ذلك الخوف وذلك [صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون] فيجازيكم بأعمالكم .

أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ

ثم بين كيفية جزائه فقال : [من جاء بالحسنة] يعم جنس الحسنات ، قولية ، أو فعلية ، أو قلبية [فله خير منها] هذا أقل التفضيل .

[وهم من فزع يومئذ آمنون] أى : من الأمر الذى فزع الخلق لأجله آمنون ، وإن كانوا يفزعون معهم .

[ومن جاء بالسيئة] اسم جنس ، يشمل كل سيئة [فكبت وجوههم فى النار] أى : ألقوا فى النار على وجوههم ، ويقال لهم [هل تجزون إلا ما كنتم تعملون] .

* أى قل لهم يامحمد [إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة] أى : مكة المكرمة [التى حرمها] وأنعم على أهلها ، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول .

[وله كل شىء] من العلويات والسفليات ، أتى به ، لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده .

[وأمرت أن أكون من المسلمين] أى : أبادر إلى الإسلام .

أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

وقد فعل صلى الله عليه وسلم ، فإنه أول هذه الأمة إسلاما ، وأعظمها استسلاما .

[و] أمرت أيضاً [أن أتلو] عليكم [القرآن] لتهتدوا به ، وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه ، فهذا الذى علىَّ ، وقد أديته .

[فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه] نفعه يعود عليه ، وثمرته عائدة إليه

[ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين] وليس بيدى من الهداية شيء .

[وقل الحمد لله] الذى له الحمد فى الأولى والآخرة ، ومن جميع الخلق. خصوصا أهل الاختصاص والصفوة من عباده .

فإن الذى وقع ، والذى ينبغى ، أن يقع منهم ، من الحمد والثناء على ربهم ، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم ، وكمال قربهم منه ، وكثرة خيراته عليهم .

[سيريكم آياته فتعرفونها] معرفة ، تدلكم على الحق والباطل .

فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به فى الظلمات .

« ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىَّ عن بينة » .

[وما ربك بغافل عما تعملون] بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال

. . . .

والأحوال ، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال ، وسيحكم بينكم حكما ، تحمدونه عليه ، ولا يكون لكم حجه ، بوجه من الوجوه عليه .

* * *

تم تفسير سورة النحل بفضل الله وإعانته وتيسيره .

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته ، مستمرة علينا ، وواصلة منه إلينا .

فهو أكرم الأكرمين ، وخير الراحمين ، وموصل المنقطعين ، ومجيب السائلين .

ميسر الأمور العسيرة ، وفاتح أبواب بركاته ، والمجزل فى جميع الأوقات ، هباته .

ميسر القرآن للمتذكرين ، ومسهل طرقه وأبوابه ، للمقبلين ، ويمد مائدة خيراته ومبراته للمتفكرين ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

على يد جامعه وممليه ، عبد الرحمن بن ناصر ، بن عبد الله السعدى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . وذلك فى ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ .

وتم تحريره من خط مؤلفه ، فى ٢٩ ذى الحجة سنة ١٣٤٦ .

. . . .

تم الجزء الخامس من (تيسير الكريم الرحمن ، فى تفسير كلام المنان)

ويليه — إن شاء الله — الجزء السادس ، وأوله تفسير « سورة القصص » .

ويليه فى النشر عقب هذا ، أصول من أصول التفسير ، وتفسير ألفاظ عامة ، يكثر فى القرآن مرورها ، ويحتاج الناس إلى معرفتها .

—O—O—

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول وكليات

من أصول التفسير وكلياته - لا يستغنى عنها المفسر للقرآن

النكرة فى سياق النفى ، أو سياق النهى ، والاستفهام ، أو سياق الشرط ، تعم ، وكذلك المفرد المضاف ، يعم . وأمثلة ذلك كثيرة .

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات ، أو وجدت مفردة مضافة إلى معرفة ، فأثبت جميع ما دخل فى ذلك اللفظ ، ولا تعتبر سبب النزول وحده ، فإن « العبرة بعموم اللفظ ، لابخصوص السبب » .

وينبغى أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة ، والتى لاتزال تحدث ، على العمومات القرآنية ، فبذلك تعرف أن القرآن ، تبيان لكل شىء ، وأنه لايحدث حادث ، ولا يستجد أمر من الأمور ، إلا وفى القرآن بيانه وتوضيحه .

ومن أصوله أن الألف واللام ، الداخلة على الأوصاف[1] ، وعلى أسماء الأجناس ، تفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعانى .

---

(١) قوله « الأوصاف » المراد منها الأسماء المشتقة كاسم الفاعل واسم المفعول ، ونحوهما .

ومن كليات القرآن ، أن تدعو إلى توحيد الله ، ومعرفته ، بذكر أسماء الله ، وأوصافه ، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية ، وأوصاف الكمال ، وإلى أنه الحق ، وعبادته هى الحق ، وأن مايدعون من دونه ، هو الباطل . ويبين نقص كل ماعبد من دون الله من جميع الوجوه .

ويدعو إلى صحة ماجاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقه ، ببيان إحكامه ، وتمامه ، وصدق إخباراته كلها ، وحسن أحكامه .

ويبين ماكان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الكمال البشرى ، الذى لا يلحقه فيه أحد ، من الأولين والآخرين .

ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين .

ويقرر ذلك بشهادته تعالى ، بقوله ، وفعله ، وإقراره إياه ، وتصديقه له ، بالحجة والبرهان ، وبالنصر والظهور ، وبشهادة أهل العلم المنصفين .

ويقابل بين ما جاء به من الحق ، فى أخباره ، وأحكامه ، وبين ما كان عليه أعداؤه ، والمكذبون به . من الكذب فى أخبارهم ، والباطل فى أحكامهم ، كما يقرر ذلك ، بالمعجزات المتنوعة .

ويقرر الله المعاد ، بذكر كمال قدرته ، وخلقه للسموات والأرض ، اللتين هما أكبر من خلق الناس ، وبأن الذى بدأ الخلق ، قادر على إعادته ، من باب أولى ، وبأن الذى أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على إحياء الموتى .

ويذكر أيضاً أيامه فى الأمم ، ووقوع المثلات ، التى شاهدها الناس فى الدنيا ، وأنها نموذج من جزاء الآخرة .

ويدعو جميع المبطلين ، من الكفار ، والمشركين ، والملحدين ، بذكر

محاسن الدين ، وأنه يهدى للتى هى أقوم ، فى عقائده ، وأخلاقه ، وأعماله ، وبيان ما لله من العظمة والربوبية ، والنعم العظيمة .

وأن من تفرد بالكمال المطلق ، والنعم كلها ، هو الذى لا تصلح العبادة إلا له .

وأن ما عليه المبطلون ، إذا ميز وحقق ، وجد شراً وباطلا ، وعواقبه وخيمة .

ومن أصول التفسير ، إذا فهمت مادلت عليه الآيات الكريمة ، من المعانى ، مطابقة ، وتضمنا . فاعلم أن لوازم هذه المعانى ، وما لاتتم إلا به ، وشروطها وتوابعها ، تابعة لذلك المعنى .

فما لايتم الخبر إلا به ، فهو تابع للخبر ، وما لا يتم الحكم إلا به ، فهو تابع للحكم .

وأن الآيات التى يفهم منها التعارض والتناقض ، ليس فيها تناقض ولا تعارض .

بل يجب حمل كل منها ، على الحالة المناسبة اللائقة بها .

وأن حذف المتعلقات ؛ من مفعولات وغيرها ، يدل على تعميم المعنى ، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف ، وأنه لايجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظى ، والقرينة الحالية .

كما أن الأحكام المقيدة ، بشروط أو صفات ، تدل على أن تلك القيود لابد منها فى ثبوت الحكم .

إذا أمر الله بشىء ، كان ناهيا عن ضده ، وإذا نهى عن شىء ، كان آمرا بضده .

وإذا أثنى على نفسه ؛ بنفي شيء من النقائص ؛ كان إثباتا للكمال المنافى لذلك النقص .

وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ؛ ونزههم عن شيء من النقائص فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص .

ومثله ؛ نفي النقائص ؛ عن دار النعيم ؛ يدل على إثبات ضد ذلك .

ومن الكليات ؛ أنه إذا وضح الحق وظهر ظهورا جليا ؛ لم يبق للمجادلات العلمية ؛ والمعارضات العملية محل ؛ بل تبطل المعارضات ؛ وتضمحل المجادلات .

ما نفاه القرآن ؛ فإما أن يكون غير موجود ؛ أو أنه موجود ؛ ولكنه غير مفيد ولا نافع .

الموهوم ؛ لايدفع المعلوم ؛ والمجهول ؛ لا يعارض المحقق ؛ وما بعد الحق إلا الضلال .

ذكر الله فى القرآن ؛ الإيمان والعمل الصالح فى مواضع كثيرة ؛ ورتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل ، والآثار الحميدة ، شيئاً كثيرا .

فالإيمان هو : التصديق الجازم ، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به ، المتضمن لأعمال الجوارح .

والعمل الصالح هو : القيام بحقوق الله ، وحقوق عباده .

وكذلك أمر الله بالتقوى ، ومدح المتقين ، ورتب على التقوى حصول الخيرات ، وزوال المكروهات .

والتقوى الكاملة ، امتثال أمر الله ، وأمر رسوله ، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما .

وإذا جمّع الله بين التقوى والبر ونحوه؛ كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي ، والبر ، اسما لفعل الخيرات .

وإذا أفرد أحدهما ، دخل فيه الآخر .

وذكر الله الهدى المطلوب فى مواضع كثيرة ، وأثنى على المهتدى وأخبر أن الهدى بيده ، وأمرنا بطلبه منه ، وبالسعى فى كل سبب يحصل الهدى .

وذلك شامل لهداية العلم والعمل .

فالمهتدى ، من عرف الحق ، وعمل به ، وضده الغى والضلال .

فمن عرف الحق ولم يعمل به ، فهو الغاوى ، ومن جهل الحق ، فهو الضال .

أمر الله بالإحسان ، وأثنى على المحسنين ، وذكر ثوابهم المتنوع ، فى آيات كثيرة .

وحقيقة الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .

وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالى ، والبدنى ، والقولى ، إلى المخلوقين :

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو : أن تسعى فى إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم ، وجميع أحوالهم ، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح .

وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية ، والأمور الدنيوية ، وإصلاح الأفراد والجماعات . وضد هذا ، الفساد .

والإفساد ، قد نهى عنه ، وذم المفسدين ، وذكر عقوباتهم المتعددة ، وأخبر أنه لايصلح أعمالم الدينية والدنيوية .

أثني الله على اليقين ، وعلى الموقنين ، وأنهم ، هم المنتفعون بالآيات القرآنية ، والآيات الأفقية .

واليقين أخص من العلم ، فهو : العلم الراسخ ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمرالله بالصبر ، وأثنى على الصابرين ، وذكر جزاءهم العاجل والآجل فى عدة آيات ، نحو تسعين موضعاً ، وهو يشمل أنواعه الثلاثة ·

الصبر على طاعة الله ، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه .

والصبر على محارم الله حتى ينهى نفسه الأمارة بالسوء عنها .

والصبر على أقوال الله المؤلمة ، فيتلقاها بصبر وتسليم ، غير متسخط فى قلبه ، ولا بدنه ، ولا لسانه .

وكذلك أثنى الله على الشكر ، وذكر ثواب الشاكرين ،وأخبر أنهم أرفع الخلق فى الدنيا والآخرة .

وحقيقة الشكر هو : الاعتراف بجميع نعم الله ، والثناء على الله بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم .

وذكر الله الخوف والخشية ، فى مواضع كثيرة .

أمر به ، وأثنى على أهله ، وذكر ثوابهم ، وأنهم المنتفعون بالآيات ، التاركون للمحرمات .

وحقيقة الخوف والخشية ، أن يخاف العبد مقامه بين يدى الله ، ومقامه عليه .

فينهى نفسه بهذا الخوف ، عن كل ما حرم الله .

والرجاء : أن يرجو العبد رحمة الله العامة ، ورحمته الخاصة به .

فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات ، وغفران ما تاب منه من الزلات .

ويعلق رجاءه بربه ، فى كل حالة من أحواله .

وذكر الله الإنابة فى مواضع كثيرة ، وأثنى على المنيبين ، وأمر بالإنابة إليه .

وحقيقة الإنابة ، انجذاب القلب إلى الله ، فى كل حالة من أحواله .

ينيب إلى ربه ، عند النعماء بشكره ، وعند الضراء ، بالتضرع إليه ، وعند مطالب النفوس الكثيرة ، بكثرة دعائه فى جميع مهماته .

وينيب إلى ربه ، باللهج بذكره فى كل وقت .

والإنابة أيضاً : الرجوع إلى الله ، بالتوبة من جميع المعاصى ، والرجوع إليه فى جميع أعماله ، وأقواله ، فيعرضها على كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فتكون الأعمال والأقوال ، موزونة بميزان الشرع .

أمر تعالى بالإخلاص ، وأثنى على المخلصين ، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص .

وحقيقة الإخلاص : أن يقصد العامل بعمله ، وجه الله وحده وثوابه .

وضده ، الرياء ، والعمل للأغراض النفسية .

نهى الله عن التكبر ، وذم الكبر والمتكبرين ، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة .

والتكبر هو : رد الحق ، واحتقار الخلق .

وضد ذلك ، التواضع ، فقد أمر به ، وأثنى على أهله ، وذكر ثوابهم .

فهو قبول الحق ممن قاله ، وأن لا يحتقر الخلق ، بل يرى فضلهم ، ويحب لهم ما يحب لنفسه .

العدل ، هو : أداء حقوق الله ، وحقوق العباد .

والظلم : عكسه ، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصى ، والشرك ، وظلم العباد فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

الصدق ، وهو : استواء الظاهر والباطن فى الاستقامة على الصراط المستقيم ، والكذب بخلاف ذلك .

حدود الله ، هى محارمه ، وهى التى يقول فيها [تلك حدود الله فلا تقربوها] .

ويراد بها ما أباحه الله وحله ، وقدره ، وفرضه ، فيقول فيها [تلك حدود الله فلا تعتدوها] .

الأمانة هى : الأمور التى يؤتمن عليها العبد .

فيشمل ذلك ، أداء حقوق الله ، وخصوصا ، الخفية ، وحقوق خلقه كذلك .

العهود والعقود ، ويدخل فيها ، التى بينه وبين الله وهو : القيام بعبادة الله ، مخلصا له الدين ، والتى بينه وبين العباد ، من المعاملات ونحوها .

الحكمة والقوام ، فعل ما ينبغى على الوجه الذى ينبغى .

والإسراف والتبذير ، مجاوزة الحد فى الإنفاق .والتقتير والبخل عكسه، وهو : التقصير فى النفقات الواجبة .

و « المعروف » اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه ، شرعا ، وعقلا و « المنكر » عكسه .

الاستقامة : لزوم طاعة الله ، وطاعة رسوله على الدوام .

مرض القلب ، هو اعتلاله ، وهو نوعان : مرض شكوك فى الحق ، ومرض شهوة للأمور المحرمة .

النفاق : إظهار الخير ، وإبطان الشر ، فيدخل فيه ، النفاق الاعتقادى والنفاق العملى .

القرآن ، كله محكم ، وأحكمت آياته ، من جهة موافقتها للحكمة ، وأن أخباره على درجات الصدق ، وأحكامه في غاية الحسن .

وكله ، متشابه د من جهة اتفاقه فى البلاغة ، والحسن ، وتصديق بعضه لبعض وكمل اتفاقه .

ومنه محكم ومتشابه ، من جهة أن متشابهه : ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعانى .

ومحكمه ، واضح مبين صريح فى معناه ، إذا رد إليه المتشابه ، اتفق الجميع ، واستقامت معانيه .

معية الله التى ذكرها فى كتابه ، نوعان :

معية العلم والإحاطة ، وهى : المعية العامة ، فإنه مع عباده أينما كانوا .

ومعية خاصة ، وهى : معيته مع خواص خلقه ، بالنصرة ، واللطف ، والتأييد .

الدعاء والدعوة ، يشمل دعاء العبادة ، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله .

ودعاء المسألة ، وهو : سؤال الله جلب المنافع ، ودفع المضار .

الطيبات : اسم جامع لكل طيب نافع ، من العقائد ، والأخلاق ، والأعمال ، والمآكل ، والمشارب والمكاسب . والخبيث ضد ذلك .

وقد يراد بالخبيث : الردىء ، وبالطيب : الخيار كقوله تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما رزقناكم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض] .

النفقة ، تشمل النفقة الواجبة ، كالزكاة ، والكفارة ، ونفقة النفس ، والعائلة ، والمماليك ، والنفقة المستحبة ، كالنفقة فى جميع طرق الخير .

التوكل على الله ، والاستعانة به ، قد أمر الله بها ، وأثنى على المتوكلين فى آيات كثيرة .

وحقيقة ذلك ، قوة اعتماد القلب على الله ، فى جلب المصالح ، ودفع المضار ، الدينية ، والدنيوية ، مع الثقة به فى حصول ذلك .

العقل الذى مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المنتفعون بالآيات .

هو : الذى يفهم ، ويعقل الحقائق النافعة ، ويعمل بها ، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة ، ولذلك قيل له،حجر،ولب، ونُهى ، لأنه يحجر صاحبه، وينهاه عما يضره .

العلم ، هو معرفة الهدى بدليله ، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة ، ومعرفة أدلتها ، وطرقها ، التى تهدي إليها .

والعلم النافع ، هو : العلم بالحق والعمل به ، وضده الجهل .

لفظ « الأمة » فى القرآن على أربعة أوجه ، يراد به « الطائفة من الناس » وهو الغالب .

ويراد به « المدة » ، ويرادبه « الدين » و « الملة » ، ويرادبه«الإمام» فى الخير .

لفظ « استوى » فى القرآن على ثلاثة أوجه : إن عُدِّىَ بـ « على » كان معناه العلو والارتفاع كقوله تعالى [ثم استوى على العرش] .

وإن عدى بـ « إلى » فمعناه قصد كقوله [ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات] .

وإن لم يُعَدَّ بشيء ، فمعناه « كمل » كقوله تعالى [ولما بلغ أشده واستوى] .

« التوبة » ورد فى آيات كثيرة ، الأمر بها ، ومدح التائبين وثوابهم

وهى : الرجوع عما يكرهه الله ، ظاهراً ، وباطناً ، إلى ما يحبه الله ، ظاهراً وباطناً .

الصراط المستقيم ، الذى أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه هو : الطريق المعتدل ، الموصل إلى رضوان الله وثوابه ، وهو متابعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فى أقواله وأفعاله ، وكل أحواله

الذكر لله ، الذى أمر به ، وأثنى على الذاكرين ، وذكر جزاءهم العاجل والآجل .

هو : عند الإطلاق ، يشمل جميع مايقرب إلى الله ، من عقيدة ، أو فكر نافع ، أو خلق جميل ، أو عمل قلبى أو بدنى ، أو ثناء على الله ، أو تسبيح ، ونحوه ، أو تعلم أحكام الشرع ، الأصولية والفروعية ، أو مايعين على ذلك فكله داخل فى ذكر الله .

فصـــل

﴿ فى شرح أسماء الله الحسنى ﴾

قد تـكرر كثير من أسماء الله الحسنى فى القرآن بحسب المناسبات ، والحاجة داعـية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول :

قد تـكرر اسم [الرب] فى آيات كثيرة .

و « الرب » هو : المربى جميع عباده ، بالتدبير ، وأصناف النعم .

وأخص من هـذا ، تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم ، وأرواحهم ، وأخلاقهم .

ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل ، لأنهم يطلبون منه هـذه التربية الخاصة .

(الله) هو المألوه المعبود ، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين ، لما اتصف به من صفات الألوهية التى هى صفات الـكمال .

[الملك ، المالك ، الذى له الملك] فهو الموصوف ، بصفة الملك .

وهى صفات العظمة والـكبرياء ، والقهر والتدبير ، الذى له التصرف المطلق ، فى الخلق ، والأمر ، والجزاء .

وله جميع العالم ، العلوى والسفلى ، كلهم عبيد ومماليك ، ومضطرون إليـه .

[الواحد الأحد] ، وهو الذي توحد بجميع الـكمالات ، بحيث لا يشاركه فيها مشارك .

ويجب على العبيد توحيده ، عقدا ، وقولا ، وعملا ، بأن يعترفوا بكماله المطلق ، وتفرده بالوحدانية ، ويفردوه بأنواع العبادة .

(الصمد) وهو الذى تقصده الخلائق كلها ، فى جميع حاجاتها ، وأحوالها وضروراتها ، وأحوالها ، لما له من الكمال المطلق ، فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

(العليم الخبير) وهو الذى أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والإسرار والإعلان ، وبالواجبات ، والمستحيلات ، والممكنات ، وبالعالم العلوى ، والسفلى ، وبالماضى ، والحاضر ، والمستقبل ، فلا يخفى عليه شىء من الأشياء .

(الحكيم) وهو الذى له الحكمة العليا ، فى خلقه ، وأمره ، الذى أحسن كل شىء خلقه [ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون] .

فلا يخلق شيئا عبثاً ، ولا يشرع شيئا سدى ، الذى له الحكم فى الأولى والآخرة ، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك :

فيحكم بين عباده ، فى شرعه ، وفى قدره ، وجزائه .

والحكمة : وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيلها منازلها .

(الرحمن الرحيم والبر الكريم ، الجواد ، الرءوف ، الوهاب) .

هذه الأسماء ، تتقارب معانيها ، وتدل كلها على اتصاف الرب ، بالرحمة ، والبر ، والجود ، والكرم ، وعلى سعة رحمته ومواهبه ، التى عم بها جميع الوجود ، بحسب ما تقتضيه حكمته .

وخص للمؤمنين منها ، بالنصيب الأوفر ، والحظ الأكمل ، قال تعالى : [ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون] الآية .

والنعم والإحسان ، كله من آثار رحمته ، وجوده ، وكرمه .

وخيرات الدنيا والآخرة ، كلها من آثار رحمته .

(السميع) لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات .

(البصير) الذى يبصر كل شيء وإن دق وصغر ، فيبصر دبيب النملة السوداء ، فى الليلة الظلماء ، على الصخرة الصماء .

ويبصر ما تحت الأرضين السبع ، كما يبصر ما فوق السموات السبع .

وأيضا سميع بصير ، بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته ، والمعنى الأخير ، يرجع إلى الحكمة .

(الحميد) فى ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .

فله من الأسماء ، أحسنها ، ومن الصفات أكملها ، ومن الأفعال ، أتمها وأحسنها .

فإن أفعاله تعالى ، دائرة بين الفضل والعدل .

(المجيد الكبير العظيم الجليل) وهو الموصوف بصفات المجد ، والكبرياء ، والعظمة ، والجلال ، الذى هو أكبر من كل شيء ، وأعظم من كل شيء ، وأجل وأعلى .

وله التعظيم والإجلال ، فى قلوب أوليائه وأصفيائه .

قد ملئت قلوبهم من تعظيمه ، وإجلاله ، والخضوع له ، والتذلل لكبريائه .

(العفو الغفور الغفار) الذى لم يزل ، ولا يزال بالعفو معروفاً ، وبالغفران والصفح عن عباده ، موصوفاً .

كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته ، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه .

وقد وعد بالمغفرة والعفو ، لمن أتى بأسبابها ، قال تعالى :

[وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى] .

(التواب) الذى لم يزل يتوب على التائبين ، ويغفر ذنوب المنيبين .

فكل من تاب إلى الله توبة نصوحا ، تاب الله عليه .

فهو التائب على التائبين : أولا بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه .

وهو التائب عليهم بعد توبتهم ، قبولا لها ، وعفواً عن خطاياهم .

(القدوس ، السلام) أى : المعظم المنزه عن صفات النقص كلها ، وأن يماثله أحد من الخلق ، فهو المتنزه عن جميع العيوب ، والمتنزه عن أن يقاربه أو يماثله ، أحد فى شىء من الكمال [ليس كمثله شىء] [ولم يكن له كفواً أحد] [هل تعلم له سميا] [فلا تجعلوا لله أنداداً] .

فالقدوس كالسلام ، ينفيان كل نقص من جميع الوجوه ، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه ، لأن النقص إذا انتفى ، ثبت الكمال كله .

(العلى الأعلى) وهو الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه .

علو الذات ، وعلو القدر والصفات ، وعلو القهر .

فهو الذى على العرش استوى ، وعلى الملك احتوى .

وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف وإليه فيها المنتهى .

(العزيز) الذى له العزة كلها : عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع .

فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة ، وخضعت لعظمته .

(القوى المتين) هو فى معنى العزيز .

(الجبار) هو بمعنى العلى الأعلى ، وبمعنى القهار ، وبمعنى « الرءوف » الجابر للقلوب المنكسرة ، وللضعيف العاجز ، ولمن لاذ به ، ولجأ إليه .

(المتكبر) عن السوء ، والنقص والعيوب ، لعظمته وكبريائه .

(الخالق البارىء المصور) الذى خلق جميع الموجودات وبرأها ، وسواها بحكمته ، وصورها بحمده وحكمته ، وهو لم يزل ، ولا يزال على هذا الوصف العظيم .

(المؤمن) الذى أثنى على نفسه بصفات الكمال ، وبكمال الجلال والجمال.

الذى أرسل رسله ، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين .

وصدق رسله بكل آية وبرهان ، يدل على صدقهم وصحة ما جاءوا به .

(المهيمن) المطلع على خفايا الأمور ، وخبايا الصدور ، الذى أحاط بكل شىء علماً .

(القدير) كامل القدرة .

بقدرته أوجد الموجودات ، وبقدرته دبرها ، وبقدرته سواها وأحكمها.

وبقدرته ، يحيي ويميت ، ويبعث العباد للجزاء ، ويجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، الذى إذا أراد شيئاً قال له « كن فيكون » .

وبقدرته يقلب القلوب ، ويصرفها على ما يشاء ويريد .

(اللطيف) الذى أحاط علمه بالسرائر والخفايا ، وأدرك الخبايا والبواطن ، والأمور الدقيقة ، اللطيف بعباده المؤمنين ، الموصل إليهم مصالحهم ، بلطفه وإحسانه ، من طرق لا يشعرون بها ، فهو بمعنى « الخبير » وبمعنى « الرءوف » .

[الحسيب] هو العليم بعباده ، كافى المتوكلين ، المجازى لعباده بالخير والشر ، بحسب حكمته ، وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها .

[الرقيب] المطلع على ما أكنته الصدور ، القائم على كل نفس بما كسبت .

الذى حفظ المخلوقات وأجراها ، على أحسن نظام وأكمل تدبير .

[الحفيظ] الذى حفظ ما خلقه ، وأحاط علمه بما أوجده ، وحفظ أولياءه ، من وقوعهم فى الذنوب والهلكات .

ولطف بهم فى الحركات والسكنات ، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها .

[المحيط] بكل شىء علما ، وقدرة ، ورحمة ، وقهراً .

[القهار] لكل شىء ، الذى خضعت له المخلوقات ، وذلت لعزته وقوته ، وكمال اقتداره .

[المقيت] الذى أوصل إلى كل موجود ما به يقتات .

وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء ، بحكمته وحمده .

[الوكيل] المتولى لتدبير خلقه ، بعلمه ، وكمال قدرته ،وشمول حكمته .

الذى تولى أوليائه، فيسرهم لليسرى ، وجنبهم العسرى ، وكفاهم الأمور .

فمن اتخذه وكيلا كفاه [الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور] .

[ذو الجلال والإكرام] أى : ذو العظمة والكبرياء ، وذو الرحمة ، والجود ، والإحسان العام والخاص .

المكرم لأوليائه وأصفيائه ، الذى يجلونه ، ويعظمونه ، ويحبونه .

[الودود] الذى يحب أنبياءه ورسله ، وأتباعهم ، ويحبونه .

فهو أحب إليهم ، من كل شىء .

قد امتلأت قلوبهم من محبته ، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه ، وانجذبت أفئدتهم إليه ، وداً ، وإخلاصا ، وإنابة من جميع الوجوه .

[الفتاح] الذى يحكم بين عباده ، بأحكامه الشرعية ، وأحكامه القدرية ، وأحكام الجزاء .

الذى فتح بلطفه بصائر الصادقين .

وفتح قلوبهم لمعرفته ، ومحبته ، والإنابة إليه .

وفتح لعباده ، أبواب الرحمة ، والأرزاق المتنوعة .

وسبب لهم الأسباب ، التى ينالون بها خير الدنيا والآخرة [ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده] .

[الرزاق] لجميع عباده ، فما من دابة فى الأرض ، إلا على الله رزقها .

ورزقه لعباده نوعان :

رزق عام ، شمل البر والفاجر ، والأولين ، والآخرين ، وهو رزق الأبدان .

ورزق خاص وهو القلوب ، وتغذيتها بالعلم والإيمان .

والرزق الحلال الذى يعين على صلاح الدين ، وهذا خاص بالمؤمنين ، على مراتبهم منه ، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته .

[الحكم العدل] الذى يحكم بين عباده فى الدنيا والآخرة ، بعدله وقسطه .

فلا يظلم مثقال ذرة ، ولا يحمل أحدا وزر أحد ، ولا يجازى العبد بأكثر من ذنبه ، ويؤدى الحقوق إلى أهلها .

فلا يدع صاحب حق إلا وصل إليه حقه .

وهو العدل فى تدبيره وتقديره [إن ربى على صراط مستقيم] .

(جامع الناس) ليوم لاريب فيه ، وجامع أعمالهم وأرزاقهم ، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين ، بكمال قدرته ، وسعة علمه .

(الحى القيوم) كامل الحياة والقائم بنفسه .

القيوم لأهل السموات والأرض ، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم ، وجميع أحوالهم ف « الحيُّ » : الجامع لصفات الذات ، و « القيوم » الجامع لصفات الأفعال .

(النور) نور السموات والأرض .

الذى نَوَّر قلوب العارفين بمعرفته ، والإيمان به ، ونَوَّر أفئدتهم بهدايته .

وهو الذى أنار السموات والأرض ، بالأنوار التى وضعها .

وحجابه ، النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ، ما انتهى إليه بصره من خلقه .

(بديع السموات والأرض) أى : خالقهما ومبدعهما ، فى غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع ، والنظام العجيب المحكم .

(القابض ، الباسط) يقبض الأرزاق والأرواح ، ويبسط الأرزاق والقلوب ، وذلك تبع لحكمته ورحمته .

(المعطى ، المانع) لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع .

فجميع المصالح والمنافع ، منه تطلب ، وإليه يرغب فيها .

وهو الذى يعطيها لمن يشاء ، ويمنعها من يشاء ، بحكمته ورحمته .

(الشهيد) أى : المطلع على جميع الأشياء .

سمع جميع الأصوات ، خفيها وجليها .

وأبصر جميع الموجودات ، دقيقها وجليلها ، صغيرها وكبيرها .

وأحاط علمه بكل شىء ، الذى شهد لعباده ، وعلى عباده ، بما عملوه .

(المبدىء ، المعيد) قال تعالى [وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده] .

ابتدأ خلقهم ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، ثم يعيدهم ، ليجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجزى المسيئين بإساءتهم .

وكذلك ، هو الذى يبدأ إيجاد المخلوقات شيئا فشيئا ، ثم يعيدها كل وقت .

(الفعال لما يريد) وهذا من كمال قوته ، ونفوذ مشيئته وقدرته ، أن كل أمر يريده يفعله بلا ممانع ، ولا معارض .

وليس له ظهير ولا عوين ، على أىّ أمر يكون .

بل إذا أراد شيئا قال له « كن فيكون » .

ومع أنه الفعال لما يريد ، فإرادته ، تابعة لحكمته وحمده .

فهو موصوف بكمال القدرة ، ونفوذ المشيئة .

وموصوف بشمول الحكمة ، لكل ما فعله ويفعله .

(الغنى ، المغنى) فهو الغنى بذاته ، الذى له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، والاعتبارات لكماله ، وكمال صفاته .

فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه ، ولا يمكن أن يكون إلا غنيا .

لأن غناه ، من لوازم ذاته .

كما لا يكون إلا خالقا ، قادرا ، رازقا ، محسنا ، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه .

فهو الغنى ، الذى بيده خزائن السموات والأرض ، وخزائن الدنيا والآخرة .

المغنى جميع خلقه ، غنى عاما ، والمغنى لخواص خلقه ، بما أفاض على قلوبهم ، من المعارف الربانية ، والحقائق الإيمانية .

(الحليم) الذى يَدِرُّ على خلقه،النعم الظاهرة والباطنة ، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم ، فيحلم عن مقابلة العاصين بعصيانهم .

ويستعتبهم كى يتوبوا ، ويمهلهم كى ينيبوا .

(الشاكر ، الشكور) الذى يشكر القليل من العمل ، ويغفر الكثير من الزلل .

ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب .

ويشكر الشاكرين ، ويذكر من ذكره .

ومن تقرب إليه بشىء من الأعمال الصالحة ، تقرب الله منه أكثر .

(القريب ، المجيب) أى : هو تعالى ، القريب من كل أحد . وقربه تعالى نوعان :

قرب عام من كل أحد ، بعلمه ، وخبرته ، ومراقبته ، ومشاهدته ، وإحاطته .

وقرب خاص ، من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه .

وهو قرب لا تدرك له حقيقة ، وإنما تعلم آثاره ، من لطفه بعبده ، وعنايته ، به ، وتوفيقه وتسديده .

ومن آثاره ، الإجابة للداعين ، والإنابة للعابدين .

فهو المجيب إجابة عامة ، للداعين ، مهما كانوا ، وأين كانوا ، وعلى أىِّ حال كانوا كما وعدهم بهذا ، الوعد المطلق .

وهو المجيب إجابة خاصة ، للمستجيبين له ، المنقادين لشرعه .

وهو المجيب أيضا ، للمضطرين ، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين ، وقوى تعلقهم به ، طمعا ، ورجاء ، وخوفا .

(الكافى) عباده جميع ما يحتاجون ، ويضطرون إليه .

الكافى كفاية خاصة ، من آمن به ، وتوكل عليه ، واستمد منه حوائج دينه ودنياه .

(الأول والآخر والظاهر والباطن) .

قد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم ، تفسيرا جامعا ، واضحا فقال يخاطب ربه .

« أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء » .

(الواسع) الصفات ، والنعوت ، ومتعلقاتها ، بحيث لا يُحْصِى أحد ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه .

واسع العظمة ، والسلطان ، والملك ، واسع الفضل ، والإحسان . عظيم الجود والكرم .

[الهادى ، الرشيد] أى : الذى يهدى ويرشد عباده إلى جميع المنافع ، وإلى دفع المضار ، ويعلمهم مالا يعلمون ، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمم التقوى ، ويجعل قلوبهم منيبة إليه ، منقادة لأمره .

وللرشيد معنى ، بمعنى الحكيم ، فهو : الرشيد فى أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ، ورشد وحكمة ، ومخلوقاته مشتملة على الرشد .

(الحق) فى ذاته وصفاته .

فهو واجب الوجود ، كامل الصفات والنعوت ، وجوده ، من لوازم ذاته .

ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به .

فهو الذى لم يزل ، ولا يزال ، بالجلال ، والجمال ، والكمال ، موصوفا .

ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفا .

فقوله ، حق ، وفعله ، حق ، ولقاؤه ، ورسله ، حق ، وكتبه ، حق ، ودينه ، هو الحق ، وعبادته وحده لاشريك له ، هى الحق ، وكل شىء ينسب إليه ، فهو حق .

ذلك بأن الله ، هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

[وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر] .

« فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ » [قل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا] .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله وسلم على محمد ، وعلى آله ، وأصحابه ، ومن تبعهم ، إلى يوم الدين .

قال ذلك ، وكتبه ، العبد الفقير إلى ربه « عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدى » .

غفر الله له ، ولوالديه ، ومشايخه ، وأحبابه ، وجميع المسلمين . آمين .

فهرس

الجزء الخامس

صفحة